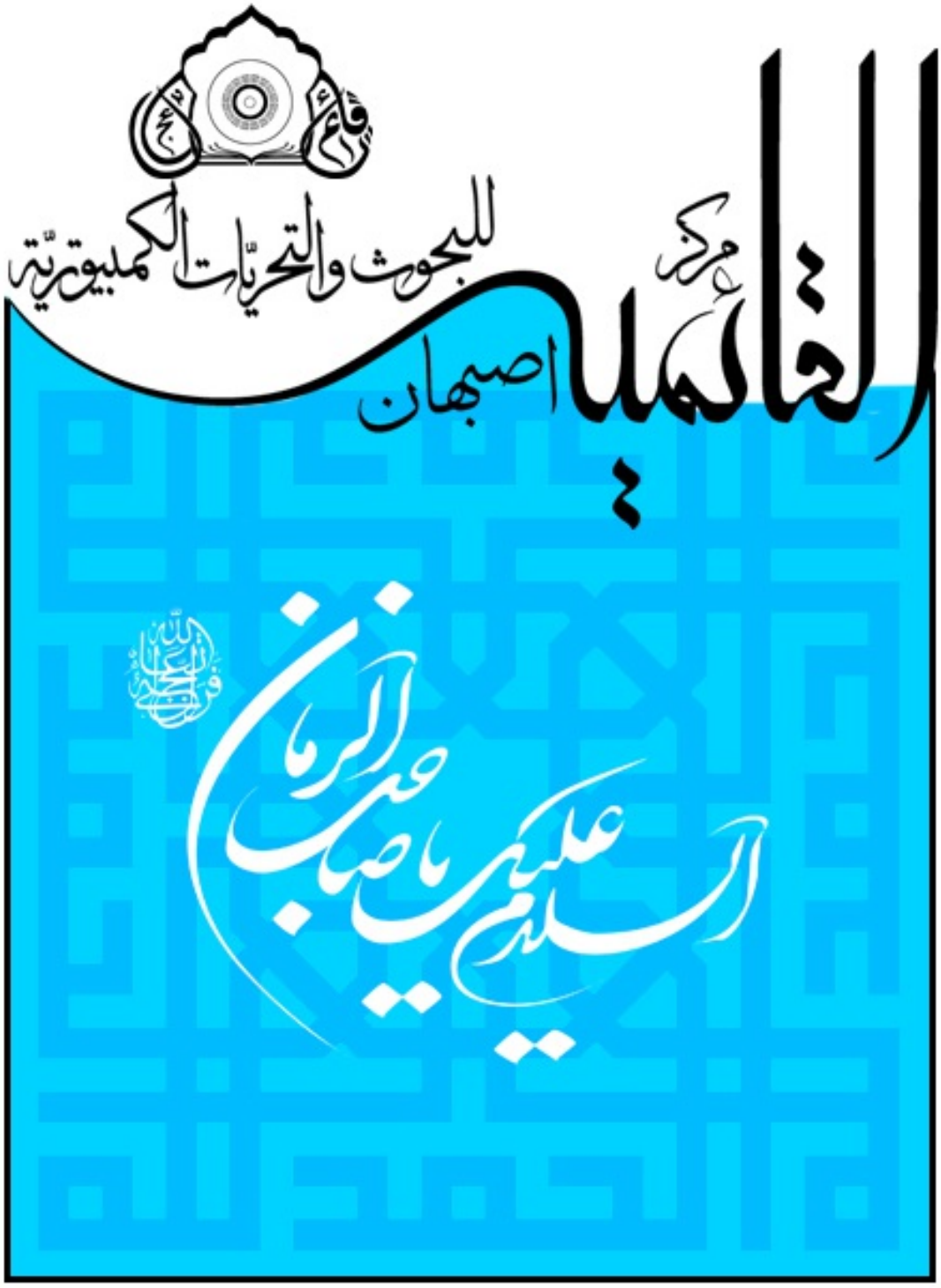

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

خطط الشام

تأليف

محمد كرد علي

٥

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

خطط الشام

كاتب:

محمد كرد على

نشرت فى الطباعة:

مكتبه النورى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
خطط الشام المجلد ۵ ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
التاریخ المدنی ----- ۱۳
[الجیش] ----- ۱۳
جیوش الأشوریین و الفراعنة و العبرانیین: ----- ۱۳
جیش الیونان و الرومان: ----- ۱۴
الجیش العربی مع الرومی: ----- ۱۵
بعض قوانین الجیش العربی: ----- ۱۵
تعبیة الجیش العربی: ----- ۱۷
شدة الأمویین و مثال من أوامرهم: ----- ۱۸
أدوات التدمیر و السلاح و المواصلات: ----- ۲۱
الجیش علی عهد ملوک الطوائف: ----- ۲۲
الجیوش الصلیبیة و التتریة: ----- ۲۳
الجیوش فی القرون الوسطی و جمعیات الفتوة: ----- ۲۴
الجیوش العثمانیة: ----- ۲۵
الجیوش الحدیثة: ----- ۲۷
الاسطول ----- ۲۹
[بحریة الفینیقیین و العبرانیین و الفراعنة:] ----- ۲۹
بحریة الرومان و الیونان: ----- ۲۹
العرب و البحار: ----- ۳۰
أول خلیفة غزا فی البحر الشامی و البحریة الأمویة: ----- ۳۱
وصف أسطول شامی: ----- ۳۲

سواحل الشام و نفقات الأسطول و المناور و الرباطات و الفداء: ۳۳
الأساطيل فی القرون الوسطی: ۳۴
قصورنا فی البر و البحر: ۳۶
الجبایة و الخراج ۳۷
جبایات القدماء: ۳۷
الجبایة فی الإسلام: ۳۷
ضروب الجبایة: ۳۸
أول ما فرض من الجبایة: ۳۹
عهد الأمويين: ۴۰
عهد العباسيين و مساحة الشام: ۴۲
تحری العدل فی الدولتين النوریة و الصلاحية: ۴۵
الضرائب زمن الأتراک و الشراکسة: ۴۶
[غنی الشام و المکوس] ۴۷
تفنن الشراکسة فی اقتضاء الأموال: ۴۹
الأموال أوائل العهد العثمانی: ۴۹
الخراج و العثمانيين: ۵۰
تفنن الجزار فی أخذ المال و طريقة العثمانيين: ۵۱
الجبایة علی عهد المصريين و المقابلة بين طريقتهم و طريقة العثمانيين: ۵۲
رأی إنکليزی فی إعنات البلاد بالضرائب: ۵۲
رأی مدحت باشا فی مظالمهم: ۵۳
الاشتطاط فی الأعشار و القسط فی الجبایة: ۵۳
خراج الأرض و العقارات : ۵۴
رسم المواشی: ۵۵
الأعشار: ۵۵

رسوم الجمرک: ۵۶
الجمارک الشامیة و وجوه نفقاتها و توزیعها: ۵۷
ضریبة التمتع: ۵۷
الضریبة النسبیة: ۵۸
الضریبة المقطوعة: ۵۸
الضریبة المتحولة: ۵۹
الرأی فی الجبایة و النفقات: ۵۹
الاوقاف ۵۹
منشأ الوقف: ۵۹
تعریف الأوقاف و طرقها: ۶۰
أول أوقاف الشام و سوء استعمالها: ۶۰
شرط الواقف و خراب أوقاف الشام: ۶۱
التفنن فی الأحباس و التلاعب بالموقوف: ۶۲
أوقاف نور الدین و صلاح الدین و من تقدمهما و خلفهما: ۶۴
تکاثر الأوقاف و مضار الجمود: ۶۵
تأثیر الوقف فی العمران: ۶۶
الأوقاف عند قدماء العثمانیین: ۶۶
الوقف من مال غیر محلل: ۶۷
مضار الأوقاف: ۶۷
منافع الأوقاف: ۶۸
تقسیم الأوقاف و إصلاحها : ۶۸
ضروب الحیل و انتهاک حرمة الأوقاف: ۷۰
مصائب الأوقاف: ۷۱
أوقاف الذریة: ۷۲

الأوقاف فی العهد العثمانی الأخیر: ۷۳
الأوقاف بعد العهد الترکی: ۷۵
وسائل إصلاح الأوقاف: ۷۵
الحسبة و البلدیات ۷۸
العرب دعاة مدنیة: ۷۸
تعریف الحسبة: ۷۸
الحسبة تجمع الشرطة و الصحة و البلدیة و عملها: ۷۹
الحسبة قانون مدنی: ۷۹
عمل المحتسب یحسب البلد: ۸۰
ثلاثة آراء فی الحسبة: ۸۱
الحاجة و الحسبة أمس و الیوم: ۸۲
تأسیس البلدیات : ۸۲
النظام الجدید: ۸۴
تأثیر البلدیات فی العمران: ۸۵
رأی فی إصلاح البلدة: ۸۶
الترع و المرافیء و الطرق ۸۷
ترعة السویس: ۸۷
الترعة العظیمة عن طریق فلسطین: ۹۱
الترعة بین البحر المتوسط و الخلیج الفارسی: ۹۱
مرفأ غزة: ۹۲
مرفأ یافا: ۹۲
مرفأ حیفا: ۹۳
مرفأ عکا: ۹۴
مرفأ صور: ۹۴

مرفأ صیدا: ۹۴
مرفأ بیروت: ۹۵
فرضتا جونیة و جبیل: ۹۶
مرفأ طرابلس: ۹۷
مرفأ اللاذقیة: ۹۷
مرفأ الإسکندرونة: ۹۷
الخطوط الحدیدیة: ۹۸
خط بیروت- دمشق: ۹۹
خط بیروت- المعاملتین: ۱۰۱
خط دمشق- حوران: ۱۰۱
خط دمشق- حلب: ۱۰۱
خط حمص- طرابلس: ۱۰۳
طریق الحج و إنشاء الخط الحجازی: ۱۰۳
إنشاء الخط الحجازی: ۱۰۴
الخط الحجازی فی عهد العثمانیین و بعدهم: ۱۱۰
تقسیم الخط الحدیدی الحجازی: ۱۱۰
الخط الحجازی فی شرقی الأردن و الحکومة الهاشمیة: ۱۱۱
الخط الحجازی فی المؤتمرات: ۱۱۱
نفقات الخط الحجازی و إصلاحه: ۱۱۲
الخطوط الفلسطینیة خط یافا- القدس: ۱۱۳
خط حیفا- دمشق: ۱۱۳
الخطوط العسکریة الفلسطینیة: ۱۱۴
خط بغداد: ۱۱۶
الخطوط الحدیدیة بین الشام و مصر: ۱۱۹

الکهرباء و خطوط الترام فی دمشق: ۱۱۹
تراموای حلب الکهربائی: ۱۲۲
خط الترام فی طرابلس: ۱۲۳
الطرق العامة فی الشام: ۱۲۳
طرق الشام: ۱۲۴
الطرق العامة: ۱۲۵
وصف الطرق: ۱۲۶
السیارات: ۱۳۰
البرق و البرید و الهاتف ۱۳۰
منشأ البرق «التلغراف»: ۱۳۰
الآلات و الأدوات و المخابرة: ۱۳۱
إحداث الهاتف: ۱۳۱
منشأ البرید: ۱۳۲
مراکز البرید و البرق فی الشام: ۱۳۲
المصانع و القصور ۱۳۳
تقاسیم المصانع و عظمتها: ۱۳۳
مصانع الأمم القدیمة: ۱۳۴
هندسة الفینیقیین و آثارهم: ۱۳۴
عادیات الرومان: ۱۳۵
عادیات البتراء و جرش و عمان: ۱۳۶
وصف المحدثین خرائب جرش: ۱۳۷
عادیات تدمر: ۱۳۹
وصف عادیات تدمر : ۱۳۹
عادیات بعلبک امس و الیوم ۱۴۱

أنطاكية و حمص و أفامية و البارة و دمشق: ۱۴۳
حوران و لبنان و غيرهما: ۱۴۴
الهندسة الشامية و الكنائس و الهياكل: ۱۴۵
آثار العرب قبل الإسلام: ۱۴۵
قصور العرب فی الإسلام: ۱۴۶
عناية الأمويين و تفننهم: ۱۴۷
الجامع الأموی و المسجد الأقصی: ۱۴۸
تاريخ الحرم القدسی: ۱۴۹
المسجد الأقصی اليوم: ۱۵۰
صفة المسجد الأقصی: ۱۵۱
وصف المقدسی للمسجد الأقصی فی القرن الرابع: ۱۵۲
أصل الجامع الأموی: ۱۵۳
قصور الأمويين و مصايفهم و مشاتيهم: ۱۵۶
عمل العباسيين: ۱۵۸
آثار عربية محلية ميناء عكا: ۱۵۹
القصر الأبلق: ۱۶۰
المعاهد الدينية و المدنية فی العهدين النوری و الصلاحی: ۱۶۰
عمران دمشق فی القرون الوسطی: ۱۶۱
دور الخاصة: ۱۶۱
تجديد المدن الصغيرة: ۱۶۲
القلاع و الحصون و قلعة حلب و دمشق: ۱۶۳
مثال التخريب فی الحصون و البيع: ۱۶۴
قلاع الصليبيين و كنائسهم: ۱۶۵
هندسة البيوت و بيوت دمشق و حلب: ۱۶۶

نماذج من آثار الشراكسة و العثمانيين: ----- ۱۶۷
هندسة الجسور: ----- ۱۶۷
القاعات و القصور المعتبرة: ----- ۱۶۸
قصور القرن الثانى عشر و الثالث عشر: ----- ۱۶۹
أسباب الخراب و العلة فى قلة قصور الأفراد: ----- ۱۷۱
الاحتفاظ بالعاديات و المصانع: ----- ۱۷۲
فهرست الجزء الخامس من خطط الشام ----- ۱۷۲
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۱۷۸

خطط الشام المجلد ۵

اشارة

نام کتاب: خطط الشام

نویسنده: کرد علی، محمد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۷۲ ه. ق

موضوع: جغرافیای شهرها

زبان: عربی

تعداد جلد: ۶

ناشر: مکتبه النوری

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۳ ه. ق

نوبت چاپ: سوم

khtt alsham

تألیف: محمد سردعلی تاریخ النشر: ۰۱/۰۱/۲۰۱۲ الناشر: مؤسسة النوری للطباعة والنشر والتوزیع

النوع: ورقی غلاف فنی، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۶۳۴ صفحة الطبعة: ۳ مجلدات: ۲

مدة التأمین: یتوفر عادة فی غضون أسبوعین

اللغة: عربی

التاریخ المدنی

[الجیش]

جیوش الأشوریین و الفراعنة و العبرانیین:

لم تغلب القبائل الأولی التی کانت تسکن الشام علی أمرها، إلا یوم جاءها من أشور جیش منظم فی الجملة أغار علیها و استصفی أرضها، و إذا عرفنا أن الأشوریین عرفوا بسفک الدماء، و أنهم طالما أسروا شعوبا برمتها، و أنهم یعتقدون فی ملوکهم الخلافة عن اللّه فی الأرض کما کان الروس و العثمانیون یقولون بذلک إلی عهد قریب- ندرک مبلغهم من الطاعة، و أن الأرواح کانت نهب صاحب الشأن، ینهبها کما یشاء، و یصرفها فی السبیل التی یراها. و الدولة التی تستطیع أن تأسر أمة بأسرها، تجیش جیشا یستمیت فی قیام أمرها، و یطیع قواده طاعة عمیاء.

کان الأشوریون أو الکلدان یغزون فی فصل الربیع من کل عام، و سلاحهم الرمح و السیف، و الترس، و الدرع، و القوس و النشاب، و لهم من أدوات النقل المرکبات و العربات، و اخترعوا آلات لافتتاح المدن و القلاع.

یقسمون جیوشهم ثلاث فرق، فرقة المشاة و هم القواسة، و فرقة الفرسان و هم الرماحة، و فرقة راکبی العربات الحربیة و هم حاملو السیوف و الأتراس.

و کانت الأوامر تصدر إلی القواد من الملک مباشرة، و تبلغ إلی من یلزم علی نظام غریب، و لم یؤثر أن غلب الجیش الأشوری فی

وقعة واحدة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۴

و من هذا الجيش ذاقت الشام أيام استيلاء الأشوريين عليها القهر و الذل.

و كان الفراعنة الذين امتد سلطانهم على بعض أرجاء القطر زمنا يجنّدون أحيانا من الشاميين، و لكننا لا نعرف كيف كانوا يجندون، و قد ظهرت نماذج من أنظمتهم الحربية عرفناها بما حفظ من آثارهم فى المتحف المصرى.

و كانوا إلى العز أيام تماسك جيوشهم، و إلى الذل إذا ضعف نظامهم فى جنديتهم، مثل أيام ملوك الرعاة المعروفين بالهيكسوس و هم العرب أو العمالقة.

و اشتهر العبرانيون أولا أنهم أمة حربية، و كان لكل سبط من أسباطهم حامية أو جيش صغير يدفع به عدوه، و قد لا يكون من الأسباط الأخرى.

و لذلك كان بأسهم بينهم على الأغلب، فكان العبرانى أسدا على نفسه و على أبناء جنسه، و نعامة يوم يوافيه الغريب، يؤثر أن يرأم للذلة، على أن يرخص روحه فى الذود عن حماه. و كان بقاء الشعب الإسرائيلى فى التيه على عهد موسى الكليم سنين طويلة من الحكم التى قصد بها انقراض شيوخهم المستضعفين، و تربية الشبان على الأخلاق الحربية، فتجدد شباب هذه الأمة بهذه الرحلة الطويلة. و لما جاءت جيوش بخت نصر الفارسى و أدريانوس الرومانى إلى فلسطين أذاقت أبناء إسرائيل الويلات و لم يغن عنهم ما جيّشوه من الجيوش، و لا ما كتّبوه من كتائب.

جيش اليونان و الرومان:

كانت جيوش الأمم القديمة كما هو الحال عند بعض الأمم الحديثة و لا سيما المستعمرة أخلاطا من الشعوب و أجيالا من الناس. و الأمة التى يكون جيشها من عنصر واحد أو سواده الأعظم منه تكتب لها الغلبة على الأكثر، و يكون نظامها أتم و تحمّسها فى النيل من العدو أكثر، و ما نظنّ أن الجيش الذى جاء به الإسكندر المقدونى إلى هذه الديار و هو لا يتجاوز الثلاثين ألف راجل و أربعة آلاف و خمسمائة فارس، إلا مؤلفا من عنصر واحد، و هو الجيش الذى غلب الفرس على كثرة جيوشهم و قضى على دولتهم و سلطانهم و فتح الشرق القريب و الأوسط.

خطط الشام، ج۵، ص: ۵

و كان جيش الإسكندر أحسن جيش عهد فى اليونان، و يتألف الجحفل اليونانى من ۱۶ ألفا من الرجال مصفوفين ألوفا ألوفا ستة عشر صفا يحمل كل واحد منها رمحا طوله ستة أمتار، و كان المقدونيون لا يسيرون فى ساحة الوغى إلى جهة العدو، بل يقفون و لا حراك بهم، و يضربون عدوهم برماحهم من كل جانب، فيرفع جنود المؤخرة رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الأولى، بحيث كان الجيش يشبه حيوانا عظيما قد انتصب و عليه الحديد، و العدو يداهمه فيتحطم، و الجيش مؤلف على الأغلب من خيار فتيان الأشراف.

و اشتهرت الجيوش الرومانية بشدّتها و حسن نظامها، و ما نظن رومية إلا أنها كانت تجند من أبناء هذه الديار كثيرا، لأن الشام أنبغت عدة رجال غدوا أباطرة و قوادا فى رومية، فيستحيل ألّا يشترك أبناؤها فى جنديتها، و ألّا تكون منهم الكتائب المنظمة و المتطوّعة أو المستأجرة على شروط معينة، خصوصا و الشام كانت ولاية رومانية. و كان يقضى على كل من يدخل الجيش الرومانى أن يكون وطنيا رومانيا و أن يكون له مورد ثروة ليجهز نفسه بالسلاح و يأكل و يلبس، و يعفى الفقراء من هذه الخدمة.

و كان من له حق التجند تبعا لقائده من سن السابعة عشرة إلى السادسة و الأربعين، و كان كل فرد فى رومية كما كان فى المدن الرومانية وطنيا و جنديا معا، و متى احتاجت الدولة إلى الجند يصدر القنصل أمره إلى جميع الوطنيين فيأتون و يحلفون يمين الإخلاص و الطاعة للقائد، و يتعاهدون أن يقاتلوا دون أعلامهم، و يحق للقائد أن يقتل جنديّه أو يبقى عليه، فلا يستطيع جندى أن يفر

من الزحف أو يتزحزح عن محله إلا بأمر قائده، و سلاحهم الرماح و السيوف و يستعملون الدروع و الخوذ و الأتراس و يمرنون أبدا جنودهم فى إنشاء الطرق و الجسور و المجارى، إذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه أو متاريس يقيمونها.

الجيش العربى مع الرومى:

فتح الجيش الرومانى أعظم مملكة فى العصور السالفة، أيام كانت قوته

خطط الشام، ج۵، ص: ۶

تامة، و رابطته متينة، و قيادته موحدة، فلما ضعفت مميزاته، انحلت المملكة و انقسمت إلى مملكتين: مملكة الروم الشرقية و عاصمتها القسطنطينية، و مملكة الروم الغربية و عاصمتها رومية. و كان نصيب هذا القطر أن يقع فى حصة المملكة الشرقية فى القسمة. و هذه المملكة هى التى حاربتها جيوش العرب لما جاءت لفتح الشام.

و كان الجيش الرومى الذى قاتل العرب على اليرموك و فى دمشق و فحل و أجنادين و قيسارية و بيسان و قنسرين و إيلياء مؤلفا من الروم و من العرب المتنصرة و من الأرمن، و جمهرته الروم، و إذ كان جيشا مرتجلا لم يدرب زمنا و كان جيش العرب روحا واحدا، كتبت له الغلبة على قلته و كثرة عدد أعدائه و عددهم، فنال الجيش العربى من الروم، و إن كانوا لأول أمرهم مشهورين بالطاعة لسادتهم، و لما جاءتهم العرب كان أمرهم قد انحلّ، و ميزاتهم قد ضعفت، بل أصبح جيشهم مثال الجيوش المتفسخة، و وقعتهم على الواقوصة فى اليرموك مع العرب من أدهش أمارات الضعف و الغفلة.

كان الجيش العربى مشهورا بنظامه و طاعته لقواده، و مهارة هؤلاء و حنكتهم، و كانت للعرب عناية خاصة بالاحتفاظ بخطوط رجعتهم، و لكن أية رجعة لجيش منه من جاء من مكان قصى يبلغ طوله ألفى كيلومتر، و منه من أقل و منه من أكثر، و إذا فرضنا أن مدينة الرسول كانت أس الحركات الحربية، و أن العرب كانوا قد فتحوا الحجاز كله يوم جاءوا لفتح الشام، فجعلوا معسكرهم فى أقصى حدودها الشمالية، فخط الرجعة على كل حال لا يقل عن بضع مئات من الكيلومترات، يمر فى سباسب و بواد لا ماء فى أكثرها و لا كلأ، و كيف كان يتأتى الظفر لو لم يكن قلب كل جندى حصنا قائما بالإيمان، معمورا بالطاعة للسلطان؟

كان الجيش الذى فتح الشام مخفا مقلا من كل شىء، مقلا من الزاد، مقلا من السلاح، مقلا من الظهر، و الخيول قليلة فيه و الإبل أكثر، و الإبل تصبر على العطش أياما، أما الجند العربى فكان يصبر على الجوع و العطش معا. قال جويدى: تعلمت العرب صناعة الحرب من الفرس و الروم و كان ذلك سببا لدخول ألفاظ رومية و فارسية كثيرة فى لغتهم.

خطط الشام، ج۵، ص: ۷

و لما فتحت الشام قسمت خمسة أجناد أى خمسة فيالق بحسب مصطلح هذه الأيام. فسمّيت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيها، و كان الجنود أولا من عرب الجزيرة ثم دخل فيهم من دان بالإسلام من جميع الشعوب المغلوبة، و كان اليمانيون أكثرية الجيش الشامى، و عليهم جلّ اعتماد رأس بنى أمية فى الشام. ذكروا أن سفيان بن عوف كان اتخذ من كل جند من أجناد الشام رجالا أهل فروسية و نجدة و عفاف و سياسة و حروب و كانوا عدة له قد عرفهم و عرفوا به.

بعض قوانين الجيش العربى:

و من الجيش ما كان تحت الطلب فى كل ساعة، و منه ما يجند أى يجمع فى أيام قلائل حين الحاجة، و الأعطيات للجنود دارة فى كل شهر، و لهم معظم المغانم فى الحروب، يتقاسمونها مع قوادهم بحسب بلائهم و رتبهم و درجاتهم، و للجند مصطلحات معلومة و لهم أمراء و قواد، يعرّفون عليهم العرفاء و ينقّبون عليهم النقباء، لتعرف من عرفائهم و نقبائهم أحوالهم كما قال الماوردى، و لكل طائفة شعار يتداعون به ليصيروا متميزين و بالاجتماع متظافرين، و للأمير «أن يتصفح الجيش (أى يستعرضه و يفتشه) و من فيه ليخرج من

کان فیه تخذیل للمجاهدین و إرجاف للمسلمین أو عین لهم للمشرکین. و إن احتاج أمیر المؤمنین إلی جند و کتب إلی من ولاه ناحیة من بلاده بإشخاصهم إلیه أو إلی أی ناحیة من النواحی أو إلی عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شیء من سلطانه أن ینفذ أمره و لا یخالفه و لا یقصر فی شیء کتب به إلیه».

و أوجبوا علی أمیر الجیش فی سیاسته عشرة أشیاء: أحدها حراستهم من غرة یظفر بها العدو منهم، و ذلک بأن یتتبع المکامن و یحوّط سوادهم بحرس یأمنون به علی نفوسهم و رجالهم، لیسکنوا فی وقت الدّعة و یأمنوا ما وراءهم فی وقت المحاربة. و الثانی أن یتخیّر لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، و ذلک أن یکون أوطأ الأرض مکانا، و أکثرها مرعی و ماء، و أحرسها أکنافا و أطرافا لیکون أعون لهم علی المنازلة، و أقوی لهم علی

خطط الشام، ج۵، ص: ۸

المرابطة. و الثالث إعداد ما یحتاج الجیش إلیه من زاد و علوفة، تفرق علیهم فی وقت الحاجة حتی تسکن نفوسهم إلی مادة یستغنون عن طلبها لیکونوا علی الحرب أوفر، و علی منازلة العدو أقدر. و الرابع أن یعرف أخبار عدوه حتی یقف علیها و یتصفح أحوالها حتی یخبرها فیسلم من مکره، و یلتمس الغرة فی الهجوم علیه. و الخامس ترتیب الجیش فی مصاف الحرب و التعویل فی کل جهة علی من یراه کفؤا لها. و یتفقد الصفوف من الخلل فیها، و یراعی کل جهة یمیل العدو إلیها بمدد یکون عونا لها. و السادس أن یقوّی نفوسهم بما یشعرهم من الظفر، و یخیل لهم من أسباب النصر، لیقل العدو فی أعینهم فیکون علیه أجرأ و بالجرأة یتسهّل الظفر. و السابع أن یعد أهل الصبر و البلاء منهم بثواب اللّه لو کانوا من أهل الآخرة، و بالجزاء و النفل من الغنیمة إن کانوا من أهل الدنیا. و الثامن أن یشاور ذوی الرأی فیما أعضل، و یرجع إلی أهل الحزم فیما أشکل، لیأمن الخطأ و یسلم من الزلل.

و التاسع أن یأخذ جیشه بما أوجبه اللّه تعالی من حقوقه، و أمر به من حدوده، حتی لا یکون بینهم تجوز فی دین، و لا تحیف فی حق.

و العاشر أن لا یمکن أحدا من جیشه أن یتشاغل بتجارة أو زراعة، لصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو و صدق الجهاد.

و لهم فی هذا الباب قوانین مهمة لا تقل فی حفظ رابطة الجیش عن کثیر من قوانین الجندیة فی الحرب و السلم فی هذا العهد الحدیث، منها أنه لا یجوز إذا نقض العدو عهدا أن یقتل ما فی أیدی المسلمین من رهائنهم. فقد نقض الروم عهدهم زمن معاویة و فی یده رهائن فامتنع المسلمون جمیعا من قتلهم و خلوا سبیلهم، و قالوا: وفاء بغدر، خیر من غدر بغدر. و منها أنه یجوز لأمیر الجیش فی حصار العدو أن ینصب علیهم العرادات و المنجنیقات و أن یهدم علیهم منازلهم، و أن یضع علیهم البیات و التحریق. و إذا رأی فی قطع نخلهم و شجرهم صلاحا یستضعفهم به لیظفر بهم عنوة أو یدخلوا فی السلم صلحا فعل، و لا یفعل إن لم یر فیه صلاحا.

و ذکر ابن خلدون أن الحرب أول الإسلام کانت زحفا کلها، و الزحف أن تمشی الفئتان المتقاتلتان کل فئة مشیا رویدا إلی الفئة الأخری

خطط الشام، ج۵، ص: ۹

قبل التدانی للضراب، و هی مزاحف أهل الحرب، و ربما استجنت الرجالة بجثثها، و تزاحفت من قعود، إلی أن یعرض لها الضراب أو الطعان. و کان العرب إنما یعرفون الکرّ و الفر حملهم علی إبداله أمران أول الإسلام، أحدهما أن أعداءهم کانوا یقاتلون زحفا فیضطرون إلی مقاتلتهم مثل قتالهم، الثانی أنهم کانوا مستمیتین فی جهادهم لما رغبوا فیه من الصبر، و لما رسخ فیهم من الإیمان، و الزحف إلی الاستماتة أقرب. و أول من أبطل الصف فی الحروب و صار إلی التعبیة کرادیس مروان بن الحکم، أبطل الصف فتنوسی قتال الزحف. و زعموا أن امرأة قالت لولدها: إذا رأت العین العین فدغرا و لا صفا، أی ادغروا علیهم أی احملوا و لا تصفوا صفا.

و کان قواد الجیوش یرسمون الخطط الحربیة بحسب قواعد لهم قدیمة، أو یستنبطونها من الحال و الموقع، کما فعل علی بن أبی طالب یوم صفین فدعا زیاد بن النضر و شریح بن هانئ فعقد لکل واحد منهما علی ستة آلاف فارس، و قال: لیس کل واحد منکما منفردا عن صاحبه، فإن جمعتکما حرب فأنت یا زیاد الأمیر، و اعلما أن مقدمة القوم عیونهم، و عیون المقدمة طلائعهم، فإیاکما أن تسأما عن

توجیه الطلائع و لا- تسیرا بالکتائب و القبائل من لدن مسیرکما إلی نزولکما إلا بتعبیة و حذر، و إذا نزلتم بعدو أو نزل بکم فلیکن معسکرکم فی أشرف المواضع، لیکن ذلک لکم حصنا حصینا، و إذا غشیکم اللیل فحفوا عسکرکم بالرماح و الترسة، و لیلهم الرماة، و ما أقمتم فکذلک فکونوا، لئلا یصاب منکم غرة، و احرسا عسکرکما بأنفسکما و لا تذوقا نوما إلا غرارا و مضمضة، و لیکن عندی خبرکما فإنی- و لا شیء إلا ما شاء اللّه- حثیث السیر فی أثرکما، و لا تقاتلا حتی تبدءا أو یأتیکما أمری إن شاء اللّه.

و لقد کان للجیش ثکنات لإیواء الجند، قال ابن حوقل: لیس من مدینة عظیمة إلا و بها دار ینزلها غزاة تلک البلدة، و یرابطون بها إذا وردوها، و تکثر لدیهم الصلات، و ترد علیهم الأموال و الصدقات العظیمة، إلی ما کان السلاطین یتکلفونه، و أرباب النعم یعانونه و ینفذونه، متطوعین متبرعین، و لم یکن فی ناحیة رئیس و لا نفیس، إلا و له علیها وقف من

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰

ضیعة ذات مزارع و غلات، أو مسقف من فنادق اه. و لقد جعل بعض الأغنیاء دأبهم إذا اجتازت بهم الجیوش أن یقروها و یبروها، و من رجال بنی أمیة من جعل ذلک دیدنه، و أهل الخیر علی اختلاف طبقاتهم یتصدقون علی الجیش.

و اشترط العرب علی أهل الذمّة أن یؤووا جندهم ثلاثة أیام علی الأغلب و یطعموهم من طعامهم، عنایة من الفاتح بجنوده، و حتی لا تتبرم الرعیة بنزولهم علیهم إن لم یکن لهم حق النزول. و کانوا لأول أمرهم یختارون النزول فی الخیام و المضارب، فإذا کلب الشتاء ینزلون فی المدن و القری، و یأوون إلی دور الروم الذین رحلوا بقدوم الفاتحین، و أول من أنزل الجند فی بیوت غیرهم الحجاج، أنزل أهل الشام ببیوت أهل الکوفة.

و کان الأمویون فی بعض أدوارهم یجندون الشبان و یجردونهم لیعرفوا عاهاتهم و حالتهم من الصحة. و فی الأغانی أن الحجاج ضرب البعث علی المحتلمین و من أنبت من الصبیان، فکانت المرأة تجیء إلی ابنها و قد جرد فتضمه إلیها و تقول له: بأبی، جزعا علیه، فسمی ذلک الجیش جیش بأبی.

و قد أحضر ابن عبدل فوجد أعرج فأعفی عنه فقال بذلک:

لعمری لقد جزدتنی فوجدتنی کثیر العیوب سیء المتجرّد

فأعفیتنی لما رأیت زمانتیو وفقت منی للقضاء المسدّد

و کان غرامهم بالخیل المطهمة یدربونها علی الطراد و یربونها و یتعهدونها، و من ملوکهم من یستکثر منها جدا لتکون معدّة لیوم الشدة. روی ابن السائب الکلبی أن هشام بن عبد الملک قال یوما لقوامه علی خیله: کم أکثر ما ضمّت حلبة من الخیل فی الجاهلیة و الإسلام، قالوا: ألف فرس و قیل ألفان. فأمر أن یؤذّن بالناس بحلبة تضم أربعة آلاف فرس فقیل له: یا أمیر المؤمنین یحطم بعضها بعضا فلا یتسع لها طریق. قال: نطلقها و نتوکل علی اللّه و اللّه الصانع، فجعل الغایة خمسین و مائتی غلوة و القصب مائة و القوس ستة أسهم، و قاد إلیه الناس من کل أوب، ثم برز هشام إلی دهناء الرصافة قبیل الحلبة بأیام فأصلح طریقا واسعا لا یضیق بها، فأرسلت یوم الحلبة بین یدیه و هو ینظر إلیها تدور حتی ترجع و جعل الناس یتراءونها- نقله یاقوت.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱

تعبیة الجیش العربی:

و ذکر بعض العارفین من علماء العرب أن أکثر من وضع شیئا فی تعبیة الحروب جعل أعداد أصحاب السلاح ۳۸۴، ۱۶ و جعل جیش العزّل نصف هذا العدد، و جیش الفرسان نصف جیش العزّل. و ذلک أن هذا العدد ینقسم بقسمین إلی أن ینتهی إلی الواحد، و إذا جعلنا الصّف المتقاطر ستة عشر رجلا یجب أن یکون فی هذا العدد من الصفوف المتقاطرة ألف صف و أربعة و عشرون صفا. و هذه الصفوف تنقسم إلی أنواع، فکل ستة عشر تسمی صفا، و کل صفین من هذه الصفوف المتقاطرة تسمی عصبة، و عدد من فیها من

الرجال اثنان و ثلاثون رجلا، و المقدم عليهم يسمى صاحب العصبة، و كل أربعة صفوف متقاطرة تسمى مقنبا، و الذى يرأسه يدعى صاحب المقنب، و عدد من فيها من الرجال أربعة و ستون رجلا، و كل مقنبين يسميان كردوسا، و عدد من فيه من الرجال مائة و ثمانية و عشرون رجلا من الصفوف المتقاطرة ثمانية، و المقدم عليها يسمى صاحب المائة و يدعى رئيس الكردوس، و كل كردوسين يسميان جحفلا، و يسميان أيضا فئة، و عدد من فيها من الصفوف المتقاطرة ستة عشر صفا، و من الرجال مائتان و ستة و خمسون رجلا، و المقدم عليهم رئيس الفئة أو الجحفل، و كل جحفل يجمع من هذا العدد خمسة رجال مختارين و منهم صاحب الراية و صاحب الساقة و صاحب البوق و الخادم.

قال: و الذى أختاره أن يكون غلمانه خلفه، يرتبون كترتيب الصفوف المتقاطرة حتى لا يخرجوا عن الصفوف، و شكل الجحفل مربعا كرقعة الشطرنج ثمانية فى ثمانية، و هذا ستة عشر طولا و ستة عشر عرضا. و كل جحفلين يدعيان كوكبة، و عدد من فيها من الرجال خمسمائة و اثنا عشر رجلا، و من الصفوف المتقاطرة اثنان و ثلاث صفا، و يسمى المقدم عليهم رئيس الكوكبة، و كل كوكبتين زمرة، و عدد من فيها من الرجال ألف و أربعة و عشرون رجلا، و من الصفوف المتقاطرة أربعة و ستون صفا و يسمى صاحبها صاحب الزمرة، و كل زمرتين طائفة، و عدد من فيها

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲

من الرجال ألفان و ثمانية و أربعون رجلا، و المقدم عليهم يسمى رئيس الطائفة، فيها من الصفوف المتقاطرة مائة صف و ثمانية و عشرون صفا، و من الناس من يسمى الطائفة الجماعة التامة، و يسمى المتولى عليها رئيس الجماعة التامة، و كل طائفتين يسميان جيشا و عدد من فيه من الرجال أربعة آلاف و ستة و تسعون رجلا، و فيه من الصفوف المتقاطرة مائتا صف و ستة و خمسون صفا، و المتولى لأمره يدعى رئيس الجيش. و بعض الناس يسميه عسكرا و يسمى المتولى عليها قائد الجيش. و كل جيشين يدعيان خميسا، و عدد من فيه من الرجال ثمانية آلاف رجل و مائة و اثنان و تسعون رجلا، و من الصفوف المتقاطرة خمسمائة صف و اثنا عشر صفا، و من الجيش طائفة و منهم من يسميه قافلة، و المتولى عليه يدعى رئيس القافلة، و كل خميسين يدعيان العسكر الأعظم، و فيه من الصفوف المتقاطرة ألف صف و أربعة و عشرون صفا، و من الرجال ستة عشر ألفا و ثلاثمائة و أربعة و ثمانون رجلا و هو العدد الأول، فيصير مجموع العسكر قافلتين و هما أربعة جيوش و الأربعة جيوش اثنان و ثلاثون كوكبة و هى أربعة و ستون جحفلا، و ذلك مائة و ثمانية و عشرون كردوسا و هى. مائتان و ستة و خمسون مقنبا و ذلك الجمع خمسمائة و اثنتا عشرة عصبة و عدد ذلك من الصفوف ما تقدم.

شدة الأمويين و مثال من أوامرهم:

و كان الأمويون من أشد الدول فى الشام على جنودهم، و هم فى أحسن جند، لأن الشاميين عرفوا بطاعة السلطان من عامة أهل البلدان، و بهم يضرب المثل فى الطاعة و المشايعة، و إن لم يخل كل زمن من قوالين بالحق، ناقمين على القائم بالأمر، داعين إلى مناقشته. قالوا: و إنما وريت زناد معاوية بأهل الشام، لأنه كان فى أطوع جند منهم. و كان على بن أبى طالب فى أعصى جند من أهل العراق على الضد. و الطاعة أول خطة يسلكها الجندى، و بفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت أعلام الأمويين فى الصين من الشرق،

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳

و فى الأندلس من الغرب و ما بينهما من الأقطار و الأمصار، و كان الأمويون إذا عرض لجيوشهم شىء من الضعف يرمّونها برجل قوى الشكيمة فيرد جماحها، و يجمع على الطاعة قلوبها، كما فعل زياد و الحجاج بالعراق، و لو لا شدتهما لخرج ذاك القطر عن طاعة بنى أمية.

شكا عبد الملك بن مروان إلى روح بن زنباع انحلال عسكره، و أن الناس لا يرحلون برحيله و لا ينزلون بنزوله، فقال له: إن فى

شرطتی رجلا لو قلّده أمیر المؤمنین أمر عسکره لأرحل الناس برحیله و أنزلهم بنزوله، یقال له الحجاج بن یوسف. قال: فإنا قد قلدناه ذلک. فکان لا یقدر أحد أن یتخلف عن الرحیل و النزول إلا أعوان روح بن زنباع، فوقف علیهم یوما و قد أرحل الناس و هم علی الطعام یأکلون، فأمر بهم فجلدوا بالسیاط و طوّفهم فی العسکر، و أمر بفساطیط روح فأحرقت بالنار.

فدخل روح علی عبد الملک باکیا، و شکا مما أتاه الحجاج مع رجاله فقال له

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴

الخلیفة: علیّ به. فلما دخل علیه قال له: ما حملک علی ما فعلت. قال:

أنا ما فعلت، قال: و من فعل؟ قال: أنت فعلت، إنما یدی یدک، و سوطی سوطک، و ما علی أمیر المؤمنین أن یخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطین، و عوض الغلام غلامین، فلا یکسرنی فیما قدمنی له، فأخلف لروح ما ذهب منه. و لما استقرت البیعة لعبد الملک بن مروان أراد الخروج إلی مصعب بن الزبیر فجعل یستنفر أهل الشام فیبطئون علیه فقال له الحجاج ابن یوسف: سلطنی علیهم فو اللّه لأخرجنهم معک. قال له: قد سلطتک علیهم. فکان الحجاج لا یمرّ علی باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج إلا أحرق علیه داره، فلما رأی ذلک أهل الشام خرجوا.

و من رسالة لعبد الحمید الکاتب علی لسان مروان إلی ولی عهده عبد اللّه ابن مروان حین وجهه لمحاربة الضحاک الخارجی و فیها بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأمویین قال: «إذا کنت من عدوک علی مسافة دانیة و سنن لقاء مختصر، و کان من عسکرک مقتربا، قد شامت طلائعک مقدمات ضلالته، و حماة فتنته، فتأهب أهبة المناجزة، و أعدّ إعداد الحذر، و کتب خیولک، و عبّ جنودک، و إیاک و المسیر إلا مقدمة و میمنة، و میسرة و ساقة، قد شهروا بالأسلحة، و نشروا البنود و الأعلام، و عرف جندک مراکزهم سائرین تحت ألویتهم، قد أخذوا أهبة القتال، و استعدوا للقاء، ملحین إلی مواقفهم، عارفین بمواضعهم من مسیرهم و معسکرهم، و لیکن ترجلهم و تنزلهم علی راياتهم و أعلامهم و مراکزهم، و عرّف کل قائد و أصحابه موقعهم من المیمنة و المیسرة و القلب و الساقة و الطلیعة، لازمین لها غیر مخلین بما استنجدتهم له، و لا متهاونین بما أهبت بهم إلیه، حتی تکون عساکرهم فی کل منهل تصل إلیه، و مسافة تختارها، کأنه عسکر واحد فی اجتماعها علی العدة، و أخذها بالحزم، و مسیرها علی راياتها، و نزولها علی مراکزها، و معرفتها بمواضعها، إن أضلت دابة موضعها عرف أهل العسکر من أی المراکز هی و من صاحبها، و فی أی المحل حلوله منها، فردت إلیه هدایة و معرفة و نسبة قیادة صاحبها، فإن تقدّمک بذلک، و إحکامک له، اطراح علی جندک مؤونة الطلب، و عناء المعرفة، و ابتغاء الضالة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵

«ثم اجعل علی ساقتک أوثق أهل عسکرک فی نفسک صرامة و نفاذا، و رضا فی العامة و إنصافا من نفسه للرعیة، و أخذا بالحق فی المعدلة، مستشعرا تقوی اللّه و طاعته، آخذا بهدیک و أدبک، واقفا عند أمرک و نهیک، معتزما علی مناصحتک و تزیینک، نظیرا لک فی الحال، و شبیها بک فی الشرف، و عدیلا فی الموضع، و مقاربا فی الصیت، ثم أکثف معه الجمع، و أیده بالقوة، و قوّه بالظهر، و أعنه بالأموال، و اغمره بالسلاح، و مره بالعطف علی ذوی الضعف من جندک، و من رخفت به دابته، و أصابته نکبة من مرض. أو رجلة أو آفة. من غیر أن تأذن لأحد منهم فی التنحی عن عسکره، أو التخلف بعد ترحیله، إلا المجهود أو المطروق بآفة.

ثم تقدم إلیه محذرا، و مره زاجرا، و انهه مغلظا بالشدة علی من مرّ به منصرفا عن معسکرک من جندک بغیر جوازک، شادا لهم أسرا، و موقرهم حدیدا.

و معاقبهم موجعا أو موجههم إلیک فتنهکهم عقوبة، و تجعلهم لغیرهم من جندک عظة ...

«إجعل خلف ساقتک رجلا من وجوه قوادک، جلیدا ماضیا، عفیفا صارما، شهم الرأی، شدید الحذر، شکیم القوة، غیر مداهن فی عقوبة، و لا مهین فی قوة. فی خمسین فارسا من خیلک، تحشر إلیک جندک، و یلحق بک من یتخلف عنک، بعد الإبلاغ فی

عقوبتهم و النّهك لهم و التنكيل بهم ...

ليكن رحيلك إبّانا واحدا، و وقتا معلوما. لتخف المؤنة بذلك على جندك.

و يعلموا أوان رحيلهم. فيقوموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، و إعلاف دوابهم، و تسكن أفئدتهم إلى الوقت الذى وقفوا عليه، و يطمئن ذوو الحاجات إبان الرحيل. و متى يكون رحيلك مختلفا تعظم المؤنة عليك و على جندك، و يخلوا بمراكزهم، و لا يزال ذوو السفه و النزق يترحلون بالإرجاف، و ينزلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذو رأى بنوم و لا طمأنينة.

«إياك أن تنادى برحيل من منزل تكون فيه. حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على معسكرك. آخذا بفوهة جنبتيه بأسلحتهم، عدة لأمر إن حضر. و مفاجأة من طليعة العدو إن أراد نهزة، أو لمحت عندكم غرة، ثم مر الناس بالرحيل و خيلك واقفة، و أهبتك معدّة، و جنّتك واقية،

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶

حتى إذا استقللتم من معسكركم، و توجهتم من منزلكم، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح، و هدو جملة و حسن دعة ...

«إياك أن يكون منزلك إلا فى خندق أو حصن تأمن به بيات عدوك، و تستنيم فيه إلى الحزم من مكيدته، إذا وضعت الأثقال، و خططت أبنية أهل العسكر لم يمد خباء، و لم ينتصب بناء، حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الأرض بقدر أصحابه فيحتفروه عليهم، و يبنون بعد ذلك خنادق الحسك، طارحين لها دون أشجار الرماح، و نصب الترسة. لها بابان قد وكلت بعد بحفظ كل باب منهما رجلا من قوادك فى مائة رجل من أصحابه.

فإذا فرغ من الخندق كان ذلك القائدان أهلا لذلك المركز ... و إياك أن يشهروا سيفا يتجالدون به، و تقدم إليهم فلا يكون قتالهم بالليل فى تلك المواضع من طرقهم إلا- بالرماح مسندين لها إلى صدورهم، و النشاب راشقين به وجوههم، قد ألبدوا بالترسة، و استجنوا بالبيض، و ألقوا عليهم سوابغ الدروع، و جباب الحشو، فإن صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى، كبر أهل تلك الناحية الأولى و بقية العسكر سكوت، و الناحية التى صدر عنها العدو لازمة لمراكزها، فعلت فى تقويتهم و إمدادهم بمثل صنيعك بإخوانهم. و إياك أن تخمد نار رواقك، و إذا وقع العدو فى معسكرك فأججها ساعرا لها، و أوقدها حطبا جزلا، يعرف بها أهل العسكر مكانك و موضع رواقك، و يسكن نافر قلوبهم، و يقوى واهن قوتهم، و يشد منخذل ظهورهم، و لا يرجفون فيك بالظنون، و يجيلون لك آراء السوء.

و ذلك من فعلك رد عدوك بغيظه، و لم يستقل منك بظفر، و لم يبلغ من نكايتك سرورا إن شاء اللّه اه».

هذا و قد كانت الشام على عهد أوائل العباسيين كما كانت فى العهد الأموى تخرج جندا لغزو الصوائف و الشواتى أى حروب الصيف و الشتاء الموجهة إلى الروم. و إن كانوا فى جهادهم على الأكثر لا فرق عندهم فى الفصول يصيفون و يشتون و يرتبعون و يخرفون.

ذكر المؤرخون أن المأمون أقطع أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام و مصر و فرض على دمشق و حمص و الأردن ۴۰۰۰ جندى لغزو الصائفة. و ذكر

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷

قدامة أن راتب مغازى الصوائف و الشواتى فى البر و البحر فى السنة على التقريب مائتا ألف دينار. و على المبالغة ثلاثمائة ألف دينار. و كان ارتفاع الثغور الشامية- أى طرطوس و أذنة و المصيصة و عين زربة و الكنيسة و الهارونية و بياس و نقابلس- نحو المائة ألف دينار تنفق فى مصالحها و سائر وجوه شأنها و هى المراقب و الحرس و الفواثير (الكشافة) و الركاضة (البريديون) و الموكلون بالدروب و المخايض و الحصون و غير ذلك من الأمور و الأحوال، و يحتاج إلى شحنتها من الجند و الصعاليك أى الجند غير المنظم.

و كان إذا عصا بعض عمالهم أو نجم ناجم من الثوار يبعثون بالجيوش من العراق كما أرسلوا جيشا لحرب نصر بن شبث، و جيشا

لقتال القرامطة.

و كان الجيش الذى ألفه أحمد بن طولون و أولاده من الأسباب القوية فى نزع مصر و الشام من حكم العباسيين بالفعل. و قد قيل: إن الجيش الذى نظمه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون لم يتفق مثله لأعظم الفاتحين، و كان مؤلفا من صقالبة أى من أهل صقلية من الطليان و الروم و غيرهم من العناصر.

أدوات التدمير و السلاح و المواصلات:

كان جلّ الاعتماد فى القتل و التخريب على المنجنيق و النشاب، الأول لتخريب الحصون و دك الأسوار و الثانى لإزهاق النفوس. و المنجنيق (بفتح الميم و كسرها) آلة ترمى بها الحجارة بشد سوار مرتفعة جدا من الخشب، يوضع عليها ما يراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد جدا. و فى التاج: آلة قديمة وضعت قبل وضع النصارى البارود و المدافع، و أول من رمى به الرسول (ص) فى حصار الطائف، و أول من رمى به فى الجاهلية جذيمة الأبرش و هو من ملوك قضاعة. و يستعملون الدبابات و هى أشبه بدبابات هذه الأيام (التانك) و هى جمع دبابة آلة تتخذ فى الحصار يدخل فى جوفها الرجال ثم تدفع فى أصل الحصن فينقبونه و هم فى جوفها. و يتخذون أيضا الحسك (السلك الحديد) يتحصنون وراءه و يمنعون العدو بعض الشىء من مباغتتهم. و اخترع بعض الدمشقيين فى حصار المسلمين عكا على عهد

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸

صلاح الدين سائلا إذا قذف به على الصقالات التى توضع لرمى المنجنيقات تشعلها لحينها، فكان الصليبيون منها فى مصيبة. و أهم سلاح عندهم للمهاجمة السيف و الرمح و للدفاع الدرع.

و مما كانوا يتقون به مداهمة العدو أن يضعوا مما يلى البلدان من حد الشرق رجالا لتحرق زرعها و نباتها، و هى أراض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مرعى، فكانت تحرق إضعافا لهم، و إقعادا لحركاتهم، إذ كانوا من عادتهم أنهم لا يتكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت أرضا مخصبة سلكوها، و إذا كانت مجدبة تجنبوها، و كانوا لا يفطنون لتقصد حريقها ثم فطنوا، فصاروا يربطون عليها الطرق و يمسكون منها بالأطراف، و كان ينفق فى هذه المحرقات فى كل سنة من الخزانة بدمشق جمل من الأموال، و يجهز فيها أجلاد الرجال. و كان شأنهم فى الإحراق استصحاب الثعالب الوحشية و الكلاب المنفرة، ثم يكمن المجهزون لذلك عند أمناء النصاح فى كهوف الجبال و بطون الأودية، و تمضى الأيام حتى يكون يوم ريحه عاصف، و هواؤه زعزع، و تعلق النار موثوقة فى أذناب الثعالب و الكلاب، ثم تطلق الثعالب و الكلاب فى أثرها، و قد جوّعت فتجدّ الثعالب فى الهرب، و الكلاب فى الطلب، فتحرق ما مرت به و تعلو الريح النار منه فيما جاوره. هذا إلى ما كانت تلقيه الرجال بأيديها فى الليالى المظلمة، و عشايا الأيام المعتمة. روى ذلك جميعه ابن فضل اللّه.

و استعمل الملوك و الأمراء النشاب للتسلية و إظهار الشجاعة و معرفة أساليب الرماية، فإذا رموا أصموا، و إذا أفضلوا بالغوا، و قد استعمل الأمين لقتال عساكر أخيه المأمون نصول النشاب من خالص الذهب و نقش عليها هذين البيتين:

و من جودنا نرمى العداة بأسهممن الذهب الإبريز صيغت نصولها

يداوى بها المجروح منها جراحهو يشرى بها الأكفان منها قتيلها

و استعمل ذلك كثير من الملوك و منهم السلطان أحمد بن الملك الناصر ابن محمد بن قلاوون، و كان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك و هو محصور و يرمى سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موشاة بذهب و قد نقش عليها هذان البيتان.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹

كان اعتماد الملوك فى نقل الأخبار على ثلاثة أمور: البريد و أول من وضعه فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان حين استقرت له

الخلافة، فوضع البريد لتسرع إليه الأخبار من جميع أطراف مملكته، أمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس و أهل أعمال الروم و عرفهم ما يريد فوضعوا له البرد و اتخذوا له بغالا بأكف كان عليها سفر البريد. و قيل: إن أول من وضع البريد عمر بن الخطاب و إن معاوية أصلحه فى سلطانه. و لم يزل البريد قائما حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينقض، و لما أن أغزى المهدى ابنه هارون الرشيد الروم، و أحب ألا يزال على علم قريب من خبره رتب ما بينه و بين معسكر ابنه بردا، كانت تأتيه بأخباره، و تريه متجددات أيامه،

فلما قفل الرشيد قطع المهدى تلك البرد، ثم رتب على عهد الرشيد على ما كان عليه أيام بنى أمية، و جعل البغال فى المراكز، و كان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر، ثم جاءت أدوار فلم يكن بين الملوك و ما يريدون معرفته من الأخبار إلا الرسل على الخيل و الإبل. فلما أتت الدولة الزنكية أقامت لهذا النّجابة، و أعدت لها النجب المنتخبة، و دام هذا إلى سقوط دولة بنى أيوب. و لما تولى الملك الظاهر بيبرس كان أحرص ما يحرص عليه مواصلته بالأخبار، و ما يتجدد من أخبار التتر و الفرنج.

و قال مرة لكاتب الإنشاء شرف الدين عبد الوهاب: إن قدرت ألّا تبيتنى كل ليلة إلا على خبر، و لا تصبحنى إلا على خبر فافعل، و اتخذ لذلك هو و من بعده مراكز البريد، تشترى الخيل بمال السلطان و يقام لها السواس و العلوفات. ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى إقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر إلى كل مركز أصحاب النوبة فيه بالخيل، فإذا انسلخ الشهر جاء غيرهم، و هم لهذا يسمون خيل الشهارة، و على الشهارة وال من قبل السلطان، يستعرض فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه، و يدوغها بالداغ السلطانى. و قد جعلوا لها مراكز و محطات و بنوا عليها خانات و فنادق و مساجد فى كل طرف من أطراف المملكة.

هذا ما كان من أمر البريد و أنشأوا فى الموصل حمام الزاجل، فاقتبسه

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰

خلفاء الفاطميين بمصر و الشام، و بالغوا حتى أفردوا له ديوانا و جرائد بأنساب الحمام. نقله من الموصل نور الدين محمود سنة (۵۶۵) و كانوا فى النهار يجعلون جل اعتمادهم عليه فى نقل الأخبار و لا سيما زمن الحروب الصليبية، و له مراكز فى هذا القطر من الجنوب إلى الشمال. و حمام الزاجل قديم فى الإسلام و لعلّ عهده يردّ إلى ما قبل الدولة العباسية. و مما ذكره المؤرخون أن أماجور أمير دمشق (۲۵۶) أرسل إلى اليرموك رجلا و أعطاه طيورا، قال له: أرسل الطيور بخبرك طيرا بعد طير. و من جملة ما يعتمدون عليه فى الليل المناور و هى مواضع رفع النار فى الليل، و الدخان فى النهار، للإعلام بحركات العدو، إذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لإغارة، و لما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو و المخبر به، باختلاف حالاتها تارة فى العدو و تارة فى غير ذلك. و قد أرصد فى كل منوّر الديادب و النظّارة لرؤية ما وراءهم و إيراء ما أمامهم. و المناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال و تارة تكون فى أبنية عالية. و مواضعها تعرف بها أكثر السفارة، و هى من أقصى ثغور الإسلام إلى حضرة السلطان، حتى إن المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم به السلطان عشاء فى مصر و المتجدد بها عشاء كان يعلم به بكرة. قال صالح بن يحيى: و فى سنة (۶۹۳) جعلت لأمراء الغرب فى لبنان درك بيروت ليراقبوا البحر و جعلوا فيها رهجية و حمام بطاقة مدرج إلى دمشق و خيل بريد، فكانت النار للحوادث فى الليل و حمام البطاقة للحوادث فى النهار و البريد لما يتجدد من الأخبار و كل ذلك فعلوه خوفا من رجوع الإفرنج. إلى أن قال: و ذلك لأجل ما يتجدد من الأخبار و منع الإفرنج عن الاجتماع بأهل كسروان. و الزاجل و المناور تغنى عن الهليوستا و الابجكتيف أو البروجكتور عند أهل زماننا.

الجيش على عهد ملوك الطوائف:

كانت جمهرة الجيوش الإسلامية على عهد صلاح الدين مؤلفة من عرب و أكراد و أتراك و كان صلاح الدين كمعلمه نور الدين من عظام القواد

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱

یعرف علم التعبیة و المصافات و لا یغفل یوما عن تقویة جسمه بالریاضة البدنیة و لا سیما لعب الکرة و الجرید و الصید و القنص لیستعین بذلک علی القتال.

و کان أول اتصال صلاح الدین بنور الدین تفوق صلاح الدین بلعب الکرة.

و قد ألف صلاح الدین بین القلوب و جمعها علی المقصد الذی أراد حتی لا یشعر المرء فی جیشه باختلاف فی العادات و المنازع.

و ارتقی فن الحرب فی الدولتین النوریة و الصلاحیة بین الشامیین. و الحرب تعلم فی الحرب. و الجیش الذی یقوده قائد کنور الدین بنفسه مستعینا بمشاهیر قواده ثم یقوده صلاح الدین بنفسه و مشاهیر قواده مکتوب له الظفر لا محالة. و کان الجند موسعا علیه کل التوسعة، و هو علی قلة عدده بالنسبة لجیوش الصلیبیین منصور فی أکثر الوقائع. و کانت نسبته نسبة واحد من المسلمین إلی أربعة من الصلیبیین کما کان یوم حطین. و الفرنجی یلبس زرد الحدید من فرقه إلی قدمه، و قد لا یقتل إلا إذا جدّل حصانه، و الشامیون مخفون من السلاح. و کان اعتماد الفریقین علی النشاب و النبال یقف جمازة فی حومة الوغی یأخذ منها من خلت جعابه و السلطان بنفسه یصف الأطلاب و یجهز أبدا جیشه و یعلمه للبیکار و الجمازة من آلات المحامل و الأطلاب الکتائب و البیکار الحملة أو الحرب. و الجندی الغازی موفور الکرامة و القواد عند السلطان کإخوته و أشقائه و أولاده و الأموال دارة علی الجمیع کما قال عبد المنعم الجلیانی شاعر صلاح الدین:

إن الملوک الذین امتدّ أمرهم‌لم یخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا

کذا السیاسة فالأجناد لو علموابخل الملوک و جاءت شدة خذلوا

ذکر یاقوت أن الملک العزیز صاحب حلب کان طول مملکته من الشرق إلی الغرب مسیرة خمسة أیام و مثلها من الجنوب إلی الشمال. و فیها ثمانمائة و نیف و عشرون قریة کانت تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحی العلة موسع علیهم، و فیها من الطواشیة المفاریید ما یزید علی ألف فارس، یحصل للواحد منهم فی العام من عشرة آلاف درهم إلی خمسة عشر ألف درهم و فی أعمالها إحدی و عشرون قلعة یقام بذخائرها و أرزاق مستحفظیها.

و کان جیش الممالیک (البحریة و البرجیة) قوتهم الوحیدة إذا أحسنوا

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲

یوما فإساءتهم أیام. و طاعتهم و غناؤهم و بلاؤهم تبع للسلطان، إذا کان علی أخلاق و متانة خضعوا و استکانوا و کانوا آلة خیر لقتال الأعداء و الخوارج علی الملک، و إلا أصبحوا من أعظم أدوات الشر، و کانوا یتمحضون للخدمة و یعیشون بالإقطاعات العظیمة التی کانت لهم، و إذا نشبت الحرب راجت سوقهم و کثر الخیر علیهم لأنهم یجهزون من الدولة بالأموال و الألبسة و السلاح و الکراع. و کلما جازوا بلدا أو فتحوا مصرا اعتدوا علی السکان و المکان و أخذوا ما استطاعوا أخذه من مال و عروض و ناطق و صامت.

الجیوش الصلیبیة و التتریة:

رأت الشام من ضروب الجیوش علی عهد الحروب الصلیبیة ثم فی عهد الحروب المغولیة التتریة ما یستغرب منه. فإن جیوش الصلیبیین کانت مؤلفة من معظم العناصر الفرنجیة التی کانت تدین بدین البابویة فی أوربا، بل کانوا یجندون من أحبّ من الوطنیین و لا سیما الموارنة. و کانت جیوش هولاکو و غازان و تیمور لنک- مؤلفة من معظم عناصر آسیا. و جمیع هذه الجیوش الغربیة و الشرقیة أضرت بهذه الدیار أضرارا فاحشة، لأن النظم الحربیة الحدیثة لم تکن معروفة إذ ذاک، فکان القائد بحکم الضرورة یتسامح مع أجناده إذا عرقوا لحم من ینزلون علیهم و کسروه سواء کانوا مسالمین أو محاربین. و طول دور الحروب الصلیبیة فی الشام أورث أهله شجاعة و استهانة بالموت حتی کاد یعد جمیع أهله جندا. الشدائد معلمة الشعوب، و أی شدة علی الشام أعظم من أن تجیش أوربا علی هذا

القطر الصغير قرنين كاملين. و قد اعترف المسلمون للصليبيين بالشجاعة و الإقدام، و اعترف هؤلاء للمسلمين بمثل ذلك. و من أجمل ضروب الإنصاف أن ينصف المرء خصمه و يذكر محاسنه كما يذكر مقابحه.

الجيوش فى القرون الوسطى و جمعيات الفتوة:

كانت طوائف الأجناد عدة كثيرة تنسب كما قال القلقشندى كل طائفة منهم إلى من بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم كالحافظيّة و الآمرية

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳

من بقايا الحافظ و الآمر أو إلى من بقى من بقايا الوزراء الماضين كالجيوشية و الأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالى و ولده الأفضل أو إلى من هى منتسبة إليه كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل و الأجناس كالأتراك و الأكراد و الغز و الديلم و المصامدة أو من المستضعفين كالروم و الفرنج و الصقالبة أو من السودان من عبيد الشراء أو العتقاء و غيرهم من الطوائف و لكل طائفة منهم قواد و مقدمون يحكمون عليهم.

و كان الجنود فى دولة المماليك يقسمون إلى طبقتين: المماليك السلطانية و هم أعظم الأجناد شأنا و أرفعهم قدرا و أشدهم إلى السلطان قربا و أوفرهم إقطاعا، و منهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة. و هم فى العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة و القلة. و قد كان لهم فى زمن الناصر محمد بن قلاوون ثم فى أيام الظاهر برقوق العدد الجم و المدد الوافر، لطول مدة ملكهما و اعتنائهما بجلب المماليك و مشتراها. و الطبقة الثانية أجناد الحلقة و هم عدد جم و خلق كثير، و ربما دخل عليهم من ليس بصفة الجند من المتعممين و غيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات. و قد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كى لا يحاط بعدته و يطلع إليه هذا ما رواه القلقشندى و روى ابن فضل اللّه أنه كان لكل أربعين نفسا منهم مقدم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه و ترتيبهم فى موقفهم إليه.

و كان أقوش الأفرم إذا مات لأحد من أجناده فرس يحضر الكفل إلى مطبخه و يأخذ من الديوان ستمائة درهم. و إذا خرج إلى بيكار أى حملة فجميع جنوده إلى أن يعودوا لا يطبخ أحد منهم و لا يشترى تبنا و لا شعيرا. و ذكر الأسدى أن عبرة العساكر فى الشام فى القرن التاسع كانت أربعة و عشرين ألف فارس و أنه كان فى كل مدينة الأمراء و الأجناد. و ذكر الظاهرى أن الجيوش كانت تنقسم فى القرن التاسع أقساما و هى أجناد حلقة و بحرية و تركمان و عرب و أكراد و غير ذلك. و أجناد الحلقة بدمشق اثنا عشر ألفا، و مماليك كافلها و الأمراء بها ثلاثة آلاف. و أجناد الحلقة فى حلب ستة آلاف و مماليك كافلها و الأمراء بها ألفان. و أجناد الحلقة بطرابلس أربعة آلاف و مماليك كافلها و الأمراء بها ألف. و أجناد الحلقة بصفد ألف و مماليك

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴

كافلها و الأمراء بها ألف. و أجناد الحلقة بغزة و مماليك كافلها و الأمراء بها ألف.

و جيش الحلقة هذا هو الجيش القائم دوما على السلاح و هو ما يقابل باصطلاح هذه الأيام جيش الحامية و كان لكاتب الجيش جريدة بأسماء الأجناد و إقطاعاتهم. و يحتاج صاحب ديوان الإقطاع أن يكون ماضيا فيما يسأل عنه من أمور الأجناد و أحوالهم، متفقدا لمن يغيب منهم بغير دستور. و كان إلى صاحب ديوان الجيش عرض الأجناد و خيولهم و ذكر صلاحهم و شيات خيولهم، أى علائمها و أشكالها، و كان من شرط هذا الديوان عندهم أن لا يثبت لأحد من الأجناد إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل و إناثها دون البغال و البراذين، و بين يديه نقباء الأمراء يعرفونه أحوال الأجناد من الحياة و الموت و الغيبة و الحضور و غير ذلك- قاله القلقشندى.

أما أجناس الجيوش فى مصر و الشام فكانت منوعة أى من الترك و الشركس و الروم و الصقالبة و غير ذلك من الأجناس المضاهية للترك فى الزى. و كانت للعرب على ما يظهر كتائب خاصة بقيادة أمرائهم يستدعون حين الحاجة للقتال على أصولهم. و جيوش بنى

حمدان و بنی مرداس و بنی کلاب و بنی کلب و آل الفضل و غیرهم من الملوک و الأمراء عرب صرف لأن صاحب العصبیة عربی لا یأمن غیرهم. و أکثریة الجیش شراکسة أو أتراک علی الغالب و الباقون من الشامیین.

و لقد کان بعض الخلفاء و الملوک و الأمراء إذا شاهدوا أعراض الضعف فی قوتهم یعمدون إلی طرق ظاهرها بسیط و باطنها قوة لهم لیتقووا بهم عند الحاجة. أی یکونون جیشا یرتجل فی الحال و یغنی غناءه. کما فعل الناصر لدین اللّه العباسی سنة أربع و ستمائة فتقدم إلی الوزیر بجمع رؤوس الأحزاب و أن یکتب فی ذلک منشور فدخل الناس من الخاص و العام فی الفتوة و سأل ملوک الأطراف الفتوة فنفذ إلیهم الرسل و قد ألبسهم سراویلات الفتوة بطریقة الوکالة. فمما کتبه الوزیر أن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب کرم اللّه وجهه هو أصل الفتوة و منبعها، و منجم أوصافها الشریفة و مطلعها، و عنه تروی محاسنها و آدابها، و منه تشعبت قبائلها و أحزابها، و إلیه دون غیره ینسب الفتیان. فعل ذلک بمرأی من السلف الصالح و مسمع، و مشهد

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵

من أخیار الصحابة فلم یسمع أن أحدا من الأمة لامه، و لا طعن علیه طاعن فی حد أقامه، إلی أن قال: إن من قتل له رفیق نفسا نهی اللّه تعالی عن قتلها و حرّمه، و سفک دما حقنه الشرع المطهر و عصمه، و صار بذلک ممن قال اللّه تعالی فی حقه وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِیها أن ینزل عنه فی الحال فی جمع الفتیان عند تحققه لذلک و معرفته، و یبادر إلی تغییر رفقته، مخرجا له بذلک عن دائرة الفتوة، و إن کل فتی یحوی قاتلا- و یخفیه، و یساعده علی أمره و یؤویه، ینزل کبیره عنه، و یغیر رفاقته و یتبرأ منه، و إن من حوی ذا عیب فقد عاب و غوی، و من آوی طرید الشرع ضل و هوی، فإن الفتی متی قتل فتی من حزبه سقطت فتوته.

و وجب أن یؤخذ منه القصاص، و إن قتل غیر فتی عونا من الأعوان أو متعلقا بدیوان فی بلد سیدنا الإمام الناصر لدین اللّه فقد عیب هذا القاتل فی حرم صاحب الحرب بالقتل، فکأنما عیب علی کبیرة فسقطت فتوته بهذا السبب. و سلم إلی کل واحد من رؤوس الأحزاب منشور بهذا المثال فیه شهادة اثنین من العدول، فألزم الناس إجراء الأمر علی ما تضمنه هذا المرسوم قائلین فی تعهدهم و متی جری ما ینافی المأمور به المحدود فیه، کان الدرک لازما لهم علی ما یراه صاحب الحرب أی الخلیفة. و هؤلاء الفتیان کانوا یغتالون کل من یخالفهم حتی أفتی الفقهاء بعد ذلک العصر بتحریم الفتوة و أنکروا نسبتها إلی علی بن أبی طالب و هی أشبه بجمعیة فوضویة یعمد إلی تقویتها أیام الضعف.

الجیوش العثمانیة:

لما جاء العثمانیون لفتح الشام کانت جیوشهم من العسکر المعروف ب (یکی «ینی» چری) أی العسکر الجدید، و قد حرف الشامیون و المصریون هذه التسمیة بلفظ الإنکشاریة، و هو الجیش الذی ألفه السلطان أورخان بن عثمان باقتراح الوزیر قره خلیل جاندارلی علی أن یؤلف من أولاد المسیحیین من العثمانیین کالبوشناق و الروم و الصرب و البلغار و الألبان، یجندون بحسب اللزوم و بموجب قانون التجنید المعروف عندهم بقانون اللقطاء (دو شرمة) و ذلک

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶

من أهل الروم ایلی و من سکان الأناضول علی قلة، و یعفی من ذلک الأرمن و سکان جزیرتی ساقز و رودس، یأخذونهم من أهلهم من سن العاشرة إلی الخامسة عشرة و یستثنی من ذلک المتزوجون الفتیان، و یربونهم تربیة إسلامیة ثم یجعلونهم فی الثکنات فی الإستانة، و منهم من یخدم فی قصور السلاطین فی أعمال البستنة و غیرها، و منهم من یتعلم سبع سنین اللغة الترکیة خاصة حتی یصبحوا مسلمین أتراکا ثم ینقلون إلی العاصمة، و کثیر منهم ارتقوا فی مناصب الدولة حتی أصبحوا وزراء و قوادا عظاما و خدموا العثمانیین خدمة عظیمة، لأن خلّص الأتراک علی الأغلب کانوا یفرون من تعلیم أولادهم، و إن کان الآباء عظماء فی السلطنة. فانتقلت الأحکام بالطبیعة إلی أیدی فئة من هؤلاء المتعلمین من الإنکشاریة.

و لما أسس أورخان هذا الجيش قصد ذات يوم آماسية و كان فيها رجل من الصلحاء اسمه حاجى بكتاش، و التمس منه أن يسمى هذا الجيش فسماه الولىّ العسكر الجديد (يكى چرى) و دعا له بما معناه: بيض اللّه وجوههم، و قوى سواعدهم، و أرهف سيوفهم، و أهلك الأعداء بسهامهم، و كتب لهم الغلبة و التوفيق. قال هوار: ذهب قره خليل جاندارلى فى تأليفه هذه الكتائب من المشاة بهذا الفخر، و كان تأليفها فى عصر كانت فيه أوربا فى القرون الوسطى، و ليس لها من الجيوش إلا عصابات مسلحة، بل و قبل تنظيم كتائب الرماة فى إنكلترا، و قبل أن أسس شارل السابع ملك فرنسا جيشا دائما تحت الطلب بقرن واحد. و قال ميشو: «كان العثمانيون بادئ بدء الأمة الوحيدة التى كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم مما كان للدولة به التفوق على الأمم التى تريد إخضاعها لسلطانها. و أصبح لمعظم ممالك أوربا فى القرن السادس عشر جيوش يقاومون بها أعداءهم، فانتشر النظام و التربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية، و أخذت المدفعية و البحرية كل يوم تزيدان نظاما و رقيا فى الغرب، على حين كان الأتراك يزهدون فى التجارب التى وصلت إليها الجيوش البحرية و البرية، و لا يستفيدون بتاتا من العلوم التى انتشرت بين أعدائهم و جيرانهم اه».

أسس العثمانيون جيش الإنكشارية على غير مثال فى التاريخ، خالفوا

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷

فيه الشريعة الإسلامية التى لا تجيز للملك أن يكره الذميين على استرقاق أولادهم، و اتبعوا فيه العرف و المصلحة، ثم دخل فيه سوء الاستعمال فى القرن السادس عشر على رأى موردتمان، و ذلك بأن أخذوا يتساهلون بإدخال أناس من المسلمين و اليهود و النور، فأخذ جيش الإنكشارية يشبه جيشا من الأسرى على الأصول الإفريقية الجديدة، و كان ذلك من أسباب تسرّب الفساد إليه.

كان عدد جيش الإنكشارية لأول تأسيسهم ستة آلاف جندى و قيل ألف جندى، ثم جاوزوا المائة ألف و قائدهم العام «آغا» الإنكشارية، و هم يقسمون إلى كتائب و تتألف كل كتيبة من مائة إلى خمسمائة مقاتل، يعلّمون فى الولايات على الكرّ و الفرّ و يستخدم بعضهم فى خدمة الولاة أو فى مزارع أرباب الإقطاعات أو فى حوانيت أرباب الصنائع، و يعيش أفراد هذا الجيش من مياوميات طفيفة و هى «اقچه» واحدة لكل فرد فى اليوم، و تزيد إذا أثبت المقاتل فى الحرب كفاءة، و يقبضون ذلك مرة كل ثلاثة أشهر بأبهة و طنطنة، و توزع الإقطاعات على المبرزين منهم من الضباط و غيرهم يعيشون بها زمن السلم، و يقضى عليهم فى الحرب أن يجهزوا أنفسهم على نفقتهم.

و كان أغلب الإنكشارية فى الولايات من الفرسان و فى العاصمة من المشاة.

و سلاح المشاة الدروع و المغافر و الأتراس و الخناجر مما يخف حمله، و سلاح الغارات السيوف و الرماح و الحراب و المعاول يستعملونها فى القرب، و يستعملون فى البعد الرماح و البنادق و الغدارات. و أسلحة الفرسان سيوف مستطيلة و بنادق بفتيل و بنادق بصوان و غدارات و قفافيز من حديد. و قد استعمل العثمانيون أسلحة نارية تشبه المدافع فى وقعة قوصوة المشهورة. و كانت المدافع و المكاحل فى عسكر السلطان سليم على مرج دابق من أسباب ظفره بجيش المماليك لأن هؤلاء كانوا خلوا منها.

قال أحمد رفيق: و لقد كان العثمانيون يستعملون من السلاح ما خف محمله حتى إن نعال خيولهم كانت على غاية الدقة و ذلك لتسير سيرا سريعا.

و كانوا يبدون مهارة فائقة فى التقدم و كشف قوة العدو و الإحاطة به و تعجيزه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸

و يكمنون له و يعنون من وراء الغاية بتعليم الجند و تدريبهم حتى يبلغوا بمن يأخذونهم من الأولاد مرتبة الكمال. يعلمونهم الألعاب الرياضية و استعمال القوس و النشاب ثم الرماية بالبنادق، و يدربونهم على لعب الجريد و المسايفة ليل نهار. و تتبدل الأسلحة بتبدل الزمن.

و كان لكل كتيبة شعار يرسمه المجندون فيها على خيامهم و على أبواب ثكناتهم و يشمونهم أى يستعملون لهم الوشم بأيديهم و

أرجلهم. و قد أخذ هذا الجيش يفسد على عهد مراد الثالث لأنه رخص سنة (۹۹۰) بقبول الرقاصين و المصارعين فى الدخول فيه. و بعد ذلك أخذ يدخل فى سلكه أخلاط من كل صنف من الناس بالشفاعات و الرّشى ليستفيدوا من امتيازات الإنكشارية.

و فى ذلك الوقت أخذ بعض سكان الشام يدخلون فى هذا الجيش على ما يظهر. و فى سنة (۱۱۵۳) صدر الأمر بأن تباع العلوفات فضعفت قوة الجندية فى الإنكشارية و أصبح من كانوا من الجند حقيقة لا يقبضون من العلوفات ما يكفيهم فيعيشون بالنهب و السرقة. و كلما أتى الزمن على الإنكشارية زاد تدخلهم فى سياسة الملك فى الإستانة و أخذوا يخيفون السلاطين و يخلعونهم و يقتلونهم و يعزلون الصدور العظام و ينصبونهم أو يقتلونهم و يشردونهم. و آخر من قتلوه من سلاطين العثمانيين سليم الثالث.

و لما تربع محمود الثانى فى دست الملك و رأى ما تم لعزيز مصر محمد على من إنشاء جيش له على النمط الغربى صحت عزيمته على أن يعجل فى القضاء على الإنكشارية فاستصدر فتوى بقتلهم فقتلهم الأهالى و رجال البحرية و ألغى نظام الإنكشارية سنة (۱۲۴۱) و سموا هذه الوقعة فى الإستانة بالوقعة الخيرية. و قد قتل فيها فى العاصمة و الولايات ستة آلاف رجل على رواية المؤرخ أسعد افندى. و من ذاك الوقت ألفت الدولة جندا على مثال الجيوش الأوربية. و كان من الإنكشارية فى الشام أن خربوا القرى و الضواحى، و كانوا يعتدون على الأعراض و الأموال. و لما صدر الأمر بقتلهم قتل بعضهم هنا و منهم قسم من الأهالى غير اسمه و رسمه فتغاضت الدولة عنه. هذا هو الجيش الذى بقيت الشام تحت رحمته أكثر من ثلاثمائة سنة و رأت سيئاته و تخريباته.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹

و كان من جملة الجيش عسكر اسمه (اللوند) و هو العسكر الخفيف الذى كانت مملكة البندقية تستخدمه قديما، و منهم عسكر اسمه (السكبان)- السكبان كلمة فارسية مركبة معناها حارس الكلب- قال البوريني:

و هم عبارة عن طائفة كان وصفهم أن الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره و يقود الكلب فى ساجوره (قيده) و يمشى أمام الأمير و الكبير حتى يسير إلى الصيد. قال: و لم يكونوا أولا شيئا حتى جاء الشام أمير يقال له أبو سيفين تولى ولاية نابلس فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعايا نابلس لأنهم لا يخلون من نوع شراسة، فاعتاد الأمراء استصحابهم إلى ولاياتهم فكثروا. و قد أضيف هذا العسكر إلى جوقة الإنكشارية. و من الجند صنف يقال له (السباهية) و هو من الفرسان كانوا يعطون عشر بعض الأراضى على صورة إقطاع و يقومون مقابل ذلك مدة الحرب بمعاونة الدولة فى القتال، يأتون على خيولهم و الدولة تعطيهم الذخائر و المؤن. و منهم صنف يقال له (جبه جى) و هو من العسكر المدرع (زرهلى) من جيوش العثمانيين، و منهم (القبوقولى) أى الحراس و أصلهم حراس باب السلطان كثروا فى آخر القرن الماضى. و منهم (الدالاتية) أى الأدلاء و أصل الكلمة فارسية من داله بمعنى الدليل. و كانوا يلبسون فى رؤوسهم قلنسوة كالطرطور على ما فى محيط المحيط. و (الهوارة) و هم صنف من العساكر غير المنظمة.

و (التفكجية) مأخوذة من تفنكجى أى صاحب البندقية و هم جند من رماة البنادق و كانوا للمحافظة، و (الشوربجية) و هم ضباط الإنكشارية يعمل لهم الحساء أى الشوربة فى قدر خاص، و رتبة الواحد منهم معادلة لرتبة قائد بعرفنا إلى غير ذلك من صنوف الجنود.

الجيوش الحديثة:

كان بعض الأمراء فى هذه الديار لا يخلون من مقاتلة على الدوام يستخدمونهم فى قيام أمرهم. و من أهمهم فى هذا الباب أولاد معن أمراء الشوف و ما إليها فقد كانوا يستطيعون أن يجندوا أربعين ألفا. و ذكر فولنى فى القرن الثامن عشر أنه رأى الأمير فى دير القمر جند خمسة عشر ألف

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۰

جندى فى ثلاثة أيام. و من الجيوش التى رأتها الشام و كانت بالنسبة للجيوش التركية تراعى النظام جيوش مصر مدة حكم إبراهيم

باشا ابن محمد على الكبير فكانت مؤلفة من المصريين و الأرناءود و الهوارة و الهنادى من عرب مصر و كلهم يدربهم ضباط ماهرون و كان فى رأس القواد بعض ضباط أجانب من الفرنسيين.

و لما انتشر نظام الجند الجديد ضاقت صدور الناس بالجندية لأنها لم تكن آخذة بأسباب الراحة و لأن الأخلاق الحربية أوشكت أن تزول لطول العهد بها و لا سيما من سكان المدن. على أن سكان البادية كانوا يعفون من هذه الخدمة. و السبب فى ذلك أن أمراءهم لم يكونوا من جنسهم فكانت اللغة من جهة و الشدة و التقتير عليهم من أخرى من الحوائل دون امتيازهم بالصفات الحربية و إيثارهم التفلت من الجندية إن أمكن.

و لقد أخرجت المدرسة العسكرية فى دمشق مدة نصف قرن مئات من الضباط من أبناء الشام خدموا الدولة خدمة صادقة. و كان منهم نبغاء لم يقصروا عن أرقى العناصر العثمانية علما و ذكاء و مضاء. و يقال على الجملة:

إن هذه الديار فى الدور العثمانى كانت بعسكرها و الحامية الإنكشارية أولا ثم الحامية النظامية آخرا أشبه بمعسكرات عظيمة، يعمل فريق عظيم من الناس لخدمة الجيش. و كانت رواتب الضباط و جرايات الجنود تخف جدا و كذلك علف الدواب فيسدون العجز بطرق مخزية. و مع عدم العناية بمأكل الجند و ملبسه كانوا يوم الغارة أسودا خصوصا إذا حسنت قيادتهم، لأن الشباب كانوا يتدربون على الصراع و المسايفة و الرماية و الألعاب الرياضية بجملتها، فإذا كانت الحرب أو اقتضت الحال الغارة على فريق أو دفع صولة صائل استطاعوا أن يستعملوا السلاح و يحسنوا الطعن و الضرب أول تجنيدهم.

و كانت أنظمة العثمانيين الأخيرة محتذاة من أنظمة الجيش الألمانى و الفرنسى و لنا أن نقول بعد هذا: إنه ليس من أوضاعنا ما شابهنا فيه الأوربيين مدة حكم العثمانيين سوى الجيش. جندت الدولة العثمانية فى الحرب العامة نحو ربع مليون من الشام أو سبعا و عشرين قرعة و يمكن أن يقال على الجملة: إنه حارب ربعهم و هلك ربعهم و استخدم ربع فى خدم خفيفة و هرب الربع

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۱

الآخر. و لما غلبت الدولة العثمانية فى الشام و انهزم جيشها و استسلم أكثره و لم يتمكن من الثبات أمام قوى الحلفاء الجديدة فانحل الجيش بالطبيعة.

و قد رأى هذا القطر مدة الحرب العالمية الأخيرة جيوشا من الترك و الأكراد و الألمان و المجر و النمسويين و البوهيميين و غيرهم كما رأى بعد انحلال العثمانية جيوشا من البريطانيين و الكناديين و الأوستراليين و الهنود و الفرنسيين و الجزائريين و المراكشيين و الهنود الصينيين و السنغاليين و السودانيين. و بالجملة رأى جنودا من معظم المستعمرات الخاضعة لبريطانيا و فرنسا فأشبه تبلبل الألسنة فى الشام تبلبلها فيه على عهد الحروب الصليبية و المغولية.

و لما أسست الحكومة العربية فى المدن الأربع و أعمالها أخذوا يجندون جنودا عربية مأجورة من أهل هذه الديار ثم شرعوا بالتجنيد الإجبارى أشهرا قليلة ريثما دخلت فرقة الجنرالين غوابيه ودى لاموط إلى دمشق و حلب و سقطت المملكة فى يد الحكومة الفرنسية المنتدبة و فضّ الجيش العربى و صفى.

و كان بضعة ألوف مسجلة على الورق. ثم أخذت فرنسا بتأليف جيش مختلط من السوريين و الفرنسيين أشبه بالدرك و ذلك فى الأصقاع الواقعة تحت انتدابها و أبقت فرنسا فرقا من جندها فى الولايات التى انتدبت للإشراف عليها، كما جعلت بريطانيا العظمى فى فلسطين اعتمادها على جيشها. و فى الشرق العربى على جيش صغير من الأهلين يعاونه الجيش البريطانى المرابط فى فلسطين عند الاقتضاء. و فى ثورة سنة (۱۳۴۴) جندت الدولة المنتدبة كتائب من المتطوعة سمتهم الأنصار و كانت جمهرتهم من الشركس و الأرمن و الإسماعيلية فلقى الأهلون من سوء تربيتهم و قلة نظامهم و اعتدائهم على الأبرياء ما أنسى ذكر الإنكشارية. و كانت حجة الحكومة أنها اصطنعت أشقياء لقتال أشقياء.

و جعل لبنان كتيبة له من الجند سماها القناصة و هم أشبه بالدرك و الشحنة.

و ربت فرنسا الدرک فأحسنت تربیته و هو من خیر أدوات الحکومة فی سوریة و لبنان و دونه الشرطة المستعملة للهیمنة علی الأمن فی المدن فإن هذا لم تفلح بتربیته علی ما یجب.

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۲

الاسطول

[بحریة الفینیقیین و العبرانیین و الفراعنة:]

لیس فی الأیدی نص یرکن إلیه لمعرفة اصطلاح شعوب الشام القدماء فی بحریتهم. و سواحل هذه الدیار المستطیلة الممتدة من العریش إلی خلیج الإسکندرونة تحتاج فی اتصالها إلی مراکب للتجارة و غیرها. و لم یعرف أن عظام الأنهار فی الشام کالأردن و العاصی کانت تجری فیها سفن إلا الفرات فإنه کان یحمل مغادی و حراقات و جلبات تذهب و تجیء بین الشام و العراق.

و أهم من عرف بمعاناة البحار أهل فینیقیة سکان الساحل الأوسط و ما کانوا أعظم شعب بحری درج علی هذه الأرض فقط، بل کانوا أعظم الشعوب القدیمة فی العالم جرأة علی الأسفار فی البحار، و کانت أصولهم علی الأرجح من شعوب بحارة جاءوا من البحرین فی خلیج فارس و نزلوا هذا الساحل الجمیل فظهرت کفاءتهم فی اختراق العباب فی سالف الأحقاب.

و الصناعات فی الناس تکون بالإرث أو ابنة البیئة، و الفینیقیون استوفوا هذین الشرطین فکانوا بحارة بالفطرة و البیئة، بحارة بالتربیة و الحاجة.

و مما ساعد الفینیقیین علی إجادة صنع السفن کثرة الأخشاب فی لبنان و لا سیما شجر الأرز الذی منه کانوا یصنعون مراکبهم الصغیرة و الکبیرة.

و کانت لهم شؤون ما عرفها غیرهم فی السیر و الإسراء، و الإقلاع و الإرساء، یهتدون بنجمة القطب یستدلون بها علی سمت الشمال. و لذلک کانوا یوغلون فی البحار، لا یخشون الأخطار، حتی لقد اجتازوا البحر المتوسط إلی

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۳

بحر الظلمات و بحر الشمال و غیره، و لم ینازعهم منازع من الشعوب فی هذا الباب، لأنهم کانوا یکتمون سرّ الطرق التی یسلکونها و یتشددون فی کتمانها. و ربما أغرقوا سفنهم إذا اطلع بعض البحارة من الغرباء عنهم علی خطة رحلاتهم، فضلا عن إغراق مراکب من یحاول سرقة أسرارهم فی طرقهم البحریة. و لم یعرف غیر الفینیقیین جزائر الکاسیترید أو جزائر سورلنج فی الشاطئ الغربی من الجزائر البریطانیة.

و لم یؤثر عن العبرانیین أن کان لهم أسطول بل قوارب لا تبعد کثیرا عن الساحل علی النمط القدیم. أما الفراعنة الذین حکموا جزءا مهما من جنوب الشام و ساحله مدة فکانت بحریتهم و صناعتهم فی مصر أولا، ثم جعلت فی طرابلس و صور و جبیل لقربها من مستودع الأخشاب الصالحة لصنع السفن. و لم تکن ملاحة للفراعنة من السلائل الأولی حتی الدولة السادسة و العشرین لأنهم لیسوا أمة حربیة.

بحریة الرومان و الیونان:

کانت البحریة فی العهد الیونانی فی الشام علی مثال بحریة تلک الدولة قویة منظمة. و کانت الیونان أمة بحریة من الطراز الأول فی القدیم. ألفوا الیمّ منذ عرف تاریخهم، و معظمهم جزائریون طالما عارکوا البحر و عرکهم.

و انطبع سکان الساحل الشامی بطابعهم و ساروا علی أقدامهم فی سلوک سبل البحار. و مثل ذلک یقال فی الرومان الذین طال

عهدهم فی الشام، فإن أساطیلهم کانت تحمل من شواطئ إیطالیا و إلیها تجارات الأمم التی خضعت لسلطانهم. و صعب أن یحکم علی بحریة الشام فی الدور الرومانی و لعلها لم تخرج فی کل حال عن طور الیونان، و لا شک أن بعض الموانی الشامیة کان لها صناعات کما کان لها فی کل دور. و یمکن أن یقال علی الجملة: إن الشام لم یعرف له منذ عرف تاریخه إلی الفتح الإسلامی بحریة خاصة وافیة بالغرض

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۴

بالنسبة لتلک الأعصر إلا فی عهد الفینیقیین و کان فی سائر أدواره مندمجا فی الأمم القویة التی امتد سلطانها علیه.

العرب و البحار:

کان العرب لا یحبون البحار لبعدهم عنها و لما کان یبلغهم من أخطارها.

و قد اتفق فی أوائل الفتوح أن العلاء ابن الحضرمی عمل أسطولا و اجتاز من البحرین إلی فارس و وصل إلی إصطخر، و دمر الأعداء بأسطوله فقتل کثیر من رجاله، فغضب عمر بن الخطاب لأن هذا العمل لم یکن عن مشورته. و لما کان معاویة علی جند دمشق و الأردن ألحّ علی عمر فی غزو البحر، فکتب الخلیفة إلی عامله فی مصر عمرو بن العاص یریده علی أن یصف له البحر فکتب إلیه «یا أمیر المؤمنین إنی رأیت البحر خلقا کبیرا یرکبه خلق صغیر، لیس إلا السماء و الماء، إن رکد خرق القلوب، و إن تحرک أزاغ العقول، یزداد فیه الیقین قلة، و الشک کثرة، هم فیه کدود علی عود، إن مال غرق، و إن نجا برق». فکتب عمر إلی معاویة «لا و الذی بعث محمدا بالحق لا أحمل فیه مسلما أبدا ... و تاللّه لمسلم واحد أحب إلیّ مما حوت الروم. فإیاک أن تعرض لی، و قد علمت ما لقی العلاء منی و لم أتقدم إلیه فی مثل ذلک».

و قد علل ابن خلدون امتناع المسلمین عن رکوب البحر بأن العرب لبداوتهم لم یکونوا أول الأمر مهرة فی ثقافته و رکوبه. و الروم و الفرنج لممارستهم أحواله، و مرباهم فی التقلب علی أعواده، مرنوا علیه و أحکموا الدربة بثقافته. فلما استقر الملک للعرب و شمخ سلطانهم، و صارت أمم العجم خولا لهم و تحت أیدیهم، و تقرب کل ذی صنعة إلیهم بمبلغ صناعته، و استخدموا من النواتیة فی حاجاتهم البحریة أمما، و تکررت ممارستهم البحر و ثقافته، تاقت أنفسهم إلی الجهاد فیه و إنشاء السفن و الشوانی، و شحنوا الأساطیل بالرجال و السلاح، و أمطوها العساکر و المقاتلة لمن وراء البحر.

و اختصوا بذلک من ممالکهم و ثغورهم ما کان أقرب إلی هذا البحر و علی ضفته مثل الشام و غیرها.

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۵

نعم کان العرب بادئ بدء یتخوفون رکوب البحر فقد استعمل الولید ابن یزید الأسود بن بلال المحاربی علی بحر الشام فقدم علیه أعرابی من قومه ففرض له و أغزاه البحر فلما أصابت البدوی تلک الأهوال قال شعرا منه:

فلله رأی قادنی لسفینةو أخضر موّار السرار یمور

تری متنه سهلا إذا الریح أقلعتو إن عصفت فالسهل منه و عور

فیا ابن بلال للضلال دعوتنیو ما کان مثلی فی الضلال یسیر

لئن وقعت رجلای فی الأرض مرةو حان لأصحاب السفین وکور

و سلمت من موج کأن متونهحرار بدت أرکانه و ثبیر

لتعترضنّ اسمی لدی العرض حلقةو ذلک إن کان الإیاب یسیر

و قد کان فی حول الشریة مقعدلذیذ و عیش بالحدیث غریر

أول خليفة غزا فى البحر الشامى و البحرية الأموية:

منع عمر عماله من غزو البحر بعد إخفاق العلاء فى غزوته البحرية.

و لما قلد عمر عبد اللّه بن قيس النظر فى ثغور الشام جميعها كتب إليه عمر إنى لا أحمل المسلمين على أعواد نجرها نجار و جلفطها الجلفاط (و الجلفاط الذى يشد ألواح السفينة) و ما زال به معاوية حتى أقنعه. و فى بيروت عمر معاوية المراكب و جهز الجيش إلى قبرس و معهم أم حرام و اسمها الرميصاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطت فى بيروت و ماتت فيها. و يقول المقريزى: إن الناس كانوا يغزون بنسائهم فى المراكب. و شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين و أربعين و هو أول مشتى شتوه بها فاستعمل معاوية على أهل المدينة عبد الملك بن مروان و هو يومئذ ابن ست عشرة سنة فركب عبد الملك بالناس البحر. فلما ولى عثمان بن عفان طلب إليه معاوية أن يغزو البحر فوافقه على ذلك، على أن ينتخب من يحملهم فى المراكب و لا- يقترع بينهم، فمن اختار الغزو طائعا يحمله و يعينه ففعل. و غزا معاوية الغزوة الأولى فكان أول مسلم غزا فى البحر، و استعمل على البحر عبد اللّه بن قيس الحاسى خليفة بنى فزارة فغزا خمسين غزوة من بين شاتية و صائفة فى البر و البحر و لم يغرق فيه أحد. و أغزى معاوية عقبة بن عامر

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۶

الجهنى فى البحر و أمره أن يتوجه إلى أرواد. و فتح هذه الجزيرة جنادة بن أبى أمية فنزلها المسلمون و اتخذوا بها أموالا و مواشى يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن. و لهم ناطور يحذرهم ما فى البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، و كانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر فيقطعون سفنهم. و كان معاوية يدرّ لهم الأرزاق و العطاء، و العدو يخافهم.

فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية. و جنادة بن أبى أمية الأزدى من صحابة الشام كان على غزو الروم فى البحر لمعاوية زمن عثمان إلى أيام يزيد إلا ما كان من أيام الفتنة فتنة على و معاوية و شتى فى البحر سنة (۵۹).

و بذلك عرفنا أن معاوية أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام بل الشام لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد أسطول عربى يغزو سواحلهم الحين بعد الحين. و إلا- تعذرت المحافظة على السواحل و بطلت التجارات. و كان المسلمون قبل ذلك على خطر أبدا يتخطفهم أعداؤهم من عقر دارهم، و يطردونهم حتى فى أرضهم و يحملونهم أسرى يبيعونهم بيع الإماء و الرقيق.

أى أن الروم يغزون الشام إذا لم يغزهم أهله فحاول معاوية أن يقنع الخليفة الثانى فتحامى هذا الإذن بركوب البحر خوفا على المسلمين، متأثرا مما أصابهم يوم غزوة البحرين، و لأنه لم ير ما رآه عامله فى الشام من الخطر الذى يدهم القطر إن لم تتواز قوته البحرية بقوته البرية.

قال محبوب المنبجى: و فى السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر و صار إلى قبرس فافتتحها و كان معه ألف و سبعمائة سفينة مملوءة سلاحا و أموالا- فسبى منها و من الجزائر المطيفة بها خلقا من الناس، و نزل على جزيرة أرواد (رودس) و لم يصل إليها، و فى الربيع رجع فى جيوش أعظم و أكثر من الأولى فنزل عليها و ضيق عليهم جدا، فلما رأى أهل أرواد الشدة التى هم فيها و العساكر التى أظلتهم طلبوا الأمان على أن يخرجوا إلى سورية و يسكنوا حيث شاءوا و وفى لهم معاوية بن أبى سفيان و خرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم و أحرق.

و ذكر المنبجى أيضا أنه فى السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم فى لوقية، فلما توسطوا البحر لحقهم بعض الروم فى سفينة فألقى النار فى السفن

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۷

فاحترقت كلها و هم أى الروم أول من أخرج النار و صارت لهم عادة.

و قد كان المسلمون فى خطب جلل من هذه النار فى البحار و هى الصواريخ و كانت إذا أصابت المراكب لا تطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندى أو الرمل و مخترعها كالينكوس من أهل بعلبك لجأ إلى الروم سنة (۶۷۳ م) فعلمهم هذا التركيب الذى كان له فى

الحروب البحرية أهاويل.

و ممن غزا فی أيام معاوية فی البحر بسر بن أبی أرطاة و فضالة بن عبيد الأنصاری. و فی سنة (۴۹) كانت غزوة يزيد بن شجرة الرّهاوی فی البحر فشتی بأهل الشام. و غزا فی البحر أيضا عمرو بن يزيد الجهنی (۵۸).

و روی المنبجی أن معاوية بن أبی سفيان استعد لقصد القسطنطينية فی السنة التاسعة لعثمان و الرابعة و الثلاثين للعرب، و أعدّ سفنا كثيرة فی مدينة طرابلس علی ساحل البحر، و حمل من السلاح أمرا عظيما، و أن الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسما من ديارهم و سبی من أهلها مئة ألف نفس. ثم جاء ملك الروم فی سفن كثيرة من البحر فلما التقی الجمعان كانت الهزيمة علی الروم، و كاد ملكهم أن يغرق، و تخلص بعد أن قتل من الروم خلق كثير حتی صار البحر دما، و رجع العرب بغلبة كبيرة.

و فی هذا برهان جلی علی العظمة التی بلغها الأسطول العربی بسرعة، و ما أحرق منه فی طرابلس لم يؤثر فيه لأن الصناعة كانت أيضا فی عكا و صور و ربما فی غيرهما من ساحل الشام، و من عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس، و بعد أن أحرق الروميان اللذان كانا فی خدمة الأسطول فی طرابلس أسطول هذه الفرضة البحرية بأجمعه، أصبح من المتعذر علی معاوية أن يأمن علی أساطيله من كان ائتمنهم، و هل أنباط النصاری فی رأی بعضهم، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم و نواتيهم فی مراكبهم الحربية، و الغالب أن العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ثم اعتمدوا علی أنفسهم شأنهم فی كثير من مقومات مدنيتهم.

و مع هذا كان أكثر البحرية و الذين يتكفلون بغزو الروم من أهل الإسلام و كان الروم معهم و لا- سيما فی القرون الثلاثة الأولی للهجرة فی أمر مريج.

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۸

قال المسعودی: أخبرنی بعض الروم ممن كان قد أسلم و حسن إسلامه أن الروم صوّرت عشرة أنفس فی بعض كنائسها من أهل البأس و النجدة و المكايد فی النصرانية و الحيلة من المسلمين، منهم الرجل الذی بعث به معاوية حين احتال علی البطريق فأسره من القسطنطينية، فأقاد منه بالضرب ورده إلی القسطنطينية، و عبد اللّه البطال و عمرو بن عبيد اللّه و علی بن يحيی الأرمنی و العريل بن بكار و أحمد بن أبی قطيفة و قرنياس البيلقانی صاحب مدينة ابريق (ازنيق؟) و حرس خادس أخت قرنياس و يازمان الخادم فی موكبه، و الرجال حوله و أبو القاسم بن عبد الباقی. و من رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسی و معيوف بن يحيی الحجوری من أهل دمشق و المغيرة بن عبيد الأزدی الخراسانی ولی غازية البحر فی أيام يزيد بن عبد الملك.

وصف أسطول شامی:

و للبحتری قصيدة فی مدح أحمد بن دينار يصف فيها مركبا كان اتخذه و هو والی البحر و غزا فيه بلاد الروم. قال العسكری فی ديوان المعانی:

لم يصف أحد من المتقدمين و المتأخرين القتال فی المراكب إلا البحتری، و عدوا قصيدته هذه من عيون قصائده و فضلوها علی كثير من الشعر و هی التی يقول من جملتها:

و لما خطونا دجلة انصرم الهوی‌فلم يبق إلا لفتة المتذكر

و خاطر شوق ما يزال يهيجنالبادين من أهل الشآم و حضّر

إلی أن قال:

و لما تولی البحر و الجود صنوه‌غدا البحر من أخلاقه بين أبحر

أضاف إلی التدبير فضل شجاعةو لا عزم إلا للشجاع المدبّر

إذا شجروه بالرماح تكسرت‌عواملها فی صدر ليث غضنفر

غدوت على «الميمون » صبحا و إنماغدا المركب الميمون تحت المظفر

خطط الشام، ج۵، ص: ۳۹ أطلّ بعطفيه و مرّ كأنماتشرف من هادى حصان مشهر

إذا زمجر النوتى فوق علاته رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر

يغضون دون الإشتيام عيونهمو فوق السماط للعظيم المؤمّر

إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى لهاجناحا عقاب فى السماء مهجّر

إذا ما انكفا فى هبوة الماء خلتهتلفع فى أثناء برد محبّر

و حولك ركابون للهول عاقرواكؤوس الردى من دارعين و حسّر

تميل المنايا حيث مالت أكفهمإذا أصلتوا حدّ الحديد المذكّر

إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهملِيقلع إلا عن شواء مقتّر

صدمت بهم صهب العثانين دونهمضراب كإيقاد اللظى المتسعر

يسوقون أسطولا كأن سفينهسحائب صيف من جهام و ممطر

كأن ضجيج البحر بين رماحهمإذا اختلفت ترجيع عود مجرجر

تقارب من زحفيهم فكأنماتؤلف من أعناق وحش منفر

فمارمت حتى أجلت الحرب عن طلىمقطعة فيهم و هام مطيّر

على حين لا نقع، تطوّحه الصّباو لا أرض تلفى للصريع المقطّر

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۰ و كنت ابن كسرى قبل ذاك و بعدهمليئا بأن توهى صفاة ابن قيصر

جدحت له الموت الزعاف فعافهو طار على ألواح شطب مسمّر

مضى و هو مولى الريح يشكر فضلهاعليه و من يول الصنيعة يشكر

إذا الموج لم يبلغه إدراك عينهثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر

تعلق بالأرض الكبيرة بعدماتقنّصه جرى الردى المتمطر

سواحل الشام و نفقات الأسطول و المناور و الرباطات و الفداء:

كانت سواحل أجناد الشام كثيرة، و لكن الصناعة صناعة المراكب كانت فى صور و عكا و طرابلس على الأكثر. و سواحل جند حمص فى الإسلام انطرطوس و بانياس و اللاذقية و جبلة، و سواحل جند دمشق عرقة و طرابلس و جبيل و بيروت و صيدا و حصن الصرفند و عدلون، و سواحل جند الأردن صور و عكا، و سواحل جند فلسطين قيسارية و أرسوف و يافا و عسقلان و غزة، و سواحل جند قنسرين الإسكندرونة و السويدية. و على امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ أنه أغير عليها إلا من البر، و ما جاءها من الحملات البحرية فى عدة أدوار و لا سيما على عهد الإسكندر و الرومان و الصليبيين و الأتراك أو الأسطول الإنكليزى سنة (۱۷۹۹ م) و الأسطول الدولى سنة (۱۸۴۱) و أسطول الحلفاء سنة (۱۹۱۸) لم يكن فى الحقيقة إلا ثانويا أريد به دك بعض المواقع الحربية بنيران السفن أو ضمان جلب الذخيرة أو عدم قطع خط الرجعة من البر.

و ذكر قدامة أنه كان يجتمع إلى مراكب الشام التى كانت تغزو من الثغور الشامية مراكب الشام و مصر من الثمانين إلى المائة، و إذا عزموا على الغزاة فى البحر كوتب أصحاب مصر و الشام فى العمل على ذلك و التأهب له ليجتمع بجزيرة قبرس، و يسمى ما يجتمع منها «الأسطول» كما يسمى ما يجتمع من الجيش فى البر «المعسكر»، و المدبر لجميع أمور المراكب الشامية

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۱

و المصریة صاحب الثغور الشامیة، و مقدار النفقة علی المراکب إذا غزت من مصر و الشام نحو مائة ألف دینار.

و ذکر المقریزی أن أول ما أنشئ الأسطول بمصر فی أیام المعتصم سنة (۲۳۸) فأنشئت الشوانی برسم الأسطول و جعلت الأرزاق لغزاة البحر کما هی لغزاة البر، و اجتهد الناس فی تعلیم أولادهم الرمایة و جمیع أنواع المحاربة و انتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، و کان لا ینزل فی رجال الأسطول جاهل بأمور الحرب، و قد قویت العنایة بالأسطول علی عهد المعز الفاطمی، فکانت المراکب تنشأ بمدینة مصر و إسکندریة و دمیاط من الشوانی الحربیة و الشلندیات و المسطحات و تسیر إلی الساحل مثل صور و عکا و عسقلان.

و کانت جریدة قواد الأسطول فی آخر أمرهم تزید علی خمسة آلاف مدونة، منهم عشرة أعیان یقال لهم القواد و لهم رواتب دارة، و کانت عدة المراکب السائرة فی أیام المعز لدین اللّه تزید علی ستمائة قطعة و آخر ما صارت إلیه فی آخر الدولة نحو مائة قطعة.

و لقد اتخذ المسلمون المناور البحریة لهدایة السفن علی الشواطئ الشامیة، و کانت فی معظم السواحل رباطات للنیل من الأعداء إن قدموا بحرا، فأهل دمشق یرابطون فی بیروت، و أهل القدس فی الرملة أو یافا، و أهل حمص فی طرابلس، و کان لقریة کفر سلّام من قری قیساریة فی فلسطین رباطات علی البحر یقع فیها النفیر، و تقلع إلیها شلندیات الروم و شوانیهم معهم أسری المسلمین للبیع کل ثلاثة بمائة دینار، و فی کل رباط قوم یذهبون فی الرسالات، و یحمل إلیهم أصناف الأطعمة و یضج بالنفیر لما تتراءی مراکبهم، فإن کان الوقت لیلا أوقدت منارة ذلک الرباط، و إن کان نهارا دخنوا، و من کل رباط إلی القصبة عدة منائر شاهقة، قد رتب فیها أقوام فتوقد المنارة التی للرباط ثم إلی التی تلیها ثم الأخری، فلا یکون ساعة إلا و قد أنفر بالقصبة، و ضرب الطبل علی المنارة، و نودی إلی ذلک الرباط و خرج الناس بالسلاح و القوة و اجتمع أحداث الرساتیق ثم یکون الفداء رجل یشتری رجلا و آخر یطرح درهما أو خاتما حتی یشتری ما معهم. و رباطات هذه الکورة التی یقع بهن الفداء غزة، میماس، عسقلان،

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۲

ماحوز، أسدود، ماحوز یبنا، یافا، أرسوف- قاله المقدسی. و الماحوز هو المکان الذی بینهم و بین العدو، و فیه أسامیهم بلغة الشام، و منه الحدیث فلم نزل مفطرین حتی بلغنا ماحوزنا. و کانت حیفا تشارک هذه الموانی فی صنع المراکب و تسمی الأبنیة الخاصة بالملاحة البحریة بالجودی إشارة إلی سفینة نوح التی استوت علی الجودی فی الجزیرة.

و کانت الحروب سجالا بین المسلمین و الروم، ینال المسلمون من العدو و ینال العدو منهم، و یأسر بعضهم بعضا لکثرة هجوم أساطیل الإسلام علی موانی العدو، و کان أول فداء وقع فی الإسلام أیام بنی العباس، و لم یقع فی أیام بنی أمیة فداء مشهور، و إنما کان یفادی بالنفر بعد النفر فی سواحل الشام و مصر و غیرها، إلی أن کانت خلافة الرشید فوقع الفداء الأول باللامس من سواحل البحر الرومی قریبا من طرسوس فی سنة تسع و ثمانین و مائة علی ید القاسم بن الرشید و هو معسکر بمرج دابق من قنسرین، ففودی بکل أسیر کان بالروم من ذکر و أنثی، و حضر هذا الفداء من أهل الثغور و غیرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف إنسان بأحسن ما یکون من العدد و الخیل و السلاح و القوة و قد أخذوا السهل و الجبل و ضاق بهم الفضاء، و حضرت مراکب الروم الحربیة بأحسن ما یکون من الزیّ معهم أسری المسلمین، فکان عدة من فودی به من المسلمین فی اثنی عشر یوما ثلاثة آلاف و سبعمائة أسیر، و جری الفداء فی أدوار مختلفة. ذکر هذا المقریزی ثم عدد ما وقع من الفداء فی أوقات مختلفة إلی القرن الرابع و کان أکثر عدد من فودی به فی خلافة الواثق ۴۳۶۲ من ذکر و أنثی.

الأساطیل فی القرون الوسطی:

و معلوم ما کان من أسطول الفاطمیین من المنافع فی زمن الحروب الصلیبیة فکان ینجد المسلمین فی عسقلان و یافا و صور و بیروت و طرابلس و جبلة و اللاذقیة. و کانت أساطیل الفاطمیین فی الساحل مرتبة فی عسقلان و عکا و صور و غیرها و ذلک قبل أن یغلبهم الصلیبیون علی الساحل. و کان الأسطول من جملة العوامل فی بقاء الأمل باسترجاع ما جری احتلاله من الأرض

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۳

و كان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات، و فى العادة أن الأسطول إذا غنم ما عساه أن يغنم لا يتعرض السلطان منه إلى شىء البتة، إلا ما كان من الأسرى و السلاح فإنه للسلطان، و ما عداهما من المال و الثياب و نحوهما فإنه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد.

و لم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الأيوبية ثم دولة المماليك البحرية و دولة المماليك البرجية فى إنشاء السفن الحربية و التجارية، و إن كانت عنايتهم بجيوشهم البرية أكثر، و ما كان الصليبيون ينالون من المسلمين فى الساحل إلا يوم تصل سفنهم من موانى الغرب و يكثر عددها، حتى إذا أقلعت و خلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقلعة من الثغور، أو يمد من يجب إمداده من المسلمين فى الساحل الشامى، و على الرغم من المعاهدات التى عقدت بين أصحاب مصر و الشام و بين أمراء ايطاليا و اسبانيا و البرتقال، بعد القضاء على الصليبيين فى الساحل، فإن بعض الفرنج و الروم عادوا إلى طريقتهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا و بيروت و طرابلس، و لما غزوا إسكندرية سنة (۷۶۷ ه) ارتأى رجال الدولة فى مصر أن يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة، حمالات و شوانى، للدخول إلى قبرص، فأحضروا الصناع من جميع المماليك، و عمروا مسطبة بظاهر بيروت، و كانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر و أحضر الجند من دمشق فأنزل بين البحر و المراكب حذرا من مراكب صاحب قبرس لئلا يحضر العدو على حين غفلة فيحرق ما يعمل من المراكب، و عملت حمالتان كبيرتان الواحدة باسم (سنقر) و الثانية باسم (قراجا) و هما أميران من أمراء ذلك الوقت، ثم أهمل الأسطول إلى أن جاء الجنوية (۷۸۴ ه ۱۳۸۲ م) إلى صيدا و أخذوها ثم جلوا منها، ثم عادوا فغزوا بيروت و رمى الفرنج المسلمين بالجروخ و المدافع.- روى ذلك صالح بن يحيى.

و كانت جزيرة قبرس مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لأنها مفتاح الشام، و هى تعد من بحره و قطره، و لذلك كان إذا استولى عليها صاحبها من الروم و قوى سلطانه صانعه صاحب مصر و الشام، و إذا استضعفوه أسروه

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۴

و حملوه إلى العاصمة فأهانوه و أذلوه. و كان ملك إنكلترا، أو ملك الانكتار كما يقول مؤرخنا فى الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة، و قد جعلها ريشاردس قلب الأسد لما جاء بأسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين قاعدة أعماله الحربية البحرية. فانظر كيف يعيد التاريخ نفسه، و كيف يتسلسل الفكر فى الغرب و ينقطع فى الشرق بانقطاع من يبتدعه و يؤسسه.

و كان الجنوية و البياسنة و البنادقة من سكان سواحل إيطاليا قد استولوا على البحار فى تلك العصور كما استولت عليها بريطانيا العظمى فى العصرين الأخيرين، و كانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط يأتون بعض السواحل الشامية يغزونها، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية و الاعتماد فى نقل الجيوش من مصر و الشام على طريق البر لأنه أسلم، اللهم إلا فى أوقات مخصوصة من السنة و عندما يصافى ملوك الفرنجة و الروم و صاحب قبرس. و ظلت العناية بالأساطيل على عهد حكومات المماليك تختلف باختلاف عقل السلطان المتغلب، و تفرّغ ذهنه لصيانة مملكته من الطوارئ الخارجية.

أما السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصا و أهل الشام ما برحوا منذ الزمن الأطول أمة تمارس الأسفار البحرية، و تعرف من أين تؤكل الكتف فى المتاجر، و قد شوهدت آثار تجارتها حتى فى جزائر بريطانيا و بلاد النروج و فنلندة و معظم سواحل البحر المتوسط.

و كانت الحروب الصليبية معلمة لأهل أوربا على طريق البحار إلى الشرق، و معلمة لأهل الشام على اختراق العباب إلى أوربا، و كل ذلك على سفن و مراكب حفظت أمثلة منها فى المتاحف البحرية فى الغرب و لا سيما فى إيطاليا و فرنسا و إسبانيا. و كانت السفن الحربية تسمى بأسماء كثيرة منها الأغربة و البسطات و الأعواديات و البركوشات و الشلنديات و المسطحات و الحرايق (الحراقات) و اليخوت و الشوانى و القراقير. و لكثرة اختلاط النواتية و الملاحين من أهل الشام و غيرهم من السواحل الإسلامية بأبناء حرفتهم النازلين على الشاطئ المقابل للشاطئ الإفريقى و الشامى، أخذ الفرنج كثيرا من المصطلحات البحرية عن العرب، و نقلوها إلى لغاتهم

محرفة مرخمة، و لا تزال إلى اليوم تقرؤها فى معاجم اللغات اللاتينية خاصة، و منها «أمير الماء» فحرف

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۵

منها الفرنج و صاغوا لفظ «اميرال» و الأصل فيها أمير الماء أى الربان الأعظم و قائد الأسطول، و قد أخذ الفرنج من العرب استعمال إبرة السفينة (الحك أو الحقة) و كان العرب أخذوها عن الصينيين فيما قيل و أخذها الفرنج عنهم فى الحروب الصليبية.

و لما فتح العثمانيون الشام و مصر كان الأسطول العثمانى فى إبان قوته، و كانت بعض سفنهم تقلع من موانى الروم و تأتى ساحل الشام، و بعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر، و إذا حدثت فتنة داخلية كانوا يجهزون بعض مراكبهم لتساحل الشام و تشاطئ الأرض التى نجم فيها الشر، حتى إذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة- و لا سيما بعد أن أحرق أسطولها و الأسطول المصرى فى نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة (۱۸۲۷) أصبحت السفن التى يتمتع سكان السواحل بمرآها للأمم الحديثة، و لا سيما الروسيون و الجنويون و البنادقة و الفرنسيون و الإنكليز، و قلّت سفن البرتقاليين و الإسبانيين لأن طرق مستعمرات هاتين الدولتين و تجاراتهما لم تكن على بحرنا، و سفنهم تمخر العباب إلى وجهات أخرى فى أميركا و آسيا. و الغالب أن الصناعة أى صنع المراكب كان خاصا بالإستانة و لم يعهد فى دور العثمانيين أن أنشأوا سفنا فى صناعات الشام. و كان للعثمانيين مراكب فى الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشام إلى العراق، و لا سيما فى زمن الثورات و الأزمات، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبى.

و انحلت بحرية الترك فى أواخر أيامهم حتى صرت لا تشاهد فى ساحل الشام إلا على الندر مراكب عثمانية، و هى إذا قيست إلى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الأمم المتحركة المتجددة و بحرية الأمة الجامدة الخامدة.

و كانت الدولة إن صحت عزيمتها فى أواخر أيامها أن تنشئ لها طرادا أو رعادا أو غواصة أو دارعة أو يختا، توصى عليه فى صناعات إيطاليا أو فرنسا أو إنكلترا، لأن العلم بذلك فقد من بنيها، و لم تسر مع العصر فى الرقى البحرى، كما سارت مع العصر فى الجيش البرى، بمعنى أن الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضها دولة برية فقط، و كانت تجمع المزيتين

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۶

البرية و البحرية أيام كانت ترتعد الفرائص منها فى الغرب، و يتمنى عظماء ملوكها أن يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها و جيوشها.

و قد ظهر فى حرب چناق قلعة الأخيرة مثال من ترقى بحرية الحلفاء، و نموذج من ترقى جيش العثمانيين، و استبسال قوادهم و ضباطهم و أفرادهم.

و فى مغادرة الحلفاء ذاك الشاطئ بعد أن أضاعوا زهاء مئة ألف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة و زيادة اعتراف ضمنى للعثمانيين بتفوقهم بجيوشهم البرية، و أن العسكرى التركى من خير جنود الأرض صبرا و إقداما على الموت.

قصورنا فى البر و البحر:

و من الغريب أن أهل الساحل، و منهم قسم يفتخر بأنه من نسل الفينيقيين سادة البحار، لم تتعلق هممهم على كثرة ما بلغه الشامى من درجات الغنى و التمدن فى مهاجره، أن ينشئوا لهم أسطولا تجاريا صغيرا على النحو الذى تفعل أضعف الشعوب لتغدو و تروح على الأقل بين سواحل البحر المتوسط و البحر الأحمر و البحر الأسود، يحملون عليها متاجرهم و ينقلون قاصديهم و أبناءهم، و يعتمدون عليها فى نقل صادرات القطر و وارداته، على الصورة التى كانت لليونان قبل أن ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مئة سنة، فكان لهم أسطول تجارى قلبوه أسطولا حربيا يوم استقلوا. و أغرب من هذا أن يقال للقطر الشامى إنه مستقل، و ما شوهدت قط فى قديم و لا حديث، أمة مستقلة لا أسطول لها و لا معسكر. و هذا من أغرب ما يدونه المدونون، من أخبار هذه القرون. و لا سبب لذلك إلا أن بعض أهل الساحل يفضلون أن يعيشوا عبيدا على أن يعيشوا سادة مستقلين، و كانوا يرون أن فرنسا حاميتهم و المحمى أبدا مقطور فى ذنب حاميه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۷

الجبایة و الخراج

جبایات القدماء:

عزّ علینا الظفر بنص صریح فی أصول الجبایة عند الأمم القدیمة التی انبسط سلطانها علی هذا القطر، و غایة ما عرفنا عن الرومان و هی الأمة الأعرق فی المدنیة من غیرها و التی طال عهدها سبعمائة سنة، أنه کان یقضی علی الشعب الشامی أن یؤدی الجزیة و عشر غلاته، و إتاوة من المال، و رسما علی کل رأس. و للشعب الرومانی مواد مهمة من الجمارک و المناجم و الضرائب و الحقول الصالحة لزرع الحنطة و المراعی یؤجرونها من شرکات متعهدین یسمونهم العشارین، یبتاعون من الحکومة حق جبایة الخراج.

و فی کل ولایة عدة شرکات من العشارین و لکل شرکة مستخدمون من الکتاب و الجباة یظهرون فی مظهر السادة، و یتناولون أکثر مما یجب لهم أخذه، و یسلبون نعمة الأهلین، و کثیرا ما یبیعونهم کما یباع الرقیق. و لما کان الرومان قد جمعوا ثروة الأمم المغلوبة أصبحت الدراهم کثیرة جدا فی رومیة، و نادرة جدا فی الولایات، فکان یتیسر فی رومیة الاقتراض بفائدة أربعة أو خمسة فی المائة، أما فی الولایات فلا یقل عن اثنی عشر فی المائة.

و إذا لم یستطع المدین أن یوفی رأس المال و رباه یعمد الصیارف فی تقاضی أموالهم إلی الطرق التی یستعملها العشارون. أوجز أحدهم السیاسة الامبراطوریة فی الرومان بقوله: «الراعی الصالح یجزّ صوف غنمه و لا ینتفه» فمضی قرنان و أباطرة الرومان یکتفون بجز سکان مملکتهم، یسلبون منهم کثیرا من الأموال و لکنهم یحمونهم من العدو الخارجی.

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۸

و یقول لامنس: إن الرومان ضربوا الجزیة علی أهالی الشام، علی الذکور من سن الرابعة عشرة و علی الإناث من الثانیة عشرة إلی سن ۶۵ من عمرهم جمیعا و فرضوا علیهم خراجا جبوه من الأملاک یبلغ فی المئة واحدا و رسموا أیضا ضرائب و مکوسا علی الواردات و الصادرات من السلع إلاـ أن هذه الرسوم مع ثقلها کانت أخف علی عاتق الشامیین من المغارم و السخر التی حملهم إیاها ملوکهم سابقا، و کانوا یتقاضونها دون نظام معلوم و فی أی آن شاءوا. اه.

و فی قاموس الکتاب المقدس أن العشار ملتزم الأعشار و الضرائب عند الرومانیین و کانوا مشهورین بالظلم و الصرامة، و أن التعشیر جری قبل أیام موسی بکثیر بین الأمم القدیمة و لا سیما الآسیویة و أدخلها موسی بإلهام إلهی فی شریعته و أعطیت العشور للاویین الذین لم یکن لهم نصیب من الأرض فالتزموا أن یأخذوا معاشهم من إخوتهم، و کانوا یعشرون البقر و بقیة المواشی و لم یکن عشر الأعشاب مطلوبا إلا أن الفریسیین کانوا یعشرون النعنع و الشبث و الکمون. أما الجزیة علی ما یؤخذ من روایات التوراة فقد علم أن الشریعة الموسویة کانت تفرض علی کل معدود نصف شاقل ینفق فی سبیل خیمة الاجتماع، و فی الأیام الأولی من تاریخ العبرانیین إلی أیام الملوک لم تکن للخدمة المدنیة و العسکریة و إنما قدم الشعب من عمله و مقنیاته تبرعا حتی جعل الملوک جزیة أو خراجا علی الأرض و أکمل ذلک سلیمان إلی درجة ثقیلة جدا علی الشعب.

الجبایة فی الإسلام:

اعتمدت العرب أول الفتح فی تنظیم دواوین أموالها علی الروم فی الشام، ینظرون لهم فی مسائل الدخل و الخرج، و وضع التوازن بحسب عرف تلک الأیام، و ذلک لأن العرب کانوا لأول أمرهم نصف أمیین أو نصف متحضرین و أهل الشام أعرق منهم فی الحضارة و ما ینبغی لها، حتی کان زیاد یقول:

ينبغى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بامور الخراج.

و لقد كان الإسراف يبدو فى الأموال أيام الترف و النعيم، و يتجلى الاقتصاد فيها على عهد الجدّ و الإصلاح، و ذلك يرجع على الأغلب إلى من يتولى

خطط الشام، ج۵، ص: ۴۹

أمر الأمة من خليفة أو سلطان أو ملك أو أمير، فإذا صلح الرأس صلح الجسد كله. و إذ كانت دواعى الإنفاق محصورة فى الداخل، و كان النقد أقل من هذه الأيام بالطبع، و التفنن فى ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه فى القرون الأخيرة، و حركة المعاملات و المقايضات محدودة، و أضعف من العصور الحديثة- كانت المسائل المالية لعهد العرب إلى السذاجة لأول الأمر شأنهم فى عامة أمورهم.

و الجباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، و آخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة، فإن كانت الدولة على سنن الدين فليست إلا المغارم الشرعية من الصدقات و الخراج و الجزية، و هى قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل، و كذا زكاة الحبوب و الماشية، و كذا الجزية و الخراج و جميع المغارم الشرعية و هى حدود لا تتعدى، و إن كانت على سنن التغلب و العصبية فلا بد من البداوة فى أولها، و البداوة تقتضى المسامحة و المكارمة و خفض الجناح، و التجافى عن أموال الناس و الغفلة عن تحصيل ذلك إلا فى النادر. قال: و الدولة تكون فى أولها قليلة الحاجات لعدم الترف و عوائده، فيكون خرجها و إنفاقها قليلا، و يكون فى الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم، ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة فى الترف، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، و يكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة، فيزيد فى مقدار الوظائف و الوزائع، و يستحدث أنواعا من الجباية يضربها على البياعات، و يفرض لها قدرا معلوما على الأثمان فى الأسواق، و على أعيان السلع فى المدينة.

ضروب الجباية:

كانت الجباية فى الصدر الأول تجمع من الخراج و العشور و الصدقات و الجوالى أى إن لها أربعة موارد رئيسة، ثم صارت أصول جهات

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۰

الأموال السلطانية عشرة: الجزية و الخراج و العشور و الأجور و الزكوات و أثمان المبيعات و المقاسمات و الغنيمة و الفىء و المعادن. و زادت أنواع الجباية على عهد الانحطاط و نسى المتغلبون أو الفاتحون «أن تكثير المالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه».

قال الظاهرى: إن كثرة الأموال و قلتها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة، و متاجر معشرة، و أخرجة محضرة، و عشور محررة، و قسم مقدرة، و غنائم موفرة، و فىء من جهات غير منحصرة، هذا إلى زكوات واجبة، و أجور لازمة، و ديات دماء ذاهبة، و محرر مباحات راتبة، و مستخرج معادن غير ناهبة، و عداد نعم سائمة لا سائبة، و وظائف على أكرة عاملة ناصبة، إلى غير ذلك من تربيع مزارع، و توزيع قطائع، و توسيع مراتع، و تفريع مواضع، و ترجيع طوالع. فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها، و مكن من استيفائها بسلوك طريقها و منهاجها، و فوض فيها حقوقا تجب رعايتها، عند صرفها و إخراجها اه

و قال الغزالى: و كل ما يحمل للسلطان سوى الأحياء و ما يشترك فيه

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۱

الرعية قسمان: قسم مأخوذ من الأعداء و هو الغنيمة المأخوذة بالقهر.

و الفىء و هو الذى حصل من مالهم فى يده من غير قتال. و الجزية و أموال المصالحة و هى التى تؤخذ بالشروط و المعاقدة. و القسم

الثانى المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسمان. المواريث و سائر الأموال الضائعة التى لا يتعين لها مالك. و الأوقاف التى لا متولى لها. أما الصدقات فليست توجد فى هذا الزمان- أى فى القرن الخامس- و ما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين و المصادرات و أنواع الرشوة كلها حرام. و قال أيضا: إن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها و كيف لا و الحلال هو الصدقات و الفيء و الغنيمة لا وجود لها، و ليس يدخل منها شيء فى يد السلطان و لم يبق إلا الجزية و إنما تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به.

فإنهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ و المأخوذ منه، و الوفاء له بالشرط.

ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصبّ إليهم من الخراج المضروب على المسلمين، و من المصادرات و الرّشى و صنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيرة.

أول ما فرض من الجباية:

عرف أول شيء من المال فرض على أهل دومة الجندل من الكتاب الذى أرسله النبى مع حارثة بن قطن الكلبى من أهل دومة الجندل يقول فيه: هذا كتاب من محمد رسول اللّه إلى أهل دومة الجندل و ما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل و لكم الصامتة من النخل، على الجارية العشر و على الغايرة نصف العشر، لا تمنع سارحتكم، و لا تعد فاردتكم ، تقيمون الصلاة لوقتها، و تؤتون الزكاة بحقها، لا يحظر عليكم النبات، و لا يؤخذ منكم عشر النبات، لكم بذلك عهد اللّه و الميثاق، و لنا عليكم النصح و الوفاء و ذمة اللّه و رسوله. شهد اللّه و من حضر من المسلمين اه.

و اختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور. و كان لأول الفتح ضرب الخراج على الأرض و الجزية على الرقاب، و راعى الخليفة الثانى حال الشام فعمل فى نواحيها غير ما عمل فى غيرها من الأرضين التى فتحت فى عهده،

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۲

راعى كل أرض ما تحتمله و كانت الجزية فى بدء الأمر دينارا فى كل حول على كل جمجمة ثم وضعها عمر بن الخطاب على الذهب أربعة دنانير، و على الورق أربعين درهما، و جعلهم طبقات لغنى الغنى، و إقلال المقلّ، و توسط المتوسط، و قيل: جعل على كل رأس موسر ثمانية و أربعين درهما و من الوسط أربعة و عشرين درهما و من الفقير اثنى عشر درهما. و الجزية تؤخذ من غير المسلمين. و الخراج يشترك فيه كل من يملك أرضا.

و صالح أبو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على أن تترك لهم كنائسهم و بيعهم، و عليهم إرشاد الضال، و بناء القناطر على الأنهار من أموالهم، و أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام. و صالحهم عمر على ضيافة من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون و لا يكلفهم ذبح شاة أو دجاجة، و تبيت دوابهم على غير شعير و جعل ذلك على أهل السواد دون المدن.

و لما مسح عمر السواد وضع على كل جريب عامر أو غامر يناله الماء بدلو أو بغيره زرع أو عطل درهما و قفيزا واحدا. و ألغى عمر النخل عونا لأهل السواد. و أخذ من جريب الكرم عشرة دراهم، و من جريب السمسم خمسة دراهم، و من الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم، و من جريب القطن خمسة دراهم، ثم حمل الأموال على قدر قربها و بعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب دينارا، و على كل مائتى جريب مما بعد دينارا، و على كل ألف أصل كرم مما قرب دينارا، و على كل ألفى أصل كرم مما بعد دينارا، و على الزيتون على كل مائة

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۳

شجرة مما قرب دينارا، و على كل مائتى شجرة مما بعد دينارا، و كان غاية البعد عنده مسيرة اليوم أو اليومين و أكثر من ذلك، و ما دون اليوم فهو فى القرب، و حمّلت الشام على مثل ذلك. و قد ذكر عن بعض أهل المدينة و أهل الشام أنه تخرج زكاة الخضر من

أثمانها على حساب مائتى درهم خمسة دراهم. أما المكوس على البضائع فكانت تختلف باختلاف الأعصار و كانت قليلة فى العهد الأول. كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى أن خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم، و ما زاد على المائتين فمن كل أربعين درهما درهم، و من تجار أهل الخراج نصف العشر و من تجار المشركين ممن لا يؤدى الخراج العشر أى من أهل الحرب.

أول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة و السلام: ليس على المسلمين عشر و إنما العشور على اليهود و النصارى و قال: يا معشر العرب احمدوا اللّه الذى وضع عنكم العشور. و لا تؤخذ الصدقات إلا مرة فى السنة إلا أن يجد الإمام فضلا. و كانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الأقباض و يقسمونها بين الفاتحين. و أمر عمر عثمان بن حنيف لما أرسله لمسح السواد أن لا يمسح تلا و لا أجمة و لا مستنقع ماء و لا ما لا يبلغه الماء. و لما فرض على الرقاب و جعل على من لا يجد أى الفقير اثنى عشر درهما فى السنة قال: درهم فى الشهر لا يعوز رجلا. و كان يأخذ الجزية من أهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم و كذلك فعل على.

ذكروا فى الفىء و الخراج أن من صولحوا إذا عجزوا يخفف عنهم، و إن احتملوا أكثر من ذلك فلا يزاد عليهم، و إن تظالموا فيما بينهم حملهم إمام المسلمين على العدل، و وضع ذلك الصلح عليهم جميعا بقدر ما يطيقون فى أموالهم و أراضيهم، و لا يطرح عنهم شىء لموت من مات و لا لإسلام من أسلم منهم، و يؤخذ بذلك كل من بقى منهم ما كانوا يطيقونه و يحتملونه.

كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق: أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم و ما أفاء اللّه عليهم، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، و اترك الأرضين و الأنهار لعمالها ليكون ذلك فى

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۴

أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقى بعدهم شىء، و قد كنت أمرتك أن تدعو الناس إلى الإسلام فمن أسلم و استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم و له سهم فى الإسلام، و من استجاب لك بعد القتال و بعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين و ماله لأهل الإسلام لأنهم قد أحرزوه قبل الإسلام اه.

و لما طعن عمر قال: أوصى الخليفة من بعدى بأهل الأمصار خيرا، فإنهم جباة المال، و غيظ العدو، و ردء المسلمين، و أن يقسم بينهم فيئهم بالعدل، و أن لا يحمّل من عندهم فضل إلا بطيب أنفسهم، و أوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة و أن يوفى لهم بعهدهم و أن يقاتل من ورائهم و أن لا يكلفوا فوق طاقتهم. و كان كثيرا ما يصادر عماله و يجعل أموالهم فى بيت المال. و لما ولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص و ما يليها أمره بوضع الخراج و الرفق بالرعية

و قد ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب خمسمائة ألف دينار.

فلما أفضى الأمر إلى معاوية قطع الوظائف على أهل المدن فوظف على أهل قنسرين أربعمائة و خمسين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان. و على أهل دمشق أربعمائة و خمسين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان.

و على الأردن مائة و ثمانين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان، و على فلسطين مثل ذلك. ثم جعل بعد ذلك يصطفى الأرض الجيدة و يدفعها إلى الرجل بخراجها و علوجها و الخراج على أصله لا ينقص منه شىء.

عهد الأمويين:

و الإقطاع إقطاعان: إقطاع تمليك و هو موات و عامر و معادن، و إقطاع استغلال و هو عشر و خراج. و اللقاح البلد الذى لا يؤدى إلى الملوك الأربان و الأربان هو الخراج و هو الإتاوة. قال مكحول: كل عشرى بالشام فهو مما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه و كان مواتا لا حق فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة. و أول من أقطع الأرضين و باعها عثمان و لم يقطعها أبو بكر و لا عمر و لا على.

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۵

و كانت الجباية تقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثير منه لقحط أو زلزال أو وباء. و كان عمال معاوية يحملون إليه هدايا النيروز و المهرجان فيحمل إليه فى النيروز و غيره و فى المهرجان عشرة آلاف ألف. و هدايا النيروز و المهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة و العطاء و ورّث العيالات على ما جرت به السنة. غير أنه أقر القطائع التى أقطعها أهل بيته، و العطاء فى الشرف لم ينقصه و لم يزد فيه، و زاد أهل الشام فى أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى أن ينكثها و سماها مظالم. و كتب إلى عماله عامة: «أما بعد فإن الناس قد أصابهم بلاء و شدة و جور فى أحكام اللّه و سنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق و الرفق و الإحسان».

و بقى العطاء (الرواتب) على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمى يزيد الناقص.

و بينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد التنوخى و كان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها: و يحك يا أسامة إنك تأتى قوما قد ألحّ عليهم البلاء منذ دهر طويل فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم. كان سليمان يقول لعامله أسامة: احلب حتى ينفيك الدم. فإذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح، لا تبقها لأحد بعدى. فعمل أسامة فى مصر أعمالا جائرة حتى استخرج من أهلها اثنى عشر ألف ألف دينار.

و لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة جعل لا يدع شيئا مما كان فى أيدى أهل بيته من المظالم إلّا ردها مظلمة مظلمة. خطب على المنبر ذات يوم فقال: أما بعد فان هؤلاء يعنى خلفاء بنى أمية قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها منهم و ما كان ينبغى لهم أن يعطونا إياها، و إنى قد رأيت الآن أنه ليس علىّ فى ذلك دون اللّه حسيب، و قد بدأت بنفسى و الأقربين من أهل بيتى. اقرأ يا مزاحم، فجعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا فيه الإقطاعات بالضياع و النواحى ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم أى المقراض.

و لقد اجتمع إليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على أخذ ما فى

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۶

أيديهم من حقوق الناس ورده على أهله و كلموه فقال: إنكم أعطيتم فى هذه الدنيا حظا فلا تنسوا حظكم من اللّه، و إنى لأحسب شطر أموال بنى الدنيا و أمة محمد فى أيديكم ظلما، و اللّه لا تركت فى يد أحد منكم حقا لمسلم و لا معاهد إلا رددته. و قال لبنى مروان: أدوا ما فى أيديكم من- حقوق الناس و لا تلجئونى إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون فلم يجبه أحد منهم. فقال: أجيبونى فقال رجل منهم: و اللّه لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا فنفقر أبناءنا، و نكفر آباءنا، حتى نزايل رؤوسنا فقال عمر: أما و اللّه لو لا- أن تستعينوا علىّ بمن اطلب الحق لهم لأضرعت خدودكم عاجلا، و لكننى أخاف الفتنة، و لئن أبقانى اللّه لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء اللّه. و كان عمر إذا نظر إلى بعض بنى أمية فيما روى قال: إنى أرى رقابا سترد إلى أربابها.

وضع عمر بن عبد العزيز المكس عن كل أرض، و وضع الجزية عن كل مسلم، و أباح الأحماء كلها إلا النقيع. و فرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين و سوّى بين الناس فى طعام الجار. و كان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب و نصف لكل إنسان.

و كتب إلى أحد عماله أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلى من حق مسلم أو معاهد فردها عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم. و ما زال يرد المظالم من لدن معاوية إلى أن استخلف و قد أخرج من أيدى ورثة معاوية و يزيد بن معاوية حقوقا.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة و من قبله من المسلمين و المؤمنين: أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم و إذا كبر الرجل منهم و ليس له مال فأنفق عليه فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه، و قاصه من خراجه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بدّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق. و كتب إليه: ضع عن الناس المائدة و النوبة و المكس، و لعمرى ما هو المكس

و لكنه البخس الذى قال فيه اللّه وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ*. فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه و من لم يؤد فاللّه حسيبه. و حرم عمر بن عبد العزيز الكلأ فى كل أرض.

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۷

و لم يزل رأيه و الذى يشير به على من ولى هذا الأمر من أهل بيته توفير هذا الخمس على أهله فكانوا لا يفعلون ذلك، فلما ولى الخلافة نظر فيه فوضعه مواضعه الخمسة، و آثر به أهل الحاجة من الأخماس حيث كانوا، فإن كانت الحاجة سواء وسع فى ذلك بقدر ما يبلغ الخمس، و إنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام و إنه أعطى بطريقا ألف دينار استألفه على الإسلام. و أمر أن لا يؤخذ من المعادن الخمس، و تؤخذ منها الصدقة، و أنكر التسخير فى سلطانه، و ضرب أحدهم أربعين سوطا لأنه سخر دواب النبط. و مما كتبه إلى أحد عماله: أما بعد فخل بين أهل الأرض و بين مبيع ما فى أيديهم من أرض الخراج، فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين و الجزية الراتبة. و كتب بإباحة الجزائر و قال: إنما هو شيء أنبته اللّه فليس أحد أحق به من أحد.

دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال: كم جمعت من الصدقة فقال: كذا و كذا قال: فكم جمع الذى كان قبلك قال كذا و كذا فسمى شيئا كثيرا من ذلك فقال عمر: من أين ذاك قال: يا أمير المؤمنين إنه كان يؤخذ من الفرس دينار و من الخادم دينار و من الفدان خمسة دراهم و إنك طرحت ذلك كله قال: لا و اللّه ما ألقيته و لكن اللّه ألقاه. و كتب:

إنى ظننت أن جعل العمال على الجسور و المعابر أن يأخذوا الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به. و قد رأيت ان أجعل فى كل مدينة رجلا يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس فى الجسور و المعابر. و كتب إلى عامله أن لا تقاتلن حصنا من حصون الروم و لا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم، و إن أبوا فالجزية فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء.

و فى عهد عمر بن عبد العزيز و قد أصبحت عادة للخلفاء «إذا جاءتهم جبايات الأمصار و الآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس و أجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار و لا درهم حتى يحلف الوفد باللّه الذى لا إله إلا هو ما فيها دينار و لا درهم إلا أخذ بحقه، و أنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة و الذرية، بعد أن أخذ كل ذى حق حقه»

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۸

أى فضل أعطيات الأجناد و فرائض الناس. أما من جاءوا من قبل و من بعد من بنى أمية فكانوا أشكالا و مشارب منهم الجمّاعة و منهم المبدد. فقد كان فى بيت مال الوليد يوم قتل سنة (۱۲۶ ه) سبعة و سبعون ألف ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها. و ذكر المؤرخون أن الوليد بن عبد الملك بن مروان أقطع جند أنطاكية أرض سلوقية عند الساحل و صير إليهم الفلثر بدينار و مدّى قمح فعمّروها و أجرى ذلك لهم و بنى حصن سلوقية. و الفلثر مقدار من الأرض معلوم كما يقول غيرهم الفدّان و الجريب.

عهد العباسيين و مساحة الشام:

و عدّل أبو جعفر المنصور أرض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مدا بدينار بالقاسمى و كان أداء الناس على ذلك. و كان الخلفاء من بنى العباس يعمدون إلى إبطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها و لا يقطعون أمرا بدون أخذ آراء جلة الفقهاء فى عصرهم. فقد أمر المعتضد سنة (۲۸۳) بالكتابة إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام المواريث إلى ذوى الأرحام و أبطل ديوان المواريث. و خلف المعتضد هذا فى بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار و من الورق ألف ألف درهم. و قد كنت ترى فى أيام العباسيين عدلا شاملا لا مثيل له حينا و تجد ظلما شائنا فى دور آخر، فعهد الرشيد و المأمون و المهدى و الظاهر كان عجبا فى العدل و انتظام الجباية. فقد كتب المأمون سنة (۲۱۸) إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق فى التقدم إلى عماله فى حسن السيرة و تخفيف المؤونة و كف الأذى عن أهل عمله قائلا: فتقدم إلى عمالك فى ذلك أشد التقدمة، و اكتب إلى عمال الخراج مثل ذلك. و كتب إلى جميع عماله فى أجناد الشام جند حمص و الأردن و فلسطين بمثل هذا.

و المهدی افتتح أمره بالنظر فی المظالم و بسط یده فی العطاء فأذهب جمیع ما خلفه المنصور و هو ستمائة ألف ألف درهم و أربعة عشر ألف ألف دینار سوی ما جباه فی أیامه. و المأمون أقام سنة بدمشق (۲۱۴) لمساحة أرض الشام و اجتلب لتعدیله مساح العراق و الأهواز و الری و کان جده أبو جعفر

خطط الشام، ج۵، ص: ۵۹

المنصور تشبث بذلک فلم یتم له فبعث بقیة بن الولید لیمسح أراض دمشق کما کان بعث إسماعیل بن عیاش إلی دمشق فعدل أرضها الخراجیة و عدّل أحمد بن محمد أرض دمشق و الأردن و کان علی دیوان الخراج سنة (۲۴۰) و حمل کل أرض ما تستحقه. و قال المسعودی: احتال کتاب الدواوین علی المتوکل لخوفهم منه و قالوا: إن البلد یحتاج أن یعدل و لا یقوم بالتعدیل إلا من ولی دیوان الخراج فتوجه سنة (۲۴۰) یعدل دمشق و الأردن.

قال الرشید للحسن بن عمران یوم أدخل علیه فی الحدید: ولیتک دمشق و هی جنة تحیط بها غدر، تتکفأ أمواجها علی ریاض کالزرابی، واردة منها کفایات المؤن إلی بیوت أموالی، فما برح بک التعدی لإرفاقهم فیما أمرتک حتی جعلتها أجرد من الصخر و أوحش من القفر. قال: و اللّه یا أمیر المؤمنین ما قصدت لغیر التوفیر من جهته، و لکن و لیت أقواما ثقل علی أعناقهم الحق فتفرقوا فی میدان التعدی، و رأوا المراغمة بترک العمارة أوقع بإضرار الملک و أنوه بالشنعة علی الولاة، فلا جرم أن أمیر المؤمنین قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتی اه. و فی أیام الرشید رفضت ضیاع فی فلسطین و ترکها أهلها فوجه الرشید هرثمة بن أعین لعمارتها فدعا قوما من مزارعیها و أکرتها إلی الرجوع إلیها علی أن یخفف عنهم من خراجهم و تلین معاملتهم فرجعوا فأولئک أصحاب التخافیف، و جاء قوم منهم بعد فردّت علیهم أرضوهم علی مثل ما کانوا علیه، فهم أصحاب الردود.

و المهدی أول من نقل الخراج إلی المقاسمة و کان السلطان یأخذ عن الغلات خراجا مقررا و لا یقاسم و جعل الخراج علی النخل و الشجر. و أعاد الظاهر من الأموال المغصوبة فی أیام أبیه شیئا کثیرا و أطلق المکوس فی البلاد جمیعها و أمر باعادة الخراج القدیم و أن یسقط جمیع ما جدده أبوه، و کان کثیرا لا یحصی، و فی أیام أبیه خربت العراق و تفرق أهله.

خربت العراق و ما إلیها من الأمصار و الأقطار للشدة فی تقاضی الجبایة و التفنن فی الضرائب و عدم إطرادها علی وتیرة واحدة.

و کثیرا ما کان الناس یعذّبون فی الخراج، و قد وقع ذلک فی أوائل

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۰

دولة الأمویین بالشام، فأخذ جباة الجزیة یعذبون بعض أهل الذمة، و یجعلونهم فی الشمس ساعات عقوبة لهم، فنهی عن ذلک الفقهاء و بطل تعذیب المکلفین من ذاک الیوم. و نص الفقهاء أنه لا یؤخذ شیء من نصرانی اتجر فی بلاده من أعلاها إلی أسفلها و لم یخرج منها، و إذا خرج من بلاده إلی غیرها من بلاد المسلمین تاجرا لم یؤخذ منه مما حمل قلیل و لا کثیر حتی یبیع. و قال مالک فی النصرانی یکری إبله من الشام إلی المدینة: أیؤخذ منه فی کرائهم العشر بالمدینة قال: لا. فإن أکری من المدینة إلی الشام راجعا یؤخذ منه.

و یؤخذ من أهل الحرب ما صالحوا علیه فی سلعهم و یؤخذ من عبیدهم کما یؤخذ من ساداتهم. ذکروا أن عمر بن الخطاب قال لأهل الذمة الذین کانوا یتحرون إلی المدینة: إن اتجرتم فی بلادکم فلیس علیکم فی أموالکم زکاة و لیس علیکم إلا جزیتکم التی فرضنا علیکم، و إن خرجتم و ضربتم فی البلاد و أدررتم أموالکم أخذنا منکم و فرضنا علیکم کما فرضنا جزیتکم، فکان یأخذ منهم من کل عشرین نصف العشر کلما قدموا من مرة و لا یکتب لهم براءة مما أخذ منهم کما تکتب للمسلمین إلی الحول فیأخذ منهم کلما جاءوا، و إن جاءوا فی السنة مائة مرة و لا یکتب لهم براءة بما أخذ منهم.

و فعل معاویة بالشام و الجزیرة و الیمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما کان للملوک من الضیاع و تصییرها لنفسه خالصة و أقطعها أهل بیته و خاصته و هو أول من کانت له الصوافی فی جمیع البلاد. قال البلاذری: و کانت وظیفة الأردن التی أقطعها معاویة مائة ألف

و ثمانين ألف دينار، و وظيفة فلسطين ثلاثمائة ألف و خمسين ألف دينار، و وظيفة دمشق أربعمائة ألف دينار، و وظيفة حمص مع قنسرين و الكور التى كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة ألف دينار و يقال سبعمائة ألف دينار. و كان ارتفاع الشام سنة (۲۰۴ ه) و هى أول سنة وجد حسابها بالدواوين بالحضرة ثلاثمائة ألف و ستين ألف دينار، و ارتفاع قنسرين و العواصم و ارتفاع جند حمص مائتى ألف و ثمانية عشر ألف دينار و ارتفاع جند دمشق مائة ألف و عشرة آلاف دينار، و ارتفاع جند الأردن مائة ألف و تسعة آلاف دينار، و ارتفاع جند فلسطين مائتى ألف و تسعة و خمسين ألف دينار.

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۱

قال اليعقوبى: إن خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة ألف دينار، و خراج جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار، و يبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار فى الضياع ثلاثمائة ألف دينار، و خراج خمص سوى الضياع أيضا مائتى ألف و عشرين ألف دينار. و كان خراج الأردن زمن عبد الملك بن مروان مائة و ثمانين ألف دينار، و كان خراج قنسرين على عهد المأمون أربعمائة ألف دينار، و من الزيت ألف حمل، و خراج دمشق أربعمائة ألف دينار و عشرين ألف دينار، و خراج الأردن سبعة و تسعين ألف دينار، و خراج فلسطين ثلاثمائة ألف دينار و عشرة آلاف دينار، و من الزيت ثلاثمائة ألف رطل.

قال المقدسى: كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين و العواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الإقليم ثلاثمائة ألف و ستين ألف دينار، و على الأردن مائة ألف و سبعون ألف دينار، و على فلسطين مائة ألف و تسعة و خمسون ألف دينار، و على دمشق أربعمائة ألف و نيف. و أنت ترى أن الجباية فى الشام كانت تختلف باختلاف العصور و الأدوار و التقلبات الجوية. و من الأراضى الخراجية و العشرية التى تدفع العشر لأنها مما فتحه المسلمون عنوة قال أبو يوسف: كل أرض اقتطعها الإمام مما فتحت عنوة ففيها الخراج، إلا أن يصيرها الإمام عشرية، و الشام فى ذلك كمصر و العراق، و لأنها كلها فتحت عنوة.

قال الغزالى: إن الأموال المنصبة إلى الخزائن المعمورة أربعة أصناف:

الصنف الأول ارتفاع المستغلات و هى مأخوذة من أموال موروثة له. و الصنف الثانى أموال الجزية. و الصنف الثالث أموال التركات. و الصنف الرابع أموال الخراج. فهذه هى الأموال المأخوذة و أخذها جائز و يبقى النظر فى مصارفها و هى مع اختلاف جهاتها تحويها أربع جهات و فيها تنحصر مصالح الإسلام و المسلمين. الجهة الأولى المرتزقة من جند الإسلام. الجهة الثانية علماء الدين و فقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فإنهم حراس الدين بالدليل و البرهان، كما أن الجنود حراسه بالسيف و السنان. و الجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال و طوارق الزمان عن اكتساب قدر

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۲

الكفاية. الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات و القناطر و المساجد و المدارس. و هذا وجه الدخل و الخرج.

و كانت عادة الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس و الفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان فى الأمراء و العمال و الأجناد على قدر رتبهم و بحسب مقاديرهم، و كان يقال لذلك فى صدر الإسلام العطاء، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، و فرقت الأرضون إقطاعات على الجند، و أول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين، و ذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه، فعمرت البلاد و كثرت الغلات، و اقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع و ثمانين و أربعمائة إلى أوائل القرن التاسع- قاله المقريزى.

و ما عدا الأرض التى كان الملوك يوغرونها أى التى يدفع عنها أربابها قدرا من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج، و ما خلا الإقطاعات التى يستأثر بها أصحابها من أرباب الدولة و لا يؤدون عنها خراجا و عدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب و عدا الصوافى، واحدها صافية، و هو ما يستخلصه السلطان لخاصته أو هى الأملاك و الأرضون التى جلا عنها أهلها أو ماتوا و لا وارث لها- ما عدا

هذا كان هناك نوع من الأرضين يسمى إلجاء أى يلجأ صاحب الأرض إلى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه، تعززا به من عمال الخراج حتى لا يجوروا عليه، فتصبح الضيعة مع الزمن ملكا لذاك الكبير.

و كان العادلون من الملوك يعاقبون الملجئين و الملجأ إليهم، و لكن الناس يلجئون أملاكهم عند أرباب الصولة. و كم من مرة خربت الشام أو صقع كبير من أصقاعها بظلم ظالم من عمالها. ذكروا أن الخليفة الحاكم أعفى ولاية حلب من الخراج سنة (۴۰۷) لأنها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة، و أن ألب أرسلان لما ولى إمرة حلب رفع عن أهلها الكلف التى كانت مجددة عليهم و أن ابن ارتق (۵۱۴) رفع المكوس عن أهل حلب و المؤن و الكلف و أبطل ما جدده الظلمة من الجور و الرسوم المكروهة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۳

تحرى العدل فى الدولتين النورية و الصلاحية:

و الغالب أن المكوس و الضرائب كثرت أواخر حكم العباسيين و العبيديين فى الشام. و بقيت رسوم كثيرة أبطلها نور الدين، و أبطل أبق الصوفى الأقساط فى دمشق و ما كان يؤخذ فى الكور من الباعة جملة. قال ابن أبى طى:

إن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين و الذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع و ستين و خمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار و ألفى ألف اردب، سامح بذلك و أبطله من الدواوين و أسقطه من المعاملين، و كذلك فعل أخوه أبو بكر بن أيوب فإنه أبطل كثيرا من المظالم و المكوس و طهر بلاده من الفواحش و الخمور و القمار، و كان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصا مائة ألف دينار، و لما دخل صلاح الدين دمشق سنة (۵۷۰) أزال المكوس و اقتصر فى جميع الأقاليم على الرسوم التى يبيحها الشرع و هى الخراج و الأجور و الزرع، و كذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكى فإنه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ و سوق الغنم و الكيالة و غيرها.

و مع كثرة احتياج الدولة للمال زمن نور الدين و صلاح الدين كانت الجباية إلى الرفق فى الجملة، فأطلق نور الدين المكوس و الضرائب و اكتفى بالخراج و الجزية. و أسقط صلاح الدين فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق و ضياع الغوطة و المرج و جبل سنير و قصر حجاج و الشاغور و العقيبة و مزارعها، و لما فتح حلب أطلق المكوس و الضرائب و سامح بأموال عظيمة و منها ما هو على الأثواب المجلوبة، و منها ما هو على الدواب المركوبة، و منها ما هو فى المعايش المطلوبة» و مما كتب عنه من منشور «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه و أهزل الخلق، و أبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس و سماه الحق».

قال ابن أبى طى: حدثنى كريم الدولة بن شرارة النصرانى و كان مستوفى دار حلب يومئذ أنه عمل ارتفاع سنة تسع و ستمائة فى الأيام الظاهرية، دون البلاد الخارجية عنها و الضياع و الأعمال، فبلغ ستة آلاف و تسعمائة ألف و أربعة و ثمانين ألفا و خمسمائة درهم قال: و مما أحطت به علما فى

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۴

أيام الملك الناصر أن ارتفاعها على القاعدة فى الارتفاع فى آخر دولته ستة و أربعين صنفا و سطر المجموع ب ۰۰۰، ۳۰۵، ۷ درهم، و كان مسافة ما بيد مالك حلب فى أيامه و هو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى من المشرق إلى المغرب مسيرة خمسة أيام و من الجنوب إلى الشمال مثل ذلك و فيها ثمانمائة و نيف و عشرون قرية ملك لأهلها ليس للسلطان فيها إلا مقاطعات يسيرة و نحو مائتى قرية و نيف مشتركة بين الرعية و السلطان. و هو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الإقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات إلى قلعتها عنبا و حبوبا ما يقارب فى كل يوم عشرة آلاف درهم، و قد ارتفع فى سنة (۶۲۵) من جهة واحدة و هى دار الزكاة التى تجبى فيها العشور من الفرنج و الزكاة من المسلمين و حق البيع سبعمائة ألف درهم.

الضرائب زمن الأتراک و الشراکسة:

لما قبض الأتراک و الشراکسة علی زمام الأحکام فی الشام فی القرن السابع و الثامن و التاسع کانت المکوس کثیرة جدا و زادوها هم و تفننوا فی ضروبها حتی صعب إحصاؤها و حفظها، و منهم من أبطلوها و أحسنوا لأنفسهم و لرعایاهم و أبطل الملک الظاهر بیبرس سنة (۶۶۵) ضمان الحشیشة و أمر بإحراقها. و قد أبطل الظاهر برقوق فی جملة ما أبطل من المظالم و المکوس فی الشام ضمان المغانی أی المغنین و المغنیات فی الکرک و الشوبک. و ضمان المغانی کان معروفا فی مصر فأبطل سنة (۷۷۸) زمن الأشرف قلاوون أبطله من جمیع أعمال مملکته و کان عبارة عن مال کثیر مقرر علی المغانی من رجال و نساء یؤدونه کل سنة إلی الخزانة. و أبطل الناصر قلاوون ضمان المغانی أیضا و هو عبارة عن أخذ مال من النساء البغایا، و کان یتحصل من ذلک جملة کثیرة من المال.

و کانت مراسیم المماليک تصدر الحین بعد الآخر بإبطال بعض الرسوم و الضرائب، و لکن مع هذا تجد من الأمراء من کانوا یصادرون علی ملایین من الدنانیر، دع سائر أسباب الثروة من ناطق و صامت. و قد کان الملک المؤید شیخ کثیر المصادرات للرعیة، و هو الذی قطع دابر النواب العصاة الذین أخربوا غالب الدیار الشامیة، و أحدث فی أیامه أشیاء کثیرة من أبواب

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۵

المظالم لما کان یخرج إلی التجاريد. و الخروج إلی التجاريد أو الحملات کان من جملة الأسباب التی تتهیأ لملوک الشراکسة لیسلبوا الناس أموالهم و لا تکلف التجریدة أقل من نصف ملیون دینار. فاذا جرد السلطان فی حیاته عشرین تجریدة کان المصروف من ذلک فی هذه السبیل عشرة ملایین تصل إلی خزانة السلطان حتی یجبی مثلها من الرعایا المساکین.

و فی سنة سبعمائة استخرجت الحکومة مالا عظیما من جلیع الأملاک و الأوقاف بدمشق و ظاهرها و أخذوا من الغوطة من کل قریة تکثر أموالها ثلث ضمانها و أخذوا من القری التی لزراعة القمح و الشعیر و القطن و الحبوب علی نسبة مغل سنة ثمان و تسعین و ستمائة، فعظم ذلک علی الناس و هرب خلق کثیر و استخفی جماعة، و الذین وقعوا بأیدیهم قطعوا أشجار الباقین و أباعوها حطبا بحیث أباعوا القنطار الدمشقی بثلاثة دراهم. فکان خراب الغوطة بهذا السبب، و من شدة الطلب و کثرة الظلم و الجور.

فی سنة ۷۰۲ سامح الناصر قلاوون بالبواقی فی ذمم الجند و الرعایا بالشام و صدر بذلک منشور بخط العلامة کمال الدین محمد الزملکانی من انشائه و قرىء علی المنبر بالجامع الأموی و جملة ذلک من الدراهم ألف ألف و سبعمائة ألف و سبعة و أربعون ألفا و مائة و خمسون درهما و من الغلال المنوعة تسعة آلاف و أربعمائة و اثنتان و أربعون غرارة و من الحبوب مائتان و ثمان و عشرون غرارة و من الغنم خمسمائة رأس و من الفولاذ ستمائة و ثمانیة أرطال و من الزیت ألفان و ثلاثمائة رطل و من حب الرمان ألف و ستمائة رطل. و فی سنة ۷۱۷ سومح بمکوس علی جهات مستحقة من المحاکم الطرابلسیة و ابطال المنکرات و منها بیع الخمور جهارا.

و فی سنة ۷۱۴ أمر الملک المؤید صاحب حماة جمیع نوابه أن لا یقبل أحد حمایة لأحد، بل الکل متساوون فی الحقوق و دفع ما علیهم، و ذلک لأن الاسماعیلیین کانوا فی مصیاف لا یدفعون لسلفه أموالا بدعوی الحمایة فأخذت الأموال من الجمیع. و فی سنة ۷۲۴ برزت المراسیم الشریفة إلی نائب حلب بأن یروک البلاد الحلبیة أی یمسحها و یعین علیها مالا کما فعل

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۶

فی الأقالیم الشامیة فراکوا جمیع الدیار الحلبیة و الشامیة و أبطل فی هذه السنة مکوس الغلة، و کان مبلغا عظیما یؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم و نصف.

و من جملة ما أبطلوه فی أدوار مختلفة من الرسوم، و هو ما نورده مثالا من حالة تلک الأیام، ما أبطله برقوق مما کان متقررا علی البرداریة فی کل شهر من المال، و ما کان یأخذه السماسرة علی الغلال و الکیالة، و ما کان مقررا لنائب طرابلس عندما یتولی علی کل قاض من قضاة البر و الولاة بغلة أو ثمنها خمسمائة درهم. و أبطل المنصور قلاوون من جملة ما أبطل من المظالم وظیفة ناظر الزکاة، و هو أن یؤخذ ممن عنده مال زکاته، فإن مات الرجل صاحب المال أو عدم ماله یبقی ذلک القدر المقرر علیه فی الدفاتر، یؤخذ من

أولاده أو من ورثته أو من أقاربه و لو بقى منهم واحد.

و فى سنة ۷۶۵ صدر مرسوم عن نائب المملكة الطرابلسية إلى نائب حصن الأكراد بإبطال ما أحدث فى الحصن من الخمارة و الفواحش و إلزام أهل الذمة بما أجرى عليه أحكامه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. و فى سنة (۷۹۶) أبطل نائب السلطنة بالقدس المكوس و المظالم و الرسوم التى أحدثها قبله النواب، و نقش بذلك رخامة ألصقت على باب الصخرة، و أبطل الأشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس، و أبطل المكوس و الضرائب عن سائر أصناف الغلة بجميع الشام.

و تجد إلى اليوم على السوارى الأربع القائمة فى مدخل جامع بنى أمية بدمشق من الغرب أربع وثائق فى إبطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية. تاريخ الأولى سنة (۸۶۳) على عهد قايتباى الحمزاوى كافل الممالك الشامية أبطل بها الرسم المقرر على الأسواق و الطواحين و غيرها من المكوس بدمشق. و الثانية كتبت سنة (۸۱۵) و هى مما أمر به الظاهر جقمق بإبطال المكوس على الأقمشة الحمصية و فرع الأردية و فرع القطن و غيرها. و الثالثة بتاريخ سنة (۸۵۲) تقول بإنه ورد مرسوم الظاهر جقمق بإبطال بعض المكوس و منها التمر و العفص و السمك البورى و الحنا و القماش المصرى و الرابعة فيها ذكر القلى و الخروع و القلقاس و جلود الجاموس و الماعز.

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۷

و كانت العادة أن تنقش على الرخام صورة الأمر الصادر من الملك فى رفع مثل هذه المظالم، فقد نقش الظاهر ططر رخامة و ألصقها على باب الجامع الأموى بدمشق بإبطال ما كان لنائب الشام على المحتسب فى كل سنة، و كذلك أبطل فى القدس ما كان يجبى لنائب القدس فى كل سنة من المال، و نقش ذلك على رخامة و ألصقها بباب الجامع الأقصى. و فى سنة (۷۴۶) كتب على باب قلعة حلب و غيرها من القلاع ما مضمونه: مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندى و ذلك أحد عشر يوما و بعض يوم فى كل سنة، و هذه مسامحة بمال عظيم، و كتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس، و هذا التفاوت أيام الدوران ما بين السنين الشمسية و القمرية.

و كثيرا ما كان يصدر الأمر فى زمن الشراكسة بجمع الذهب إذا قلّ أو الفضة و تسليمها إلى الملك ليضرب بها سكة و نقودا، و كثر فى أيامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيرا، و يصاب الناس فى الشام و مصر بخسائر فادحة، و كثيرا ما كانوا يخسرون ثلث أموالهم لأن بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة و ينزلون عيار الذهب، فكانت المصيبة بالفضة و الذهب لعهدهم كالمصيبة بالأوراق النقدية لعهدنا، كل يوم فى ارتفاع و انخفاض.

[غنى الشام و المكوس]

كانت أيام الشراكسة فريدة بثروة عمالها، و الغالب أن الواحد منهم كان يأخذ رزق ألوف و لكن الثروة كانت شيئا كثيرا فى تلك الأيام محصورة فى الأفراد.

و كانت المكوس على البضائع الصادرة و الواردة تؤخذ فى الحدود بين الشام و الروم، و كثيرا ما كان الروم إذا قويت شوكتهم فى الشام يقيمون فى حلب رجلا منهم لأخذ مكس البضائع كما جرى فى القرن الرابع. و كان للصليبيين فى الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، و تجار النصارى يؤدون فى أرض المسلمين على سلعهم، و كانت تؤخذ ضرائب الصادرات و الواردات ببيروت، و هى جملة مستكثرة، و كان على باب الميناء دواوين و عامل و ناظر و مشارف و شادّ، يوليهم نائب دمشق و المتوفر

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۸

عن المرتبات يحمل إليها، و لم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب.

فى سنة (۸۲۴) أمر الناصر بإبطال مكس القمح ببلاد الشام كلها و كان يؤخذ على كل إردب ثلاثة دراهم و كان المتحصل عن ذلك فى كل سنة ألف ألف و مائتى ألف درهم نقرة و أزيد. و نودى فى المحرم سنة (۸۳۷) بمرسوم السلطان بأن يبطل طرح السكر و أن ينقش ذلك فى الجامع الأموى و القلعة و دار السعادة قال الأسدى: فنقش ذلك و على الظن الغالب أنهم لا يفون بذلك لما علم من عادة السلطان. و ترى إلى اليوم فى جامع حلب الكبير عدة سوار فى إلغاء الرسوم فالسارية الأولى كتب عليها إن الملك دمرداش أبطل سنة (۸۱۱) مكس البيض من المملكة الحلبية. الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة (۸۵۲) ما كان يؤخذ ظلما من الدلالين فى سوق الحراج. الثالثة فى سنة (۸۴۶) بإبطال الظاهر جقمق مكس الكتان. الرابعة سنة (۸۴۶) بإبطال ما كان يؤخذ من أهل سرمين. الخامسة بتاريخ سنة (۸۵۷) بإبطال مكس الزيتون من قرى عزاز. السادسة سنة (۸۶۴) بإبطال ما تجدد على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم، و أن لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية. و غيرها بإبطال مكس السلاح فى سوق السلاح، و منها ما كتب سنة (۸۸۲) بإبطال مكس الملح الداخل مدينة حلب، و منها بإبطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس، و منها ما صدر سنة (۸۹۳) بإبطال ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الحناوية، و منها ما صدر سنة (۹۰۲) بإبطال ما كان يؤخذ من مكس القطن، و منها ما صدر سنة (۹۰۲) بإبطال مكس المسك و الزعفران و منها بإبطال مكس السماق، و منها إبطال ما هو معين عن ختم القماش العراقى و الدمشقى و القدسى. و معظم هذه الأوامر مسطورة على الأعمدة مشفوعة بجملة ملعون بن ملعون من جددها أو أعادها إلى غير ذلك، و منها كان اللّه و رسوله خصمه يوم القيامة.

و الظاهر أن الرسوم فى طرابلس لا يجبى مثلها فى حمص، و ما كان فى القدس لا عهد لحلب به، و ما فى دمشق لا مثيل له فى المدن الأخرى.

ففى مدخل جامع طرابلس أمر بإبطال المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح و اللحم و الخبز و الفراخ و غير ذلك،

خطط الشام، ج۵، ص: ۶۹

و ذلك فى أيام أبى النصر شيخ سنة (۸۱۷) و فى مدخل هذا الجامع أمر من صاحب طرابلس بإبطال منع استيفاء رسم الدخان، و ما يستأديه من يكون متكلما فى ديوان الحجوبية الكبرى و أستادارية الديوان الشريف من سكر و خل و غير ذلك، و من طرح الصابون و الزيت و البلس (البوتاس) و من جميع ما يحدث من ديوان النيابة و الديوان الشريف و غيرها و من جميع الكلف و المخادم الجارية بها العادة قديما و الحادثة مستقبلا، و على حائط مدرسة الشمسية أمر كتب سنة (۸۲۶) بإبطال الأشرف برسباى ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد و رسم الأشرف بإبطال التحكير بالخانات و المكوس على الحطب و التبن و غيره و جهر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الأموى و نقش به رخامة. و أبطل المقر السيفى نائب السلطنة بحمص سنة (۸۴۴) جميع ما أحدث فى حمص من ظلامات الحرير و الصوف و البر و الخبز و الزيت و كتب على باب جامع سيدنا خالد بن الوليد وصية بذلك و فيها اسم السلطان جقمق.

و فى سنة (۸۴۶) سومح عوام القدموس بما على أنوال الحياكة و خراج الكروم مسامحة مستمرة على الدوام و نقش رخامة على حائط الجامع الكبير.

و فى سنة (۸۵۱) أبطل ما تجدد على عوام القدموس و الكهف و المينقة و العليقة و الخوابى من الثياب الخام و دورة الأستادار. و فى سنة (۸۵۱) أبطل الظاهر المظالم من القدس و نقش بذلك بلاطة و ألصقت بحائط المسجد الغربى عند باب السلسلة و أبطل الظاهر خشقدم المظالم من القدس و نقش بذلك رخامتين و جهزهما إلى القدس و ألصقتا بحائط المسجد الأقصى (توفى سنة ۸۷۲).

و فى مدرسة طرابلس رسم بإبطال ما على النحيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة و قدره فى كل يوم ثمانون درهما، و

بإبطال معلوم كتابة السر أحد و عشرون درهما، و معلوم الحجوبية ثلاثة عشر درهما و فى حائط تلك المدرسة أيضا كتابة بتاريخ (۸۸۸) بإبطال المظالم و هى الطروحات التى كانت تطرح على التجار و المتسببين بمدينة طرابلس و ذلك عن الصابون و الكرم و الزيت و غير ذلك. و فى سنة (۸۸۸) أبطل مكس الدواليب و الحرير و القصابة بالكهف و القدموس و أبطل مكس نحيرة البقر و الجاموس و قطع الضأن و قرم الأساكفة بالقدموس و الخوابى و على ذلك الحائط كتب سنة

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۰

(۹۰۹) بإبطال المظالم و الحوادث عن فلاحى الوقف و أن لا يكرّبوا فلاحى الوقف إلا الجزية الشرعية و المال المقرر و فى سنة (۸۲۱) أبطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس و كتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة (۸۷۰) أن لا يؤخذ من تجار حماة و غيرها من السمسرة و الترجمة إلا ما جرت به العادة القديمة و هى على الألف عشرة دراهم لا غير و أن لا يتناول الأجرة إلا من باشر العمل بنفسه من أبناء السبيل، و منع النصارى من الترجمة و السمسرة، و أن لا يؤخذ شىء ممن باع سلعته بغير دلال. و ألغى الغورى المكس عن حاكة حمص.

تفنن الشراكسة فى اقتضاء الأموال:

و بذلك رأينا أن إلغاء المظالم و المغارم كان على أشده فى آخر أيام الشراكسة و كان من أسوإ ملوكهم شعبان، قال المؤرخون فيه: إنه كان متطلعا إلى جمع المال و فتح باب قبول البدل فى الإقطاعات و الوظائف و جعل لذلك ديوانا قائما بالذات و كان يعين البدل فى المناشير و هو مبلغ ثلاثمائة درهم فما فوقها.

و الخلاصة فإن الشراكسة تفننوا فى طرح المكوس. و من غريبها فى أيامهم مكس القرعان و ذلك أن شخصا من المماليك الشراكسة كشف رأسه فى سنة (۸۳۰) بين يدى السلطان فإذا هو أقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلنى والى القرعان يا مولانا السلطان، فأجابه السلطان إلى ذلك و أخرج له مرسوم سلطانى له و أن يكون شيخ القرعان و خلع عليه خلعة فصار يدور فى الأسواق و الحارات و يكشف رؤوس الناس، فمن وجده أقرع يأخذ منه دينارا حتى أعيان الناس فضج الناس منه و شكوه للسلطان فضحك و نادى بالأمان للقرعان و أن كل شىء على حاله، و كسب ذلك الرجل فى هذه الحركة مالا عظيما.

قال الأسدى: و يكشف فى كل سنة مقدار الارتفاع و مقدار المصروف و مهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامع الشريفة فيرفع منه ما يرفع محمولا- للخزائن الشريفة بالديار المصرية، و يرفع منه ما يدخر فى القلاع الحصينة لما يحتاج إليه عند حوادث الزمان. و كان يتحصل من كل مملكة من المال

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۱

(أى من ممالك الشام) ما يوفى بمصروف ذلك العمل، و يبقى من بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج إليها.

الأموال أوائل العهد العثمانى:

و أمّلت الأمة بدخولها فى حوزة الترك العثمانيين، أن ترى أيام رغد و سعادة، لأنها دولة جديدة تتحامى ما أمكن الأغلاط التى وقعت فيها الحكومة قبلها، و لكن جاء الأمر على العكس من ذلك على ما تراه. لما فتح سليم العثمانى الشام و مصر قال و قد ملأ خزائنه من أموال الشراكسة بعد أن كان فى ضائقة شديدة اضطر معها إلى الاستدانة من بعض التجار: إنى ملأت الأنابير بالذهب، و كل من يستطيع من أخلافى أن يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه، و إلا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعى.

و جعل السلطان سليم على دمشق مالا معينا قال ابن طولون: قيل قدره مائتا ألف دينار و ثلاثون ألف دينار. و ذكر النجم الغزى أن هذا السلطان تفنن فى ضرب المكوس و من جملتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء و أكبر الأمر أهل الدين و الورع. و كان خراج

إيالة الشام كله يعطى للمرأة السابعة من نساء السلطان إبراهيم و كان الجابى يأتى دمشق فيجبيها بنفسه، لأن نساء القصر لم يكنّ يأمنّ أحدا من الولاة و المتصرفين على جبايتها من الأمة. فتأمل إيالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها و أزيائها.

الخراج و العثمانيين:

و ذكر مؤلفو التركك أن إقطاع الشام كله كان مسانهة مليون اقجة

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۲

و لأمير لوائها من مئتين إلى ثلاثمائة ألف اقجه و فيها ۱۲۸ زعامة و ۸۶۶ إقطاعا و عدد جندها ۲۶۰۰ من الفرسان. و كانت إيالة طرابلس و ارتفاعها السنوى خمسة يوكات و لديوان الخاص من ۲۱۰ إلى ۳۹۰ ألف اقجه و حاميتها من الفرسان ۱۴۰۰ و إيالة حلب و خراجها ثمانمائة و سبعة عشر ألف اقجه و ديوانها الخاص يرتفع من ۲۰۰ إلى ۵۰۰ ألف اقجه و فى هذه الإيالة ۱۰۴ زعامات و ۷۹۹ إقطاعا و حاميتها ۲۵۰۰ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها أولاد رمضان حكام أذنة. و كانت الدولة تستوفى نصف إيراد الشام على عهد سليمان الأول أعنى فى سنة (۹۹۹ ه ۱۵۵۳ م) ۰۰۰، ۲۰۰ دوكا و الدوكا عشر اقجات و البارة ثلاث اقجات و تصرف الباقى على محافظة البلاد.

و ما برحت الحال المالية فى هذه الديار فى إدبار، و هى تبع للوالى الذى يتولى زمام الحكم. فقد ذكروا أن والى الشام رفع فى سنة (۹۹۴) المظالم و أبطل المكوس الزائدة، فأبطل مكس الخمارات، و كان هذا المكس لكل من كان حاكما على الشام، ثم أبطل اليسق من باب صاحب الشحنة. و اليسق كبير الإنكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا و للباشا و يكون فى باب صاحب الشحنة، يقطع الجرائم، و يدفع المال عن أربابه، يربح دينارا عثمانيا كل يوم، فإذا كانت الجريمة خمسين دينارا مثلا دفعها عمن ألزم بها، و له ربحها فى كل يوم خمسون عثمانيا، فإذا بقيت عليه أياما حتى يسعى فى تحصيلها تضاعفت عليه، حتى لا يقدر على الوفاء و التخلص منها، فإن كان له أسباب أو عقار أو وقف أو غير ذلك باعها أو ملّكها لذلك اليسق كيفما أراد، فأدى ذلك إلى تمول الإنكشارية و تملكهم كثيرا من الأملاك، و أبطل اليسق من باب القاضى، و رتبت الإنكشارية مالا على البضائع المجلوبة، و أبطلت المكوس التى كانت تؤخذ على اللبن الداخل إلى دمشق و على الموازين.

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۳

و فى سنة (۱۰۰۴) طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنتين جديدة و عتيقة، و طالبوا الإسرائيليين بمال عظيم. و كثيرا ما كانت الحكومة تطلب المال قبل استحقاقه، و تسلب أموال الصيارف و المرابين، بحجة الاستدانة منهم، و حدث أن بعض الأمراء و الملوك صادروا النصارى و اليهود خاصة كما فعل الملك الأشرف قايتباى فصادرهم مرتين فى أيامه. و غرّم أحمد حافظ باشا سنة (۱۰۱۸) كافل الشام أموالا طائلة، و صادر جماعات فى دمشق و أخذ أموالا منهم بغير حق، و كانت المصادرة عامة تتناول من كان فى صندوقه مال أيا كان مذهبه.

و فى سنة (۱۰۰۸) تولى محمد باشا ولاية دمشق و أمر بتغيير المعاملة فيها، و جعل كل سلطانى بثمانين قطعة جديدة، زنة كل قطعة قيراطان و نصف قيراط، و هبطت الأسعار و حصل الرخاء و كان الأمير بشير الشهابى فى لبنان كالأمير فخر الدين المعنى يحب البذخ، و قد ضاعف خراج لبنان أربعة أضعاف.

و فى كتاب صادر عن أحمد بن محمد المولى بنابلس سنة (۱۰۳۰) أن يتصرف المستحفظ بمدينة نابلس و لوائها فى جميع متحصلات القرى و الخرب الكائنة بالجبل القبلى و الشامى و بنى صعب و القرى و الخرب المقاطع عليه سابقا، من شتوى و صيفى و زيتون و خرنوب و عداد و رجالية و خراج و أعشار و أغفار و سائر المتحصلات الشرعية و العرفية العائد جميع ذلك للخزينة العامرة

بدمشق الشام على الأمانة و أن يتحضر للخزينة العامرة سبعة آلاف سلطانيا ذهبا.

و فى سنة (۱۰۳۵) طلب المال من الأمير يونس الحرفوشى أمين بعلبك عن سنة (۱۰۳۳ و ۱۰۳۴) فقال: إن المطلوب من مقاطعة بعلبك عشرة آلاف سكة حسنة، و أنه لا يستطيع ضمانها إلا بعشرة آلاف قرش فبالنظر لأداء نفقات الحج الشريف و مال العلوفة أعطيت له المقاطعة بعشرة آلاف قرش عن سنة ۳۴ و لكن لم يتحصل منها سوى سبعة آلاف قرش. أما سنة ۳۳ فلا يمكن تحصيل شىء منها لأن ابن معن خرب تلك الولاية كما يؤخذ من السجلات الرسمية فى تلك الأيام.

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۴

تفنن الجزار فى أخذ المال و طريقة العثمانيين:

و هكذا انقضى القرن الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر فى سلسلة مغارم و مظالم، فقد تولى أحمد باشا الجزار دمشق سنة (۱۲۰۰) و لم يرتح شهرا واحدا من طلب المال ظلما، و من طرح النقود و طرح البضائع المتنوعة، ينهبها من جهات و يطرحها على أخرى بأسعار زائدة. و من مظالمه أنه إذا وجد قتيل فى أحد الأنهار يلحقون جميع القرى التى تشرب من ذاك النهر، و يأخذون منهم مالا غزيرا، و كان لا عمل له إلا القبض على الأغنياء و مصادرتهم على أبشع صورة فصدق فيه قول الشاعر:

قد بلينا بأميرظلم الناس و سبّح

فهو كالجزار فيهميذكر اللّه و يذبح

قال ابن آق بيق فى حوادث سنة: (۱۲۱۷) شغل الشام بالظلم و إكرامية الباشا، و اشتغل حسن آغا بالظلم فى دمشق و إرهاق القرى بالطروحة و الإكراميات و إقراض الذخائر و معاونة الجردة و غير ذلك من المظالم التى لم يسمع لها أثر فى السابق.

و قال ابن عابدين: إن غالب الغرامات الواردة على القرى فى هذا الزمان (أى فى أوائل القرن الثالث عشر) ليس لحفظ أملاك، و لا لحفظ أبدان، و إنما هى مجرد ظلم و عدوان، فإن غالب مصارف الوالى و أتباعه، و عمارات منزله و منزل عساكره، و ما يدفعه إلى رسل السلطان الواردين بأوامر و نواه و أمثال ذلك كله يأخذه من القرى و يسمون ذلك بالذخيرة، تؤخذ فى بلادنا فى السنة مرتين، و يزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لأعوانه و حواشيه من أعيان البلدة، و قد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدن القرية، و تارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية، فمن كان له فدان مثلا يؤخذ منه ما يخصه أو من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلا أو امرأة أو صبيا، و كذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين فى القرية الذين لا ملك لهم فيها.

و مما اخترعه العثمانيون «الزعامة» و هى عبارة عن قرى يقطعها من

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۵

يعطاها و تخمن على الأقل بعشرين ألف درهم عثمانى كل سنة، و اخترعوا «العوارض» و هى مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت فى الشام فى كل سنة.

و يقال: إنها من محدثات الظاهر بيبرس أشار إليها الأكرمى بقوله:

لحا اللّه أيام العوارض إنهاهموم لرؤياها تشيب العوارض

يضيق لها صدرى و إنى لشاعرضليع و بيتى ما عليه عوارض

قلنا: و هذا من جملة الدواعى التى انتقلت بها فى القرن الماضى قرى و مزارع كثيرة فى سهول الشام و جباله إلى أرباب النفوذ، فخرج أهلها عن ملكها، و رضوا بالاستعباد على أن يكونوا أحرارا مالكين. و ذلك فرارا من ظلم الحكومة و تخلصا من الضرائب الثقيلة التى لا تتحملها نفس بشرية. و لطالما قصّ الشيوخ علينا قصة الطبلة يوم تدق فى قريتهم، و يجىء أعوان الظلمة لأخذ المظالم من أهلها، و كان الأمراء إذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول عادة لهم قديمة.

الجبایة علی عهد المصریین و المقابلة بین طریقتهم و طریقة العثمانیین:

کان الأجنبی فی حکم إبراهیم باشا المصری یعطی رسوم جمارک و ضرائب أقل مما یدفع الوطنی. و لذلک اضطر بعض التجار إلی ابتیاع حمایة الأجانب حتی یستطیعوا أن یتجروا، کتب اللورد دوفرین إلی حکومته سنة (۱۸۶۰) یقول: فی مقدمة أسباب ضعف الإدارة العثمانیة فی الشام، أن الباب العالی کان یعتبر هذه الولایة منذ بضع سنوات کإیالة أجنبیة یقتضی الانتفاع منها ما أمکن، و لذلک طرح منصبها فی المزاد و لم یول علیها إلا الزائد الأخیر.

و من الطبیعی أن کل وال جدید لم یکن یفکر إلا فی تعویض ما دفعه من المال، و بجمع الثروة فیسلب أهالی ولایته لدن وصوله، مبتزا منهم الأموال و مثقلا کاهلهم بالضرائب الجدیدة. و بعد أن ذکر کیف کان الوالی یرشی جماعة الإستانة لتستقیم له الولایة مدة، یواصل فیها استنزاف الأموال و إملاء جیوبهم بها قال: فنشأ عن ذلک مظالم لا تطاق، و ابتزاز أموال لا تحصی، و تعاقب علی الإیالة ولاة غیر أکفاء للمنصب، جائرون مرتشون طماعون فی جمع المال، لا تشبع بطونهم، خالون من أدنی اهتمام بالمصلحة العامة اه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۶

تبدلت الأوضاع الإداریة فی هذا القطر مرات علی عهد العثمانیین و فی سنة (۱۲۷۲ ه) کانت تقسم إلی إیالتین إیالة دمشق و إیالة صیدا، و دخل الأولی التی هی عبارة عن دمشق و مرج الغوطة و وادی العجم و وادی بردی و جبل قلمون و حماة و حمص و بعلبک و معرة النعمان و عجلون و البقاع و حاصبیا و راشیا و حوران و جبل الدروز و حصن الأکراد و القنیطرة و ایکی قبولی، من الخراج و الأعشار و البدل العسکری و الرسوم المختلفة ۸۰۵، ۴۱ أکیاس یضاف إلیها ۹۰۰ کیس کانت تدفعها الخزینة إلی الأوقاف و ذلک عدا ما کان یؤخذ من حماة و حوران و حمص و جبل الدروز و حصن الأکراد و معرة النعمان و عجلون عینا من الأعشار و الرسوم، و هو ۷۵۹، ۱۸ إردبا من القمح و ۸۸۴، ۲۵ إردبا من الشعیر و ۹۵۱ من الذرة ۳۹۳، ۱۳ اوقة سمن و ۳۲۰ اوقة حریر و ۱۳۰۰ رأس غنم. و کان دخل إیالة صیدا و قائم مقامیتی لبنان الدرزیة و المسیحیة و یدخل فیها بیروت و طرابلس و اللاذقیة و نابلس و عکا و حیفا و ساحل عتلیت و الأقضیة الشمسیة ۱۵۴، ۳۱ کیسا ما عدا المستوفی عینا من القمح و الشعیر و الذرة و الکرسنة و السمسم و العدس و السمن و الزیت و الفیالج و القطن. و کان مجموع دخل إیالة دمشق ۱۸۵ ألف لیرة علی ذاک العهد و إیالة صیدا ۵۰ ألفا و کان لبنان یؤدی للدولة سنویا ۳۵۰۰ کیس جزیة و خراجا.

رأی إنکلیزی فی إعنات البلاد بالضرائب:

کتب المستر برانت قنصل إنکلترا فی دمشق إلی سفیر دولته فی الإستانة عن حالة إیالة دمشق فی ۱۴ حزیران (۱۸۵۸) من کتاب ما یأتی: «إن الضرائب کانت باهظة علی عهد الحکومة المصریة، علی أن استتباب الأمن و عدم بخل الحکومة علی الشعب کانا یکفیان لإقناعه أن فی وسعه تحمل وقرها دون أن یرزح تحتها، و کان الدخل یدار بنزاهة و اقتصاد و لدی الحکومة المصریة جیش وافر العدد و تقوم بکل نفقات إدارة الإیالة المتوقع ازدیادها تدریجا، أما حالة الیوم (أی علی عهد الحکم الترکی) فهی علی عکس ما تقدم من

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۷

جمیع الوجوه فالضرائب عبء ثقیل لا یطاق مع أنها أقل من قبل و الأمن مفقود، و الدخل یقلّ کل یوم لإهمال القرویین حراثة الأرضین، و کل ما یتم جمعه ینفقه بإسراف أو یسرقه الموظفون، و الأموال اللازمة لإدارة الحکومة تطلب من الإستانة، و صار من الجلی أن المالیة تزداد اختلالا و فساد الإدارة مستمر.

«کانت حکومة محمد علی فرضت علی کل ذکر ساکن فی المدینة ضریبة جدیدة تدعی ضریبة الفردة تختلف بین ۱۵ قرشا إلی ۵۰۰ قرش، حسب حالة کل إنسان، و کان مجموعها یبلغ عشرین ألف لیرة إنکلیزیة.

و لما عاد الأتراك إلى البلاد لقوا مقاومة شديدة فى جبايتها، فأبدلوها بضريبة على البيوت تستوفى دون حدوث اضطراب كبير أو قتال، على أن مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة إنكليزية، و قد جرت بعض احتكارات، و فرضت ضرائب جديدة على البنايات المحدثة، للاستعاضة عن الدخل الذى أسرفوا به، و كانت الحكومة المصرية تستوفى نحو ۵۵ ألف كيس و لا يتأخر لها بارة، و هذا المبلغ يساوى ۲۷۵ ألف جنيه فهبط الدخل اليوم إلى ۳۵ ألف كيس قيمتها ۱۴۳ ألفا و خمسمائة جنيه، يجبى منها عشرة آلاف كيس و يبقى زهاء ۴۱ ألف جنيه فى ذمة الأهالى، و هذه يتعذر جباية قسم منها.

رأى مدحت باشا فى مظالمهم:

و أصرح من هذا ما كتبه مدحت باشا أيام كان واليا على الشام بتاريخ ۱۷ آذار (۱۲۹۵) شرقية من لائحة فى سياسة الشام و أموالها و مما قاله: إن الأوامر التى تصدر من الإستانة إلى الشام محصورة فى طلب المال و الجند فقط، و بذلك بطل العمل بالقانون و الأصول المرعية، و فتحت أبواب سوء الاستعمال و ما عدا بعض الرجال من الموظفين أصبح كبار العمال و صغارهم لا يلتفتون

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۸

إلى غير مصالحهم، فطرأ على المعاملات خلل، و بسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس، و كثر القتل و النهب و الغارة على الأموال و العروض فى كل مكان، و اختل الأمن كل الاختلال. قال: و إذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج و الأموال قد نزل ارتفاعها إلى النصف، و خرب القطر بالأعشار، و قلّ البدل العسكرى، و حدّث ما شئت عن بلية «القائمة» فمن أجل سقوط أسعارها نزلت الواردات فى العام الماضى إلى النصف، و بقى النصف الآخر فى باب النفقات بدون تسديد.

و كلام مدحت باشا يشمل ولايتى سورية و بيروت لأن الولايتين فى عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية و فلسطين، و بالطبع كانت فلسطين أقصى الجنوب و حلب فى أقصى الشمال على هذه الصورة أو أشد، لأن روح المملكة كان واحدا، و هى «المركزية» الشديدة، و كانت فى الدور الذى سلف «لا مركزية» و لكنها أشبه بالفوضى. و لم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة إلى رحيل الأتراك عن الشام، و إن كانت الارتفاعات زادت فى العقود الأربعة الأخيرة، لانتشار الأمن فى الجملة، بتأسيس المحاكم النظامية التى قضت على الأشقياء بعض الشىء، و كفت البادية عن العيث. بعد أن كانت تأتى لأخذ الخوّة من القرى القريبة من الحواضر، و لزيادة النفوس بقلة الأوبئة و سد العجز المالى، و لا سيما فى الساحل بما أدخله المهاجرون إلى أميركا و غيرها من الشاميين، فكانوا و ما زالوا يحملون إلى هذه الديار أموالا تدخل فى تحسين الزراعة و الصناعة و تزاد بها الحركة التجارية. و كانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد فى مقدار الجباية و المظالم، فالدخل ينقص على الدوام بسلخ الممالك من جسمها، و الخرج يزيد لأن أهل الإستانة عالة على أهل الولايات، يشقى هؤلاء لينعم أولئك، و يبنوا القصور و يتمتعوا بالحور و الولدان.

الاشتطاط فى الأعشار و القسط فى الجباية:

و لم يكف الحكومة العثمانية زيادتها فى العشور حتى بلغت ثلاثة عشر إلا

خطط الشام، ج۵، ص: ۷۹

ربعا فى المئة، تؤخذ من الحاصل و المحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين و العشارين، و هو قد يبلغ عشرين فى المئة أو أكثر من ذلك فى بعض الأنحاء، و لم يكفها زيادة الأموال و الضرائب الأخرى إلى ضعفين بل إلى أضعاف ما كانت قبل عشرين سنة، بل زادت فى العشر و الخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة، دع ما أحدثته من التكاليف الحربية و استلبته من أموال الفلاحين و عروضهم و مواشيهم، و لو لا ارتفاع الأسعار و دخول ملايين من الليرات التى اقترضتها الدولة من ألمانيا لتنفقها على الجيش الذى جمعته و

جلبته من القاصیة، لو لا ذلک لبقی عشرة فی المئة فقط من قری هذا القطر عامرا، و لآضت الحال أتعس مما کانت قبل ستین أو سبعین سنة، أیام کان الفلاحون لا یستطیعون زراعة أراضیهم لقلة الأیدی العاملة، فیجلبون أناسا من العبید یستخدمونهم فی الحرث و الکرث.

و بعد الحرب کثرت الجبایة و المغارم خصوصا لقلة الذهب فی الأیدی و الاستعاضة عنه بالورق النقدی، فزادت الجبایة فی بعض المحال أربعة أضعاف، فعلت الشکوی، و أخذت أسعار البیاعات تعلو و تسفل فی المدة القلیلة، و المقرر علی الرعایا ینزل و یرتفع علی تلک النسبة، فتضرر الناس من هذا، و کان البلاء فی ذلک عامّا فی کل بلد لم یستقر سعر ورقه المالی علی و تیرة واحدة، أو لم تواز قیمته قیمة الذهب، و اضطرت حکومات الشام إلی الإنفاق أکثر من قبل علی صغار عمالها و کبارهم، لئلا تترک لهم مجالا إلی الرّشی و التلاعب بحقوق المساکین و الضعفاء، و أن تقوم ببعض الأعمال اللازمة فی الحکومات المتمدنة، فانفرجت مسافة الخلف بین الدخل و الخرج ثم تعادلا و أخذت الحکومة تفکر فی إلغاء طریقة الأعشار و الاستعاضة عنها بمال مقطوع و زادت الضرائب علی العقارات بنسبة أجورها.

خراج الأرض و العقارات:

هذه الضریبة من التکالیف غیر الشرعیة التی أحدثت أواخر أیام سلطنة بایزید الثانی، و کانت المرتبات التی تقطع علی کل بلدة من البلدان توزع بمعرفة

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۰

لجنة مؤلفة من الوالی أو المتصرف أو المتسلم و رجال الشرع و وجوه البلدة و أعیانها یراعی فیها عدد النفوس الذکور، أو الدور الموجودة فی کل بلدة. و کان هذا التوزیع یسجل فی المحاکم الشرعیة، و کان کل فرد یخضع لذلک التوزیع، و یدفع ما یصیبه مرتاحا بحیث لا یبقی منه شیء فی ذمم المکلفین. و قد دام الحال علی هذا المنوال مدة أربعة أو خمسة عصور.

و لما تسرب الخلل إلی القوانین الموضوعة و أعلنت التنظیمات الخیریة، کان من جملة الإصلاحات التی تذرع بها السلطان محمود و أقرها السلطان عبد المجید تسجیل الأرضین و العقارات کافة فی البلدان و القری، و ذلک بتقدیر قیم لها، و استیفاء الضریبة علی نسبة قیمتها. و کانت هذه الضریبة تجبی بمعرفة المختار فی المدن و القری (شیوخ الصلح أو شیوخ القریة).

و هذا بموجب تذکرة إجمالیة «طوب سرکی» تدفع إلی المختار فیجبی ما یصیب کل شخص من المکلفین، و یدفع المجبّی فی کل أسبوع أو خمسة عشر یوما أو شهر بحسب مقدار ما یجبی أو بحسب تعقیب الحکومة أو إهمالها.

و لما رأت الحکومة بأخرة أن بعض المختارین یتلاعبون بهذه الأموال، و کثیرا ما کانوا یفرضون علی الأهلین فرائض تربو علی ما یصیبهم من التکالیف بدعوی النقص فی الأموال حتی آضت الحال إلی تعذر الجبایات- منعت المختارین من معاملة الجبایة و ألفت لجانا خاصة، و أنشأت ترسل لکل مکلف تذکرة باسمه یذکر فیها مقدار ما أصابه من الضریبة فی کل سنة. و بها یجبی جابی الفرع المقیم به المکلف و الذی یتأخر عن دفع دینه نجوما (تقاسیط) معینة تنذره رسمیا حتی إذا لم یبادر فی عشرة أیام من تاریخ تبلیغه الإنذار إلی دفع ذمته، تحجز أمواله المنقولة أو غیر المنقولة فیما إذا لم یکن له أموال منقولة و إذا کان ممن لا یملک شیئا غیرها یحبس أحدا و تسعین یوما، إذا ثبت اقتداره علی الوفاء.

و فی سنة (۱۹۲۵) أصدرت الدولة قانونا للجبایة لم یخرج بجوهره عن النظام السابق إلا ما کان من الاکتفاء بحبس المدین شهرا واحدا بدلا من أحد و تسعین یوما علی ما کان فی النظام السابق إلی غیر ذلک من العقود الشرعیة التی لا علاقة لها بجوهر هذا النظام القدیم و لا یزال التعامل جاریا علی هذا النمط.

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۱

رسم المواشی:

هذا الرسم من الأوضاع الشرعیة و کان یتقاضی أوائل عهد الحکومة العثمانیة عینا و هو غنمة واحدة من کل عشرة أغنام و لا یتقاضی شیء من بقیة الحیوانات، ثم طبق هذا القانون علی أصول التلزیم. و فی سنة (۱۰۴۰) ألغی التلزیم و أخذوا یستوفون الرسم بتقدیر قیمة للمواشی و استیفاء بارة عن کل قرش من قیمتها. و فی سنة (۱۲۴۱) أعید استیفاؤها عینا. و فی سنة (۱۲۵۵) عندما أعلنت التنظیمات الخیریة کان یقدر نتاج کل دابة، و أخذت الرسوم تستوفی علی نسبة عشرة فی المئة من ذلک النتاج بحیث صار یستوفی عن کل رأس من الغنم و الماعز أربعة قروش، و عن الجاموس و الإبل عشرة قروش.

و بدأت تترقی هذه الرسوم بنسبة أسعار المنتوجات إلی أن أصبحت ثمانیة قروش عن کل رأس من الضأن و الماعز، و عشرین قرشا عن کل رأس من الإبل. و هذه الرسوم علی قسمین کان قسم منها یستوفی عند العد و قسم بعد ذلک. أما القسم الذی یستوفی عند العد فهو ما کان للتجار و عابری السبیل ممن لا تعرف أماکن سکناهم. و أما القسم الثانی فهو ما کان یستوفی من التناء سکان القری و العربان.

الأعشار:

العشر من التکالیف الشرعیة القدیمة و کان ینفق علی عهد الإقطاع فی تموین الجنود و زعمائهم. و قد أصبح فی سنة (۱۱۰۰) یحال لسنة واحدة أو سنین متعددة علی بعض الصیارف المتمولین. و فی سنة (۱۲۵۶) أخذوا علی عهد إعلان التنظیمات الخیریة یستوفون الأعشار عن طریق الأمانة أی علی ذمة الحکومة بمعرفة جباة یرصدون لذلک، و فی سنة (۱۲۵۸) أعیدت أصول التلزیم و شرع ببیع عشر کل قضاء عن سنتین من الملتزمین. و فی سنة (۱۲۶۳) تقرر إجراء معاملة الإحالة لرجال السلطنة و خدامها و بعض ذوی الیسار و السعة من التبعة العثمانیة منفردین و مجتمعین لخمس سنین، و ذلک بأخذ متوسط بدلات الثلاث السنین التی تقدمت السنة المذکورة، علی أن یضاف علی البدل

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۲

المتوسط المنوه به فی السنة الثانیة التی تتلو سنة التلزیم واحد بالمئة و ثلاثة بالمئة، علی بدل کل من السنة الثالثة و الرابعة و الخامسة، بحیث تصبح الإضافة عن السنة الخامسة عشرة بالمئة.

و لما نشبت حرب القریم فی سنة (۱۲۶۹) أعیدت أصول الأمانة لضمان تموین الجیش، و ظل الحال علی هذا المنوال إلی سنة (۱۲۷۱). و فی سنة (۱۲۷۲) رجعوا إلی التلزیم أیضا فأخذت تباع أعشار القری فی مجالس الأقضیة قریة قریة، و فی مجالس الألویة و الولایات قضاء قضاء علی أن لا تحال أعشار لوائین لأحد الملتزمین مجتمعین. و لما أعلن القانون الأساسی فی سنة (۱۲۹۳) أعیدت أصول الأمانة. و فی سنة (۱۲۹۷) وضع نظام التخمیس و ذلک بحساب بدلات کل من سنة ۱۲۸۹ و ۱۲۹۰ و ۱۲۹۱ و ۱۲۹۲ و ۱۲۹۳ و أخذ متوسطها علی أن یوزع ما یصیب کل قریة علی حساب الدونمات. و فی سنة (۱۳۰۱) أعیدت أصول الأمانة أیضا. و فی سنة (۱۳۰۲) عادوا إلی طریقة التلزیم أیضا علی أساس القری لا- القضاء أو اللواء کما کان آنفا. و ظل الحال علی ذلک إلی سنة (۱۳۳۰) أی سنة إعلان النفیر العام و فی خلال ذلک وضعت أصول التخمین موضع الإجراء و ظلت إلی سنة (۱۳۳۳) حتی إذا کانت سنة (۱۳۳۴) طبقت أصول الأمانة. و بعد مغادرة الحکومة العثمانیة هذه الدیار أعیدت أصول التلزیم أیضا. و فی سنة (۱۹۲۵ م) وضعت أصول التربیع و ذلک بأخذ متوسط بدلات کل من سنة ۱۹۲۱ و ۱۹۲۲ و ۱۹۲۳ و ۱۹۲۴ و اتخاذها أساسا لوضع بدل معین علی کل قریة من القری، و لم تبرح هذه الأصول معمولا بها. أما أصول جبایتها فهی تابعة لقانون الجبایة أی أصبحت تجبی علی نحو ما تجبی الضرائب.

رسوم الجمرک:

یرجع أصل هذا الرسم إلی الزکاة التی هی من جملة التکالیف الشرعیة، و کان یجبی من التجار الوطنیین علی نسبة واحد من أربعین و من التجار الأجانب علی نسبة واحد بالعشرة من مجموع أموالهم. و ظل الحال علی ذلک من أول تأسیس الدولة العثمانیة إلی الزمن الذی عقدت فیه المعاهدة التجاریة مع الدول

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۳

الغربیة فأنشأوا یستوفونه علی الصورة التالیة:

أولا- رسم الواردات عن البضائع التی ترد برا و بحرا إلی المملکة العثمانیة.

ثانیا- رسم الصادرات عن البضائع التی تخرج من الأرض العثمانیة إلی الدیار الأجنبیة.

ثالثا- رسم التصدیر عن البضائع التی تستهلک فی الداخل کالدخان و الأسماک.

رابعا- رسم المرور (ترانسیت) عن البضائع التی تمر بالأقطار الأجنبیة عن طریق المملکة العثمانیة و لا تستهلک فیها.

و قسمت هذه الرسوم إلی قسمین داخلی و خارجی. أما الرسم الخارجی فیتقاضی وفقا لأحکام المعاهدات التی عقدت مع الدول المجاورة بحسب العلائق التجاریة. و أما الرسم الداخلی فیستوفی وفقا لأحکام المقررات الخاصة التی کانت تقررها بحسب الأحوال و علی نسبة التعرفة المخصوصة. و لما کانت علاقة الأجانب بالتجارة الخارجیة تتوقف علی رخصة خاصة کسائر المسائل کان یمنح الأجانب حق تعاطی التجارة فی الممالک العثمانیة و کان ذلک بامتیاز خاص بالمتجر. و لما کانت المواد التی تقضی المعاهدات بإیرادها و إصدارها تذکر فی تلک المعاهدات بأنواعها أصبح ذکر تلک المواد یدل علی منع سواها، و لما زادت الصلات التجاریة مع الأجانب قبلت بادئ بدء حریة التجارة إلی حد محدود، و بعد ذلک بدأت بالتوسع. فأعطی علی عهد محمد الفاتح الامتیاز المعلوم للبنادقة. و صادق یاوز سلیم علی المعاهدة التی وقع علیها ملک مصر. و فی عام (۹۷۰) عقدت المعاهدة المعروفة مع النمسا. و فی سنة (۹۸۳) مع حکومة البندقیة، و فی سنة (۹۸۴) مع حکومة النمسا أیضا، و فی سنة (۱۰۸۴) أی فی سلطنة محمد الرابع عقدت معاهدة مع ملک فرنسا جاءت مؤیدة للمعاهدات السالفة التی کانت ترمی لاستیفاء رسم الجمرک علی نسبة ۳ بالمئة بدلا من الخمسة ما خلا رسم التصدیر.

و لما عقدت المعاهدة الجمرکیة بین فرنسا و إنکلترا فی سنة (۱۲۱۶) اشترکت الحکومة العثمانیة معهما بتلک المعاهدة التی کانت عبارة عن تجدید نصوص العهود القدیمة. و فی سنة (۱۲۵۴) عقدت معاهدة تجاریة مع فرنسا کان من

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۴

جملة أحکامها التوسع فی معاونة التجار الفرنسیین و شرکاتهم و ما إلی ذلک، علی أن یتناول ذلک عامة البضائع و المتاجر و قد تضمنت هذه المعاهدة فیما تضمنته استیفاء رسم الواردات علی نسبة ۵ بالمئة و رسم الصادرات ۱۲ بالمئة و رسم المرور ۵ بالمئة من مجموع قیمة البضائع و السلع، و بقیت المعاملات السابقة بحالها علی أن تعدل مرة فی کل سبع سنین.

و أنشأوا علی عهد نظام التنظیمات الخیریة یستوفون هذه الرسوم بطریق الأمانة أی علی ذمة الحکومة ثم أخذوا یحیلونها إلی بعض الصیارف و الملتزمین و دام ذلک إلی سنة (۱۲۷۴). و فی سنة (۱۲۷۵) وضع نظام خاص جامع لجمیع المقررات التی قررت من بدایة التنظیمات الخیریة إلی ذاک العهد و جری تطبیق ذلک علی جمیع ما یتقاضی منه رسم الجمرک ما خلا رسم مواد البناء و الدخان و السعوط و المسکرات. و جری فی عام (۱۲۷۷) و (۱۲۷۸) تعدیل ذلک بعد عقد المعاهدات مع بلجیکا و الدانیمرک و فرنسا و إنکلترا و إیطالیا و هولاندة و النمسا و روسیا و السوید و اسبانیا و أمیرکا، و کان من جملة أحکام تلک المعاهدات إبلاغ رسم الواردات إلی ۸ بالمئة و تنزیل رسم الصادرات إلی ۸ بالمئة أیضا علی أن ینزل من أصله واحد بالمئة فی کل سنة إلی أن یصبح واحدا فی المئة فقط. و قد اعتبر رسم المرور اثنین فی المئة علی أن ینزل فی ثمانی سنوات تبدأ من تاریخ العقد إلی واحد بالمئة فقط.

و بعد ذلک وقع التذرع کثیرا لتعدیل هذه الرسوم و صورة جبایتها، فلم یأت تذرعهم بثمرة تذکر. بید أنه أضیف فی سنة (۱۳۲۳) علی رسم الواردات ثلاثة بالمئة بموافقة جمیع الدول العظمی بحیث أصبح أحد عشر بالمئة علی أن یؤخذ خمسة و عشرون بالمئة من الزیادة التی عینت لتسدید الدیون العامة و خمسة و سبعون بالمئة لتسدید دیون الولایات الثلاث الخ.

الجمارک الشامیة و وجوه نفقاتها و توزیعها:

کان محصول الرسم الأصلی الذی هو ۸ فی المئة حتی یوم ۱ کانون الثانی سنة (۱۹۲۶) یوزع بین الدول الشامیة الموضوعة تحت الانتداب الفرنسی، و کان الرسم الإضافی ثلاثة بالمئة یدفع لحساب الدین العام العثمانی. و قد صدر

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۵

قرار فی ۳ نیسان سنة (۱۹۲۴) یقضی برفع الرسوم الجمرکیة من ۱۱ إلی ۱۵ بالمئة ابتداء من شهر أیار سنة ۱۹۲۴ و قضی القرار المؤرخ فی ۲۳ شباط سنة (۱۹۲۶) بأن الأموال الناتجة عن تحصیل ضمائم الرسوم الجمرکیة من ۱ أیار سنة (۱۹۲۴) حتی ۳۱ کانون الأول سنة (۱۹۲۵) ۶۲ ملیون تؤلف مبلغا مشاعا یؤخذ منه ما تستلزمه الضرورة و المبالغ الخاصة لسد جمیع النفقات الناشئة عن الثورات التی نشبت فی الدول الموضوعة تحت الانتداب. علی أن یجری توزیع ذلک فیما بعد بصورة قطعیة و تقرر فی ۲۵ أیار سنة (۱۹۲۶) رفع رسوم الواردات اعتبارا من ۱ حزیران سنة ۱۹۲۶ إلی ۲۵ فی المئة.

و ما زال محصول الرسم الأصلی ۱۵ فی المئة المخصص للدین العام باقیا إلی أن یجری اتفاق مع حاملی الأسهم بشأن عملة الدفع.

و یتضح من تعلیمات المستشار المالی فی المفوضیة العلیا أنه یمکن أن یلاحظ لعام ۱۹۲۷ ما یلی:

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۲۵ فرنک محصول الجمرک من الرسم الأصلی ۱۵ فی المئة.

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۰ فرنک ضمائم ۱۰ فی المئة.

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۸۵ المجموع.

و توزع کما یلی:

۰۰۰، ۰۰۰، ۸۵ فرنک لدائرة الدین علی أن تجری التنزیلات التی یقبل بها حاملو الأسهم.

۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰ فرنک نفقات جیش الشرق.

۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰ فرنک یقتضی توزیعها بین الدول.

و من الممکن أن ینزل الرسم ۲۵ فی المئة لأنه إذا کان قد طبق هذا الرسم لأحوال استثنائیة فلا یکون الیوم إلا عثرة فی سبیل تنمیة الاقتصادیات.

ضریبة التمتع:

یرجع تاریخ إحداث هذه الضریبة إلی قسمین: القسم الأول ما أحدث قبل التنظیمات الخیریة و کان أصلها رسم الاحتساب الذی أحدثه السلطان محمود سنة (۱۲۴۱) و هو عبارة عن ضریبة تؤخذ بأسماء متنوعة تسمی یومیة الدکاکین

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۶

و شهریة الدکاکین و رسم المأکولات و المستهلکات و الذهب و الفضة و المجوهرات و المنسوجات و ما شابه ذلک.

و بالأمر السلطانی الصادر فی ۱۶ جمادی الأولی سنة (۱۲۵۴) ألغی رسم الاحتساب و نشر نظام مؤرخ فی ۱۹ ذی القعدة سنة (۱۲۵۴) یقضی بتوزیع التکالیف علی الأهالی عن طریق تعیین مقدار الأملاک و الأرضین و الحیوانات و ربح التجار و الأصناف السنوی، غیر أنه لم توضع ضریبة مخصوصة علی الأرباح السنویة بل وضعت موحدة علی الثروة الذاتیة المقدرة لکل فرد علی نسبة أملاکه و

أراضيه و أمواله و حيواناته و أرباحه.

و القسم الثانى ما وضع بعد التنظيمات الخيرية و ظلت هذه الضريبة تعد من الضرائب الموحدة من سنة (۱۲۵۵- ۱۲۷۵) و قد أصبحت إذ ذاك تؤخذ على نسبة ثلاثين بالألف من مجموع الربح السنوى. و بناء على القرار المؤرخ فى ۵ ربيع الأول سنة (۱۲۹۷) بشأن الأملاك و الأغنام و الأعشار بلغت اعتبارا من ذلك التاريخ أربعين فى الألف. و فى عام (۱۳۰۳) أبلغت إلى خمسين و شملت أصحاب الرواتب و المشاهرات أيضا، و لما كان الأجانب غير مرخص لهم بتعاطى التجارة داخل المملكة العثمانية كان هذا الرسم محصورا بالعثمانيين لا يتناول الأجانب. و لما جرى الاتفاق على قبول إقامة الأجانب فى الدولة و تعاطيهم التجارة ألفت لجنة مختلطة فى نظارة الخارجية فى سنة (۱۸۸۰ م) و نظمت لائحة حمل الأجانب على أداء هذه الضريبة أسوة بالعثمانيين. فقاوم سفراء الدول هذه الفكرة مقاومة حالت دون تطبيقها إلا على رعايا صربيا و بلغاريا و رومانيا و الجبل الأسود و اليونان و إيران.

و فى عام (۱۳۲۳) أحدث نظام خاص يقضى باستيفاء الضريبة المذكورة على قسمين: مقطوع و نسبى و خصصت به من يجب تكليفه بالضريبة المقطوعة، و من يجب أن تتقاضى منه الضريبة النسبية من أرباب التجارة و الصناعة.

و فى عام (۱۳۳۱) ألغت القانون السابق و أحدثت قانونا جديدا ألغت به الامتيازات الأجنبية فقضى على جميع رعايا الدول أداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين بدون تفريق بينهم على أن تطرح هذه الضريبة على ثلاثة أوجه: نسبى و مقطوع و متحول.

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۷

الضريبة النسبية:

يحقق هذا القسم من الضريبة بالنظر إلى الإيراد غير الصافى المقدر للمحل الذى يشغله المكلف، و جعل هذا القسم على ستة أنواع يحتوى كل منها على قسم من أنواع التجارة و الصناعة و مقدار نسبة الضريبة التابعة لها. فالنوع الأول يدخل فيه أصحاب المصارف و نسبة ضريبتهم عشرون بالمئة من الإيراد غير الصافى المقدر للعمل المتخذ مصرفا. و النوع الثانى يتناول شركات النقل و المشتغلين بالأوراق المالية و السماسرة و المتعهدين و الأطباء و المهندسين و وكلاء الدعاوى و أمثالهم من أصحاب الصناعات و الأعمال العلمية و نسبة ضريبتهم خمسة عشر فى المئة من الإيراد المذكور.

و يشمل النوع الثالث التجار البائعين بالجملة و الصيارفة و الخياطين و باعة الأقمشة و خاطتها و باعة الأحجار الثمينة و أمثالها و نسبة ضريبتهم ۱۲ فى المئة.

و النوع الرابع يتناول بائعى الألبسة و الثياب و الأدوية و العطور و أشباه ذلك من عامة المعمولات و المصنوعات و نسبة ضريبتهم عشرة فى المئة. و النوع الخامس يدخل فيه أرباب الصناعة كالنجار و الحداد و الخياط و من يبيع حبوبا و مأكولات و أخشابا و أشياء حديدية و أصحاب الفنادق و القهاوى و الألعاب و أمثالها و نسبة ضريبتهم ثمانية فى المئة.

الضريبة المقطوعة:

يحتوى هذا القسم على من لم يتخذ محلا مخصوصا لممارسة الصنعة من متعهدين و أطباء و مهندسين و أمثالهم اعتبرت ضريبتهم مقطوعة و جعلت خمسة أقسام باعتبار نفوس البلدة فقط. فالنازلون فى العاصمة من القسم الأول و ضريبتهم ۳۰۰ قرش و النازلون خارجها من الصنف الثانى مكلفون ب ۲۵۰ و الثالث ب ۱۵۰ و الرابع ۷۵ و الخامس ۵۰ قرشا.

و كذلك الحال فى ذوى الصناعة من معمارين و رؤساء أشغال و عملة قد كلف كل منهم حسب بلده و مكانة صناعته بمقدار معلوم مسطر فى جدول مخصوص من القانون المذكور تبتدئ ضريبتهم من خمسة عشر قرشا إلى ثلاثمائة قرش.

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۸

الضريبة المتحولة:

هذه الضريبة قسمان: القسم الأول يطرح على أصحاب المحال التجارية و الصناعية لاستفادتهم من خدمة العاملين عندهم و المعاونين فتبتدئ الضريبة من ستة قروش إلى مائة قرش بحسب صنوف البلدة و نوع التجارة و عمل العامل، أما أصحاب الرواتب فقد كلفوا بموجب المادة السادسة بثلاثة قروش فى المئة من مجموع إيرادهم السنوى إن كان زائدا على ألفى قرش دينارى و من لم يزد إيراده على ذلك فهو مستثنى من الضريبة. و القسم الثانى يطرح على حسب الوسائط الناشئة من ممارسة الصنعة كعجلات الركوب و النقل و الحيوانات و الآلات التجارية و جعلت درجات باعتبار صنعة البلد و نوع تلك الوسائط. و كذلك الشركات فقد كلف كل منها بنسبة معينة فى المادتين الرابعة و الخامسة، و قد ألفت لجان للنظر فى الاعتراضات بداية و استئنافا و تمييزا، و بقى معمولا به من السنة المذكورة إلى يومنا هذا. أما التعديلات التى طرأت عليها حتى الآن فلم تغير هذه الأسس، و بقيت محصورة فى بعض المعاملات الفرعية التى لا علاقة لها بهذا البحث اه.

الرأى فى الجباية و النفقات:

لا جرم أن الأموال إذا جبيت كما تجبى فى الممالك المتمدنة بالرفق، و بحسب طاقة المكلفين، يتوازن مع الزمن الدخل و الخرج، بل قد يزيد الأول على الثانى إذا وقع الاقتصاد فى وجوه النفقات، كأن تكتفى الشام بما تخرجه لها أرضها و يفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية و رصف الطرق و تعبيدها فى المدن و بين القرى، و على الأسلاك البرقية و الكهربائية و الهاتفية، و تجفيف البطائح و إصلاح طرق الرى، و إقامة معالم العلم و دور التهذيب.

و كل مملكة تسد عجزها بالاقتراض، و لا تستثمر بأيدى رجالها ما فى سطحها و بطنها من الخيرات، يكون مصيرها إلى الاستعباد الاقتصادى، و هو أبشع ضروب الاستعباد. و ما لا تستطيع أن تعمله لنفسك ليس فى مكنة غيرك أن يحمله إليك. و كل أمة لا تفرض الجباية بالعقل، و لا تجبيها بطرق العدل، و لا تبذل على المرافق العامة منها الفضل، تنحل بل تضمحل.

خطط الشام، ج۵، ص: ۸۹

الاوقاف

منشأ الوقف:

من أهم القوانين الاجتماعية التى أثرت فى عمران هذه الديار و أخلاق أهلها قانون الوقف، و هو حبس العقار أو الأرض عن البيع و حصر المغلّ فى يد شخص أو أشخاص على مقصد معين. كان الوقف معروفا عند الرومان و منه الخاص و العام، و كذلك هو معروف عند الأمم النصرانية لعهدنا، و كان أهل الجاهلية من العرب لا يعرفونه. قال الشافعى: لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمت و إنما حبس أهل الإسلام. فاستنبط الرسول صلوات اللّه عليه الوقف لمصالح لا توجد فى سائر الصدقات، فإن الإنسان ربما يصرف فى سبيل اللّه مالا- كثيرا ثم يفنى فيحتاج أولئك الفقراء تارة أخرى، و يجىء أقوام آخرون من الفقراء فيحرمون، فلا أحسن و لا أنفع للعامة من أن يكون شىء حبسا للفقراء و أبناء السبيل، تصرف عليهم منافعه و يبقى أصله على ملك الوقف. و قد وقف رسول اللّه بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها و قد قسم بعض ما ظهر عليه، و وقف ثمانية عشر سهما من خيبر لمن نزل برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من الناس و الوفود و ما نابه من نوائب الناس. و فى صحيح مسلم أن عمر أصاب أرضا بخيبر فأتى النبى صلى اللّه عليه و سلم يستأمره فيها فقال: يا رسول اللّه إنى أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط هو أنفس عندى منه فما تأمرنى به؟ قال: إن شئت حبست

أصلها و تصدقت بها. قال: فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها و لا يبتاع و لا يورث و لا يوهب قال: فتصدق عمر فى الفقراء و فى القربى و فى الرقاب و فى سبيل اللّه و ابن السبيل و الضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۰

بالمعروف و يطعم فقيرا غير متمول فيه، و فى رواية غير متأثل مالا- قال بعض الفقهاء: إنما وقف عمر بن الخطاب سواد الكوفة لأنه ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه، و لو كانوا حازوه و جمعوا ما فيه من السبى و الأموال كان غنيمة ليس للإمام أن يقفه حتى يخرج منه الخمس للّه ثم يقسم أربعة أخماسها بين الذين حضروا فتحه. و قد وقف بعض الصحابة أوقافا.

و ذكروا أن أحد شهداء أحد و اسمه مخيريق عهد إلى الرسول قبل قتله أن يضع أمواله حيث أراد فحبسه على سبعة حوائط و هى كروم النخل فى المدينة، فأصبحت الأموال المحبوسة من ذاك العهد لا تشرى و لا تورّث و لا توهب، و أخذ بعضهم يحبسون أموالهم على أعقابهم و أعقاب أعقابهم.

و وقف مخيريق أول وقف فى الإسلام. قال زيد بن ثابت: لم نر خيرا للميت و لا للحى من هذه الحبس الموقوفة، أما الميت فيجرى أجرها عليه، و أما الحى فتحبس عليه و لا توهب و لا تورث و لا يقدر على استهلاكها.

تعريف الأوقاف و طرقها:

قالوا: إن ولاية الأوقاف من باب التعاون على البر و التقوى، و لا ينهض بحملها إلا الأمين القوى، فإن أبوابها متسعة، و أربابها متنوعة، و شعابها متفرعة، فإنهم أصناف و طوائف، فمنهم الأشراف المتصلون بالرسول و منهم الهاشميون و العباسيون و العلويون و الحسنيون و الحسينيون و غيرهم، و منهم الفقهاء الشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة و غيرهم، و منهم الصوفية و الفقراء و القراء و الأضراء و الأسرى و أبناء السبيل و المرضى و المجانين، و منها تكفين الموتى و إصلاح أسوار الثغور و قناطر الطرقات و عمارة المساجد و مصابيحها و أئمتها و مؤذنوها و قومتها و مصالح المدارس و إقامة وظائفها، و كذلك الرّبط و الخوانق و المشاهد و مواطن العبادة إلى ما سوى ذلك من وقف على تعليم اليتامى الخط، و وقف على من انكسرت له آنية لا- يقدر على عوضها و غير هذا من أبواب الطاعات و جهات الخيرات، فهذه الوقوف العامة جميعها على اختلاف مصارفها و تباين جهاتها مشتركة فى أن المقصد بها التقرب إلى

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۱

اللّه تعالى فإنها معدودة من الصدقات، داخلة فى باب القربات، فيجب اتباع شروط واقفيها و العمل بها.

و ما برحت الأوقاف تنمو بنمو الثروة و امتداد السلطة بامتداد الفتوح، حتى تكاملت أجزاؤها، و تكاثرت موادها، فى صدر الخلافة العباسية و خصوصا على عهد الخليفة المأمون فإنه وقف الأوقاف الكثيرة فى العراق و غيرها على العلماء و دور العلم و الجوامع و المبانى العامة، لتبقى دائمة الانتفاع على الدهر، و تكفى العلماء و المحاويج، و أصحاب الزمانات و العاهات من التكفف و الاستجداء، فمن ثمّ كثرت الأوقاف النافعة كثرتها فى الولايات المتحدة الأميركية لهذا العهد و معظمها على دور العلم و البائسين.

أول أوقاف الشام و سوء استعمالها:

و أول وقف حبس فى الشام فيما بلغنا أراضى بطارقة الروم فيها ممن فروا من جيوش الإسلام أو قتلوا فى الحرب و كانوا قواد جند الروم، فأصبحت أملاكهم شاغرة فأوقفها الفاتحون على بيت المال، و كان العمال يقبّلونها أى يضمنونها و يضيفون دخلها إلى بيت المال، و كان من العمال من يحبس القرى على مصالح المدينة و مرافقها، قاصدا بذلك عمارتها، و كان من الأرض المفتتحة عنوة ما ليس يملكه السلطان فيباع «لأنه فىء للمسلمين يقوم مقام الوقف على جميعهم» قال القاضى أبو يعلى: إن أرض السواد صيرها عمر

وقفا بنفس الفتح، و الأرض لا تصير وقفا حتى يقفها الإمام، فعلى هذا يجوز له بيعها إذا رأى بيعها أصلح لبيت مال المسلمين، و يكون ثمنها مصروفا فى عموم المصالح و فى ذوى الحاجات من أهل الفىء و أهل الصدقات.

و قد قال أحمد فى رواية عبد اللّه: الأرض إذا كانت عامرة هى لمن قاتل عليها إلا أن يكون وقفها من فتحها من المسلمين كما فعل عمر بالسواد فاعتبر إيقافه.

و من أحسن القوانين الصريحة عند المسلمين أحكام المواريث فإنها تقضى على المورث أن لا يوصى بغير الثلث من ماله فى وجوه المبرات و أن يبقى الثلثين لوارثيه يستمتعون به استمتاعه من قبل، و لذا لم يكن إلا فى الوقف

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۲

مندوحة فى خرق هذه القاعدة، فتوسع القوم فيها لا سيما ما كان منه أهليا حتى كاد ينقلب الخير إلى شر، فإن الواقف يقف أملاكه أو شطرا منها لتكون من بعده وسيلة إلى التعاطف بين الذرارى و الأعقاب، فما هو إلا جيل أو جيلان حتى تغدو أوقافه ذريعة للتقاطع و التدابر، فتقوم نائرات الخصومات بين الأسرات، للاستئثار بإدارة الوقوف و اقتسام مغلها، خصوصا عند كثرة المستحقين و قلة الأنصبة، و ربما تكاثرت ذرية الواقف بعد حتى يصيب الفرد من الدخل بضعة قروش. و لا تسل كيف تكون حال تلك العقارات و الأرضين الموقوفة من العمران، ففى تعدد الموقوف عليهم تعدد للمناحى و تباين فى الآراء. و ربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون أشد المستحقين مراسا، فيغصب حقوق الآخرين. من أجل هذا ترى الغاصبين و فى مقدمتهم المتولى أو الناظر يقضون حياتهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوى الحقوق بالحق و الباطل، حتى جرى فى حكم الأمثال قولهم «نصف الأوقاف موقوفة على الحكام».

شرط الواقف و خراب أوقاف الشام:

بالغ المتأخرون فى احترام الأوقاف أهلية كانت أو خيرية حتى قالوا:

إن شرط الواقف كنص الشارع، و لو كان فيما هو ظاهر ضرره و مكروه عند العارفين. و عدت الأوقاف على طول الزمن من أعظم القربات حتى قالوا: إنّ من لم يمت عن وقف مات ميتة جاهلية. و قد ردّ ابن قيم الجوزية قول من قال: إن شرط الواقف كنص الشارع فقال: إن شرط اللّه أحق و أوثق، بل يقولون ههنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع و هذه جملة من أبطل الكلام، و ليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبدا، بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض و الاختلاف، و يجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع و إلغاؤها، و لا حرمة لها حينئذ البتة. و يجوز بل يترجح مخالفتها إلى ما هو أحب إلى اللّه و رسوله منها، و أنفع للواقف و الموقوف عليه. و قال علماء الحنفية: إن قولهم شرط الواقف كنص الشارع لا فى وجوب العلم به و الإثم بتركه، بل بالاخذ بمفهومه و أنه لا يستحق المعلوم إذا خالفه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۳

و قال ابن القيم أيضا عند كلامه على الحيل الجديدة فى مسائل الوقف:

و من الحيل الباطلة تحيلهم على إيجار الوقف مائة سنة مثلا، و قد شرط الواقف أن لا يؤجر أكثر من سنتين أو ثلاثا، فيؤجر المدة الطويلة فى عقود متفرقة فى مجلس واحد، و هذه الحيلة باطلة قطعا، فإنه إنما قصد بذلك دفع المفاسد المترتبة على طول الإجارة فإنها مفاسد كثيرة جدا، و كم قد ملك من الوقوف بهذه الطرق، و خرج عن الوقفية بطول المدة، و استيلاء المستأجر فيها على الوقف هو و ذريته و ورثته سنين بعد سنين، و كم فات البطون اللواحق من منفعة الوقف بالإيجار الطويل، و كم أوجر الوقف بدون إجارة مثله لطول المدة و قبض الأجرة، و كم زادت أجرة الأرض أو العقار أضعاف ما كانت، و لم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها. إلى أن قال: اللهم إلا أن يكون فيه مصلحة الوقف بأن يخرب و يتعطل نفعه فتدعو الحاجة إلى إيجاره مدة طويلة يعمر فيها بتلك الأجرة، فهنا يتعين مخالفة شرط الواقف تصحيحا لوقفه، و استمرارا لصدقته، و قد يكون هذا خيرا من بيعه و الاستبدال به، و قد يكون البيع و

الاستبدال خيرا من الإجارة اه.

و بهذا النقل رأيت أن الوقف يصح بيعه و استبداله إذا كان هناك مصلحة، و أن تلاعب المتلاعبين أدى إلى تبدل الأوقاف و جعلها حرة تباع و تشرى منذ المئة الثامنة أو من قرن قبله، و لو لا ذلك لأصبحت الشام إلا جزءا قليلا منها أوقافا بمرور الأيام، و وقفت بالوقف حركة العمران وقوفا هو الجمود بعينه، و فى الجمود الموت و الفناء. و لكن المولى تعالى أرفق من أن يسلب منافع الأرض مخلوقاته، و يجعلها خاصة بفئة معينة لا تنقطع عنهم مادتها، و لو لا ذلك لكان ابن الغنى غنيا على الدهر، و ابن الفقير كذلك، و لبطل هذا النظام الطبيعى الذى لا تقوى القوانين على تغييره.

قالوا: إن الأمير جكم العرضى (۸۱۰) الذى تسلطن بحلب و الشام أخرب غالب الديار الشامية، و أخرج أوقاف الناس فى الشام و فرقها إقطاعات بمثالات على جماعته. و أخرج الملك شيخ الأوقاف بدمشق و جعلها إقطاعات و فرقها بمثالات على عسكره. و فى أيام الناصر فرج خرجت غالب أوقاف الناس فى البلاد الشامية و الحلبية. فاستدللنا بذلك أن الأوقاف لم تلزم حالة

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۴

واحدة، و الرأى فى تعطيلها لصاحب القوة أيا كان.

كان أكثر العمال و أصحاب الأموال فى عصور المصادرات يقفون الأوقاف على الجوامع و المدارس و الرّبط و المستشفيات و غيرها فرارا بأموالهم من مصادرات الملوك إذا غضبوا عليهم و نحّوهم عن وظائفهم، أو قضوا نحبهم فطمعوا فى وفرهم، و هذا كان الشأن مع الأقوياء و الأمراء و أرباب الإقطاعات.

و من الأوقاف ما منحه الملوك بعض عمالهم و حاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا أحياء على سبيل الإقطاع، فما عتّم المنعم عليهم أن جعلوا ذاك العقار أو تلك القرية بواسطة القضاة و أهل الحكم أوقافا شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فتتوزع عليهم بعد أن يكونوا ألفوا الاتكال، و انقطعت أيديهم عن الأعمال، إلا من بسطها لتناول ريع أوقافهم الحقيرة. و إذا كان بعض الواقفين توقعوا من أوقافهم أن تقى أبناءهم و أحفادهم عوادى الفاقة، فإن اعتماد أنسالهم على ما خلفه لهم آباؤهم قد يرميهم فيما كانوا يحاذرونه من الفقر، و ذلك لتوزع الوقف بتعدد الأنصبة، و لأن المستحقين لمغلّ الوقف يعتمدون على ريع أوقافهم التى تأتيهم بلا عمل غالبا، و ينسون أن الثروة هى العمل، و أن من لا يعمل لا يثرى و لا يتنعم، سنة اللّه فى خلقه.

التفنن فى الأحباس و التلاعب بالموقوف:

و لقد تفنن القوم فى أنواع الأوقاف حتى لا يكاد يخطر ببالك خاطر فى الوقف إلا و تجد من سبقك إليه مما أوشكت أن تكون معه معظم ديار الإسلام موقوفة، و كاد يصبح نصف أرض المملكة تقريبا من نوع الوقف، و كانت ثلاثة أرباع الأملاك فى المملكة العثمانية وقفا على الجوامع و المساجد.

و الأحباس و الأوقاف عامة و خاصة، فالعامة هى ما جعل عينها و ريعها بدون قيد و لا شرط وقفا على أعمال الخير و البر أو على المصالح العامة. أما الخاصة فهى التى جعل واقفوها حق الاستمتاع بريعها إلى وارثيهم مباشرة، و لا تؤول إلى الأوقاف العامة إلا بانقراض نسل الواقف. قلنا: و من العادة أن يشرط الواقفون فى أواخر صكوكهم شروطا منها أن الوقف إذا انحل بفقد الذرية و انقراض المستحقين يعود بجملته إلى الحرمين الشريفين، و من الناس

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۵

من يقفون عليهما مباشرة. و أنشأوا فى بعض العهود ديوان البر جعل حاصله لإصلاح الثغور و للحرمين الشريفين.

و فى صك وقف الملك سيف الدين بلبان لزور بلحسين فى شيزر سنة أربع عشرة و سبعمائة: «أنه وقفه وقفا صحيحا شرعيا على نفسه الزكية الطاهرة الرضية، مدة حياته، أحياه اللّه الحياة الطيبة، ثم من بعده على أولاده ذكورا و إناثا على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ

الانثيين، ثم على نسله و عقبه قرنا بعد قرن و جيلا بعد جيل، على الشرط المزبور على أن من مات منهم عن ولد أو ولد ولد أو نسل و عقب، كان نصيبه لولده ثم لولد ولده ثم لنسله و عقبه، يقدم الأقرب فالأقرب، و من مات و لا ولد له و لا نسل و لا عقب كان نصيبه للأقرب فالأقرب لمن هو فى درجته و ذوى طبقته، فإذا انقرضوا بأجمعهم و خلت الأرض منهم ذكرهم و أنثاهم، رجع هذا الوقف بأجمعه على الفقراء و المساكين و الأيتام و الأرامل و المنقطعين و المجاورين بالحرمين الشريفين بمكة و المدينة الطيبة ...» و شرط أن لا يؤجر جميعه و لا شيء منه فى عقد واحد أكثر من ثلاث سنوات، و لا يستأنف عقد حتى تنقضى مدة عقد الأول. و على هذا جرت عادة الواقفين باتباع هذه الشروط و سطروا وقفياتهم عليه. و من الوقفيات التى اطلعنا عليها حجة نقلت حوالى المئة العاشرة عن حجة كتبت سنة ثمان و سبعمائة للهجرة جاء فيها أن «الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الأمير الكبير صلاح الدين بن بهلوان ابن الأمير الكبير شمس الدين الأكرى الآمدى وقفت و حبست و أبدت، فى صحة منها و سلامة و جواز أمرها، جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادى الذخائر عمل دمشق المحروسة و تعرف أحداهن بالبويضا و الثانية بالبريصا و الثالثة بالحميرا و الرابعة بدير عطية و الخامسة بالحمرا» و قد تغيرت معالم هذا الوقف و لا يعرف بهذه الأسماء غير دير عطية و الحميرا فى تلك الجهة، و انتقلت هاتان القريتان إلى أيد أخرى.

و تفنن الواقفون فى صدقاتهم و مبراتهم فى الشروط التى شرطوها، و فى كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا و وقف زوجته فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى، و كتب الأول سنة

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۶

أربع و ثمانين و تسعمائة و الثانى سنة أربع و سبعين و تسعمائة، مثال من هذا التفنن. و وقف الأول على منزل فى قرية القنيطرة للمترددين بين مصر و الشام و زائرى القدس و مشهد الخليل و جامع قرية الشعراء من عمل القنيطرة و مكتب على الصبيان و عمارة على الضيفان إلى غير ذلك من ضروب البر، و فى هذا الكتاب كلام على المتولى و وظيفة الواقف و أولاده و البنات منهم أو انقراضهم، و جباة الوقف و وظيفتهم و خطيب الجامع و الإمامين و رئيس الحفاظ و القراء و المؤذنين و وظيفة ثلاثين قارئا و مفرّق الأجزاء و من يقرأ سورة يس و عم و النصر و تبارك و معلم الكتاب و خليفته و المبخر، و المشروط لثمن القناديل و الزيت و وظيفة الشّعال و البواب و القيم و الكناس و الفراش و معاونه و البواب بالحوش، و شيخ العمارة و نقيب اللحم و الخبز و وكيل خرج العمارة و صاحب المستودع و معاونه و حافظ الغلال و الخباز و تلميذه و الطباخ و تلميذيه، و من يغسل الصحون و ينقى الأرز و دقاق الحنطة و البناء و البستانى و مصلّح الصحون و كناس منازل المسافرين و الذاكرين فى مسجد القنيطرة و المؤذنين بجامع الأموى بدمشق، و المشروط لحصير المكتب بالقنيطرة، و وظيفة من يرمم الموقوفات و رئيس الشواة، و شرط الواقف فى الإطعام و مدة إقامة المسافرين إلى غير ذلك من الشروط و القيود مما لا يصدر إلا عن أناس ذاقوا طعم الحضارة و أشربت نفوسهم محبة الخير. و لهذا من الأمثال مئات و ألوف، و قد بلغ ريع الأوقاف التى استصفتها الحكومة فى الشام و أدخلتها فى موازنتها بضع مئات الألوف من الليرات و قد أكل أكثر منها، و لو صرفت على ما وضعت له لما بقى فى القطر جاهل و لا معوز. و فى حجة وقف تكية السلطان سليمان بدمشق المؤرخة سنة (۹۶۴) غرائب من شروط البر لا تخطر فى الفكر. منها إطعام ثمانمائة فقير فى كل غد و عشية و أن يكون الخازن على غلاله حفيظا فظا غليظا حتى لا ينى فى توزيع الغلال و أخذها منه. و كان الواقفون يعينون على الأكثر المبالغ التى تعطى للمباشرين لخيراتهم من العلماء و غيرهم، كما عينوا نوع الصدقات و مقدارها، ففى كتاب وقف المدرسة الدلامية بدمشق أن صاحبها رتب بها إماما و له من المعلوم مائة درهم، و قيّما و له مثل الإمام، و ستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۷

لقراءة القرآن و لكل منهم ثلاثون درهما فى كل شهر، و من شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين، و له على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهما، و ستة أيتام بالمكتب الذى على بابها، و لكل منهم عشرة دراهم فى كل شهر أيضا. و

قرر لهم شيخا و له من المعلوم فى الشهر ستون درهما، و عاملا و له من المعلوم كل سنة ستمائة درهم، و رتب المرتب فى كل عام مثلها، و للسبع و لقراءة البخارى و التواريخ مائة درهم، و لأرباب الوظائف خمسة عشر رطلا من الحلوى و رأسا غنم أضحية و لكل من الأيتام جبة قطنية و قميص ... و تاريخ هذا الوقف (۸۴۷ ه).

و من غريب الأوقاف و أجملها قصر الفقراء الذى عمره فى ربوة دمشق نور الدين محمود بن زنكى. فإنه لما رأى فى ذلك المتنزه قصور الأغنياء عزّ عليه أن لا يستمتع الفقراء مثلهم فى الحياة، فعمر القصر و وقف عليه قرية داريا و هى أعظم قرى الغوطة و أغناها. و فى ذلك يقول تاج الدين الكندى:

إن نور الدين لما أن رأىفى البساتين قصور الأغنياء

عمّر الربوة قصرا شاهقانزهة مطلقة للفقراء

و ذكر القرمانى أن داريا كان وقفها لعامة فقراء دمشق تفرق عليهم غلاتها، و ما برحت كذلك وقفا إلى القرن الحادى عشر كما قال كاتب چلبى.

و لقد أخر الاستكثار من الأوقاف سير الشرق فى محجة الترقى و لا يزال مؤخرا لها، و كم فى هذا القطر من آثار و دور و قصور و محال عامة هجرت و تعطلت بضياع أوقافها و كثرة المتنازعين عليها، و كان من الأوقاف أن أضرت بالجباية التى تصرف فى مصالح الدولة قال بلوك: إن العقار الموقوف على الأعمال الخيرية عند المسلمين لا يعفى من الضرائب فقط بل إنه لا يباع، و هو امتياز انتفع به كثير من رؤساء البيوت و استخدموه فى تدبير ثرواتهم، و لذلك كثرت الأوقاف كثرة زائدة فأضرت كل الضرر بالمصلحة العامة، ذلك لأن إعفاء الأحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءا مهما من ريعها

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۸

و ارتفاعها. و حظر بيع الوقف يعبث بريعه على وجه الإجمال، لأن أموال الأوقاف و عقاره لا تستثمر استثمارا جيدا.

و لقد شدد الواقفون فى شروط أوقافهم خصوصا إذا كان عليها مسحة الأوقاف المسبلة على المصالح العامة، و مع هذا انتهبتها أيدى الضياع، وسطت على ريعها و أعيانها مخالب السارقين و المزورين. و هذه مدينة دمشق كان فى واديها فى القرن التاسع زهاء ألف و خمسمائة مسجد و جامع، و ليس فيها اليوم مائتان و خمسون، و كان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة و عشرون مدرسة و رباط و خانقاه و تكية و مستشفى و ليس فيها اليوم من كل ذاك الإرث القديم خمس مدارس و ربط يصح أن يطلق عليه اسم مدرسة أو رباط اللهم إلا من باب التجوز، و قد بدلت أعيانها كلها و اختلست أحباسه، و منها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على أحجار أبوابها حتى الساعة تقرأ بلسان عربى مبين، على كثرة ما بدل المبدلون و تلاعب المتولون و المستحقون، و هكذا قل عن مدارس القدس فإن أكثرها مما عبث به النظار و المتولون، و مثل ذلك قل فى مدارس حلب و هى تعد بالعشرات كمدارس العاصمة و رباطاتها و زواياها و جوامعها فإنها أصبحت و أوقافها أثرا بعد عين و لم يكتب البقاء إلا لبضع منها.

أوقاف نور الدين و صلاح الدين و من تقدمهما و خلفهما:

راجت أسواق الأوقاف على عهد صلاح الدين يوسف و آل بيته، فإن حاشيته و أولاده أكثروا من أعمال الخير اقتداء به حتى وقف عبيد دولته و جواريه و أبناؤه و أحفاده و بناته أوقافا جمة على الخيرات. و كان ريع أوقاف نور الدين فى الشام سنة (۶۰۸) تسعة آلاف دينار صورية كل شهر، ليس فيها غير ملك صحيح شرعى ظاهرا و باطنا.

تقدم نور الدين بإحصاء ما فى محالّ دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله و عين له وقوفا. و قد وقف و تصدق فى سبيل الخيرات و وجوه البر و الصدقات، ما تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، و تقدير الحاصل من ارتفاعه فى كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس

خطط الشام، ج۵، ص: ۹۹

الحنفية و الشافعية و المالكية و الحنبلية و أئمتها و مدرسيها و فقهائها، و ما وقفه على دور الصوفية و الرّبط و الجسور و البيمارستانات و الجوامع و المساجد و الأسوار و ما وقفه على أبناء السبيل فى طريق الحجاز، و ما وقفه على فكاك الأسرى و تعليم الأيتام، و قصر الغرباء و فقراء المسلمين، و ما وقفه على الأشراف العلويين و العباسيين، و ما ملكه لجماعة من الأولياء و الغزاة و المجاهدين.

هذا عدا ما أنعم به على أهل الثغور من أملاكهم فإنه يضاهى هذا المبلغ و زيادة. و لهم أوقاف على فكاك الأسرى و منها وقفان سجلا على الحجر بالحرف الكوفى فى مدينة بصرى فى حوران تاريخ أحدهما سنة (۵۶۱) و وقف جاولى أربعة حوانيت و وقف آخران فرنا و دارا على من لا يكون له أهل و لا يقدر على فكاك نفسه.

قال ابن جبير من أهل القرن السادس عند كلامه على مشاهد دمشق:

و لكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة على بساتين و أراض بيضاء و رباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها، و كل مسجد يستحدث بناؤه أو خانقة يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها الملتزمين لها، و هذه أيضا من المفاخر المخلدة، و من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة و تنفق فيها الأموال الواسعة و تعين لها من مالها الأوقاف، و من الأمراء من يفعل مثل ذلك. و ذكر ابن بطوطة فى القرن الثامن فى رحلته كلاما يقرب من كلام ابن جبير قال: و الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها و مصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج لمن يحج عن الرجل كفايته، و منها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، و هن اللواتى لا قدرة لأهلهن. على تجهيزهن، و منها أوقاف لفكاك الأسرى، و منها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون و يلبسون و يتزودون لبلادهم، و منها أوقاف على تعديل الطرق و رصفها و منها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

قال: مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت بها مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصينى، و هم يسمونها الصحن، فتكسرت و اجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها و احملها معك لصاحب أوقاف الأوانى فجمعها و ذهب الرجل معه إليه فأراه

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۰

إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. قال: و هذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بدّ له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، و هو أيضا ينكسر قلبه و يتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبرا للقلوب.

تكاثر الأوقاف و مضار الجمود:

استولى الخراب على الشام بعد تخريب تيمور دمشق أوائل المئة التاسعة و لكن عاد إليها رونقها فتجددت على عهد الدولة الشركسية، فلما جاء العثمانيون أخذت تتراجع حتى بلغت هذه الدركة من الانحطاط الذى نراه، و ليس فى القطر جزء صغير من ذاك العمران المستبحر، و قد نال الأوقاف ما نال غيرها من التشتت، و كأن يد القدرة قضت أن لا تدوم سعادة السعيد و لا شقاء الشقى، و لو دامت مثلا تلك الحركة المباركة التى كان الناس أو أهل الثروة منهم يقلد فيها بعضهم بعضا من إنشاء معاهد الخيرات و الصدقات على اطراد و اتصال، لأصبحت الشام بأسرها مجموعة أوقاف يتناول ريعها الأشراف و الأجلاف، و أصبحت سائر الأمة خدمة و أجراء.

و لذلك كان العقلاء على مثل اليقين أن الأوقاف التى وقفها بعض أبناء الطائفة المارونية فى جبل لبنان و بلغت لعهدنا نحو ربع الجبل على ما يؤكد بعضهم يتصرف فيها بطريركهم و ينفق من مستغلها على بعض الأديار و البيع، لا تلبث أن يقوى عليها أصحاب القوة و المكانة و يتخذون من القانون حجة لبيعها أو يعرض لها عارض آخر- كما وقع فى فرنسا على عهد ثورتها الأولى و استصفت الحكومة أموال البيع و الأديار و الجمعيات الدينية.- فتتمزق لأن مثل هذه الأوقاف التى حبسها أهل الخير على أعمال البر فى الغالب لم تنفع أبناء تلك الطائفة فى زمن المحنة أى فى الأربع سنين الأخيرة على عهد الحرب العامة، و لو صح الاجتهاد و أظنه يصح فى

مثل هذه المواقف لأنه هو المعقول و الشرائع تسير على المعقولات، لكان على شمامسة الموارنة و قساوستهم و أساقفتهم و بطريركهم أن يعمدوا إلى بيع تلك الأوقاف أو رهنها على الأقل ليصرفوا ثمنها على إطعام أبناء طائفتهم و لو فعلوا لما مات جوعا فى لبنان من الموارنة ألوف.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۱

تأثير الوقف فى العمران:

رأينا فى أيامنا مزارع و منها البعيد عن المدن، المتعذر استثماره بحسب العرف، قد أصبحت حدائق غلبا بفضل توفر مالكيها على تعهدها، و طول آمالهم فى تحسينها، إرادة أن يستمتعوا بها هم و أولادهم من بعدهم، و لو كانت من نوع الوقف لخربت و بارت، و لأعرضوا عن تعهدها كما هو المشاهد فى القرية الموقوفة و الأرض الموقوفة. و لكم رأينا الداثر الغامر إلى جانب الزاهر العامر. و حالة المسقفات أو العقارات كحالة المستغلات بل أدهى و أمرّ. و كذلك الحال فى الأناسى الذين يعيشون من أوقافهم و من يعيشون من زراعتهم أو صناعتهم أو تجارتهم، فتجد فى الأولين اتكالا مجسما و هما متراخية، و فى الآخرين مضاء و عزما و شمما و حسن ثقة بأنفسهم. و عندى أن من وقفوا الأوقاف و حبسوا الأحباس لأبنائهم و من يجيء بعدهم قد أضروا بهم أكثر مما نفعوهم، و الرزق كالحياة لا طاقة لصغير أو كبير أن يضمنه لنفسه فكيف به لغيره.

كانت الأوقاف نافعة فى الصدر الأول لقلتها، و لأنها محبوسة على وجوه البر و على البائسين خاصة. فقد سأل شيخ عاجز من أهل الذمة عمر بن الخطاب شيئا فقال له: ما أنصفناك أخذنا منك الجزية زمن شبابك، و لم نكفك مؤونة التكفف أيام عجزك، و أمر له من مال الصدقة بما يكفيه. خطط الشام ؛ ج۵ ؛ ص۱۰۱

أجل هذا كانت الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يسع عاقلا إنكار نفعه. و لكن الملوك و من بعدهم من رجال الدول أنشأوا يجعلون من أموال المغارم أوقافا، و قلما تشاهد المخلص فيما حبس و وقف.

الأوقاف عند قدماء العثمانيين:

كانت تغلب على ملوك بنى عثمان فى مبدإ أمرهم البداوة و السذاجة و التدين، و لذلك ملأوا بروسة و أدرنة و الاستانة و كوتاهية و ازنيق بأوقافهم و مدارسهم، و كذلك فعل وزراؤهم و كانوا يتناولون أرزاقهم من مقاطعات يقطعهم إياها سلطان الوقت. فلما غلبت عليهم الحضارة و فتحوا مصر و الشام فى عهد سليم و تكاملت فتوحهم فى عهد سليمان، أصبحوا يتفننون فى ضرب

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۲

الضرائب على الرعية، و قد غدا دخلهم لا يوازى خرجهم كما كان سابقا، و أمسى رجال الأمر فيهم يسيرون على سيرة ملوكهم يعرقون لحم الأمة ليجمعوا أموالا ربما وقفوا بعضها على الأعمال الخيرية، فكانوا كالتى تزنى و تتصدق، و ما كانت صدقاتهم فى الحقيقة إلا فرارا بأموالهم من المصادرات لأن مصادرة الوزراء و الأمراء بعد المئة العاشرة أصبحت فى الدولة العثمانية موردا من الموارد التى تعيش بها الدولة، بعد أن كانت لأول أمرها تقتصر فى دخلها على الجزية الشرعية و الخراج الذى كانت تتقاضاه من ملوك النصرانية و أعشار الأملاك السلطانية و ريع الجمارك و الملاحات و الخمس الشرعى من أموال الغنائم.

و إذا كان عمال الدولة لا يأخذون الأموال إلا من حلّها كيف استطاع مثل سنان باشا فاتح اليمن أن يصرف على خيراته ما يربو على مليونى ليرة بسكة زماننا، و لو قدر هذا المال بقيمته العرفية اليوم لبلغ عشرة ملايين.

لا جرم أنه لم يحتجن هذا المبلغ الذى تعجز أمة من الأمم الراقية اليوم عن المفاداة به إلا بارتكاب ضروب المظالم و المغارم. و لو فتح هذا الفاتح ما بين المشرقين و ارتكب مثل هذه المنكرات فى أموال العباد ما نفع شيئا فى قرباته و صدقاته.

و إذا كان مثل جنجى خوجه من مشايخ السلطان إبراهيم، و هو من أرباب الدجل، قد جمع من الرشاوى و الهدايا و الأوقاف ما يربو على مائة ألف كيس و الكيس خمسمائة قرش يوم صودر و أخذ خطه بها، فكيف حال من يقبض على زمام الأمر من الوزراء و الولاة و يظل مدة فى منصبه، ثم هو يظن أن إنشاء مدرسة أو جامع مما يبرر أعماله و يكفر عن سيئاته، و أن ذراريه بمأمن من الفقر لأن الملوك فى الغالب كانوا يتركون لهم العقارات و الأرضين و يكتفون بمصادرة الأموال فقط.

الوقف من مال غير محلل:

قال فى «نتائج الوقوعات»: و مؤلفه من وزراء السلطنة فى عهد السلطان عبد العزيز ردا على من قال إن الأسلاف لم يحبسوا ما حبسوه إلا خوف المصادرة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۳

و إرادة أن يتركوا لأولادهم و أحفادهم موردا يعيشون به: إذا كان من الواقفين من هم على هذه الصفة فإن أكثرهم على خلاف ذلك لا- محالة، و قد رأينا فى صكوك أحباسهم أنهم وقفوها على الجوامع و المدارس و الكتاتيب و الخانات و الحمامات و على إنشاء القلاع و إعاشة القائمين عليها من المرابطين و على أبناء السبيل. إذا عرفت هذا و شاهدت ما أبقوه من هذه الآثار الجسيمة النافعة التى ساعدوا بها على نشر المعارف و العلم و عمروا بها المملكة، فليس من الإنصاف أن تقدم الأصل على الفرع و تذهب إلى سوء الظن فيهم. قال:

و إذا جئنا نبحث عن المبالغ التى أنفقت على هذه الأوقاف و عما إذا اكتسبت من وجوه محللة، فأنا معك بأن كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب، أما و قد جمعت تلك الأموال بصور مختلفة فإن إنفاقها بما ينفع العامة من الأعمال الصالحة أزين فى العاقبة و أدعى إلى المحمدة، من صرفها فى الإسراف و السفاهة، و حابسها يذكر بالرحمة، و يستفيض اسمه المسجل فى عداد المتصدقين.

هذا ما ارتآه الوزير التركى و فى كلامه نظر عند العقلاء إذ أى طاعة تثبت فى جنب تلك المعاصى. و لعمرى متى ساغ للمرء أن يأكل أموال الناس بالباطل، ثم يتصدق بها أو ببعضها و يحمد الخالق و الخلق أثره. و قد أحسن هذا الوزير بقوله: إن صرفها فى هذه السبيل أولى من غيره على كل حال.

قال حجة الإسلام الغزالى: أرباب الأموال و المقترون منهم فرق، ففرقة يحرصون على بناء المساجد و المدارس و الرباطات و القناطر و ما يظهر للناس كافة و يكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم، و يبقى بعد الموت أثرهم، و هم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، و قد افتروا فيه من وجهين: أحدهما أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم و النهب و الجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط اللّه فى كسبها، و تعرضوا لسخطه فى إنفاقها، و كان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذا قد عصوا اللّه بكسبها فالواجب عليهم التوبة و الرجوع إلى اللّه تعالى، وردها إلى ملّاكها إما بأعيانها أو برد بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردّها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۴

نعم نحن على رأى صاحب «نتائج الوقوعات» من أن جميع الواقفين لم يكونوا على نسبة واحدة فى تحصيل الثروة، و قوله إن أكثرهم صالح يحتاج إلى نظر بليغ، بل الأولى أن يقال: إن منهم الصالح الذى جمع أمواله من طرق مشروعة و جعلها قربة لمولاه لما اقترب من لقائه، كأن يدخر المال و يقتصد فيه و يكون إقطاعه أو راتبه عظيما، أو يرث من آبائه أو غيرهم أو يتجر و يزارع إلى غير ذلك من وسائط الاغتناء المشروع، و فى سير بعض الأمراء و العلماء و بعض صدور الناس حوادث كثيرة تؤيد هذه القضية.

مضار الأوقاف:

و کیفما دارت الحال فإن الأوقاف علی الصورة التی وصلت إلیها فی هذه الدیار عامة کانت أو خاصة قد حملت فی مطاویها من المضار، أضعاف ما توقع واقفوها منها من المنافع، و خصوصا الأوقاف الأهلیة فإنها ضارة من کل وجه، أما الأوقاف علی وجوه البر و التقوی فلیس فی استطاعة أحد منعها ما دام المرء حرا بماله یصرفه کما یشاء.

و قد أدرک العثمانیون فی العهد الأخیر مضار الأوقاف الأهلیة فقضوا بقسمتها إذا کانت صالحة للقسمة، أو بیعها و تقسیم ثمنها بین الشرکاء، إن لم تکن کذلک بمجرد طلب أحد الشرکاء، و بذلک تخف مضرتها. علی أن أوقاف الجوامع و المدارس و سائر القربات أیضا قد تخلص من ربقة الوقف بحیل یسمونها شرعیة و اخترعوا لها أسماء کالتحکیر و الاحترام و الإجارتین و المرصد و أخرجوها بهذا العمل عن ملک الوقف إلی ملک خاص. و بهذا کانت تقل الأوقاف حینا و تکثر تارة أخری، و فی حلب الیوم ألف و أربعمائة وقف ینظر فیها دیوان الأوقاف و یبلغ ریعها ملیونی قرش ما عدا الأوقاف الأهلیة، و کذلک الحال فی دمشق و القدس و أوقاف کل بلد بحسب غناه و نفوسه.

منافع الأوقاف:

إن إخراج الزکاة عند المسلمین فی القرون الأولی للإسلام، ثم إنشاء المعاهد الدینیة و غیرها فی القرون الوسطی و ما بعدها، و حبس الأموال لإطعام

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۵

الفقیر و الزّمن و العاجز عن الکسب، قد خفف و لا شک من شرور الفاقة بعض الشیء، و إن کان فیه من جهة أخری تحبیب التوکل و التواکل إلی الناس. و لم نر فی دیارنا، و تحصیل الرزق فیها أهون منه فی أوربا مثلا، ما نسمع به من ضروب الشقاء الذی یسوق هناک إلی الانتحار و إلی ارتکاب الفظائع. و بعض الأمم المتمدنة الیوم تفکر فی قتل العجائز لقلة فائدتهن، و الإبقاء علی الکلاب و هذا من أغرب ما سمع. و لم یعهد العرب شیئا من هذا بفضل ما حبسه المتصدقون علی ضروب البر، و إن کان هذا الإفراط فی الإفضال علی العاجزین عن الکسب، قد یورث الخمول و یقعد بالهمم عن الکدح.

إلی الیوم لم ینشأ للبشر مجتمع کامل فی عامة صفاته، علی کثرة ما جاءه من الشرائع و سنّ لأجله من القوانین، و السعادة لم یمسسها الناس بأیدیهم، و کأنها محالة الآن. و ما ندری إن کانت أسبابها تتم فی مستقبل الدهور و العصور، فلا الوقف وقی الناس من الفقر، و لا- عدمه أفقرهم. هذه القوانین قد تلطف من شرّة الشر، و لکنها لا- تستأصله من جذوره، لأن لذلک أسبابا أخری، و لعله لا یتم المطلوب قبل انقضاء أیام و لیال، و قضاء آجال و أجیال، و اللّه یحکم لا معقب لحکمه.

تقسیم الأوقاف و إصلاحها:

یقسم الوقف إلی خیری و أهلی، و ینقسم الخیری إلی دینی محض کحبس المساجد و المعابد، و إلی دینی دنیوی و هو یشمل جمیع أنواع الوقوف الخیریة کوقف مدارس العلم و دور الصناعات و رباطات المجاهدین، و فنادق أبناء السبیل، و مستشفیات المرضی، و مقابر الموتی، و نحو ذلک من وسائل الارتفاق العام، و مثله ما تحبس عینه لینتفع بریعه مصارف الصدقات الشرعیة، سواء أکان الحبس علی جمیع المساکین أم علی فئة مخصوصة منهم.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۶

و أما القسم الثانی و هو الأهلی فینقسم إلی طائفی و ذرّی، و الأول ما حبسه الواقف علی طائفة مخصوصة من الناس. و الثانی ما حبسه علی ذریته من بعده.

و هذه الأقسام تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق، لأنه ینقسم باعتبار متعلقه و عوارضه إلی أقسام کثیرة، فالمتعلق الموقوف له کالعبادة

التی وقفت لأجلها المعابـد، و الثانی الموقوف علیه و هو المخلوقات التی تتمتع بنعمـة ما حبس علیها، و الثالث الأعیان الموقوفـة. و أما العوارض فهی کالصـحة أو عدمها من الوجهة الشرعیة، و کالضبط أو الإلحاق من الوجهة الإداریة، و قد یتداخل بعض هذه الأقسام مع فروعها فیقال مثلا وقف خیری صحیح مضبوط.

و لانقسام الأعیان إلی ثابتة و منقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق إلی وقف الأموال الثابتة و وقف الأموال المنقولة. فالثابتة کأرض الزراعـة المملوکـة الرقبـة و الحوائط و البساتین و العرصات و العقارات المسـقوفة. و هـذا النوع لا خلاف بین جمهور علماء المسـلمین بصـحة وقفه. و أما الأموال المنقولـة صامتـة کانت أو ناطقـة، فقـد اختلف الفقهاء بصـحة وقفها، و المعتمد الصـحة وفقا لما جری علیه تعامـل المسـلمین فی القـدیم و الحـدیث من وقف المصاحف و الکتب و الجنازة و نحو ذلک، و بالأولی معـدات الجهاد کالسـلاح و الکراع.

و الأرض الأمیریـة سواء أکانت عشـریة أم خراجیـة لا یصح وقفها إلا إذا کانت مملوکة الرقبة، فإذا ملکها السـلطان ملکا شـرعیا فله أن یقفها علی من یشاء کتصـرفه ببقیة أمواله المملوکة. و الواجب إذا تقیید وقف السـلاطین الأرض الأمیریة بالأوقاف الأهلیة، إذ لا یسوغ للسـلطان أن یفرز مزرعـة من أرض بیت مال الأمة العام و یخصـها بفئة من الناس علی سبیل الحبس و التأبید، کما فعل السـلطان سـلیم الأول العثمانی حینما استولی علی الشام بإفرازه کثیرا من المزارع بدون تملک رقبتها، و وقفها علی أرباب الزعامة الدینیة و ذراریهم. و العشـر الـذی تتقاضاه الیوم البقیـة الباقیة من الذریة أو أدعیاء النسب المندسون بها، هو ضـرب من السـحت یجب أن یتحول مجراه عن هذه الحلیمات الطفیلیة إلی مصالح الأمة و مرافقها الخیریة العامة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۷

و خلاصـة القـول أن هـذا النـوع من الأوقـاف السـلطانیة غیر صـحیح، و بالأـخلق وقـف الوزراء و عمـال الولایـات. و لو اقـترن بموافقة سلطـانهم الأعظم، لأن عمال القرون المظلمـة فی عهـد الحکم الإقطاعی کانوا یقترفون فی إیالاتهم ما شاءوا و شاءت أهواؤهم فیقتلون البررة و الأبریـاء، و یعفون عن الجنـاة و قطـاع السابلـة الأشـقیاء، و یصـادرون أموال من یشـاءون، و یصـلون بهـا من یشاءون. فإذا کان الموت و الحیاة بین شـفتیهم، و حقوق العباد الخاصـة ألعوبـة بین أیـدیهم، و أموال الرعیـة مباحة لدیهم، فأخلق بهم أن یعبثوا بالحقوق العامـة کأرض بیت المال الشائعـة الانتفاع بین أفراد الأمـة، فراغا بالبیع أو انتقالا بالإرث، أو إحیاء بالعمل مقابل البـدل. فقد کان هؤلاء الظلمة یضعون أیدیهم علی ما یختارونه من أرض إیالتهم الأمیریة المملوکة الانتفاع فضلا عن الشاغرة (و هی ما تدعی بمصطلح قانون الأرضـین بالمحلولاـت الأمیریـة) و یتملکون هـذا الحق بالتفویض من أنفسـهم لأنفسـهم، لأنهم الکل بالکل لا یسألون عما یفعلون، ما داموا یشـترون الولایـة علی الإیالـة بثمـن مقطوع، یـؤدونه مسانهـة إلی سـلطانهم أو أعـوانه، و بعبـارة ثانیـة یفهمهـا عـوام المـوظفین الحکومیین، مـا دام الولاـة یلتزمون الولایـة علی الإیالـة من أعوان السـلطان بالمزایـدة، حتی تصل إلی بـدلها اللائق أو الفاحش، و یقع علیهم المزاد الأخیر و تحال إلی عهدتهم إحالة قطعیة.

و کـل وقف من أوقـاف السـلاطین یتحول من منفعـة خاصـة إلی مصـلحة عامـة فهو صـحیح و العکس بالعکس. و حکمـة ذلک سـد الـذرائع بوجه الوزراء و عمال الإیالات الظالمین الـذین کانوا یطوقون بنفوذهم الأرض الشاغرة، و یغتصـبون المملوکـة و ینتفعون بحق قرارها، ثم یحتالون بوقفه خشیة المصادرة.

و قد مهد لهم سبل الاحتیال المتفقهة المصانعون، فأفتوهم بصحة الوقف علی النفس الذی یروی القول بصحته عن بعض علماء السلف لمصـلحة عامـة، و هی ترغیـب النـاس بـالوقف لأـن مصیره بعـد مـوت الواقـف و انقراض ذریته إلی جهـة لاـ تنقطع، و هی الفقراء و المساکین الذین لا تخلو منهم الأرض فی کل عصـر و قطر. لکن متفقهة السوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة فأعانوا الظلمة بهذه الفتوی و أضرابها علی إفراز المزارع من أرض بیت المال، و حبس

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۸

حق قرارها على أنفسهم فى حياتهم و على ذرياتهم من بعد مماتهم.

هذا رأى نبديه من الوجهة الفقهية النظرية، و لا نفتى و لا نقضى به من الوجهة الشرعية العملية، و إن كان مناطه المصلحة العامة التى ترمى إليها الشريعة السمحة الواسعة ما لم تتفق عليه كلمة أهل الحل و العقد من علماء الشريعة الإسلامية، لأن الفرد يخطئ و يصيب. لكن الذى نقطع بإجحافه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق قرار الأرض من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث و الزرع بدون معذرة شرعية، لأن المتصرف بالمنفعة لم يملكها إلا بأسباب شرعية، و كل ما يملك بسبب شرعى لا يجوز نزعه من مالكه إلا بأسباب شرعية.

ضروب الحيل و انتهاك حرمة الأوقاف:

الناس محتاجون بسائق الاضطرار إلى البيع و الابتياع و المقايضة و المقاسمة، ما دام الإنسان مدنيا بالطبع، مضطرا إلى التعامل بالتبادل الذى هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية، و هى دعامة العمران. و قد أورث تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد بحركة التعامل الاقتصادى الضرورى الاستمرار لأن التصرف بالعقارات الموقوفة بيعا أو شراء ممنوع شرعا، و بواعث العمران و الاقتصاد تقتضى هذا التصرف طبعا، درءا لخطر الآفات الاجتماعية، و الأزمات الاقتصادية.

و لذا اخترعوا- و الحاجة أم الاختراع- انتزاعا على ما يقولون من قواعد الإمام أحمد بن حنبل، ما يدعى فى الديار الشامية بالمرصد. و هو الدين الذى على ذمة العقار الموقوف أو الاستيفاء من أجرته بعد استيفاء المتولى عليه مقدارا ماليا معجلا من المستأجر يسمى «خدمة»، و فرض مقدار مؤجل عليه يستوفى منه مسانهة يسمى دينا مؤجلا، بشرط أن يكون المستأجر على الموقوف لعمارته أو ترميمه دينا بذمة شخصه، فاذا أيسر فللمتولى أن يؤدى إلى صاحب المرصد ما كان له على رقبة الوقف ليعيدها إلى جهته طوعا أو كرها. و مرمى هذا المخرج و مغزاه تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعا و شراء مراعاة للمصلحة الاقتصادية، مع تقدير مرتب مقابل

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۰۹

هذا المنح، و مع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد أداء الدين حرمة للأحكام الشرعية، و بنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلا تكاثرت المراصد.

هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة، و أما الأرضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا لمنح التصرف بها، فراغا أو انتقالا، مخرجا آخر و هو سراية «شد المسكة» من الأرض الأميرية إلى الموقوفة. و معناه استحقاق الحراثة فى الأرض التى ليست مملوكة الرقبة للحرث مقابل أداء العشر أو الخراج إن كانت أميرية، و أداء مرتب الوقف إن كانت موقوفة الرقبة بعد أداء حق قرارها. و قد أضحت قضية أرض الزراعة الموقوفة فى الشام ذات غموض عظيم فى زماننا، لاختلاط الموقوفة بغيرها، و اختلاط الموقوفة وقفا صحيحا لتملك رقبتها بالموقوفة وقفا غير صحيح لعدم تملك الرقبة، و كذلك لاختلاط ذات الوقف الأهلى بذات الوقف الخيرى فضلا عن ضياع وقف أغلبها و اندثاره بتقادم العهد، ما عدا الأرضين التى صانت الحكومة وقفها و ضبطته، مقابل إفراز العشر و الاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواء أكانت خيرية أم أهلية، و سواء أكان الوقف صحيحا أم غير صحيح.

و إذا كانت قضية الأرض الأميرية باعتبار ذاتها من أشكل المشكلات لما طرأ من التبديل على الخطة التى رسمها سيدنا عمر رضى اللّه عنه بعد فتح الشام، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الأنواع التى استترت على أبناء هذا الزمان، ما لم يتح لهم الاطلاع على كتب الواقفين، و مناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين أو المتولين، و يندر أن يطلعوا عليها أحدا لعبثهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية، و اختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الأهلية.

على أن أغلب أرض الزراعة الموقوفة لا تختلف أحكامها فى عهدنا و ربوعنا عن بقية الأرضين من وجهة الفراغ و الانتقال.

و نحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج، لعلمنا بيسر الشريعة و اتساعها و ملاءمتها لمقتضيات الزمان و العمران، لا يسعنا إنكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الأوقاف الإسلامية و انهيار معالمها، لأنه فسح مجالا لابتداع الحيل التى مهدت السبل لاختلاس الأوقاف و طمس معالمها، و درس معاهدها.

و لما أدرك أرباب الطمع أن المرصد لا يملكهم العقار الموقوف ملكا باتا، لأن

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۰

لمتولى الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى إليه دينه على الوقف، كادوا للأوقاف الإسلامية بحيل ابتدعها بعض متفقهة القرون الوسطى، ما عرفها الشرع و لا عرفته و وضعوا لها أسماء سموها ما أنزل اللّه بها من سلطان و هى: القيمة. الجدك (الكدك). الخلو. القميص. الحكر. الاحترام ..

و يشمل هذه الأنواع ما يسمى حق القرار فى البلاد الشامية و الكردار فى بلاد خوارزم، و هو غير حق القرار فى الأرض، بل يريدون به تجوزا الأعيان القائمة سواء أكانت متصلة كالجدران و السقف، أم منفصلة كالآلات و العدد.

و تختلف أسماؤها باختلاف ما حلت به من الأمكنة، فإن حلت فى البساتين و الحدائق فاسمها فى ديارنا «قيمة» و المراد بها جدران البستان (الدكوك) و ما يشتمل عليه من جذور نجمه. و بمصطلح العامة (شروش الفصة) و معجن مشمشه و بمصطلح العامة (تيغار معك مشمش القمر الدين) و قمامته (المزبلة) و إن وجدت فى الحمامات فالمراد بها الفرش و الأثاث كالسجاد و الوزرات و الطاسات. و إن كانت فى الحوانيت فتسمى جدكا و هو ما يضعه المستأجر متصلا كالأبواب و الرفوف. أما إذا كان منفصلا كعدد المقاهى و آلات الحلاقة فيسمى خلوا أو حق السكنى. و يغلب على الظن أن هذا غير الخلو الذى اصطلح عليه متفقهة القطر المصرى بل الأرجح أنهم يعنون بالخلو ما يدعوه متفقهة الشام بالمرصد، و يقرب منه ما يدعوه متفقهة بلاد الروم بذى الإجارتين، و هو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد و القدم.

ثم إن هذه الأعيان إذا كانت فى المطاحن فإنها تسمى قميصا، و المراد به آلات الطحن كالقطب و حجرى الرحى و نحو ذلك من آلات الطحن المنقولة.

و إذا كانت مادة بناء قائم فى عرصة موقوفة فتسمى حكرا. و صورة احتكارها أن يأذن متولى الوقف للمستأجر بالإنشاء فى العرصة الموقوفة على أن يكون ما يبنيه ملكا له، بعد أن يؤدى إلى المتكلم على الوقف مقدارا معجلا يسمى خدمة، و يتعهد بأداء مقدار مؤجل يؤدى مسانهة يسمى دينا مؤجلا. و إن كانت غراسا فيسمى غرسها «احتراما». و صورته أن يأذن المتولى على أرض موقوفة- ما عدا أرض الزراعة- بغرسها لإنسان على أن ما يغرسه يكون

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۱

ملكه أو أن يكون بعضه ملكه، و الآخر ملك جهة الوقف على سبيل التابعية للأرض بعد أن يؤدى إلى المتكلم على الوقف مقدارا معجلا يسمى أيضا خدمة، و يتعهد بمقدار مؤجل يؤدى مسانهة يسمى أيضا أجرة أو دينا مؤجلا- هذا ملخص ما نص عليه المتفقهة المتأخرون.

مصائب الأوقاف:

إن غلو الواقفين بالتهافت على الوقف، و اتخاذ الظلمة المتجرين بالدين الوقف دريئة لصيانة أموالهم المغصوبة من المصادرة، و تحريج أئمة الحرج الذين سماهم بذلك الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و هم المتفقهة المتنطعون، و تشديدهم على الناس أو تضييقهم ما وسع اللّه تعالى على عباده، و تساهل متفقهة السوء بابتداع حيل الأوقاف لإفعام جيوبهم، و إشباع بطونهم النهمة التى لا تشبع بالقليل لأنهم يأكلون بسبعة أمعاء- كل ذلك كان من أعظم البواعث على إضاعة الأوقاف الإسلامية فى الشام، لأن إغراق الأسلاف المتقدمين

بالتهافت على الوقف، ضيق على الذين يلونهم من الأخلاف المتأخرين سعة الأرض الحرة بالحبس عن التصرف بيعا أو ابتياعا أو مقايضة أو مقاسمة إلى آخر ما هنالك من ضروب التصرف المدنى. على حين مبنى الشرائع الإلهية كما قال ابن القيم على الحكم و المصالح، و كلها رحمة و حكمة، و مصلحة و عدل، و كل قضية خرجت عن الرحمة إلى النقمة، و عن الحكمة إلى العبث، و عن المصلحة إلى المفسدة، و عن العدل إلى الظلم، فليست من الشريعة و إن أدخلت فيها بالتأويل. و أرى أن كل ما كان كذلك فهو من الشرع المبدّل.

أضاع هؤلاء الجامدون حكمة الوقف و مصلحته، و حالوا دون نمو ريع العقارات الموقوفة كحرصهم على شرط الواقف و صفته، و لو اقتضت منفعة الوقف التغيير و التبديل. و قد نجم عن التهافت على الوقف غلو فى الدين أو اتجار به، و عن تشديد المتفقهة على الناس ابتداع الحيل التى أودت بالأوقاف، فطفق الناس يتملكون العقارات الموقوفة تملكا محضا، و إن ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر أو القيمة أو القميص و نحوها من الحيل الكردارية التى جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد و المدارس و المقابر مباشرة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۲

مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيل، فى زمن آثر كثير من أبنائه الدنيا على الدين لفرط جشعهم. فانفجر بركان الجرأة على الشريعة لتضييق أئمة الحرج، و فجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف. و لم يجد اختراع مخرج المرصد نفعا لصيانة العقارات الموقوفة. إذ لم نسمع و لم نشهد أن المتكلم على وقف أدى إلى صاحب المرصد ما كان له دينا على رقبة الوقف و استرجعها إلى جهته، بل نمى إلينا عكس ذلك و هو أن أصحاب المراصد كانوا يرشون المتكلمين على الأوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد إلى الملك الحر، و يرشون أيضا مفوضى تمليك العقارات ليسجلوا العقار الموقوف ملكا صرفا، بل إن بعض المتولين أنفسهم كانوا يخونون الوقف باتخاذهم مخرج المرصد حيلة، إذ يتذرعون به بدون اضطرار إليه لتحويل العقار من الوقف المحض إلى المرصد، و يرشون قضاة السوء ليثبتوا اضطرار الوقف إلى الدين و الاستدانة ..

أوقاف الذرية:

قوام الوقف ركنان و هما الحبس و التأبيد، فمتى حبس الواقف العين عن التمليك و أبد الحبس بالتقييد إلى جهة لا تنقطع، أصبح الوقف مبرما و أضحت العين محبوسة شرعا. و لا يمكن تحريرها من قيد الوقف، و رجوعها ملكا صرفا كما كانت البتة، لأن الشرع صانها للجهة الموقوف عليها من تصرف الانتقال و التمليك. و لخوف الواقف من سفه ذريته، و تبديدها الثروة من بعده، أو لخوفه من المصادرة أو لغير ذلك من الأسباب المختلفة باختلاف النيات، لجأ إلى الوقف و قيده بقيود و شروط تلائم رغائبه، و أبده بالتقييد إلى جهة لا- تنقطع بعد انقراض الذرية لئلا- يفقد الوقف أحد ركنيه. و ما التجاء الواقف إلى الوقف إلا التجاء إلى كنف الشريعة التى شرعت الوقف و صانته بأحكامها. و غير خفى أن حامى حمى الشريعة أمام المسلمين المكلف برعاية أحكامها، و النائب عنه من هذه الوجهة وزارة الأوقاف فى العاصمة و دوائرها الفرعية فى الإيالات و ملحقاتها. و الشريعة لا ترد اللاجئ إلى حماها بالطرق الشرعية. و لهذا لم تفرق قواعدها و أحكامها بين الأوقاف الخيرية

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۳

و الأهلية بالمناعة و الصيانة، فكل من النوعين منيع مصون بنظر الشريعة.

و اللاجئ إلى الشريعة لاجئ طبعا إلى المكلف بحمايتها و رعاية أحكامها، فكان حقا على إمام المسلمين و النائبين عنه من الوجهة الوقفية، صيانة الأوقاف الأهلية كحرصهم على صيانة الأوقاف الخيرية. فهذه القواعد منشأ سيطرة دوائر الأوقاف الحكومية على الأوقاف الأهلية المحضة، و لا- سيما أن الوقف الأهلى الصرف يحتمل أن ينقلب خيريا محضا فى أقرب وقت، بانقراض الموقوف

عليهم، لأن مآل الأهلى إلى الخيرى بالعاجل أو الآجل، لتقييد الوقف بالتأبيد إلى جهة لا تنقطع. و كل ما يعود إلى هذه الجهة فهو من الأوقاف الخيرية، فحق على دوائر الأوقاف أن تكون فى كل آن واقفة بالمرصاد أمام تصرف نظار الأوقاف الأهلية. على أن أغلب من تذرعوا بالوقف الأهلى لصيانة الثروة، و لا سيما الوزراء و عمال المقاطعات، كانوا يتبرعون بالأوقاف الخيرية ليوطدوا الأولى بالثانية، و يعهدوا بالولاية على الجميع إلى الأرشد من ذريتهم. فرعاية لشروط الواقفين لا- تنتزع دواوين الأوقاف الولاية من المتولين على الأوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الأهلية، ما دام المتولى يؤدى دفتر المحاسبة نقيا من الشوائب. و إذا كان الأمر لا يسوغ لديوان الأوقاف أن يضبط الوقف بل يذره ملحقا، لكن يحق له أن يجبر المتولى أن يؤدى حسابا عن الوقفين الخيرى و الأهلى لتداخلهما، و إن لم ترفع إليه شكوى من أرباب الاستحقاق.

الأوقاف فى العهد العثمانى الأخير:

لهذا العهد ثلاثة أدوار: الأول دور السلطان عبد الحميد الثانى. الدور الثانى دور أخيه محمد رشاد الخامس. الثالث دور أخيهما وحيد الدين محمد السادس خاتمة ملوك بنى عثمان. و لم تكن دوائر الأوقاف فى الشام على العهد الحميدى أقل من بقية الدوائر الحكومية خللا و فوضى و اختلاسا و قلة نظام، بل كانت أكثر اختلالا من غيرها لأن لها وجهة دينية ذات اتصال بمشايخ الدين الحشويين أو الدجالين، و هم أبعد الناس عن النظام و الانتظام، فكانت

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۴

الشؤون الدينية فى عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين، و اكتفائه على الجملة بالتمويه بشعائره الصورية و رسومه الرسمية، و كان أعوانه يبيعون على مسمع و مرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعى و الفتيا و التدريس العام و الوعظ و الإرشاد. و من جملة ما يبيعون وظيفة مدير الأوقاف التى كانت تكد و تجد و تبذل الجهد فى جباية أموال الأوقاف، لتبعث بها بعد السلب و النهب و المقاسمة إلى العاصمة، فيفيض السلطان من هذه الأموال على الدجالين من مشايخ الطرق و علماء الرسوم و الرتب و الأوسمة باسم (إحسانات أو صدقات سلطانية، أو فدية عن عافية ذاته الملوكية) و يكزّ يديه بالصرف على علماء الدين العاملين فساءت لذلك حال أئمة المساجد و خطباء المنابر و السدنة و المؤذنين و الواعظين لفرط التقتير عليهم، حتى انحصرت هذه الأعمال فى البائسين و الكسالى و الزمنى.

تنقسم الأوقاف إلى خيرية و أهلية. و تنقسم الخيرية إلى مضبوطة و ملحقة، تناط الأولى بدائرة الأوقاف مباشرة. و تركت الثانية لنظارها مع احتفاظ ديوان الأوقاف بالنظارة العامة عليها، و للديوان حق السيطرة على الأوقاف الأهلية و لا سيما إذا كانت مختلطة بالخيرية. و هى تنقسم إلى جلية و خفية.

فالأولى من متعلقات الأوقاف الخيرية المضبوطة، و هى نفقات أرباب الشعائر الدينية و الاختلاس منها تافه جدا بالنسبة إلى نفقات تنوير المساجد و المعاهد و ابتياع ما يلزم من الأثاث، و هو أيضا حقير بالنسبة إلى ترميمها و ترميم الأعيان الموقوفة عليها. و أما الإنشاء المحدث أو المجدد فلم يكن معهودا فى ذاك العهد لأن ديوان الأوقاف يجبى الأموال من الشام ليبعث بها إلى العاصمة.

و بالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجلية شيئا مذكورا قياسا مع الوسائل الخفية و هى عديدة: أولها أن كثيرا من المساجد و المدارس و الزاويات (زوايا مشايخ الطرق الصوفية أو المتصوفة) و المعاهد الخيرية كالمستشفيات أو مطاعم الفقراء (التكايا) و نحوها من الأمكنة المضبوطة أوقافها، سواء كانت مهجورة أو مقفلة الأبواب لكونها فى القرى أو فى أحياء منزوية عن المدينة، فكان ديوان الأوقاف يحسب عليها جميع ما تحتاج إليه من النفقات أضعافا مضاعفة، كما لو كانت عامرة آهلة مفتحة الأبواب، فى حين أنها لا تنفق عليها شيئا

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۵

سوی مقدار زهید لقاء تطبیق المعاملة علی الأصول المرعیة الإجراء، بالحصول علی وثائق وصول النفقات إلی البائسین المستعارین الذین یستعیرهم الدیوان مقابل توقیع الوقائع و الأسناد الکاذبة. و الوسیلة الثانیة أشد خفاء من الأولی، و هی مواطأة دائرة الأوقاف مع نظار الأوقاف الملحقة الغزیرة الریع علی أکل أوقاف المسلمین الکثیرة العدد، و هی مما حبسه السراة و الأمراء و الوزراء الأسبقون علی ذراریهم، و علی المعاهد الخیریة و المعابد، و جعلوا الولایة علیها فی الأرشد علی ذریتهم. و ذلک أن هؤلاء النظار نظار الأوقاف الخیریة الملحقة کانوا یتقاضون أعشار القری المضبوطة الوقف من الخزانة العامة باسم الأوقاف الأهلیة و الخیریة، علی حین درس جل بل کل المدارس و المساجد و أصبحت أسماء لا- مسمیات لها، درست و انقلبت حوانیت و فنادق و دورا و قصورا، و سجلت فی سجلات التملیک ملکا حرا لهؤلاء النظار المختلسین، ثم انتقلت لورثتهم و لمن ابتاعها منهم. و کانوا یتقاضون أموال العشر الخاصة لهذه المعاهد، و یدرجون بکل قحة و جرأة مبلغا وافرا باسم النفقة علی تنویرها و ترمیمها و فرشها و إقامة شعائرها، ثم یتغاضی دیوان الأوقاف عن محاولة النظار تحویل الأعیان الجاریة بملک الوقف إلی مرصد أو کردار بدون سبب قوی، ثم إغضاء هذا الدیوان عن تحویل الأعیان الموقوفة من الوقف المحض أو لمرصد الکردار إلی الملک الصرف، ثم تسجیل العقارات الموقوفة علی المعابد و المدارس ملکا صرفا للنظار المختلسین إلی غیر ذلک من أنواع المواطآت بین دیوان الأوقاف و النظار علیها. و کلها ترجع إلی اختلاس الریع و تغییر الأعیان الموقوفة. و کان دیوان الأوقاف یکتب من حین إلی آخر إلی وزارة الأوقاف فی العاصمة بأنه ضبط مدرسة کان بعض الأشرار اتخذها سکنا فأرجعها معبدا تقام فیه الشعائر و الصلوات و الأوراد و الأذکار و الأدعیة للخلیفة الخ.

أما القلب و أعنی به مجلس إدارة الأوقاف الأعلی فقد کان علی جانب عظیم من الضعف، وفقا لمقتضیات العهد الحمیدی التی یرومها عباد المنافع الخاصة و أعداء المصالح العامة. و إذا کان القلب الذی هو مصدر الحیاة ضعیفا بتعفن حجیراته المنبعث عن تغلب الجراثیم الذریعة الفتک، فکیف تکون حالة شرایین الجثمان و أعضائه و دورة دمه. لا ریب أنها تکون کحال هیکل

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۶

دیوان الأوقاف و إدارتها، ما دام أعضاؤها عاطلین من الأهلیة علما و خلقا، و لأکثرهم علائق بوقف خیری أو أهلی، مما هو مخالف للقانون. فهم لا- علم و لا نزاهة و لا غیرة. أما نظار الأوقاف الأقویاء بالمجد الکاذب، فقد کانوا یتصرفون تصرف الملاک بالأعیان الموقوفة الریع علی المعاهد الدینیة و الخیریة و علی ذریة الواقفین، فضلا عما یختلسونه من المدارس و أفنیة المساجد، یتخذون جمیع ذلک دورا و حوانیت و حدائق، و ینقلونها فی سجلات التملیک من الوقف المحض إلی الملک الصرف. و إذا طالب بعض أرباب الغیرة بإعادة الأوقاف إلی حالها و إجراء أمورها علی حقیقتها تقام علیهم الدعاوی المزورة، و تنصب لهم المکاید و أشراک الانتقام. و کأن لسان حال دیوان الأوقاف و مجلس إدارتها و رئیسه یقول لنظار الأوقاف المختلسین: (سکتنا عنکم لتسکتوا عنا) لأن جمیعهم باستنزاف الأموال و سحق الضعفاء سواء.

و لقد انتظم دیوان أوقاف الشام فی الجملة بعد إعلان القانون الأساسی (۱۹۰۸ م) و تسرب إلیها شیء من الإصلاح بفضل الخطط التی رسمها وزیر الأوقاف العثمانیة العربی خلیل حمادة باشا، و تناقص النهب و الاختلاس بالنسبة إلی العهد المنصرم، غیر أن المعاهد و المعابد لم ینلها حظ من زیادة الواردات، لأنها کانت تنفذ إلی العاصمة فتنفق کغیرها من واردات أوقاف الإیالات العثمانیة کإنشاء فنادق کبری للوقف فی الاستانة. و ظلت قوانین الأوقاف کما کانت فی عهد السلطان عبد الحمید حبرا علی ورق. و مما یسجل من أعمال الدولة فی الحرب العالمیة أنها انتهکت الحرمات باسم الجهاد المقدس، و ذلک باتخاذ المعابد و فی مقدمتها الحرم النبوی الشریف، و المدارس و المعاهد الخیریة و ملاجئ الإسعاف العام ثکنات لمأوی الجنود و إصطبلات لربط الخیول، و حبس الأنعام، و مستودعات لادخار أنواع الذخیرة و ضروب المیرة. و لما انجلی الترک عن ربوع الشام، أغاروا علی سجلات الأوقاف و وثائقها و أوراقها الخطیرة و نقودها، کما أغاروا علی وثائق أغلب الدواوین و سجلاتها و نهبوا نقودها، و فی عدادها أموال الیتامی و أمانات المصارف الزراعیة، فأصیبت دواوین الأوقاف من أجل هذا بمصیبة عظیمة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۷

الأوقاف بعد العهد التركى:

و فى عهد الحكومة العربية الفيصلية ألف ديوان الأوقاف تأليفا جديدا، و لم تلبث أن فاضت واردات الأوقاف عن نفقاتها لأن المبالغ الباهظة التى كانت ترسل إلى العاصمة التركية ظلت فى خزانة الدائرة التى شرعت توسع على أرباب الشعائر و تحدث كثيرا من الوظائف. و أخذت ترمم المساجد و المدارس و الأعيان الموقوفة و تنشئ المعاهد كالمدرسة السيمساطية بدمشق التى نقضت من أساسها و أنشئت خلقا جديدا- و مثل ذلك الإصلاح الذى تم فى ترميم الأعيان الموقوفة أو إنشاء الجديد منها فى حلب و غيرها- حتى إذا تقلص ظل سلطان الملك فيصل و احتلت الجيوش الفرنسية داخلية الشام أصيب ديوان الأوقاف بتبلبل مالى، و ذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية، و اتخاذ القرش السورى محور التعامل و حظر التبادل بالنقدين الذهب و الفضة قبضا و صرفا، فى حين أن الورقة السورية كميزان الحرارة لا تثبت على حالة واحدة فى اليوم الواحد، فارتبكت معاملات دواوين الأوقاف بهذا التبلبل و زاد فى نضوب خزائنها، على الرغم مما زاده القائمون بإدارة شؤونها من زيادة الضمائم الفاحشة على الديون المؤجلة.

و قضت إرادة المفوض السامى الأول أن يتدخل المنتدبون فى الشؤون الإسلامية المحضة، و ذلك بالإشراف على أوقاف المسلمين دون أوقاف اليهود و النصارى، فى حين أن الدولة العثمانية الإسلامية لم تتدخل بشؤون أوقاف اليهود و النصارى المنضوين تحت لوائها، سواء أكان ذلك إبان قوتها، أم أيام ضعفها، و تركت إدارتها إلى المجالس الطائفية، كما أن الدولة البريطانية لم تتدخل فى مصر بشؤون الأوقاف الإسلامية فاستثنت وزارة الأوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة و سلطة المستشارين، و تركتها مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة. و قد نهجت أيضا هذا النهج فى فلسطين فتركت إدارة أوقاف المسلمين و جميع شؤونهم الدينية كتقليد القضاء الشرعى و الفتيا و الوعظ و الإرشاد و الخطابة و الإمامة إلى مجلس ينتخب أعضاءه المسلمون يدعى بالمجلس الإسلامى الأعلى.

أما فى الأصقاع المشمولة بالانتداب الفرنسى فقد أنشئت المراقبة العامة على

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۸

شكل مبتدع بين الأشكال الحكومية، و وضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية. و كذلك يقال فى مجلس الأوقاف الإسلامية الذى قضت المفوضية بتأليفه، ففصلت بذلك دواوين الأوقاف الإسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية، و وصلتها مباشرة بالمفوضية العليا، و جعلت لها مستشارا غير مسلم يتصرف فى شؤونها الإدارية و المالية بسلطة واسعة. و كان من إحداث مراقبة الأوقاف إرهاق خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة، و لم تأت بعمل يذكر مجاراة لمقتضيات الترقى الحديث استنادا إلى قواعد الشريعة العامة التى يحظرون الاستنباط منها، ذلك لأن معظم أعضاء مجلس الأوقاف من أعداء التجدد، و عشاق الاحتفاظ بالقديم و إبقائه على قدمه، فقد نقضوا قرار مجلس رياسة العلماء المنطوى على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التى لم تعد صالحة لإقامة الصلوات مع استناده إلى مذهب الإمام ابن حنبل بالشروط المنصوص عليها.

وسائل إصلاح الأوقاف:

ضيق بعض متفقهة القرون الوسطى دائرة الشريعة الواسعة، و قلبوا يسرها عسرا، و مرونتها صلابة، و صوروها عقبة كؤودا فى سبيل الارتقاء، بما ابتدعوه من القيود المنبعثة عن الجمود، و بما أقاموه من السدود المنيعة دون دخول منافذ ينابيع العلم، و ما سدلوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل. احتال فريق منهم على الشريعة فاختلقوا باسمها حيلا- تقلبها رأسا على عقب، انقيادا لا هواء العلماء و الأغنياء، بسائق الجشع و حب الجاه، و افتاتوا على دين الفطرة بحشو أودس ما تنبو عنه حكمته و أصوله و فروعه التى ترمى جميعها إلى السعادة البشرية فى الدارين. فقد قيد المتنطعون بالتحريف و التشديد الوقف بقيود و شروط و حدود، حالت دون ارتقاء

الأوقاف و عمرانها و نمو ثروتها، و قضت على حكمة الوقف و إرادة الواقفين، كما ابتدع المحتالون حيلا نجم عنها ضياع الأوقاف كالمرصد و ضروب الكردار، حتى آل حال الأوقاف إلى ما آل من المصير الفاجع.

و بعد فالواجب الآن على أهل الحل و العقد تأليف لجنة مختلطة من علماء

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۱۹

الشريعة المجددين، و علماء الحقوق و الإدارة و الاقتصاد، ليدون أعضاؤها مجموعة لأحكام الأوقاف الشرعية على نسق جديد، مغترفين من بحر الشريعة المحيط، و من كل مذهب من مذاهب الأئمة المجتهدين، ما هو أصلح و أضمن لسعادة الأوقاف و ارتقائها و إثرائها، و صيانتها من عبث العابثين، و اعتداء المعتدين، و جمود الجامدين، و ما هو أكثر ملائمة لروح الزمان، و مقتضيات العمران، وفقا لما يرمى إليه الشرع و قواعده العامة من انتقاء الأصلح و ترجيح الأحسن.

ثم إن الملحق بالشعائر الدينية نوعان، و هما التدريس الخاص بالمدارس الدينية، و الإرشاد الدقيق فى الزوايا الصوفية. أما الأول فهو تعليم العلماء فلامذتهم العلوم الدينية و وسائلها، و جل هؤلاء إن لم نقل كلهم متبرعون تلا تعلق و الحال هذه لدواوين الأوقاف بهم. و إنما التذرع بإصلاح أساليب لعليمهم، و استئصال الفوضى الضاربة أطنابها فى هذه المدارس، و هذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كرئيس العلماء أو شيخ الإسلام مثلا. أما إذا وجدت وظيفة تدريس خاص بأحد العلوم فى إحدى المدارس بأجر رتبه الواقف، و كان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانة الأوقاف، فإن للدائرة حق النظر فإذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم أهليته فإنه يعزل، و إن كان غير قائم بها كسلا فإنه ينذر. أما النوع الثانى و هو الإرشاد الدقيق فقد أجدبت الزوايا الصوفية من التصوف بمعناه الصحيح، و أقفرت من المرشدين الكاملين، و المريدين الصادقين، و أضحت مقر المشايخ الدجالين تلعطلين، و المريدين الكسالى العطلين. فأمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التى لم ينشئها الواقفون ليأوى إليها الضالون المضلون، باسم التصوف و الطرق الصوفية، و إذا كان لهم أوقاف يجب تحويلها إلى مصارف البر و الإحسان و الإسعاف العام.

أشرنا إلى ما أنتاب الأعيان الموقوفة من الدرس و الطمس و الاختلاس سواء أكانت معابد أم مدارس أم مقابر أم ملاجئ إسعاف أم عقارات موقوفة الريع. و هذا النوع الأخير أضحى من المتعسر إن لم نقل من المتعذر إنقاذه من الاختلاس بعد مرور الزمن و عدم دلالة الظاهر عليه، كدار كانت جارية

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۰

بملك الوقف، ثم لعبت بها الأيدى، فانتقلت من ملك الوقف الصرف إلى ملك مختلسها المعتدى الأثيم. أما إذا لم يمض عليها مرور الزمن، و كانت معلومة الحدود و البقعة، فيجب حتما على دواوين الأوقاف إقامة الدعوى على المختلس أو ورثته، كما يجب عليها التنقيب على ما كان من هذا القبيل.

و المرجع فى الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية و كتب الواقفين. و الواجب على دواوين الأوقاف الإيعاز إلى نظار الأوقاف الأهلية و الخيرية الملحقة بإبراز كتب الواقفين فيما إذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية، و إنذارهم بوضع اليد على الوقف إذا أبطأوا بالإبراز. أما النوع الأول فهو أسهل إنقاذا من العقارات الموقوفة الريع، لأن ما اختلس من نحو المساجد أو المدارس أو المقابر و انقلب حوانيت أو دورا أو حدائق أو غير ذلك، و أضحى ملكا صرفا للمختلسين أو ورثتهم أو المبتاعين منهم مطموسة، لتبدل شكل المدرسة مثلا بعد اختلاسها و طمس معالمها، فإن كانت آثارها لا تزال قائمة كالقباب و القبور و المحاريب فعلى دائرة الأوقاف التذرع بالوسائل القانونية لإنقاذها من المختلسين، و إن تبدل شكلها و محى رسمها، و جهلت حدودها، و مضى عليها مرور الزمن، و انقطع الأمل من إرجاعها فهى برقبة مختلسيها. و مصباح الهداية المنير إلى المعابد و المعاهد المختلسة و المدارس الدارسة و المقابر المندرسة، هو كتب تواريخ المدن الشامية و الرسائل و الأسفار الموضوعة فى الخطط و الآثار.

و ما دعا إلى هذا العبث بأعيان الأوقاف و ريعها إلا- فقدان و ازع يزع القائمين بهم، أو مؤثر أدبى يردعهم، أو رأى عام يكبح

جماحهم، أو مؤاخذة حكومة تضرب على أيديهم. و لم نسمع و لم نشهد فى ربوعنا أن ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن أو تعزير و تشهير، أو بتضمين و مصادرة، بل جل ما شهدناه فى عصرنا الحاضر أن الناظر الضعيف إذا ظهر أثناء محاسبته أدنى شبهة أو خيانة ينحى عن العمل و يساق إلى المحكمة الشرعية، و هى إما أن تحكم بعزله، و إما أن تبرئ ساحته و هو الأغلب، لأن مؤثرات الشفاعة و الحنان و نحوهما تعمل عملها. و أما الناظر القوى فلا يسأل عما يفعل. و ربما أعين على ظلمه و خيانته و اختلاسه مع التبجيل و التوقير!.

و إذا كتب لدواوين الأوقاف حظ من التجدد و الإصلاح، فالواجب

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۱

أن تشرع بمحاسبة النظار، تناقشهم الحساب، فتبدأ بالأقوياء منهم، و تغلظ عليهم، و تكرههم على إبراز كتاب الواقف الأصلى المسجل بحكم الحاكم الخالى من شائبات التحريف و التبديل، الحالى بتوقيع أو خاتم القاضى الحاكم بصحته، فيما إذا فقدت سجلاته، و أن لا تعتبر الصورة المنقولة عن أصله لأنها عرضة للتحريف و التبديل، كما يقع ذلك من النظار الخائنين. و إذا أبرز الناظر على وقف كتاب الوقف الأصلى، يعثر ديوان الأوقاف فى الأغلب على موارد أموال غزيرة مختلسة، و على مساجد و معاهد دارسة و مدارس مندرسة، كما يعثر عرضا و اتفاقا من يحفر بئر ماء على كنز ثمين أو ركاز دفين، و إذا امتنع الناظر من إظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الأوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ما انقطع ثبوته، و اشتبهت مصارفه، و جهلت شرائطه، لعدم وجوده فى سجلات القضاة، و ما كان كذلك يتحول إلى الإسعاف العام، ما لم يبرهن المرتزقة على استحقاقهم بإثبات الوقف و شروط الواقف و نسبتهم إليه أو إلى الطائفة الموقوف عليها.

و أرى أن تتخلى المفوضية العليا فى بلاد الانتداب الفرنسى عن التدخل بأوقاف المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسى المستمد منها نفوذه مباشرة، فإنه لا فرق بين هذا التدخل و بين التدخل بشؤون الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج، لأن الولاية على الأوقاف الخيرية و لا سيما الدينية المحضة هى من القضايا الشرعية الصرفة، فلا فرق و الحال هذه فى الحظر بين إمامة النصرانى المسلمين بالصلاة، و بين ولايته على أوقاف مساجدهم و معابدهم. و هذا الحظر غير محصور بالإسلام بل هو من ضرورات جميع الديانات. فإن النصرانية مثلا تحظر أن يتعاطى أحبار المسلمين و مشايخهم ما يتعاطاه أساقفة النصارى و قسيسوهم من التعميد و التكليل و التكريس و الحرمان و الغفران، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على أوقاف كنائس النصارى المثلثين و أديارهم، و هذا سر إحجام الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل بأوقاف اليهود و النصارى من رعاياها، و تركها إدارة أوقافهم و الولاية عليها لمجالسهم الطائفية. فالواجب على حكومة الانتداب أن تترك المسلمين فى هذه الديار طلقاء التصرف فى أوقافهم و تقصر عنايتها على الإرشاد فى الشؤون المدنية.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۲

و لا أجنح بتة إلى رأى من يقول بإلغاء دواوين الأوقاف الحكومية، و إناطة الولاية على الأوقاف الإسلامية بمجلس إسلامى أهلى ينتخبه الأهلون على منوال مجلس أوقاف فلسطين، لأن المجالس الأهلية مهما بلغت من النظام و الانتظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤولة و المؤاخذة قانونا على الكبيرة و الصغيرة. و ليسع الشام ما يسع مصر و العراق. و من رأيى أن تربط إدارة الأوقاف بالحكومات المحلية، و يجعل لها ديوان خاص يعد فى جملة دواوينها.

أما أوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة إناطة إدارتها بالمجلس الإسلامى الأهلى.

لأن البلاد محكومة حكما مباشرا، بيد أنه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق و التخاذل بين الفلسطينيين ما انقسم الناس فى الحكم عليه إلى مادح و قادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضاربة. أما شرقى الأردن أو حكومة الشرق العربى فإنها مليئة بأوقافها التى انتابها ما انتاب أوقاف بقية الأقاليم من الاختلاس فى القرون المظلمة، و لعل الحكومة تؤسس فيها ديوان أوقاف يشرف على ما فى صقعها من معاهد وقف و وقوف محبوسة الريع اه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۳

الحسبة و البلديات

العرب دعاة مدنية:

لم تقصر العرب فی شأن من شؤون المدنية بالنسبة لأعصارهم، فاستنبطوا بعقولهم، و طبقوا علی شريعتهم، كل ما يعلی أمرهم، و تحلو به حياتهم.

و كلما ارتقت حضارة الغرب، و توفر العاملون من أبنائه علی استخراج دفائن هذه المدنية العربية الإسلامية، تتجلی لنا أمور ما كنا نحن أصحاب تلك المدنية نعلمها و نعمل بها من قبل. انتقلت المدنية إلی العرب من الفرس و اليونان و الهند. و لكن جاء الإسلام بما فيه من العوامل القوية، و النظام المدنی البديع الذی استخرجه أهل الصدر الأول من روح الكتاب و السنة، بأجمل مدنية عرفها البشر إذ ذاك، و ما نظنه مهما ارتقی فی الأزمان التالية يخرج عن حدّها كثيرا. و نظام العقل نظامه فی كل دور و طور.

لم يترك العرب بابا من أبواب المدنية إلا طرقوه، و لا علما من علوم الصناعات إلا برزوا فيه و عانوه. و تجلت مدنيتهم بأجلی مظاهرها فی فارس و العراق و مصر و الشام و الأندلس أكثر من غيرها من الأقطار التی هذبها الإسلام، و كانت العرب أساتذة أبنائها. و الغالب أن قيام دول عظمی إسلامية فی تلك الأقطار علی أسس مدنيات قديمة كان من أول الدواعی إلی تجويد مدنيتهم، و رفع شأنها بين الأمصار علی اختلاف القرون و الأعصار، و للأقليم و طبيعته دخل كبير فی تثقيف العقول، و نبذ الجمود و الخمول،

ضاعت أو كادت وا أسفاه أوضاع مدنيتنا القديمة و مشخصاتها، لأن العرب تمزقوا و تفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين علی ديارهم، كانوا

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۴

دونهم فی سلامة الذوق وجودة الفطرة، فأفسدوا أخلاقهم بما حملوه إليهم من عاداتهم و تقاليدهم المختلة، و أوصلوهم إلی درجة من الجهالة لو لم يتداركها فی القرن الماضی محمد علی باشا فی مصر و خير الدين باشا فی تونس و مدحت باشا فی الشام و العراق لاضمحل عمرانهم و باد سلطانهم إلا قليلا.

تعريف الحسبة:

و بعد فإن الناظر فی أصول الحسبة فی الحكومات الإسلامية السالفة، يعلم أن أجدادنا هيأوا لمدنهم و سكانها جميع ضروب الراحة و الهناء، و حاولوا أن يبعدوا عنها ما أمكن الجور و الشقاء. و الحسبة بالكسر الأجر و هو اسم من الاحتساب أی احتساب الأجر علی اللّه، تقول فعلته حسبة و أحتسب فيه احتسابا، و الاحتساب طلب الأجر. و كانت الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر الذی هو فرض علی القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، و يتخذ الأعوان علی ذلك، و يبحث عن المنكرات، و يعزر و يؤدب علی قدرها، و يحمل الناس علی المصالح العامة فی المدينة، مثل المنع من المضايقة فی الطرقات، و منع الحمالين و أهل السفن من الإكثار فی الحمل، و الحكم علی أهل المبانی المتداعية بهدمها، و إزالة ما يتوقع من ضررها علی السابلة، و الضرب علی أيدی المعلمين فی الكتاتيب و غيرها، من الإبلاغ فی ضربهم للصبيان المتعلمين- قاله ابن خلدون.

و قال ابن تيمية: و بنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، و إذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر. و تناه عن أمر، و أولو الأمر أصحاب الأمر، و ذوو القدرة و أهل العلم و الكلام. فلهذا كان أولو الأمر صنفين العلماء و الأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، و إذا فسدوا فسد الناس.

و قال ابن الأخوة: الحسبة من قواعد الأمور الدينية، و قد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها، و جزيل ثوابها، و هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، و نهى عن المنكر إذا ظهر فعله، و إصلاح بين الناس، و المحتسب من نصبه الإمام أو نائبه للنظر فى أحوال الرعية،

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۵

و الكشف عن أمورهم و مصالحهم، و بياعاتهم و مأكولهم و مشروبهم و ملبوسهم و مساكنهم و طرقاتهم، و أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر.

و كانت الحسبة (المقتبس م ۳ ص ۵۳۷ و ۶۰۹) فى الحكومات العربية و حكومات الطوائف ضربا من ضروب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و لا يكون من تسند إليه إلا من وجوه المسلمين، و أعيان المعدلين، و لا يحال بين المحتسب و بين مصلحته إذا رآها، و الولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك. و قد قسمت الحسبة إلى ثلاثة أقسام: أحدها ما يتعلق بحقوق اللّه تعالى، و الثانى ما يتعلق بحقوق الآدميين، و الثالث ما يكون مشتركا بينهما.

و يمكن أن تقسم الحسبة إلى دينية و مدنية، فالدينى منها بطل من ديار الإسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات. و المدنية استعيض عنها فى القرن الماضى فى الولايات العثمانية بالمجالس البلدية، و بقيت الحسبة معروفة فى مصر إلى أواسط القرن الغابر. و مصر آخر ما اضمحل من أقطار العرب و أول من نهض.

الحسبة تجمع الشرطة و الصحة و البلدية و عملها:

فالحسبة و الحالة هذه أشبه بديوان الشرطة و الصحة و البلديات لعهدنا، و كان المحتسب أو صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة فى الدين، و يجازى عليها فى الحال، فينكر ما يجده مثلا من المنكرات فى الأسواق، و يشدد على السوقة و الباعة فى صحة القناطير و الأرطال و المثاقيل و الدراهم و الموازين و المكاييل و الأذرع، و يجرى قواعد الحسبة على الطحانين و العلافين و الفرانين و الخبازين و الشوائين و النقانقيين و الكبوديين و البواريين و الجزاريين و الرواسين و الطباخين و الشرايحيين و الهراسين و قلائى السمك و الزلابية و الحلاويين و الشرابيين و العطارين و الشماعين و اللبانين و البزازين و الدلالين و الحاكة و الخياطين و الرفائين و القصارين و الحريريين و الصباغين و القطانين و الكتانيين و الصيارف و الصاغة و النحاسين و الحدادين و الأساكفة و البياطرة و سماسرة العبيد و الجوارى و الدواب و الدور و الحمامات، و السدارين و الفصادين

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۶

و الحجامين و الأطباء و الكحالين و المجبرين و مؤدبى الصبيان و القومة و المؤذنين و الوعاظ و المنجمين و على أصحاب السفن و المراكب و باعة قدور الخزف و الكيزان و الفاخرانيين و الغضاريين و الأبارين و المسلاتيين و المرادنيين و الحناويين و الأمشاطيين و على معاصر السيرج و الزيت الحار و الغرابليين و الدباغين و البطيين و اللبوديين و الحصريين و التبانين و الخشابين و القشاشين و النجارين و النشارين و البنائين إلى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات، و تدليس أرباب الصناعات و البياعات.

الحسبة قانون مدنى:

اختصوا المحتسب بالنظر فى أمور: إحدها إراقة الخمور كلها و كسر المعازف و إصلاح الشوارع، و ذلك باب كبير فيه مسائل إحداها أمر الميزاب و الأوحال و الأرداغ، و منع جلوس الباعة عليها، و منع سوق الحمر و البقر للخشابين و الآجريين و نحوهم، و منع ربط الناس دوابهم فيها، و منع عمارة الحيطان فى شىء من الشوارع، و منع شغل هواء الشارع، و منع المبرز فى الجوار إلى غير ذلك من

المصالح، مثل النظر بين الجيران فى التصرفات المضرة، كالنظر و سد الضوء إلا فيما يرجع إلى الملك، كغصب قطعة من الأرض، و منع إسبال الإزار و نحوه على الكعبين، و زجر الرجال عن التشبه بالنساء، و منع النساء عن التشبه بالرجال.

و منع الناس عن تطيير الحمام، و منع البغايا و تعزيرهن، و منع أوليائهن و مواليهن و أزواجهن، و أمر غير المسلمين بتطهير الأوانى التى يبيعون فيها المائعات كالدهن و اللبن، و أمر الغسالين بإقامة السنة و اجتناب البدعة فى غسل الموتى، و حفر القبور و الحمل، و زجرهم عن الغلاء فى أخذ الأجرة، و نصب الصلحاء و ذوى الخبرة بهذه الأمور، و تفحص الجامع يوم الجمعة،

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۷

المصلى يوم العيدين، و إخلاؤهما عن البيع و الشراء، و منع الفقراء عن التخطى، و منع القصاص عن القصص المفتراة، و منع النساء السائلات عن الدخول فى المصلى، و منع الصبيان و المجانين منه، و دفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور، و النهى عن النجس و الأمر بالتنظيف، و منع الناس عن الوقوف فى مواضع التهم، كتحدث الرجال مع النساء فى الشوارع، و منع النقاشين و الصباغين و الصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح و كبر الصور، و منع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الأصنام و المعازف و الصنج و بيع النبيذ و البختج.

و منع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة، و خروج الناس إلى زيارة بعض المتبركين أو بعض المساجد، على مشابهة الخروج إلى الحج، و منع النساء عن التبرج و التفرج بالخروج إلى النظارات و زيارة القبور، و منع الناس عن التصرفات فى المقابر بلا ملك، و منع المطلسمة و السحار و الكهان عن بدعهم، و نهى أصحاب الحمامات عن منكراتهم، بتطهير المياه و إخلاء الحمام عن المرد و دخول العراة فيه، و أمرهم باتخاذ الحجب بين الرجال و النساء، و منع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج إليه فى الدين، و تصديق الناس الكهان و المنجمين، و منع الناس عن بدعة ليلة البراءة، و منع الناس اللعابين بالنرد و الشطرنج، و تفريق جمعهم و أخذ بساطهم و تماثيلهم، و منع القوابل عن إسقاط جنين الحوامل، و منع الجراحين عن الجب و الخصاء، و منع الإقامة فى المساجد و وضع الأمتعة فيها، و منع الذى أصابه اللّمم عن التكلم بالغيب، و اجتماع الناس عنده زاعمين أنه صادق فى إخباره بالغيب، و منع الخطاط و معلم القرآن و معلم النحو بأجر عن الجلوس فى المساجد، و منع المعلم عن أخذ شىء باسم النيروز و المهرجان، و ينذر المحتسب معلمى الكتاتيب أن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا و لا فى مقتل، و كذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس، و يقفون من كان سىء المعاملة فينهونه بالردع و الأدب.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۸

عمل المحتسب يحسب البلد:

و كانت وظائف المحتسب تزيد و تنقص بحسب البلد، و لا يعدو عمل المحتسب الأمور المشتركة بين الناس. فالمحتسب فى بيروت يقضى عليه أن ينظر فى أمور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلا. ففى بيروت يعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين و الملح و الصير و البورى و قلائى السمك و الطيور و صياديها، و نجارى المراكب و تقديراتها. و جميع المدن مشتركة مثلا فى الحسبة على الصيادلة و العقاقير و الأشربة و المعاجين و القلانسيين و الخرازين و صناع الشراك و الأساكفة و صناع الخفاف و صنعة السرابات و الزفاتين و النحاتين و الدهانين و غشهم و المكارين و غشهم و كساحى السماد و حمالته و الغرابيل و مناخل الشعر و الوراقين و المبهرجين، و فيمن يكتب الرسائل على الطرق و الرقاع و الدروج و كتاب الشروط، و الولاة و القضاة و تدليسهم، و الميازيب و مضرتها و المراصد و المراقب و طباخى الولائم و المحامل و صناعها و الروايا و القرب إلى غير ذلك مما كان يستدعيه دينهم و عاداتهم و مدنيتهم.

و ذكر السبكى أن على المحتسب النظر فى القوت، و كف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم إليه من ذلك، و الاحتراز فى المشروب، فلطالما أوهم الخمار أنه فقاعى أو اقسماوى ، و طالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن. فليتق اللّه ربه و لا يكن شىء فى

إدخال جوف المؤمنين ما كرهه اللّه لهم من الخبائث، و يحرم عليه التسعير فى كل وقت على الصحيح، و قيل يجوز فى زمن الغلاء، و قيل يجوز إذا لم يكن مجلوبا، بل كان يزرع فى البلد و كان عند الشتاء. و إذا سعر الإمام انقاد الرعية لحكمه، و من خالفه استحق التعزير. و من مهمات المحتسب و لا سيما فى الشام أمران ارتبطا به أحدهما النقود من الذهب و الفضة المضروبين. و لا يخفى أن فى زغلهما هلاك أموال البشر، فعليه اعتبار العيار فى محك النظر و التثبت فى سكة المسلمين، و ثانيهما المياه فعليه الاحتراز فى سياقها، و قد جرت عادة أناس فى الشام أن يشترى بعضهم قدرا معلوما من نهر ثورا و باناس مثلا و يتحيل لصحته بأن يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء و هو كذا أصبعا، ثم يسوقه و يحمله

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۲۹

على مياه الناس يرضى طائفة يسيرة منهم. و كان الشيخ الإمام رحمه اللّه يشدد النكير فى هذا و له كتاب فيه سماه (الكلام على أنهار دمشق).

و الحاصل أن الخلق فى أنهار دمشق سواء يقدم الأعلا منهم فالأعلا و لا يجوز بيع شىء من الماء و لا مقره و لا يفيد رضى القوم و لا كلهم لأنهم لا يملكون إلا الانتفاع، بل و لا رضى أهل الشام بجملتهم لأن رضاهم لا يكون رضا من بعدهم ممن يحدث من الخلق اه.

ثلاثة آراء فى الحسبة:

و ليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه أن يسيطر على العقول أيضا. ذكر ابن الأثير فى تقليد أنشأه لمنصب الحسبة: ... و اعلم أن الناس قد أماتوا سننا و أحيوا بدعا، و تفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعا، و أظلم منهم من أقرهم على أمرهم، و لم يأخذهم بقوارع زجرهم، فإن السكوت عن البدعة رضا بمكانها، و ترك النهى عنها كالأمر بإتيانها، و لم يأت بنا اللّه إلا ليعيد الدين قائما على أصوله، صادعا بحكم اللّه فيه و حكم رسوله، و نحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس فى أمر دينهم، الذى هو عصمة مالهم، و أمر معاشهم الذى يتميز به حرامهم من حلالهم، فابدأ أولا بالنظر فى العقائد، و اهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذى هو سبيل واحد، و تلك الفرقة هى السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا، و قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا، و من عداهم شعب دانوا أديانا، و عبدوا من الأهواء أوثانا، و اتبعوا ما لم ينزل به اللّه سلطانا، وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ، فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله و لا تسمع له قولا، و لا تقبل منه صرفا و لا عدلا، و ليكن قتله على رؤوس الأشهاد، ما بين حاضر و باد، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته، و لا تدنست علومها بمثل أثر جهالته، و المنتمى إليها يعرف بنكره، و يستدل عليه بظلمة كفره، و تلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار، و تظهر زيادتها و نقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار، و ما تجده من كتبها التى

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۰

هى سموم ناقعة، لا علوم نافعة، و أفاعى ملقفة، لا أقوال مؤلفة، فاستأصل شأفتها بالتمزيق، و افعل بها ما يفعله اللّه بأهلها من التحريق.

و من تقليد رشيد الوطواط لمحتسب: و أمرناه أن يجعل الزهد شعاره، و التقوى دثاره و العلم معلمه و الدين مناره، ثم يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، و يقيم حدود الشرع على موجب النصوص و الأخبار، و مقتضى السنن و الآثار، من غير أن يتسور الحيطان، و يتسلق الجدران، و يرفع الحجب المسدولة، و يكسر الأبواب المسدودة، و يسلط الأوباش على دور المسلمين و حرم المؤمنين، حتى يغيروا على أموالهم، و يمدوا الأيدى إلى عوراتهم و أطفالهم، و يظهروا ما أمر اللّه بستره و إخفائه، و نهى عن إشاعته و إفشائه، فإن عبادة الأوثان خير من ذلك الاحتساب، و العقوبة الأبدية أولى بمباشره من الأجر و الثواب.

و أشار ابن فضل اللّه فى وصية محتسب أن ينظر فى الدقيق و الجليل، و الكثير و القليل، و ما يحصر بالمقادير و ما لا يحصر، و ما لا يؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر، و ما يشترى و يباع و ليتعرف الأسعار و يستعلم الأخبار، فى كل سوق من غير إعلام لأهله، ليقيم

علیهم من الأمناء من ینوب عنه فی النظر، و یأمره بإعلامه بما أعضل. و قال له: إن النقود قد یکون فیها من الزیف ما لا یظهر إلا بعد طول اللبث، فلیعرض منها علی المحک من رأیه ما لا یجوز علیه بهرج، و ما یعلق من الذهب المکسور و یروبص من الفضة، و ما أکلت النار کل لحامه و لا بعضه و یقیم علیه من جهته الرقباء، و لیقم الضمان علی العطارین و الطرقیة فی بیع غرائب العقاقیر إلا ممن لا یستراب فیه، و بخط مطبب ماهر لمریض معین فی دواء موصوف، و الطرقیة و أهل النجامة و سائر الطوائف المنسوبة إلی ساسان، و من یأخذ أموال الرجال بالحیلة و یأکلهم باللسان، و من وجدته قد غش مسلما، أو أکل بباطل درهما، أو أخبر مشتریا بزائد، أو خرج عن معهود العوائد، أشهره فی البلد، و غیر هؤلاء من فقهاء المکاتب و عالمات النساء و غیرهما، و من یقدم علی ذلک و ارشقهم بسهامک، و زلزل أقدامهم بإقدامک، و لا تدع منهم إلا من جربت أمانته، و اختبرت صیانته.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۱

الحاجة و الحسبة أمس و الیوم:

و لقد حدثنا التاریخ أن الناس کانوا یتولون الحسبة بأنفسهم عندما تضعف الحکومات لأن مصلحة أهل کل بلد لا تتم إلا بدفع الأذی بعضهم عن بعض و التواصی بالحق، و الجاهل فی ذمة العالم، و الضعیف من حصة القوی.

و أهل البلد الواحد متکافلون معنی و ضمنا إذا لم یتکافلوا هلکوا، و لا تتم للفرد فیه سعادة لا تتناول المجموع. و کان قانون الاحتساب یسد حاجات المجتمعات فی هذه الدیار. نعم إن تلک الأوضاع قد بلغت عند غیرنا فی هذا العصر مبلغا عالیا من الرقی بفضل قاعدة توزیع الأعمال، و کثرة الاختصاصیین فی کل فرع من الفروع، و لکن دیوان الحسبة وحده کان یقوم بأکثر هذه المقومات فی المدن الفاضلة، فکانت الحسبة آخذة برقاب المنافع، داقة أعناق المضار. و من الغریب أن عصرنا علی رقیه لم یصل فی هذا القطر إلی بعض ما کان یتمتع به أهلها فی القرون الغابرة، و أغرب من هذا کیف اهتدوا إلی أشیاء فأصلحوها لتوفیر راحتهم و رفاهیتهم، و ما بلغوا ما بلغوه من تراتیبهم بدون التوسع فی القوانین الفضفاضة شاهدة علی تمدنهم، و أنهم أهل عملیات أکثر مما هم أرباب نظریات، فسبحان الملهم العظیم.

تأسیس البلدیات:

یبدأ عهد الإصلاح فی الدولة العثمانیة من تاریخ إعلان المنشور السلطانی الصادر فی غرة جمادی الآخرة سنة (۱۲۷۲) و فیه القواعد الأساسیة التی بنی علیها ذلک الإصلاح فی الشؤون المختلفة، و فی جملة المعاهد التی أنشئت، المجالس البلدیة التی أحدثت عقب صدور المرسوم المذکور و وضع لها نظام خاص جری فیه تعدیل بحسب الأحوال.

فإن النظام المؤرخ بیوم ۲۳ ربیع الأول سنة (۱۲۸۴) الذی یحوی فی مطاویه أصول تألیف المجالس البلدیة فی مراکز الولایات و الألویة و الأقضیة، قد جری تعدیله فیما بعد کما هو مصرح بذلک فی الفصل السابع من قانون إدارة الولایات العمومیة (۲۹ شوال سنة ۱۲۸۷ و ۹ کانون الثانی سنة ۱۲۸۶)

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۲

و یقضی هذا القانون بإحداث مجلس بلدی فی کل مرکز من مراکز الولاة و المتصرفین و قوام المقامات مؤلف من ستة أعضاء و من رئیس و معاون و من طبیب البلدة و المهندس بصفتهما عضوین مشاورین و کاتب و محاسب موظفین.

و ینص بأن هیآت المختارین (العمد) و الشیوخ فی المراکز المبحوث عنها هی التی یحق لها انتخاب الأعضاء للمجالس البلدیة من ذوی الکفاءة باتفاق الکلمة أو بأکثریة الآراء، و أن الحکومة المحلیة تصادق علی انتخابهم و نصبهم.

أما نصب الرئیس فیجب أن یقرّه المتصرف و الوالی أیضا، و أما الرئیس و الأعضاء فیخدمون مجانا بلا راتب، و الکاتب و المحاسب

يخصص لهما راتب من ريع البلدية و يربط المحاسب بكفالة معتبرة. و يجتمع هذا المجلس مرتين فى الأسبوع و ينظر فى وظائفه المعينة فى القانون. و أهمها ما له مساس بإنشاء الأبنية و فتح الطرق و توسيع الجادات و الأزقة و الشوارع، و تنظيف البلدة و تنويرها، و مراقبة الأوزان و المكاييل، و تعديل الأجور و الأسعار، و تنظيم مجارى مياه الشرب و قنوات المياه المالحة و غير ذلك من الشؤون التى تنفع فى عامة شؤون البلدة.

ثم صدر قانون البلديات (۲۷ رمضان سنة ۱۲۹۴) فعدّل كثيرا من مواد الأنظمة السابقة و زاد فى اختصاص المجلس و الرئيس و غيّر طريقة الانتخاب، فبعد أن كانت منحصرة فى الهيآت المؤلفة من المختارين و أعضاء مجالسهم أصبحت شاملة أفراد الأمة الذين توفرت فيهم الشروط القانونية، و أصبح لكل واحد منهم حق الاشتراك فى الانتخاب بحيث يمكنه أن يكون ناخبا أو منتخبا حسب الشروط المتوفرة فيه، و زاد فى تحسين حالة الدخل و توفير منابعه و انتظام جبايته.

و منح هذا القانون مجالس الإدارة فى المدن الكبيرة حق تقسيم هذه المدن إلى مناطق، بحسب سعتها و وفرة سكانها، و تأليف مجلس بلدى فى كل منطقة منها على أن يراعى عدد السكان و لا يقل عن أربعين ألفا فى كل منطقة.

و أناط بالبلدية وظائف عديدة فوق تلك الوظائف. فعهد إليها إصلاح المدينة و ترقية شؤونها من كل الوجوه العمرانية و الصحية و الأخلاقية. و أوجب الزيادة فى عدد الأعضاء فجعلوا اثنى عشر عضوا بعد أن كانوا ستة أعضاء

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۳

فقط، على أن تكون تلك الزيادة بنسبة عدد السكان و اتساع المحل. و خوّل الحكومة المحلية حق تعيين الرئيس من الأعضاء المنتخبين براتب يتقاضاه من واردات البلدية، و أما الأعضاء فيبقون بلا راتب كما فى السابق على أن يبدل نصفهم فى كل سنتين. ثم جرى تعديل هذه المادة بشأن الرئيس فتقرر أن تختار الحكومة لرئاسة البلدية من شاءت من ذوى المقدرة و اللياقة، سواء كان من الأعضاء المنتخبين أو من غيرهم، و لكنها بعد التجربة عدلت عن هذه الطريقة و أرجعت المادة إلى أصلها.

و فى قانون البلديات أن كل فرد من أفراد الدولة إذا كان يؤدى مائة قرش خراجا و هو فى سن العشرين و غير محكوم عليه بجناية، يحق له أن يشترك فى انتخاب أعضاء البلدية. و إذا كان يدفع مائة و خمسين قرشا خراجا و كان عمره خمسا و عشرين سنة و كان غير محكوم عليه بالحبس مدة سنة أو بجزاء آخر يعادله و غير تابع لحكومة أجنبية أو مستخدم عند أحد أو فى مجلس بلدى آخر أو متعهد أو كفيل للمتعهدين فى دوائر البلدية و كان غير جندى أو حاكم فى المدينة أو القصبة فيحق له أن ينتخب عضوا فى البلدية.

و فى هذا القانون أن واردات البلدية عبارة عن الرسوم و الضرائب المخصصة لها بإذن سلطانى، و عن أثمان الفضلات الحاصلة من توسيع الطرق و فتح الشوارع و غيرها، و عن الرسوم التى يجب استيفاؤها من أصحاب الأملاك الذين يستفيدون من فتح الجادات و الشوارع لانتفاع عقاراتهم و أملاكهم من شرف الموقع و إحداث البنايات، إذا قام بناؤها على الطراز الجديد، و من الجزاء النقدى و رسوم القنطار و الكيل و الوزن و رسوم الذبحية و رسم المقاولات المعقودة فى الإيجار و الاستئجار و رسوم الحيوانات المباعة ضمن حدود البلدية.

و قد خصص للتنوير و التنظيف عشرون فى المئة من خراج العقارات و المسقفات و عشرة فى المئة من التمتع. و هناك رسوم أخرى للبلدية مثل رسم الرخصة عن الأبنية المنشأة حديثا أو المراد تعميرها و ترميمها، و عن الألعاب المرتبة فى المقاصف و محلات اللهو و الطرب، و مثل رسم العجلات و الدواب المعدّة للركوب و النقل و غير ذلك من الرسوم المتروكة للبلدية، و من الهبات و التبرعات أيضا. و أهم الرسوم المخصصة للبلدية رسم الدخول (الاوكتروا)

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۴

فإنه بالنظر لتنوع موارده يكاد يكون الدعامة القوية فى إصلاحات البلدية.

و نص قانون البلديات على وجوب مراقبة الدخل و الصرف، و تنظيم موازنة عامة فى كل سنة سالمة من الشوائب و النواقص، و قضى

بتأليف لجنة من أعضاء المجلس الإدارى و أعضاء المجلس البلدى مرتين فى السنة باسم الجمعية البلدية. و حتم عليها أن تلتئم فى نيسان من كل سنة فتنظر فى نفقات البلدية عن السنة السابقة، و فى حساباتها و أعمالها العامة، ثم تصادق عليها، و أن تجتمع مرة أخرى فى تشرين الثانى من تلك السنة فتنظم الموازنة العامة للسنة القادمة، و تنظر فى الشؤون التى يجب أجراؤها فى تلك السنة. و منح هذه الجمعية حق التعديل فى أنظمة البلدية، و النظر فى أحوالها العامة على أن ترفع مقرراتها فيما يتعلق بالتعديل و الإصلاح إلى المجالس العمومية فى مراكز الولايات.

و لما كان توسيع الطرق و تعبيدها، و فتح الجادات و الشوارع و إحداث الأرصفة و إصلاح مجارى المياه و الجداول و تنظيمها، و إنشاء المدارس و المستشفيات العمومية و الثكنات و المعاقل، و القيام بجميع الأعمال المفيدة التى يشمل نفعها السكان على اختلاف طبقاتهم يتوقف على إطلاق يد البلدية فى استملاك الأراضى و البنايات اللازمة للإصلاحات المنوه بها فإن قانون الاستملاك المؤرخ فى ۲۱ جمادى الأولى سنة (۱۲۹۶) و المعدل بقوانين و أنظمة أخرى قد منح البلديات حق الاستملاك فى جميع الأرضين و العقارات بمقابل بدلات معتدلة تقدرها لجان مؤلفة من مخمنين محلفين من ذوى الخبرة و النزاهة تبعا لأصول نص عليها هذا القانون. و هذا ما زاد أعمال البلديات تحسينا و إتقانا، فأصبحت موافقة لأساليب العمران الحديث و منطبقة على قواعد الهندسة و الفن، و حفظت لأصحاب الأملاك و الأرض حقوقهم من الضياع أيضا.

النظام الجديد:

وضع رئيس الدولة السورية قرارا مؤرخا فى ۱۰ حزيران سنة (۱۹۲۵) بتأسيس البلديات فى المدن التى لا يتجاوز عدد أهاليها عشرة آلاف شخص فغيّر هذا القرار بعض أحكام القوانين السابقة. و قد نصّ فيه على أن المدن

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۵

التى يتجاوز عدد أهاليها مئة ألف نفس تؤلف مجالسها البلدية من عشرة أعضاء ينتخبهم الأهالى و عضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالى أو المتصرف، و أن المدن التى يبلغ عدد أهاليها بين خمسين ألفا و مئة ألف، تؤلف مجالسها من ثمانية أعضاء ينتخبهم الأهالى و عضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالى أو المتصرف. و المدن التى لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفا تتألف مجالسها من ستة أعضاء منتخبين و اثنين ينصبهم وزير الداخلية.

و نصّ أيضا على أن المجلس البلدى يجتمع حتما يوم الخميس من كل أسبوع يلتئم فوق ذلك بدعوة من ممثل الدولة المنتدبة أو رئيس الحكومة السورية أو وزير الداخلية أو مستشار البلدية، و فى الأحوال المستعجلة يجتمع بدعوة من رئيس البلدية أو بطلب من نصف أعضاء المجلس على الأقل.

و نصّ على صورة عقد الجلسات و المذاكرة فى القضايا المحالة إلى المجلس البلدى و تدوين المقررات الصادرة منه، و منح مستشار البلدية أو المفتش حق حضور الجلسات و إبداء رأيهما أثناء المذاكرة، و جعل اللغتين العربية و الإفرنسية رسميتين، و أوجب تسطير المحضر باللغة العربية و باللغتين معا كلما سمحت الأحوال.

و أجاز هذا القرار لرئيس الدولة حل المجلس البلدى بقرار منه و باقتراح وزير الداخلية، و اشترط موافقة المفوض السامى على ذلك الحل، ثم ذكر الأسباب الموجبة للحل كما يأتى: (۱) إهمال المجلس واجباته المنصوص عليها فى القرار المذكور بعد أن يمر على تبليغه (۴۸) ساعة. (۲) مخالفته أحكام المادة ۲۳ من هذا القرار التى تحظر عليه المذاكرة فى موضوع خارج عن سلطته، أو فى موضوع لم يذكر فى برنامج أعمال الجلسة. و المذاكرة أيضا فى قضية عقد عليها قرار يتعلق بمصلحة بعض الأعضاء الذين اشتركوا فى الجلسة، و المذاكرة بإذاعة نشرات أو خطب و إبداء أمان لها صبغة سياسية أو دينية تتعلق بالإدارة العامة. (۳) إهماله المناقشة فى إحدى القضايا المسجلة بصورة نظامية فى بيان أعمال الجلسة الأولى خلال أربع جلسات متوالية.

(۴) نقص عدد الأعضاء إلى درجة لم يتمكن معها فى أربع جلسات متوالية من إدراك النصاب القانونى.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۶

و نص القرار على تأليف لجنة خاصة بقرار من رئيس الدولة تضم خمسة أعضاء للقيام بوظائف المجلس الذى يكون حله قد تم وفقا للأحكام السابقة، و صرّح بأنه يجوز تعيين اثنين أجنبيين من دافعى الضرائب فى اللجنة المذكورة، و أن هذه اللجنة تقوم بعامة وظائف المجلس، و أنه يشرع بانتخابات جديدة متى ساعدت الحال على ذلك، و يعين تاريخ إجرائها بقرار من رئيس الدولة.

و نص القرار على وظائف المجلس البلدى فجعل إنفاذ المقررات المتضمنة للوظائف المذكورة متوقفا على تصديق وزارة الداخلية و إنفاذ غيرها من المقررات مناطا بوضع إشارة عليها من المستشار. و الوظائف المهمة هى: تنظيم الموازنة و التعديل فى تقدير الرسوم، و مشترى عقارات يزيد مجموع قيمتها على عشر واردات البلدية، و وضع ضرائب استثنائية و عقد قروض (لا بد فى هذه من الحصول على إذن المفوض السامى) و بيع أملاك البلدية أو مبادلتها، و ترتيب درجات الشوارع و الساحات و تزيينها، و تحديد الأماكن العامة و توسيعها أو إبطالها، و إحداث ساحات للأسواق و للصيد و السباق فى المواسم و غير ذلك.

و صرح بأن هذه المقررات ترفع إلى وزارة الداخلية، فإذا لم يبد الوزير رأيه خلال ثلاثين يوما من تاريخ الوصل المعطى منه، يحق للمجلس البلدى إنفاذ أحكامها، و إذا رفض الوزير الموافقة عليها خلال تلك المدة فإن للمجلس البلدى حق تمييزها إلى مجلس الشورى. و يكون قراره بشأنها مبرما. و قد نص ذلك القرار على أنه يعين عضو من أعضاء المجلس البلدى رئيسا للبلدية بقرار من رئيس الدولة و بالاستناد إلى اقتراح وزير الداخلية.

و يصرح القرار بأن الرئيس يعين لمدة سنة و أنه يمكن تجديد تعيينه لسنة أخرى بعد انقضاء مدة الرئاسة. و أنه إذا تغيب الرئيس أو وجد سبب آخر يمنعه من الحضور، فإن أكبر الأعضاء سنا يقوم مقامه فى وظائفه، و إذا تجاوزت مدة غيابه أو مدة السبب المانع من حضوره خمسة عشر يوما فيعين حينئذ وكيل الرئيس بقرار من رئيس الحكومة بناء على اقتراح وزير الداخلية.

و أما عزل الرئيس أو تنحيته عن العمل فلا يكون إلا بقرار رئيس الدولة مبنى على اقتراح وزير الداخلية و مصادق عليه من المفوض السامى بشرط أن يلمّ بالأسباب الموجبة للتنحية أو منعه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۷

و يتقاضى رئيس البلدية تعويضا شهريا يعين بقرار من وزير الداخلية و يتناول الأعضاء فى نهاية كل شهر تعويضا عن الجلسات التى حضرها كل منهم خلال ذلك الشهر على أن لا يتجاوز مجموع التعويض لكل عضو عشرين ليرة سورية صافية. و قد صرّح القرار بوظائف رئيس البلدية فإذا هى أوسع نطاقا من الوظائف التى خصته بها القوانين السابقة. و تبين أن قرارات رئيس البلدية فى دائرة سلطته الخاصة أو بالاستناد إلى مذاكرات المجلس البلدى، تعرض فورا على وزير الداخلية و لا توضع موضع الإنفاذ إلا بعد مرور خمسة عشر يوما على تسليمها للوزارة المشار إليها، و يجوز لوزير الداخلية أن يأمر بتنفيذها فورا فى الأحوال المستعجلة فقط، أما المقررات التى تتضمن تسوية وقتية فإنها تنفذ حالا بعد نشرها أو تبليغها. و فى كل حال لا تسرى أحكام القرارات على ذوى العلاقة بها إن لم تنشر و تذع، هذا إذا كانت أحكامها عامة، و على وجه الانفراد فيما إذا كانت خاصة.

تأثير البلديات فى العمران:

للبلديات تأثير عظيم فى عمران المدن و القصبات على اختلاف درجاتها لا سيما إذا عهد بإدارة البلدية إلى رجال كفاة يحسنون العمل، و ينطوون على نزاهة و نشاط، و مع أن بلدية دمشق مثلا و بها نمثل، و كلامنا فيها يصدق على أكثر مدن الشام لم تحصل على هذا الشرط الأساسى فى ترقية شؤونها إلا فى الأحايين، فإن تأثيرها فى عمار المدينة ظاهر محسوس لا ينكره أحد، و منه اتساع الشوارع و الجادات و انتظامها، و يستثنى من ذلك الأزقة التى ما برحت ماثلة للعيان على الطراز القديم لا يكاد يتخللها الهواء و لا ينفذ

إليها النور.

و لو أتيح للمدينة حكام و للبلدية رؤساء فى الزمان الغابر يقدرون الضرر العظيم الذى يطرأ على الصحة العامة بسبب ضيق المنافذ للهواء و النور. لأزالوا تلك الموانع، فوسعوا جميع الطرق و الأزقة الضيقة، و خدموا بذلك المدينة أجلّ خدمة، كما فعل مدحت باشا فى سوقه الشهير، و كما فعل جمال باشا فى زمن الحرب، فإنهما فتحا الشوارع الكبيرة و مهدا سبل الإصلاح فى المدينة و كما يفعل الآن رجال السلطة العسكريين فإنهم قد باشروا العمل نفسه بجد و نشاط.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۸

و من ذلك إحداث المجارى للمياه القذرة و تنظيمها بدرجة تمنع اختلاطها بالمياه الصالحة للشرب. و هذا العمل من أعظم الأعمال المفيدة التى أدخلتها البلدية فى برامج إصلاح المدينة، و صيانة الصحة العامة من الأمراض السارية، ويليه جر المياه من عين الفيجة بقساطل مستورة لتسلم من جراثيم الأمراض.

و إحداث البنايات و الأسواق على النمط الجديد مما زاد فى رونق المدينة و بهائها، و وضع الخرائط و المصورات التى قيدت أرباب المساكن و البيوت بإنشائها وفقا للفن و الهندسة، و توسيع الأزقة تدريجيا و منع البناء بغير الحجر و الآجر.

و منها: إنارة الأزقة و الشوارع و الساحات العامة و تسهيل المرور ليلا، و رفع المحاذير التى يكثر حدوثها تحت ستار الظلام كالسرقات و غيرها. و لا يزال التنوير مفقودا فى بعض الأزقة و لا سيما الضيقة منها. و منها إيجاد وسائط للنقل فى المدينة مثل قاطرات الترام، فإنها سهلت انتقال السكان من أقصى المدينة إلى أقصاها بالسرعة المعتدلة و بأجور خفيفة، و وفرت عليهم الوقت أيضا.

و من ذلك إنشاء المستشفى العام و مدرسة الصناعة و دار الأيتام و العجزة و غير ذلك من المعاهد النافعة التى زادت فى تحسين حالة البلدة من الوجهة الصحية و الأخلاقية و العمرانية. ذكرنا أمهات المنافع و الفوائد العامة التى حصلت فى المدينة بتأثير البلدية، و هناك فوائد أخرى أيضا لا تخفى على ذوى الألباب.

رأى فى إصلاح البلدة:

إن قوانين البلدية و أنظمتها التى وضعت فى زمن الأتراك، و استمر العمل بها مع تعديل و تغيير فى بعض موادها بحسب الأحوال، وافية بالحاجة لإدارة الشؤون. و لذلك أرى أن إصلاح البلديات يجب أن يقوم على أساسين متينين يكفيان لتشييد بنيانه: توفير دخلها و حسن جبايته، و إنفاقه فى سبيل ترقيتها و تزيينها.

و دخل البلدية الآن فى دمشق مثلا وافر لا يستهان به، و كل بلدة فى الشام و لا سيما أمهات مدنها قد زادت مع الزمن وارداتها. و بعض البلديات لا تقوم مداخيلها بنفقاتها المتنوعة من فتح الجادات و تعمير الطرق و توسيعها و يكفى ريع الفضلات الحادثة من فتح الشوارع و توسيع الطرق لتأدية بدلات

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۳۹

الاستملاك إلى أصحاب الأبنية التى يجب هدمها من جرّاء ذلك الإصلاح.

و مع هذا فإنه يمكن زيادة الإيراد بطرق عديدة. أما الرسوم فإنها تباع بطرق الالتزام و تجبى بدلاتها وفقا لنظام الأعشار بنفقات معتدلة و فى زمن قصير.

و هذا هو المطلوب فى جباية الضرائب، و لذلك لا تكلفها الجباية نفقات باهظة.

و تكفى السلطة المخولة للمجلس البلدى فى جباية الرسوم و تحصيل الديون لحفظ حق البلدية من الضياع و الضرر.

بقى علينا صرف الواردات و إنفاقها فى سبيل عمارة المدينة. فلهذه القضية علاقة كبرى بانتخاب الرئيس و أعضاء المجلس البلدى لأن الإيراد مهما كان وافرا فإنه لا يفيد شيئا إذا لم تكن الأيدى المسيطرة على شؤون البلدية أمينة على العمل منقطعة إليه متقنة إياه. و

يجب أن يكون الرئيس موظفا تنصبه الحكومة و يشترط أن يكون من ذوى الدربة و الحنكة و من حاملى الشهادات العالية أو المتعلمين بدرجة لا تقل عنها سواء كان منتخبا أو غير منتخب، و أن يخصص له راتب وافر لينصرف بكليته إلى إيفاء عمله و ليحفظ مكانته و وقاره لدى الطبقات التى يمثلها.

و أما الأعضاء فيشترط فى انتخابهم أن يكونوا متعلمين تعليما ثانويا، و يرجح انتقاؤهم من أصحاب اليسار و من ذوى المكانة ليكونوا فى غنى عن تناول الأجور التى يخصصها لهم المجلس البلدى لقاء الكشف و التحقيق عن القضايا المودعة إليهم، و ينجم عنها ما يسىء سمعتهم و يخل بمكانتهم بعض الأحيان.

و عندى أن حجر الزاوية فى أساس الإصلاح انتقاء الرئيس و الأعضاء من خيرة الرجال، و إطلاق أيديهم فى العمل، و وجود الكفاءة فى الوظائف مع غل أيديهم لا يفيد شيئا. و يصح تطبيق هذه القاعدة فى مراكز الألوية و الأقضية مع التعديل فإنه يختار فيها المتعلمون و المهذبون من ذوى الشأن و أصحاب اليسار و النزاهة و إلا فإن تزييد الواردات لا يكفى للإصلاح، و المعول على الأيدى العاملة النزيهة النشيطة و اللّه الموفق للصواب اه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۰

الترع و المرافىء و الطرق

ترعة السويس:

يتناول موضوعنا المرافئ و الخطوط الحديدية و الكهربائية و الطرق المعبدة، و لما كان افتتاح ترعة السويس بين البحر الأحمر و البحر المتوسط من أعظم العوامل التى أثرت تأثيرا كبيرا فى سير المواصلات البحرية، و تقريب المسافات الشاسعة بين الشام و البلاد الشرقية الأخرى كفارس و الهند و الصين، و خصوصا بين الشام و أمها جزيرة العرب و سهولة نقل الحجاج إلى الأرض الحجازية المقدسة- رأيت أن أفتتح الكلام بهذه الترعة و بما يتعلق بها من الشؤون الفنية و التاريخية و الاقتصادية فأقول:

المواصلات بين البحر المتوسط و بين البحر الأحمر قديمة العهد، تبدأ من المصريين القدماء على عهد امبراطوريتهم الوسطى أى منذ ألفى سنة قبل الميلاد تقريبا. فالمسألة إذا عريقة فى القدم، و قد عرفت لأول مرة قبل أربعة آلاف سنة على التقريب. و ما كانت هذه المواصلات القديمة بين البحرين إلا من قبيل المصادفات و لم تكن غاية ما كان يرمى إليه القدماء. و هؤلاء ما كانوا يتطلبون سوى الحرص على المواصلات بين البحر الأحمر و نهر النيل ليتمكنوا من وصل أهم طرقهم و هو النيل بأعظم طريق بحرى يؤدى إلى آسيا و بلاد الحبشة و هو البحر الأحمر. و لذلك قام الفراعنة بتخطيط طريق لا شك أنها من أهم طرق ذلك العهد، بين المكان الذى قامت فيه الآن مدينة القاهرة و بين السويس، ليسهل عليهم نقل بعض الأحجار و المعادن من سيناء

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۱

كالفيروز و النحاس و المغنيزيا فحفروا أول قناة بين النيل و بين البحر الأحمر.

و لما كان النيل يصب فى البحر المتوسط أصبح من الممكن إذ ذاك مرور المراكب بين هذين البحرين. و لا تعرف اليوم تلك القناة الصناعية و لا ذلك الفرع الذى حفرته يد الإنسان، و لا شك أنه كان ثمة فرع طبيعى لنهر النيل العظيم جف ماؤه منذ العصور الجيولوجية أى قبل ظهور الإنسان.

و يؤكد بعض المؤرخين أن هذا الفرع كان فى زمن رمسيس الثانى و الناظر إلى خريطة مصر يتمثل لعينيه هذا الوادى القديم وادى تومات، و فيه قسم من الأراضى الخصيبة المنبتة يقطعه الخط الحديدى بين الزقازيق و الإسماعيلية و هذا الوادى هو الفرع القديم الجاف لنهر النيل و هو موضع القناة القديمة.

فمجرى هذه القناة يتقارب جدا من القناة الحالية التى تجرى فيها المياه العذبة لإرواء الأرضين الواقعة بالقرب من ترعة السويس. و يظهر أن سلسلة البحيرات المتقطعة الواقعة على طريق هذه الترعة كانت متصلة قديما بخليج السويس الطويل و يجرى إليه فرع النيل الشرقى القديم المبحوث عنه.

و يظهر من درس الأراضى و الارتفاعات و المستحاثات أن أحجار البسوط قد ارتفعت قليلا- و لا ريب أن المواصلات كانت على أتمها زمن الامبراطورية الوسطى و فى عهد الامبراطورية الجديدة. فكانت القناة الأولى تصل نهر النيل ببحيرة التمساح، و ذلك فى عهد الأسرة الثانية عشرة إلى التاسعة عشرة أى منذ ألفين إلى ألف و مائتى سنة قبل الميلاد. و أن قناة ثانية من عهد الفراعنة أيضا و فى زمنهم الأخير المعاصر للفتوحات الفارسية أى منذ خمسمائة و خمس و عشرين سنة قبل الميلاد، كانت تصل نهر النيل ببحيرة المرة الكبيرة بواسطة وادى تومات و هذه هى القناة التى قام بحفرها و إصلاحها بسامتيك و نيخاووس من السلالة السادسة و العشرين و ذلك بين سنة (۶۱۰ و ۵۹۴) قبل الميلاد. و كان مشروعه يقضى بتجديد الفرع القديم لنهر النيل المنفصل عنه فى منطقة بوباشيس و المار فى وادى تومات. إن هذا العمل الذى ذهب بحياة مائة و عشرين ألف عامل كما ذكر ذلك المؤرخ الشهير هيرودوتس خلال رحلته إلى مصر (أى بعد سنة أربعمائة و تسع و أربعين ق م) لم ينجح و ترك قبل إتمامه، لأنه أوحى إلى الملك نيكو على ما يقال بأن عمله خدمة للبرابرة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۲

أى الفرس، و لذلك لم تتم هذه القناة إلا بعد مائة سنة أنشأها الملك داريوس الأول الفارسى. على أن القناة القديمة كانت أوسع من هذه القناة الحالية.

و قد ظهرت آثار القناة القديمة المندرسة فى سنة (۱۷۹۸) و تظهر الآثار الآن فى أماكن عديدة. و قد استعمل قسم منها لمجرى القناة الجديدة المستعملة لإسالة الماء العذب، و قد عرفنا من الجدران المائلة و المرتفعة و من الأحجار المنحوتة أن عرض القناة القديمة كان خمسة و أربعين مترا فى عمق خمسة أمتار.

و ذكر المؤرخ هيرودوتس أن طولها أربعة أيام و قد كانت معدة إذ ذاك لسير السفن. و تكريما لإنجاز عمل القناة أقام داريوس عدة مسلات تذكرة و مفخرة.

و جاء بعد ذلك البطالسة و جهدوا لتجديد عمل هذه القناة و أخذوا يقاومون الطبيعة فى العصر الرابع و الثالث و الثانى و الأول ق م. و كانوا يرمون إلى المحافظة على طريق نهر النيل إلى البحر الأحمر من البحيرة المرة و جعله أبدا صالحا لمرور الزوارق. كلفهم ذلك جهودا عظيمة و قاموا بأعمال صناعية دقيقة، كالسدود و الأحواض و أعمال أخرى كان القصد منها دفع المياه المالحة عن النيل و عن الأراضى المصرية، ثم أهمل شأنها فى القرن الأول ق م.

و بعد فإن تاريخ هذا العمل العظيم أى قناة السويس القديمة ينتهى فى عهد الرومانيين. و قد كان آخر من قام بحفر هذه القناة القديمة التى امتلأت بالرمال الامبراطور تراجان الرومانى بين سنة (۹۸ و ۱۱۷) بعد الميلاد و قد فتح على عهده نهر تراجان الذى كان يبتدئ بالقرب من القاهرة و يمتد إلى خليج السويس فى البحر الأحمر، و هذا النهر هو القناة المبحوث عنها آنفا. طمتها الرمال و ارتفع مستوى الأرض فضاع أعظم أثر من آثار القدماء يعد من بدائع القرون الغابرة.

و لما افتتحت العرب مصر كانت قناة النيل و البحر الأحمر عبارة عن ذكرى قديمة العهد جدا. و مع هذا يرجع الفضل و الشرف فى إحياء هذه الذكرى القديمة منذ اثنى عشر قرنا للعرب الفاتحين و هم آخر من أحيا هذه الذكرى قبل أهل المدنية الحاضرة. و أعظم من هذا أنهم هم أول من فكر بالطريقة الحديثة لإيجاد قناة بين البحرين المتوسط و الأحمر. ذلك لأن مملكة العرب كانت متسعة الأرجاء و تحتاج للمواصلات فى كل وجه خلافا لمملكة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۳

الفراعنة فإنهم لم يفكروا إلا بما يفيد مصر وحدها. فالحاجة عند العرب كانت ماسة لربط الصلات بين جزيرتهم و ما افتتحوا من الممالك الأخرى. و قد قام بهذه المهمة عمرو بن العاص أحسن قيام و تبعه فى ذلك الخليفة العباسى هرون الرشيد. و لعدم وسائطهم الفنية الحديثة لم يتمكنوا من فتح ترعة عظيمة كالترعة الحالية و إن فكروا بها مليا، و لما أشكل عليهم الأمر لم يحجموا عن جعل النيل واسطة الاتصال بين ممالكهم. و كان القصد من استعمال النيل هذه المرة الوصل بين البحر المتوسط و البحر الأحمر. و على هذا قاموا بإصلاح قناة الأقدمين التى تبتدئ من الزقازيق على النيل. و كانوا يأتون فى سفنهم من الشمال و يدخلون فى بحيرة المنزلة ثم فى النيل و من هناك يتبعون القناة التى أصلحوها إلى أن يدخلوا البحر الأحمر و منه يتجهون نحو جزيرة العرب.

و كانوا بهذه الصورة ينقلون من مصر ما يحتاجونه من الحنطة إلى جزيرتهم.

و يحدثنا التاريخ أن عمرو بن العاص نقل فى هذه الترعة الحنطة من الفسطاط إلى القلزم (السويس) و من هناك إلى جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر.

و قد بقيت القناة صالحة للسير مدة من الزمن حتى جاء الخليفة المنصور العباسى و قام بطم هذا الطريق المفيد مخافة أن تنقل الذخائر إلى القائم بالحجاز إذ ذاك من أرض مصر. و على هذه الصورة انقطع حبل الوصل للمرة الأخيرة بين البحرين مدة ألف سنة و نيف. على أن فكرة اتصال البحرين ما زالت باقية منذ ذلك العهد و هى الفكرة التى لم يسبق أحد إليها. و كانت من الأعمال التى لا مندوحة للمدنية من تطبيقها. و جاء البنادقة قبل العرب بفتح ترعة لتضرر تجارتهم من افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح و لكنهم لم يفلحوا.

و فى سنة (۱۶۴۱) عرض لايبنيس العالم الرياضى الشهير على ملك فرنسا لويس الرابع عشر بأن يؤلف جيشا لافتتاح مصر، و كان من جملة ما طلبه فتح هذه الترعة للوصول منها إلى الهند، و لكن لم يتم شىء من هذا كما وقع ذلك للسلطان مصطفى الثالث العثمانى الذى فكر أيضا بفتحها، و كان الأمر كذلك مع على بك زعيم المماليك الذى لم يكتب له النجاح أيضا. و قد ارتأى فتحها أيضا كولبر الشهير و كثير من وزراء لويس الخامس عشر و لويس السادس عشر.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۴

و يظهر أن كل من حاولوا ربط البحرين هم إفرنسيون أو أصدقاء لفرنسا، اتفقوا على هذا الأمر للفت فى عضد إنكلترا التى كانت تحصر طريق رأس الرجاء الصالح. و لما جاء نابليون مصر نظر فى الأعمال الأولى لفتح الترعة سنة (۱۷۹۸). و قام مهندسه لوپير بدرس المشروع و عمل المصورات اللازمة عملا بإشارة سيده غير أنه أخطأ فى حسابه خطأ عظيما إذ وجد أن مستوى الماء فى البحر الأحمر أعلى من مستواه فى البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار و تسعين سانتيما، فى حين ليس من فرق بين مستوى البحرين و بذلك كان لوپير السبب فى تأخير هذا العمل مدة طويلة.

بقيت المواصلات مقطوعة بالفعل بين السويس و البحر المتوسط مدة ألف و مائة سنة أى منذ سنة (۷۵۵) إلى سنة (۱۸۵۴) ميلادية أو من عهد المنصور إلى الزمن الذى قام به بحفر الترعة الحالية فرديناند دليسبس الذى برهن على عكس ما ادعاه مهندس نابوليون. و قد قام المهندسون لينان بك و استيفانسون و نيكريللى و بوردالو بمساحات دقيقة بين سنة (۱۸۴۸ و ۱۸۵۷) و أثبتوا بصورة نهائية خطأ المهندس لوپير.

أقنع دليسبس الخديوى سعيد باشا بفائدة الترعة و أحرز فى سبعة أيام موافقته على ذلك. و صدر المنشور الخديوى بفتح الترعة يوم ۳۰ تشرين الثانى سنة (۱۸۵۴). فعارضت بريطانيا فى فتح الترعة مدعية أنها تريد المحافظة على كيان الدولة العثمانية من الأخطار التى ستحدثها هذه الترعة المشؤومة. و لم يرجع دليسبس عن مشروعه فأسس شركة و عرض فى ۵ تشرين الثانى سنة (۱۸۵۸) أسهمها للبيع. و كان عدد هذه الأسهم (۴۰۰،۰۰۰) سهم بيع منها (۲۰۷،۰۰۰) سهم فى فرنسا و اشترك فى شراء هذه الأسهم جميع الطبقات.

أما ما بيع فى البلدان الأخرى فلم يتجاوز الثلاثة بالمائة. و اكتتب الخديوى سعيد باشا لنفسه بما بقى من الأسهم أى بنحو خمسة و

أربعين بالمائة من مجموعها و وضع تحت إدارة القائمين بالأعمال خمسة و عشرين ألف عامل بأجرة زهيدة جدا. و أسست هيأة إدارية للقيام بهذا المشروع و جرى الاحتفال بالموضع الذى أنشئت فيه بور سعيد فى ۲۵ نيسان سنة (۱۸۵۹) و ذلك قبل أن تتم موافقة الباب العالى و قبل أن تضع المعارضة البريطانية سلاحها. و مع هذا كانت

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۵

أعمال الحفر تتقدم بوسائط ابتدائية، فتنقل أتربة الحفريات على ظهور الحمير.

و لنا أن نقدر الصعوبات التى اقتحمها القائمون بالعمل إذا فكرنا بأن ما كان يحتاجه العمال من الماء للشرب كان ينقل على ظهور الإبل و كان يكلف هذا النقل ستة و خمسين ألف فرنك فى الأسبوع حتى انتهى عمل القناة المعدة لإسالة الماء العذب.

و فى ۱۸ تشرين الثانى سنة (۱۸۶۲) جرى فتح أول قطعة من الترعة و قد ترأس هذا الاحتفال الفخم دليسبس صاحب هذا المشروع. و حطم السد أثناء الاحتفال فدخلت مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح فكان هذا الاحتفال فخما مهيبا. و مات الخديوى سعيد باشا فأضاع دليسبس أكبر نصير له.

على أن هذه المصيبة لم تمنعه من الحصول على موافقة السلطان العثمانى و ذلك فى سنة (۱۸۶۶) و جىء يومئذ بآلات الحفر الضخمة ذات قوة (۲۲) ألف حصان و استغنوا عن الأدوات الابتدائية. و جرى افتتاح هذه الترعة فى ۱۷ تشرين الثانى سنة (۱۸۶۹) فاجتمع فى ذلك الاحتفال خمس و خمسون سفينة أتت من أوربا، و ممن حضر امبراطور النمسا و أولياء عهد بروسيا و هولاندا و غيرهم.

و قد أنفق على هذه الترعة تسعة عشر مليون ليرة إنكليزية.

و لما رأت إنكلترا فائدة هذه الترعة ندمت على تباعدها عن مديد المساعدة لأول الأمر و قررت أن تستعيض عما فاتها من الوقت. ففى تشرين الثانى سنة (۱۸۷۵) تمكن ديزرائيللى وزير إنكلترا من ابتياع مائة و ستة و سبعين ألف سهم كانت ملك الخديوى سعيد باشا و ذلك بمبلغ أربعة ملايين ليرة إنكليزية و فى تسعة أيام دخل ثلاثة أعضاء إنكليز فى هيأة إدارة الترعة و سقطت تلك المعارضة التى اشتدت بين إنكلترا و بين شركة الترعة. و فى سنة (۱۸۸۲) أهملت فرنسا مصالحها فى مصر فعسكرت الجيوش البريطانية فى القاهرة فاحتج فرديناند دليسبس على خرق حياد الترعة فلم يجد احتجاجه نفعا.

و فى سنة (۱۸۸۵) وضعت قواعد الاتفاق الفرنسى الإنكليزى لإدارة شؤون الترعة. و كان أثر هذا الاتفاق عظيما جدا و خصوصا أيام الحرب العامة.

فكانت هذه الترعة خندقا حصينا بيد الحلفاء للمحافظة على مصر. و لما هاجم (۵- ۱۰)

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۶

الترك الترعة سنة (۱۹۱۵) قام بالدفاع عنها الجنرال مكسويل و نجح على أيسر وجه. و لم تمض مدة قليلة بعد الحرب حتى عادت الترعة إلى ما كانت عليه قبلها و هى اليوم إحدى الطرق البحرية العظيمة فى العالم أجمع. و قد مر منها فى سنة (۱۹۲۵) ۵۳۳۷ سفينة. و كان مجموع ما تحمله هذه السفن (۹۳۵، ۷۶۱، ۲۶) طنا.

لا جرم أن إصلاح الترعة و جعلها صالحة لسير السفن كل حين عمل شاق يتطلب جهودا عظيمة. و كان عرض الترعة فى بادئ أمرها اثنين و عشرين مترا فى القعر و ثمانية أمتار عمقا. فى حين أنها اليوم خمسة و أربعون مترا عرضا فى القعر بعمق عشرة أمتار و نصف، مما يدل على أن العمل فيها متواصل و أن عرضها قد تضاعف. ثم إن عرض الترعة على مستوى سطح الماء يختلف بين المائة و العشرين و المائة و الأربعين مترا و قد يبلغ المائة و الستين، و طولها ۱۶۸ كيلو مترا.

و تقرر مؤخرا أن يجعل عمق الماء ثلاثة عشر مترا و عرض الترعة فى القعر ستين مترا. هذا و النفقات تزداد يوما فيوما. و قد بلغ ما صرف على هذه الترعة منذ البدء فيها فى سنة (۱۸۵۹) إلى يومنا هذا ما يقرب المليار من الفرنكات الذهبية. و يبدو فى ميزانيات هذا العمل عجز ظاهر من أول الأمر. و كان ما استحصل من هذا العمل لا يتجاوز الستة ملايين من الفرنكات على الرغم من الرسوم الباهظة

الموضوعة على التجارة و البواخر و تحسنت الحالة فى العهد الأخير.

و فى سنة (۱۹۲۳) بلغت الواردات غير الصافية ۴۱۹ مليون فرنک و كان الصافى من الواردات سنة (۱۹۲۴) ۲۶۴ مليون فرنک. اسم هذه الشركة «الشركة العمومية لترعة السويس البحرية» و هى شركة مصرية بقانونها و شركة دولية عمومية بالاسم. غير أن حقيقتها شركة إفرنسية و أكثرية هيأة ادارتها إفرنسية أيضا. و رئيسها الذى خلف دليسبس إفرنسى أبدا. و مركز إدارتها فى باريز و قد دفعت هذه الشركة عن سنة (۱۹۲۱) ۱۴ مليون فرنک إلى الحكومة الفرنسية ضرائب عن أموالها. و مركز الإدارة العامة أيضا فى باريز تقوم بإدارة الثلاث شعب الموجودة فى مصر و التى يديرها موظفون إفرنسيون.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۷

و هذه الشعب هى: إدارة الأشغال، إدارة المركز، إدارة سير السفن.

و يقوم بأعباء هذه الشعب الثلاث ۵۰۰ موظف و ربان و ۲۵۰۰ عامل. و إذا أضفنا إلى هذه الأرقام عيال هؤلاء الموظفين و العمال و أولادهم بلغ عدد من لهم علاقة مباشرة بشركة الترعة ۱۴ ألف نفس.

الترعة العظيمة عن طريق فلسطين:

قبل اتفاق ترعة السويس الذى صيرها ترعة محايدة دولية، فكر الإنكليز فى فتح طريق بحرى يمر بفلسطين. و ذلک لإضعاف نفوذ الفرنسيين فى الشام و نفوذ الروس فى فلسطين، فارتأوا وصل البحر المتوسط ببحيرة لوط ثم البحر الأحمر. و ذلک بواسطة قناة تبتدئ من مدينة حيفا، فتملأ وادى الغور الذى ينخفض ۳۹۳ مترا عن سطح البحر، ثم تتصل هذه القناة بالعقبة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر بعد أن تقطع وادى العربة. و بهذا يكون للإنكليز طريق حربى تبلغ به بريطانيا الهند إذا أغلقت فى وجهها ترعة السويس و ينافسون ترعة السويس.

إن سهل يزرعيل لا يرتفع سوى مائة متر عن سطح البحر. فى حين يرتفع وادى العربة بين البحر الميت و البحر الأحمر مائتين و أربعين مترا.

فلو فرضنا أنه أمكن المرور من هذه السهول المرتفعة التى تتطلب أعمالا صناعية دقيقة يتساءل المرء عما سيكون مصير الماء الجارى من البحرين إلى هذه الهوة الطبيعية أى وادى الغور فإنه يتبخر فى الحال كما هو الشأن بماء نهر الشريعة الذى يصب فى بحيرة لوط. فقد حسب السير اوليفان أن هوّة الغور التى ينخفض قعرها ۴۰۰ متر تقريبا عن سطح البحر تملأ فى خمس سنوات. و قد قدّر علماء آخرون بأن المدة اللازمة لامتلاء هذا الوادى لا تقل عن عشرة أمثال المدة التى حسبها اوليفان. و مهما تكن هذه المدة أى مدة امتلاء هذه الحفرة طويلة أو قصيرة، فإن عملا كهذا سيغير إقليم فلسطين حتما، و يحصل من جراء هذا العمل الكبير ملجأ للسفن الكبيرة، و هذا ما يتجلى به سبب تحمس الإنكليز لهذا المشروع منذ أربعين سنة.

طول هذه الترعة العظيمة ۴۰۰ كيلو متر منها ۱۹۲ كيلو مترا فقط يقتضى

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۸

حفرها بعرض ۶۰ مترا و بعمق ۱۲ مترا. و مهما تكن فكرة فتح هذه الترعة عظيمة، و مهما تكن الاستفادة من قوة الماء الذى سينصب فى وادى الغور جيدة، لا يتأتى إخراج هاتين الفكرتين إلى حيز العمل دع أن ثروة البلاد المعدنية المشهورة بجوار بحيرة لوط يصعب أن تذهب هدرا تحت غمر المياه لها، ثم إن نفقات العمل ستكون باهظة و قد قدّرها اوليفان من مليار إلى مليارين من الفرنكات، و قدّرها غيره بخمسة مليارات، مما يجلب خسائر عظيمة و لا يفيد رؤوس الأموال التى ترصد له.

الترعة بين البحر المتوسط و الخليج الفارسى:

و هناک مشروع آخر أشد غرابة من هذا ألا و هو وصل البحر المتوسط بالخليج الفارسی، و ذلک بترعة تبتدئ من السويدية و تمر بأنطاکية و حلب و باليس على الفرات. و بإصلاح نهر الفرات بحيث يغدو صالحا لسير السفن حتى شط العرب. و قد قدرت نفقات هذا المشروع بسبعين مليون ليرة عثمانية ذهبا.

فلو فرض بان الملايين الليرات لا شأن لها فإننا نتساءل عن فائدة هذا الطريق النهرى الطويل الذى لا ينقص طوله عن طول طريق البحر الأحمر، فضلا عن أن ارتفاع الأرض فى جوار حلب هو ۴۰۰ متر، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة التحقيق أيضا.

مرفأ غزة:

تبعد مدينة غزة عن ساحل البحر خمسة كيلو مترات، و ترتفع عن سطح البحر ۵۵ مترا، و تفصل بين المدينة و البحر تلال قليلة الارتفاع لا يتجاوز أعلاها ۱۵ مترا. و الساحل مملوء بطبقات رمل لا تتمكن البواخر من الاقتراب منه. و قد تكونت هذه الرمال بما تقذفه مياه النيل من الرمال إلى البحر المتوسط فتسوقها الرياح الغربية إلى هذا الساحل. و الظاهر أن مرفأ غزة كان فى معظم أدوار التاريخ دون سائر موانئ الشام و لم يكتب له أن ينتفع به حق الانتفاع إلا فى أوقات قليلة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۴۹

مرفأ يافا:

خربت مدينة يافا فى الحروب الصليبية فأضحت عبارة عن قرية تتألف من بضعة بيوت. و قد بدأت فى التجدد أواخر القرن السابع عشر. و كان المرفأ إذ ذاک غير صالح لإرساء السفن كما هى حالته لهذا العهد. و لذلک كانت ترسى السفن الفرنسية فى مرفأى عكا و صيدا. و حصنت يافا فى القرن الثامن عشر و أخذت تزداد عمرانا إلى أن جاء نابليون فى سنة (۱۷۹۹). و قد ازدادت مكانتها و كثر عدد سكانها لعهدنا، و ذلک لقربها من القدس و مرور الخطوط الحديدية منها و مهاجرة اليهود و الألمان إليها، و كان جماع هذه الأسباب العامل الكبير فى تقدم هذه المدينة. و مضت أدوار كانت كلمة الذهاب إلى يافا تدل عند الغربيين على عمل خطر. حتى إن بعض التجار كان يراهن الراحلين إلى الأراضى المقدسة على ثرواتهم بمعنى أن المسافر يقبض ما يعادل ثروته من التاجر الذى راهنه إذا عاد إلى أرضه سالما. كما أن المسافر يترک ثروته لهذا التاجر إذا لم يعد إليها. و هذا مما يدل على أن الخطر فى دخول السفن هذا المرفأ كان قاب قوسين أو أدنى. و كانوا يعتقدون أن احتمال حدوث الخطر أكثر من السلامة. و تحسنت الحال قليلا منذ ذلک العهد، و مع هذا لم يزل تفريغ السفن فى ساحل يافا من الأمور الصعبة الخطرة.

إن مرفأ يافا صغير و قليل العمق و هو مسدود بخط من الصخور البارزة عن سطح الماء و ليس له سوى مدخل صغير بين الشمال و الشمال الغربى من المدينة. و قد وقع توسيع هذا المدخل بالنحت و نسف الصخور بالمفرقعات و هناک ممر آخر فى جهة الشمال فى عرض ۲۰۰ متر ليس بصالح للانتفاع لما يطمه من طبقات الرمل. و هذه الصخور الممتدة من الساحل إلى عرض البحر هى بمثابة سد طبيعى تكون فى طول ۳۰۰ متر. و يكوّن من هذا السد ملجأ أمين للسفن الصغيرة الحجم، و لكن قعر البحر يرتفع يوما فيوما لتكوّن جنس من الحجر المركّب من الرمل و الأصداف بواسطة نوع من الملاط المترسب من الماء، فليس ثمت عمق يزيد على الخمسة أمتار إلا بعد ۵۰۰ متر من الساحل بحيث لا تتمكن البواخر الضخمة من الإرساء إلا بعيدة عن

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۰

الشط نحو ۷۰۰ متر مما يتعذر معه تفريغ السفن. و يكون التفريغ بواسطة زوارق كبيرة تسيرها نواتية من أهل هذه المدينة بمهارة فائقة. و كثيرا ما يصطدم هؤلاء الربابنة بالصخور من شدة الأمواج العظيمة التى تهب بريح الشمال فى فصل الصيف و رياح الغرب فى الشتاء. و أصحاب هذه الزوارق يتقاضون أجورا باهظة من الركاب لكثرة الأخطار التى تحيط بهم. من أجل هذا لا يتيسر للسفن أحيانا تفريغ

بضائعها و إنزال ركابها بل تسير بهم إلى مرافئ حيفا و بيروت و بور سعيد.

ثم إن قعر البحر مركب من رمال و مزيج من الحصى و مواد لزجة أخرى لا تمكن المراسى من مقاومتها عند وقوف السفن. و لذلك تبقى هذه السفن موقدة بخارها خوفا من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة المزعجة. فالخطر و الحالة هذه عظيم جدا فى إنزال الركاب. فبناء مرفإ على الطراز الحديث هو عمل إنسانى مفيد. و أول من درس هذا الموضوع الدكتور زامبل ثم أهمل أمره و ذلك قبل سنة (۱۸۷۵) فى الوقت الذى جرى فيه قلع الصخور و نسفها بالمواد النارية. و فى سنة (۱۸۸۰) طلب وزير الأشغال فى الدولة العثمانية بناء سد فى عرض البحر طوله كيلو متر واحد. و قد قدّر نفقات هذا المشروع بأربعة ملايين فرنك. و فى سنة (۱۸۹۰) كثر طلب هذا الامتياز، و من الطالبين شركة رى بساتين البرتقال فى يافا ثم شركة من القسطنطينية و شركة سكة حديد يافا القدس. و الظاهر أن فتح مرفإ جديد كبير يتطلب نفقات طائلة لا تكفى تجارة هذه المدينة لتسديد الفوائد الناتجة عن هذه النفقات.

مرفأ حيفا:

تقوم مدينة حيفا على خليج صغير يبعد عن عكا جنوبا ثلاثين كيلو مترا، و كان نزلها منذ أواخر القرن الماضى نفر من الألمان، و أسسوا مستعمرات صغيرة، و أبنية جميلة، فزادت مكانتها التجارية، و زادت نفوسها، و وفرت مرافقها، و المرفأ الحالى القريب من سهل قيشون و هو بطائح و مستنقعات يتجه نحو الشمال الشرقى فى مأمن من الرياح الجنوبية و الغربية بجبل الكرمل الذى يمتد داخل البحر من الجنوب إلى الجنوب الغربى و ينتهى فيه عموديا.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۱

و لذلك تبتعد السفن من هذا المرفأ عند اشتداد العواصف فى البحر المتوسط إذا تعذر إرساؤها فى مرفإ يافا. أما الرياح الشمالية و الشمالية الغربية فشديدة جدا فى هذا المرفإ، و عمق الماء فيه لا يتجاوز الخمسة أمتار إلا بعد مسافة كيلو متر واحد فى عرض البحر من الساحل كما هى الحالة فى جميع السواحل الشامية. و لذلك ترسو السفن الكبيرة فى عرض البحر و تفرغ بضاعتها و ركابها فى الزوارق الصغيرة التى لا- تحتاج لعمق عظيم من الماء. و خير طريقة لإنشاء مرفإ مدينة حيفا هو عمل سد فى عرض البحر يبتدئ من شمالى المدينة و يتجه من الغرب إلى الشرق بطول كيلو متر و نصف فيبلغ عمق الماء مقدارا كافيا لدخول السفن الكبيرة حتى تقترب من الرصيف فيمكن تفريغها على أيسر وجه و يتأتى ردم البقعة المثلثة التى تحصل بين السد و بين الساحل بحيث تكون صالحة لتوسيع المدينة و زيادة الأرصفة على عمق كاف. و قد أصبح دخول السفن إلى المرفإ من المدخل الشرقى سهلا فى كل وقت إذ أضحى المرفأ آمنا من العواصف و الرياح الشمالية فعمل كهذا يفيد كل الفائدة خصوصا و مدينة حيفا متصلة بالداخلية بواسطة الخط الحديدى الحجازى، و نفقات هذا المشروع باهظة لا يؤمل تسديد فوائدها فى بادئ الأمر. و قد فكّر الترك فى إنشاء مرفإ حيفا بل أعطوا به امتيازا تحضيريا فحالت الحرب العامة دون تحقيق المشروع.

و لما دخل البريطانيون فلسطين رأوا أن إيجاد مرفإ يجب أن يتم فى أول فرصة تسنح، و كان التنافس بين يافا و حيفا لأن بقية المرافئ كغزة و عكا ليست إلا مراسى بسيطة. و يافا و حيفا هما أهم الموانى فى فلسطين. و القسم الأعظم من البضائع التى ترد إلى فلسطين تأتى عن طريقهما. ففى سنة (۱۹۲۵) دخلت الموانى الفلسطينية (۲۴۷۲) سفينة حمولتها (۰۴۲، ۸۹۵، ۱) طنا.

و قد كان نصيب يافا و حيفا منها ما يأتى: يافا (۷۳۴) سفينة حمولتها (۴۱۴، ۱۶) طنا و (۵۰۴) بواخر حمولتها (۴۰۵، ۱۴۳، ۱) أطنان. حيفا (۵۴۲) سفينة حمولتها (۷۵۱۲) طنا و (۲۵۰) باخرة حمولتها (۱۳۴، ۶۸۸) طنا. و الناظر إلى الأرقام يرى يافا أولى من حيفا بالمرفإ الحديث. و صقع يافا من أكثر بقاع فلسطين سكانا و ثروة. و لا ريب فى أن مستقبلها زاهر

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۲

و فيها عنصر من عناصر ثروة فلسطين و هو البورتقال و هى منفذ القدس إلى البحر. هذه هى كل مزايا يافا. أما عيوبها فضيق مساحتها و

رداءة مينائها و تعرضها للرياح بحيث تعطل فيها أعمال الشحن من ۸۰ إلى ۱۰۰ يوم فى العام. أما حيفا فتعد بالنسبة إلى يافا مدينة جديدة فلم يكن سكانها سنة (۱۹۰۴) يزيدون على عشرة آلاف فبلغوا فى سنة (۹۲۲) ۲۵ ألفا و هم اليوم يزيدون على ۳۵ ألفا. و تعزى هذه الزيادة إلى ازدهار الصناعة فى جوارها لاتصالها بدمشق و بجنوب الشام بسكة الحجاز. و ميناء حيفا جيد يحميه جبل الكرمل فى الجنوب من الرياح و لا ينقطع العمل فيه إلا أياما معدودة فى العام. و أخيرا قررت حكومة فلسطين إنشاء مرفإ فى حيفا على الطراز الحديث و أخذت تضع المصورات و التصميمات و وقع اختلاف بين فريقين من المهندسين ففريق يقول بإنشاء المرفإ فى شمال حيفا و الفريق الآخر يذهب إلى إنشائه فى الجنوب.

و لا تلبث هذه الاختلافات أن تزول و يخرج هذا المشروع إلى عالم الوجود بما اقترضته الحكومة لهذه الغاية من الأموال الطائلة.

مرفأ عكا:

مدينة عكا مفتاح فلسطين كانت ذات مكانة حربية اعترف بها نابليون و ازدادت شأنا منذ فتحت قناة السويس و يرسم خليج عكا قوسا بشكل نصف قطع ناقص محوره الكبير يمر من حيفا و من عكا. قامت المدينة فى شبه جزيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب. و لئن كان البحر محفوظا من الشمال فهو معرض لرياح الجنوب و الغرب. و الإرساء إذا بمرفإ حيفا أسهل منه فى عكا. أما المرفأ القديم فحالته جيدة لمكان السد الممتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى. و قد امتلأ هذا الحوض بالرمال و لم يبق فيه من العمق سوى مترين فقط. ترسى السفن الكبيرة فى عرض البحر و مع ذلك لا تأمن الأخطار فى بعض أيام الشتاء و الربيع. أما من جهة إنشاء مرفإ جديد فى عكا فمما يصعب عمله، لأن ذلك يقتضى نفقات باهظة لا تتناسب مع تجارة هذه المدينة.

مرفأ صور:

كان مرفأ صور المشهور فى العصور الغابرة فى جزيرة منفصلة عن الساحل

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۳

اتصلت بالأرض بعد أن أنشأ الإسكندر طريقا بينها و بين الساحل. ثم اتسع هذا الطريق اتساعا كبيرا بما كان يحمله البحر من الرواسب حتى أضحت الجزيرة جزءا من الساحل. و لم يبق فى العهد الأخير من المدينة سوى اسمها حتى إن الرحالة المشهور هاسيل كيست السويدى لم ير فى المدينة غير عشرة أشخاص فى القرن الثامن عشر أى بين سنة (۱۷۴۹ و ۱۷۵۲) و قد خربت كثيرا بزلزال سنة (۱۸۳۷) و بعدئذ ابتدأت تزداد عمرانا و نفوسا. و بالقرب من المدينة و على بعد سبعة كيلو مترات من جنوبها خزانات قديمة من عهد الفينيقيين تسمى خزانات رأس العين تسقى المدينة و تروى سهولها حتى ساحل البحر. و لصور مرفآن الأول الصيداوى يقع إلى الشمال و هو المرفأ الحالى، و الثانى المصرى و هو إلى الجنوب و هو أكبر من الأول لا يصلح لإرساء السفن لامتلائه بالرمال. و يصلح المرفأ الصيداوى للسفن الصغيرة الحجم و يمكن تعميقه بنفقات قليلة. و لا يتأتى للبواخر الإرساء بالقرب من ساحل البحر.

و خط العمق ذو الخمسة أمتار لا يبعد كثيرا عن مدخل المرفإ الصيداوى فى حين أن هذا الخط يبتعد كثيرا عن بقية نقاط ساحل هذه المدينة.

مرفأ صيدا:

طمّ الأمير فخر الدين المعنى مرفأ صيدا خشية مهاجمة الأسطول العثمانى.

و لما تولى الحكم أحمد باشا الجزار فى عكا وقع بينه و بين القنصل الفرنسى اختلافات عديدة اضطرت الفرنسيس من سكان صيدا أن يتركوا المدينة سنة (۱۷۹۰) بدون أن يتمكنوا من أخذ أموالهم و لم يمض ثمانية أعوام أخر حتى أخرجوا منها مرة ثانية، و من ذلك

العهد ابتدأ شأنها يتضاءل. و لقد كان لصيدا قديما مرفآن كمدينة صور، الأول فى الشمال الغربى، و الثانى فى الجنوب الغربى. و مرفأ الشمال الغربى هو المرفأ الحالى و هو ذو شكل مستطيل تحده شرقا قلعة البحر و الجسر الموصل بين هذه القلعة و بين الشاطئ. و تحيط بهذا المرفإ من الشمال و الغرب سلسلة من الصخور. و مدخله الغربى المنحوت قديما فى الصخر لم يعد صالحا للاستعمال. أما مدخله الشمالى فهو الذى يصلح وحده لاجتياز السفن و لا يتجاوز عمقه الثلاثة أمتار. فلو نظف هذا المرفأ من الردم

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۴

و الأنقاض لعاد صالحا لإرساء البواخر. و السفن الكبيرة ترسى بعيدة عن الشاطئ على مسافة ۱۳۰۰ متر. و المرفأ الجنوبى الغربى معرض للرياح الجنوبية الغربية و الرواسب المتجمعة من مياه النيل كالمرفإ المصرى فى مدينة صور.

مرفأ بيروت:

يطلق الإنكليز على خليج بيروت اسم سان جورج و هو يتجه نحو الشمال تأمن فيه السفن من الرياح الجنوبية و الشرقية. أما الرياح الشمالية و الغربية التى لا تصادف موانع طبيعية فهى تعصف عصفا عظيما فى الشتاء و تحدث أمواجا هائلة. و كان الأمير فخر الدين المعنى ردم مرفأ بيروت اتقاء مداهمة الأسطول التركى. و لما خلفت السفن البخارية السفن الشراعية رأت البواخر صعوبة جمة فى هذا المرفإ و كثيرا ما كانت تضطر للإرساء فى عرض البحر كما هى الحالة فى بقية سواحل الشام، و لقد كانت تقضى اليومين و الثلاثة لتتمكن من تفريغ شحنها. و كانت العواصف الفجائية الشديدة التى تكثر فى السواحل الشامية تضطر السفن إلى الابتعاد عن الشاطئ خوفا من أن تتحطم بصخوره.

و قد استمر الحال على هذه الصورة مدة طويلة. و لم يكن الأمر ذا بال يومئذ لأنه لم يكن لبيروت مكانة فى التجارة و لعلة كانت واحدة فى جميع السواحل.

و لما استفاضت تجارة بيروت و زادت مكانتها بسرعة غريبة و ذلك بعد سنة (۱۸۴۰) اضطر ولاة الأمر أن يعيروا التفاتهم لمرفئها. ففى سنة (۱۸۶۳) تقدمت شركة المساجيرى ماريتيم بخارطات لهذا المرفإ لأحمد قيصرلى باشا حاكم مقاطعة صيدا، و قدرت نفقات هذا العمل ب ۳۰۰، ۳۷۱، ۶ فرنك. و لم يسفر هذا التذرع عن نتيجة. و فى سنة (۱۸۷۹) لم تتوفق بلدية بيروت التى قررت أخذ امتياز هذا المشروع لنفسها، لأن الحكومة لم تصدق على قرارها.

و فى سنة (۱۸۸۰) وضع وزير الأشغال فى الدولة العثمانية خارطة سنة (۱۸۶۳) موضع النظر فى تقريره عن الأشغال العامة، و بالنظر لضرورة هذا المرفإ و المنافع التى ستنجم عنه و الاقتصاد الذى يتأتى من تفريغ البضائع فيه تقدم بعضهم للحصول على امتيازه. ففى سنة (۱۸۸۳) ظهر ثلاثة طلاب لهذا العمل، و فى يد كل منهم الشروط الكافية و الضمانات اللازمة، و كان يظن أن شركة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۵

طريق بيروت- دمشق ستتمكن من إجابة طلبها، و لم تنل هذا الامتياز بل ناله يوسف أفندى مطران بإرادة سلطانية مؤرخة ب ۱۹ حزيران سنة (۱۸۸۷) لمدة ستين سنة تنتهى فى ۱۹ تموز سنة (۱۹۴۷). و قد اشترط على صاحب الامتياز المباشرة بالعمل بعد سنتين و إنجازه فى خمس سنوات على أن يكون طول الرصيف ۱۲۰۰ متر و أن ينشأ سدان كبيران يحيطان بالمرفإ و يبقى بين هذين السدين مدخل فى عرض ۲۰۰ متر و عمق ثمانية أمتار و أن تكون مساحة هذا المرفإ السطحية على وجه التقريب ۲۳ هكتارا، و قد يتأتى توسيعه فى المستقبل.

و احتفظت الحكومة بحق ابتياع هذا المشروع بعد ثلاثين سنة، و اشترط المنشور السلطانى على السفن الداخلة إلى المرفإ أداء رسوم الدخول و الرصيف أو دفع نصف الرسوم إذا كانت السفن تدخل المرفأ و لا تقترب من هذا الرصيف. و بعد هذا تم الاتفاق بين شركة طريق دمشق- بيروت و صاحب الامتياز. و فى سنة (۱۸۸۸) تألفت الشركة العثمانية للمرفإ و الأرصفة و المخازن فى بيروت برأس مال

خمسة ملايين فرنك تقسم إلى عشرة آلاف سهم باعتبار كل سهم ب ۵۰۰ فرنك. و كانت هذه الشركة إفرنسية بحتة، فأشاع الإنكليز أن هذا المشروع عقيم جدا لعدم وجود خط حديدى بين بيروت و دمشق، و أن هذا الخط لا يمكن عمله لشدة الميل فى جبل لبنان و الجبل الشرقى و لعدم وجود خط حديدى لنقل المحصولات بين المرافئ الشامية و بيروت. و قد بوشر بالأعمال سنة (۱۸۸۹) و قامت بإنجازها شركة موزى و طونن و لوزى. و استخرجت مواد البناء اللازمة لهذا المشروع من نهر الموت نقلت على خط حديدى طوله ثلاثة كيلو مترات و ۶۰۰ متر على ساحل البحر و سارت الأعمال إذ ذاك ببطء لمرض العمال بالمرض الوافد. و أضرت الأمطار و السيول فأحدثت خسائر عظيمة. و قد عقد اتفاق جديد بين شركة المرفإ و شركة الخط الحديدى بين بيروت و دمشق و حوران سنة (۱۸۹۲) على أن تقرض هذه الشركة الأخيرة خمسة ملايين فرنك بفائدة مقررة لشركة المرفإ. و رهنت هذه الشركة مقابل القرض جميع أبنيتها و أملاكها و آلات المرفإ و أدواته جميعا. و هنالك شروط أخرى اشترطتها شركة الخطوط على الشركة المدينة ضمانة، و كانت شركة الخطوط تنشئ يومئذ خطوطها مما وسع

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۶

مجال الآمال فى نجاح المشروعين معا. و بعد انتهاء عمل المرفأ سنة (۱۸۹۴) و مد الخطوط الحديدية لم تمض مدة و جيزة حتى خابت الآمال و ظهر نقص عظيم فى تجارة بيروت. و أسباب هذا النقص عديدة، منها الاختلافات التى وقعت بين شركة المرفإ و وزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البوارج الحربية العثمانية إلى المرفإ، و منها الاختلاف بين شركة المرفإ و إدارة الجمارك بشأن رسم الحمالين و المخازن و تعيين حدود منطقة لشركة المرفإ، و منها زيادة رسوم الدخول للمرفإ مما دعا إلى تحويل قسم عظيم من الصادرات و الواردات إلى بقية المرافئ الشامية القريبة، و منها بعد المسافة بين منتهى الخط الحديدى دمشق- بيروت و بين المرفإ.

درست مصورات هذا المرفإ سنة (۱۸۸۹) على طول كيلو متر واحد من الساحل بين رأس الشامية و رأس المدور فاستطاعوا اقتطاع أرضين واسعة من البحر مما ساعد على إنشاء رصيف يختلف عرضه بين ۱۰۰ و ۱۵۰ مترا.

و يبدأ أحد السدين من رأس الشامية و يمتد فى عرض البحر مسافة ۸۰۰ متر.

و ينتهى آخره بسد صغير عمودى على هذا السد متجه نحو رأس المدور.

و أما السد الثانى فيبدأ برأس المدور و يتجه نحو السد الصغير المذكور فيقترب منه على مسافة ۲۰۰ متر. و يرتفع السد الأول و هو الأعظم طولا و ارتفاعا خمسة أمتار عن سطح البحر. و أما السد الصغير و السد الثانى فيرتفعان مترين عن سطح البحر. و تقدر الزاوية التى تحدث بين السد الأول و استقامة الشاطئ ب ۴۵ درجة تقريبا، و أما الزاوية الكائنة بين السد الثانى و ذات الاستقامة فتقدر ب ۶۰ درجة و العمق فى منتصف المدخل ۱۴ مترا و يتناقص بصورة غير محسوسة من منتهى السد الأول إلى مبدئه أى يتناقص من ۱۶ مترا إلى أربعة أمتار و يختلف العمق قرب الرصيف بين ثلاثة و خمسة أمتار. و فى قرب السد الثانى بين ثمانية و اثنى عشر مترا. حتى لقد تتمكن المراكب الكبيرة من الدخول إلى هذا المرفإ دون أن تستطيع تفريغ شحنها على الرصيف رأسا.

و مساحة المرفإ الذى تم عمله ۲۰ هكتارا لا ۵۳ كما جاء فى شروط الامتياز و لا يستوعب سوى ۱۲ باخرة كبيرة فى آن واحد.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۷

فرضتا جونية و جبيل:

أخذت ترتقى مدينة جونية الواقعة على عشرين كيلو مترا تقريبا من شمال بيروت و قد قامت داخل خليج كبير يصلح ملجأ للمراكب الشراعية بل للسفن الكبيرة أيام اشتداد الأنواء، و لهذه المدينة مرفأ صغير يمكن توسيعه بنفقات قليلة.

أما مدينة جبيل فهى فى تأخر مستمر و لكنها ذات مكانة أثرية أكثر منها تجارية و ما استخرجه علماء الآثار من الغربيين من مطاوى أرضها من العاديات النفيسة دليل على ما كان لها فى الأعصر الخالية من المكانة البحرية.

و قد حاول اللبنانيون أواخر الحكم العثمانى أن يجعلوا من جونية أو البترون أو غيرهما من المنافذ البحرية فى لبنان مرفإ يستغنون به عن بيروت فلم يفلحوا، لأن ما وراء هذه الموانئ الصغيرة من القرى لا شأن له فى استهلاك المتاجر، و لا اتصال له بمدن كبرى فى الداخلية.

مرفأ طرابلس:

إن مرفأ طرابلس غير صالح لإرساء البواخر الضخمة لذلك تبقى فيه بعيدة عن ساحل البحر نحو ۱۲۰۰ إلى ۲۰۰۰ متر. و قد بنت شركة الخطوط الحديدية مرفأ صغيرا قرب المحطة محفوظا من جهة البحر و مدت عليه خطوطها، و إنشاء مرفأ كبير فى طرابلس من المسائل القديمة العهد، لأن شكل المدينة ملائم كثيرا لهذا العمل لوقوعها على الطريق بين جبال لبنان و العلويين. و تمر من هذه الطريق سكة الحديد التى تصل طرابلس بحمص بصورة سريعة و سهلة مما لا مثيل له فى بقية السواحل كبيروت مثلا لأنها منفصلة عن الداخل بسلسلة جبال شاهقة لا ممر لها إلا من شواهق عظيمة.

تتألف مدينة طرابلس من قسمين الأول المدينة و هى تبعد عن الشاطئ ثلاثة كيلو مترات و الميناء و هذا هو مرفأ المدينة. و السهل بين هذين القسمين غير صحى و يتجه مرفأ الميناء نحو الشمال. و هناك جزيرتان صغيرتان تحفظان هذا المرفأ من الرياح الغربية، و الغربية الجنوبية. و السد القديم الممتد من الشرق إلى الغرب يحفظه من الرياح الشمالية أيضا. فموقع المرفإ إذا يوافق إرساء السفن فى كل وقت و إذا اشتدت الأنواء تجد هذه السفن ملجأ منيعا

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۸

تأوى إليه. أما البواخر و البوارج التى تحتاج لعمق كبير فإنها تضطر للإرساء فى عرض البحر بعيدة عن هذا الساحل.

مرفأ اللاذقية:

يقع مرفأ اللاذقية فى سهل خصيب على مسافة نصف ساعة من البحر، و هذا السهل غير صحى، و يتجه خليج اللاذقية نحو الجنوب فيرسم قوسا فى شكل نصف دائرة و هذه القوس تنتهى من جهة الغرب بالرأس المسمى رأس اللاذقية. فمرفأ هذه المدينة معرض للرياح الجنوبية و الغربية، و يتأتى لهذا المرفإ أن يكون ملجأ صالحا للسفن لو لم يكن مطمورا بالرمال، و قد ضاق مدخله كثيرا بسبب أنقاض قصر قديم كان مشيدا هناك، فالسفن العظيمة ترسو فى عرض البحر و الصغيرة التى لا تتجاوز حمولتها ال ۳۰۰ أو ال ۳۵۰ طنا تدخل المرفأ بسهولة وسط أعمدة من الرخام و المحبّب من أطلال الآثار الغابرة. و لا يتأتى إنشاء فرضة لمدينة اللاذقية على طراز حديث بالفائدة المتوخاة لأن عملا كهذا يتطلب نفقات باهظة، فالرسوم التى يقتضى وضعها و استيفاؤها لتسديد فوائد تلك النفقات تكون سببا لتحويل قسم عظيم من تجارة هذه المدينة إلى المدن المجاورة لها. و على هذا فبناء المرفإ يأتى بنقص كبير فى تجارة المدينة و يؤدى إلى عكس الفائدة المطلوبة. و كانت الحكومة العثمانية وضعت مصورا بهذا المشروع و عاضدها نفر كبير من الأهالى. و نرى أن إنشاء طريق بين اللاذقية و حماة أجزل فائدة من إنشاء مرفإ اللاذقية.

مرفأ الإسكندرونة:

تضرب الأمثال بقذارة مدينة الإسكندرونة و مع هذا فقد اتخذت هذه المدينة منذ القرن السابع عشر قاعدة و مرفأ لتجارة حلب و ما جاورها من البلدان و ذلك لاستبداد بعض حكام طرابلس فى ذلك العصر، و ليست مدينة إسكندرونة بالبلد الزراعى و لا الصناعى و يعيش الأهلون من نقل البضائع.

يدخل خليج الإسكندرونة فى اليابسة ثلاثين ميلا فى عرض عشرين ميلا و موقعه الجغرافى يدعو إلى تأسيس مرفإ بحرى يكون من

أعظم مرافئ البحر

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۵۹

المتوسط. فللإسكندرونة بموقعها محسنات عظيمة و مهما اشتدت الرياح الهوج فى عرض البحر فالأمواج فيها خفيفة ثم إن الرياح الغربية قليلة الهبوب لمكان الجبال المرتفعة التى تعارض هبوبها. و شكل الأرض فى قاع البحر ملائم لأن الخطوط المنحنية التى تمر من عمق ثلاثة و أربعة و خمسة أمتار تحت سطح البحر يتباعد بعضها عن بعض بميل خفيف لذلك تصلح لتوسيع أرض المرفإ. و تكفى المسافة بين المنحنى المرسوم من عمق ۵ إلى ۱۵ لإنشاء عامة لوازم المرفإ بأحسن الشروط. و مواد البناء قريبة و كثيرة فى أطراف المدينة. و فى مقالع الإسكندرونة كمية عظيمة من الأحجار الصالحة لبناء الأحواض فى البحر، و المدينة قابلة بأيسر الأسباب أن تصبح من كبريات المدن، و يصلح الجبل المجاور لها لتأسيس مصايف جميلة، و هناك عيون كثيرة تفيض ثرة و يقل مثيلها فى غيرها من المصايف الجميلة.

و الإسكندرونة هى المرفأ الوحيد لمدينة حلب، انطاكية، كليس، عينتاب، مرعش، أورفة، البيرة، ديار بكر. و لجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل. و هذا المرفأ أكبر مرفإ فى الشام لأنه يمكنه إرساء البواخر و الأساطيل الضخمة. و كان وزير الأشغال العثمانية قدّم تقريرا لإصلاح هذا المرفإ و إنشائه، و قدّر النفقات بمليونى فرنك ذهبى. على أن عمل مرفإ فى الإسكندرونة يقتضى إنجازه و تجفيف المستنقعات المحيطة بالمدينة معا و كان قدّر هذا الوزير نفقات هذا العمل أى تجفيف المستنقعات المذكورة بنصف مليون فرنك ذهبى.

لا يفيد إنشاء مرفإ عظيم مجهز بأحدث الآلات فى مدينة الإسكندرونة الفائدة المطلوبة إلا بربطه بخط حديدى كثير الحركة يمكن بواسطته الاتصال مع الداخل الواسع إلى ديار بكر فالموصل فبغداد فإيران. و لذلك اقتضى أن يكون هذا المرفأ هو الطريق الطبيعى للتجارة مع أوربا و البحر المتوسط.

و يقوم الخط الحديدى الذى أنشأته شركة سكة حديد بغداد بين الإسكندرونة و طوبراق قلعة المتصل بالخط الأساسى بتسهيل المواصلات مع قليقية. و ستتحول تجارة هذه الديار عن مرسين للإسكندرونة إذا جهزت هذه المدينة بفرضتها البحرية الحديثة. و ستظل المواصلات مع حلب و ما وراءها صعبة لأن عمل

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۰

سكة حديد بين الإسكندرونة و حلب عن أقرب طريق يقتضى له المرور من أعالى جبل أمانوس و جعل الميل شديدا على مسافة طويلة. و إذا أريد تخفيف الميل يقتضى إطالة مدى الطريق فلا تختلف إذ ذاك المسافة بين الإسكندرونة و حلب فى هذا الطريق الجديد عن طريق طرابلس حمص حلب من حيث المسافة عدا أن هذا أسهل من الأول. بقيت هناك طريقة أخرى للقيام بهذا المشروع و هى خرق الجبال التى تفصل بين الإسكندرونة و حلب بنفق لا يقل طوله عن عشرة كيلو مترات تحت مضيق مدينة بيلان، و هذا يستلزم نفقات كثيرة ربما زادت على الفائدة المطلوبة ألا و هى ربط حلب و ضواحيها بالساحل البحرى عن أقرب طريق. أما إذا نظرنا إلى الإسكندرونة بصفتها مرفأ خاصا لحلب فقط بل كما ذكرنا أعلاه للعراق و إيران فتكون النفقة حينئذ متناسبة مع عظمة المشروع.

الخطوط الحديدية:

لقيت شبكة الخطوط الحديدية الشامية بأسرها صعوبات جمة فلم يتيسر إكثار عددها و اتساع نطاقها. فسلسلة جبال لبنان تقضى باستعمال الخطوط المسننة. و هبوط أراضى الغور التى تنحدر بصورة شديدة تقرب من الشاقولية و تجعل منها حفرة عميقة تمنع سهولة المواصلات بين الساحل و شرقى نهر الأردن. فهذه الموانع الطبيعية فى صورة الجبال اضطرت القائمين بأعمال هذه الخطوط أن يعمدوا إلى الخطوط الضيقة ذات الميل الشديد، مما أدى إلى كثرة النفقات فى الإنشاء و زيادة المنفق على الاستثمار. فالخطوط

الحدیدیة فی الشام التی تمکنا من الحصول علی بعض الوثائق عنها و عن نبذة من تاریخها و الشؤون المتعلقة بها هی علی الصورة الآتیة:

أولا: طریق بیروت- دمشق، و بیروت- المعاملتین، و دمشق- المزیریب، و ریاق- حلب، و حمص- طرابلس.

خط بیروت- دمشق:

لما کثرت حرکة التجارة و النقل علی طریق بیروت لم تعد تکفی المرکبات

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۱

(الکارات) و لا- الحوافل (الدبلیجانس) مع ما هی علیه من الانتظام و السرعة فدعت الضرورة إلی إنشاء سکة حدید بین هاتین المدینتین، و لکن مشروعا کهذا یصعب تنفیذه لأنه تفصل دمشق عن بیروت سلسلتان من الجبال الشاهقة لبنان الغربی و لبنان الشرقی و ذلک بصورة متعامدة علی الخط الواصل بین المدینتین. و ترتفع هذه الجبال عن سطح البحر إلی ۱۴۰۰ أو ۱۵۰۰ متر علی الأقل و بینهما سهل البقاع الذی یرتفع هو أیضا من ۸۰۰ إلی ۱۰۰۰ متر عن سطح البحر فیظهر مما تقدم شدة الصعوبات الکثیرة التی تعترض سیر الخط قبل وصوله إلی دمشق المرتفعة ۶۹۰ مترا عن سطح البحر إذ یقتضی علی هذا الخط قطع هذه العوارض و السهول.

و فی حزیران سنة (۱۸۹۱) استحصل السید حسن بیهم أمرا سلطانیا بامتیاز خط حدیدی بین دمشق و بیروت. و فی هذا الامتیاز رخصة باستعمال بعض الأرضین مجانا، و إعفاء جمیع مواد البناء اللازمة من رسوم المکوس و الضرائب بأنواعها. و اشترط علی صاحب الامتیاز استعمال اللغة الترکیة وحدها، و استخدام الرعیة العثمانیة، و تنظر المحاکم العثمانیة فی کل اختلاف یحدث خلال العمل. و الحکومة العثمانیة تحتفظ لنفسها بحق شراء هذا المشروع بعد ثلاثین سنة، و دفع ثمنه أقساطا علی أن لا تکون قیمة القسط أقل من خمسین بالمائة من وسطی الواردات غیر الصافیة للخمس سنوات الأخیرة، کما أوجبت علی صاحب الامتیاز أن یؤسس شرکة مساهمة عثمانیة خلال ستة أشهر، و أن یتفق مع شرکة طریق بیروت- دمشق للتخلی عن حقوقها و أن یدفع عربونا للحکومة مقابل هذا الامتیاز. و فی العشر سنوات الأولی من مدة الامتیاز یرجح صاحبه علی سواه لإنشاء ترامواى علی مسافة ثلاثة کیلو مترات من طرفی الخط الحدیدی أو تأسیس إدارة لتسییر عجلات أو سیارات بین محطات الخط الحدیدی و البلدان القریبة من هذا الخط.

و فی ۱۸ نیسان سنة (۱۷۹۰) حصل یوسف أفندی مطران علی امتیاز خط حدیدی بین دمشق و حوران. و لما لم یقم بتقدیم مصورات المشروع خلال المدة المعینة سقط حقه من ذلک الامتیاز. غیر أنه استعاده بعدئذ و أسس شرکة (۵- ۱۱)

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۲

بلجیکیة باسم شرکة ترامواى دمشق و خط دمشق- حوران برأس مال قدره أربعة ملایین فرنک ذهبی تقسم علی ثمانیة آلاف سهم، سعر کل سهم منها ۵۰۰ فرنک. و من جهة أخری فإن الشرکة التی أسست للحصول علی الامتیاز الممنوح للسید حسن بیهم سمیت باسم الشرکة المساهمة العثمانیة لخط بیروت- دمشق الاقتصادی. و قد رأت هاتان الشرکتان من الضرورة الماسة أن تندمجا معا و لا سیما لما أحرزت شرکة إنکلیزیة امتیاز خط حیفا- دمشق و ذلک دفعا للخطر المحتمل حدوثه من هذا الامتیاز الأخیر. و قد طلبتا الموافقة علی ذلک الاندماج من الحکومة العثمانیة فقبلت بذلک بالمرسوم السلطانی المؤرخ فی ۲۲ تشرین الثانی سنة (۱۸۹۱) الذی مدّد مدة امتیاز هاتین الشرکتین إلی ۹۹ سنة اعتبارا من ۳ حزیران سنة (۱۸۹۱). و علی هذه الصورة جعلت مدة الشرکتین واحدة. و سمیت الشرکة الجدیدة باسم شرکة الخطوط الحدیدیة العثمانیة الاقتصادیة لبیروت- دمشق- حوران فی سوریة. و اعتبر تأسیسها نهائیا فی صورة عثمانیة اعتبارا من ۴ حزیران سنة (۱۸۹۲). و قد باعت شرکة طریق بیروت- دمشق جمیع حقوقها المحررة بالمرسوم السلطانی المؤرخ ب ۲۰ تموز سنة (۱۸۵۷) من هذه الشرکة الجدیدة. و ذلک بتاریخ ۲ کانون الثانی سنة (۱۸۹۲) و قد خصص لکل ذی سهم واحد فی شرکة الطریق سهمان فی شرکة الخطوط. و استحصلت شرکة المرفإ علی مقعدین فی مجلس إدارة شرکة الخطوط

للمنافع المتبادلة بين الشركتين. و صدرت إرادة سلطانية فى ۲۵ تموز سنة (۱۸۹۲) بتمديد ۴۹ سنة مدة امتياز شركة المرفإ و ذلك لجعل مدة الشركات الثلاث متساوية. و لم تمض مدة قليلة حتى تبدل اسم الشركة للمرة الثالثة (۱۸۹۳) و السبب فى ذلك أن يوسف أفندى مطران صاحب امتياز خط دمشق- حوران قد حصل على امتياز جديد خط دمشق- حمص- حماة- حلب- البيرة (بيره‌جك). و عرض على الشركة هذا الامتياز الذى كانت تحلم به فصدرت إرادة سلطانية فى ۳۰ أيار (۱۸۹۳) تمنح يوسف أفندى مطران إنشاء الخط المذكور و استثماره لمدة ۹۹ سنة. و على ذلك أصبح اسم الشركة الشركة المساهمة العثمانية لخطوط بيروت- دمشق- حوران- البيرة و جعلت مدتها ۹۹ سنة تنتهى فى حزيران (۱۹۹۲) و جرى افتتاح خط بيروت- دمشق

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۳

فى ۳ آب (۱۸۹۵).

هذا الخط هو من الخطوط الضيقة عرضه متر و خمسة سانتيمترات.

و هو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسننة على مسافة ۳۴ كيلو مترا، و طوله ۱۴۷ كيلو مترا أما ميله فيصل إلى سبعة بالمائة أحيانا، و يحتوى على أربعة أنفاق لا يتجاوز أطولها ۳۵۰ مترا فاستعمال الخطوط المسننة قد أبطأ سير القطارات إبطاء غريبا، مما جعل السرعة الوسطية لا تتجاوز ال ۱۶ كيلومترا فى الساعة، و يقطع قطار الركاب المسافة بين بيروت- دمشق فى تسع ساعات، و تجتاز قطارات الشحن المسافة عينها فى ۱۱ ساعة فى حين أن الحوافل كانت تجتاز هذه المسافة أيضا ب ۱۳ ساعة. و خط بيروت- دمشق يربح نفقات الاستثمار مع فائدة رأس المال.

و إليك جدولا يحتوى أسماء المحطات و مقدار المسافات مع ارتفاع هذه الخطوط عن سطح البحر.

أسماء المحطات/ المسافات كيلومتر/ الارتفاعات متر

بيروت/ ۰/ ۰

الحدث/ ۷/ ۱۵۰

بعبدا/ ۹/ ۲۴۲

جمهور/ ۱۲/ ۳۸۰

عاريا/ ۱۷/ ۳۸۰

عاليه/ ۲۱/ ۷۵۰

بحمدون/ ۲۷/ ۷۵۰

عين صوفر/ ۳۱/ ۱۲۹۵

«رأس جبل لبنان»// ۱۴۸۷

المريجات/ ۴۴/ ۱۱۵۰

الجديدة/ ۴۷/ ۹۵۰

المعلقة/ ۵۶/ ۹۵۰

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۴

«سهل البقاع»// ۹۰۰

رياق/ ۶۶/ ۹۰۰

يحفوفا/ ۷۸/ ۱۳۲۸

«رأس جبل لبنان الغربى»// ۱۴۰۵

سرغایا/ ۸۷/ ۱۳۷۰

الزبدانی/ ۹۸/ ۱۲۱۳

سوق وادی بردی/ ۱۱۵/ ۱۲۱۳

دیر قانون/ ۱۱۹/ ۱۲۱۳

عین الفیجة/ ۱۲۳/ ۱۲۱۳

الجدیدة/ ۱۳۰/ ۱۲۱۳

الهامة/ ۱۳۴/ ۷۴۰

دمر/ ۱۳۷/ ۷۲۵

دمشق- برامکة/ ۱۴۴/ ۶۹۰

دمشق المیدان/ ۱۴۷/ ۶۹۰

خط بیروت- المعاملتین:

یسیر هذا الخط الحدیدی علی شاطئ البحر و یمر بطریقه علی بعض قری الساحل و أهمها بلدة حونیة، و کان القصد من إنشائه وصل مدینة طرابلس ببیروت و لکنه لم یتم منه سوی ۱۹ کیلو مترا عند قریة المعاملتین و هو ملک لشرکة التراموای اللبنانی.

خط دمشق- حوران:

جری إنشاء خط دمشق- حوران باهتمام و سرعة زائدة و قد تم سنة (۱۸۹۳) و بوشر باستثماره فی أواسط سنة (۱۸۹۴)، و لم یصادف صعوبة عظیمة فی إنشائه فال ۱۰۳ کیلو مترات المتألف منها هذا الخط تمر فی سهل خفیف التموج بین دمشق- المزیریب و المیل الأعظم فیه لا یتجاوز الاثنین بالمئة،

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۵

و هو من الخطوط الضیقة کخط بیروت- دمشق أی فی عرض متر و خمسة سنتیمترات.

و کان لا یحصل إلا علی نفقات الاستثمار فقط أی إنه کان لا یؤدی فوائد رؤوس الأموال. و من العوامل التی دعت إلی عدم نجاحه بعد مرفإ بیروت عن منتهی الخط الحدیدی مسافة ۲۴۰۰ متر و لکن شرکة الخطوط الحدیدیة اتفقت مع شرکة المرفإ و شرکة التراموای اللبنانی علی وصل الخطوط بأرصفة المرفإ (۴ شباط ۱۸۹۷) و جری بالفعل ذلک الوصل و بوشر باستثماره فی سنة (۱۹۰۳) و یبلغ طول هذا القسم ۲۲۰۰ متر و هو أیضا من الخطوط الضیقة و قد کلف عمله جهودا عظیمة و نفقات باهظة- أما سکة دمشق- المزیریب فقد اقتلعت خطوطها أثناء الحرب العامة لاستعمال قضبانها فی إنشاء الخطوط الفلسطینیة العسکریة، و لذلک أصبح هذا الخط من الخطوط التاریخیة لأنه لم یجر إرجاعه إلی ما کان علیه حتی إن الشرکة الفرنسیة صاحبته لا تفکر بإرجاعه علی ما نظن، بعد أن وضعت یدها علی إدارة الخط الحجازی.

و لا یعقل بقاء خطین متوازیین فی منطقة واحدة.

خط دمشق- حلب:

کتب وزیر الأشغال العامة فی الدولة العثمانیة فی تقریره سنة (۱۸۸۰) لوصل مدینة حلب بدیار بکر بخط حدیدی مارا بالبیرة و أورفة. و کتب المهندس برسیل أیضا فی تخطیط الطریق الحدیدی ما یقرب مما ارتآه الوزیر العثمانی علی أن یکون الخط فی طول ۴۲۰ و

فی عرض ۴۴، ۱ أی من الخطوط الاعتیادیة. و فی تقریر الوزیر العثمانی أیضا خط حدیدی یبتدئ من حلب إلی حماة فحمص فدمشق فحوران. و کان قدّر نفقات کل کیلو متر واحد إذ ذاک ب ۱۳۰ ألف فرنک، و طلبت امتیاز هذا الخط شرکة الباتینیول و أرسلت مهندسیها لوضع التصمیمات اللازمة له. و فی سنة (۱۸۹۲) طلبت شرکة عثمانیة مؤلفة من أعضاء مسلمین امتیاز هذا الخط من وزارة الحربیة و ذلک لإنشاء خط عسکری بدون ضمانة کیلومتریة. و لکن صدرت الإرادة السلطانیة بتاریخ ۳۱ أیار (۱۸۹۳) بإعطاء الامتیاز لیوسف أفندی مطران وکیل الشرکة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۶

الفرنسیة لخط بیروت- دمشق- حوران. و قد ذکر بصراحة فی أول مادة لهذه المقاولة أن القصد من عمل هذا الخط عسکری بحت. و علی صاحب الامتیاز أن یسیر حسب ما قررته وزارة الحربیة من التخطیط و أن ضابطا من أرکان الحرب سیقوم بدرس هذا المشروع مع اللجنة المخصصة لدرسه.

و جعلت مدة الامتیاز ۹۹ سنة علی أن یکون عرض الخط اعتیادیا (۴۴، ۱) و أن یکون مفردا و یضاف إلیه خط ثان فی المستقبل. و فی الامتیاز شروط أخری تذکر عادة فی المقاولات من هذا النوع، کإعفاء المحروقات و أدوات الخط جمیعها من المکوس و وضع عربون فی خزینة الدولة مقداره ۲۲۵ ألف فرنک، و أنه بحق للدولة اشتراء هذا الخط و دفع ثمنه أقساطا علی ألا تکون قیمة القسط أقل من خمسین بالمئة من متوسط الواردات غیر الصافیة للخمس سنوات الأخیرة و ألا یکون المبلغ المدفوع أقل من سبعة آلاف فرنک عن کل کیلومتر واحد. و قد ذکر أیضا أربعة شروط أخری ذات مکانة عظیمة نذکرها فیما یلی:

(۱) أن الشرکة قدّ حصلت علی حق استثمار المعادن الواقعة فی طرفی الخط علی مسافة ۲۰ کیلو مترا من الجانبین.

(۲) حصلت الشرکة علی ضمانة کیلو متریة مضمونة بأعشار البلدان التی یمر منها هذا الخط. و هذا عکس جمیع الخطوط الشامیة. و ألا تکون هذه الضمانة أقل من سبعة بالمئة من رأس المال الموضوع للتأسیس و ألا تکون أکثر من ۵۰۰، ۱۲ فرنک عن کل کیلو متر واحد.

و بما أن هذا الخط الذی أخذ امتیازه و لم یجر إنشاؤه یبلغ طوله أکثر من ۵۰۰ کیلو متر فأعظم ضمانة یقتضی علی الحکومة العثمانیة دفعها تتجاوز السبعة ملایین و ۲۵۰ ألف فرنک و لما کانت النقلیات قلیلة علی بعض نقاط هذا الخط فستضطر الحکومة لدفع هذا المبلغ برمته تقریبا.

(۳) یحق للشرکة أن تمدد خطوطها إلی الشمال لنقطة واقعة بین البیرة حتی تتمکن من وصلها بخط بغداد (المادة ۳).

(۴) ترجح الشرکة علی سواها للحصول علی امتیازات جمیع الخطوط التی تقرر الحکومة تمدیدها بین الخط الأساسی و السواحل الشامیة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۷

بشروط متساویة (المادة ۳۵). و أخیرا وضع وزیر المالیة مبلغ ملیون و ۸۰۰ ألف فرنک بین یدی اللجنة الدولیة للدیون العامة لتأمین الضمانة الکیلومتریة.

و کان ذلک فی سنة (۱۸۹۶). و فی ۱۲ تشرین الأول (۱۸۹۶) اتفقت الشرکة و الحکومة العثمانیة علی تأجیل إنشاء هذا الخط خمس سنوات. و تعهدت الحکومة بدفع تقسیط سنوی مقداره ۳۳ ألف لیرة عثمانیة ذهبا أی ۷۵۰ ألف فرنک إلی الشرکة مقابل العطل الذی یصیبها من هذا التأجیل.

و مع هذا لم یتم إنشاء هذا الخط إلا لمدینة حلب فقط و جری عمله علی قسمین: الأول ریاق- حماة. و الثانی حماة- حلب. و طول القسم الأول و هو خط ریاق- حماة ۱۸۹ کیلو مترا بوشر باستثماره سنة (۱۹۰۲) و عرضه متر و أربعة و أربعون سانتیمترا و نصف، و میله الأعظم اثنا عشر بالألف، و فی ریاق مخزن کبیر للفحم، و معمل لإصلاح أدوات الخطوط و القاطرات و یعلو هذا الخط فی

بعلبک ۱۱۲۰ مترا عن سطح البحر. ثم یهبط إلی حماة المرتفعة ۳۰۷ أمتار. أما القسم الثانی و هو خط حماة- حلب فیبلغ طوله ۱۴۳ کیلو مترا جری استثماره سنة (۱۹۰۶) و عرضه متر و أربعة و أربعون سانتیمترا و نصف، و میله الأعظم اثنان فی المئة. و قد کان القصد تمدیده إلی البیرة کما تقدم و لکن إعطاء امتیاز خط بغداد إلی الشرکة الأناضولیة حال دون تمدیده إلی الشمال.

خط حمص- طرابلس:

طول هذا الخط ۱۰۲ کیلو مترین، و قد شرع باستثماره سنة (۱۹۱۱)، و عرضه متر و أربعة و أربعون سانتیمترا و نصف، و میله الأعظم اثنان بالمئة، و اقتلعت قضبانه أثناء الحرب الکونیة العامة و استعملت فی تمدید خط بغداد- نصیبین، و خربت کثیر من المحطات و بعض الجسور خلال هذه الحرب، و أعید الخط إلی ما کان علیه قبلا سنة (۱۹۲۱) و بلغت إعادته واحدا و عشرین ملیون فرنک. و قد بلغت نفقات استثمار خطوط شرکة دمشق- حماة و تمدیداتها عن سنة (۱۹۲۶)، ۱۴۲، ۷۵۹، ۳۴ فرنکا و الواردات ۳۲۵، ۷۵۹، ۵۷.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۸

طریق الحج و إنشاء الخط الحجازی:

کان المسلمون یلاقون صعوبات و مشقات فی ذهابهم و إیابهم إلی الأرض المقدسة لأداء فریضة الحج کل سنة، فکان یستغرق سفر الحاج الشامی أربعین یوما من دمشق إلی المدینة المنورة و عشرة أیام من المدینة إلی مکة المکرمة. خمسون یوما یقضیها الحاج بین دمشق و المدینة فمکة و عشرون یوما علی الأقل یمضیها فی القیام بالمناسک و زیارة قبر النبی المعظم صلی اللّه علیه و سلم و یقضی خمسین یوما فی عودته. فهذه أربعة أشهر کاملة للحج الشامی. أما الترکی و الإیرانی و غیرهما من أهالی الممالک الإسلامیة النائیة فقد کان یحول الحول علی أحدهم دون الوصول إلی بغیته. و ناهیک بما یعترض الحاج من مشاق الأسفار و أهوالها و ما یضطر لصرفه من النفقات الباهظة فی هذه السبیل. و کان کثیر من الأغنیاء یتقاعسون عن القیام بهذه الفریضة لعدم توفر الوسائط اللازمة لراحتهم. فمد خط حدیدی إلی الدیار المقدسة کان من الضرورة بمکان.

کان الحجاج المسلمون یأتون ألوفا من الأقطار الإسلامیة إلی دمشق و یجتمعون فیها انتظارا لسفر موکب الحج، و کان یتألف هذا الموکب فی دمشق و یسیر منها متجها نحو الحجاز تحت إدارة حاکم یلقب بأمیر الحج. إن قافلة کهذه یصعب جدا سیرها بدون انتظام شدید و کانت تتألف من مشاة و فرسان و هجانة و حمّارة یقدر عددها بعشرة آلاف نسمة و عشرین ألف دابة علی الأقل. و لذلک کانت طاعة أمیر الحج واجبة علی الحجاج لیسهل علیهم قطع هذه الطریق المملوءة بالأخطار و المصاعب دون أن یترکوا أحدا علی الطریق أو أسیرا بین أیدی البدو. و کان هؤلاء یثورون علی الحکومة من وقت إلی آخر، و بواسطة الهدایا التی کان یرسلها السلطان لقبائل البدو و العطایا التی یمنّ بها علی شیوخهم کانت أطراف دمشق آمنة سالمة، و کان لا یخشی وقوع حوادث بالقرب منها، و لذلک کانت القافلة غیر آمنة إلا بجوار بلدة المزیریب فی حوران.

و فی العادة أن یرحل أمیر الحج من دمشق فی الخامس من شهر شوال فی

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۶۹

رکب مؤلف من جیش صغیر مجهز بالأسلحة الکاملة و المدافع الصغیرة و یتبعه الحجاج زرافات و وحدانا. و الدمشقیون یقومون بتشییعهم إلی قبر أحمد باشا فی المیدان أی إلی جامع العسالی، و تجری المراسم العسکریة و الاحتفالات تکریما لهذا الموکب العظیم، و کانت الحکومة فی دمشق تهتم بتشییعه، و یسیر الموظفون و أصحاب الرتب العالیة بألبستهم الرسمیة أمام المحمل الشریف تحیط بهم صفوف الجند و هجانة البدو حتی نهایة طریق المیدان، و کانت الموسیقی تصدح أثناء الموکب و المدافع تطلق حین خروجه و عند وصوله إلی القدم و الکل فرحون مسرورون من هذا الیوم العظیم.

و بعد ذلک یسیر الرکب من القدم إلی الکسوة و هناک یجد ماء صالحا للشرب ثم یسیر إلی المزیریب فیبقی فیها أربعة أو خمسة أیام و عندئذ یتألف الرکب عسکریا و علی رأسه أمیر الحج فیسیر قسم من الجیش فی المقدمة و القسم الآخر یقوم بحفظ جناحی الرکب. و فی کل صباح و مساء تطلق ثلاث طلقات ناریة إعلاما بوقت المسیر و الوقوف و کثیرا ما کان یبلغ طول هذا الرکب ثلاثة أو أربعة کیلو مترات. و أما الدرب الذی کان یسیر علیه فهو عبارة عن عدة طرق صغیرة حفرتها أیدی الإبل و الدواب طول السنین و لا یوجد طریق مرسوم علی الطریقة الفنیة الحدیثة المعروفة الیوم. و کانت المسافة بین دمشق و مکة المکرمة تقدر بأربعمائة و تسعین ساعة و بأربعین مرحلة منها ۹۰ ساعة من المزیریب إلی معان.

و یجتاز الرکب من المزیریب إلی المفرق و عین الزرقاء و البلقاء و القطرانة و هنا تشتد صعوبة الدرب و یدب الرعب و الخوف فی قلوب الحجاج ذلک لأنه کانت المضایق غاصة بعصابات من اللصوص، و الماء الشروب قلیل.

و کثیرا ما کانت السیول تجرف الرکب بأجمعه فلا ینجو منه إلا الحجاج فقط، فإذا بلغ الرکب مدینة معان یستریح فیها قلیلا و یتابع سیره فیقطع العقبات المؤدیة إلی النفود، و یبعد هذا المضیق الصعب ثلاث عشرة ساعة عن معان، و عندئذ یترجل الحجاج عن دوابهم و یسیرون مشاة أمام أمیر الحج الذی یصعد علی رأس جبل صغیر و یجلس مشاهدا الجموع تمر أمامه، و بعد ذلک یسیر لا یشاهد فی طریقه سوی رمال سهل النفود القاحل حتی مدائن صالح.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۰

و کثیرا ما یشاهد الحجاج سراب هذه الرمال الجمیلة عن بعد. ففی هذه الطریق الصعبة و بین هذه الرمال المحرقة یسرع الرکب تخلصا من النصب و التعب، فیوزع أمیر الحج علی الحجاج المیاه للشرب مجانا و یستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخیری، و کل ذلک لم یکن یجدی نفعا. و لطالما حدثت اختلافات بین الأمیر و البدو فتقع المصیبة علی رأس الحجاج و الرکب معا علی ما جری ذلک کثیرا فیملأ الرعب قلوب الحجاج طول الطریق یتحدثون بما وقع فی السنین الماضیة من الحوادث و یعلم بعضهم بعضا بمحالها و مواقعها و یذکرون ما کان یتبعها من أعمال السلب و النهب.

إن مدائن صالح أخف صعوبة من الأرجاء التی قبلها و أقل خطرا منها.

و فیها کثیر من الآثار القدیمة النبطیة. و منها یسیر الرکب إلی المدینة المنورة و بعدها إلی مکة المکرمة و أکثر الأراضی الحجازیة مؤلفة من جبال و أودیة و قلیل من الواحات فطریق الرکب طریق صعبة، و فیها آبار متقطعة و لیست بجیدة. و هناک أیضا درب آخر یقال له الدرب السلطانی و هو الدرب الأقصر طولا و الأشد خطرا. فالحجاج یعرضون عنه حینما تبلغهم ثورة البدو علی الحکومة. هکذا کانت حالة الطریق المؤدیة إلی الأرض المقدسة و هذه هی المشقات التی کان یلاقیها الحجاج فی طریقهم.

إنشاء الخط الحجازی:

و هذا ما دعا الحکومة العثمانیة إلی اتخاذ التدابیر اللازمة لإزالة هذه الصعوبات و الحیلولة دون الأسباب التی کانت تقلق راحتها فی الداخل و تظهرها بمظهر العاجز فی الخارج أمام دول الغرب. و کان السلطان عبد الحمید الثانی حریصا علی توسیع نفوذه المعنوی فی جمیع الممالک الإسلامیة خدمة للإسلام و توصلا لغایاته السیاسیة لذلک فقد قرر (سنة ۱۹۰۰) مد خط حدیدی یصل الشام بالحجاز و یسهل السفر علی الحجاج و یأتی الدولة و الولایات بالفوائد المادیة و المعنویة. علی أن هذه الفکرة لم تکن بنت وقتها و لیست ولیدة رأس عبد الحمید فقد سبقه إلیها الدکتور زامبل الأمیرکی الألمانی الأصل فاقترح سنة (۱۸۶۴) علی الحکومة العثمانیة مد خط حدیدی بین دمشق و ساحل البحر الأحمر.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۱

و فی سنة (۱۸۸۰) صحت عزیمة وزیر الأشغال العامة فی الأستانة علی تمدید هذا الخط إلی الأراضی المقدسة. و لکن أکثر

المهندسین و الجغرافیین کانوا یقولون بتعذر تنفیذ هذا المشروع. لأن الأصقاع التی یجتازها الخط ینزلها قبائل من البدو الرحالة الذین اعتادوا السلب و النهب. و سهولة المواصلات بالوسائط البحریة و رخصها أکثر من البر. و قالوا إن الربح الذی یحصل من نقل الحجاج أثناء الموسم لا یکفی للقیام بجمیع النفقات السنویة لهذا الخط العظیم.

و لکن کانت هذه الصعوبة فی نظر السلطان عبد الحمید أخف مما یتصور.

فإدارة الحج و نفقات السفر کانت تستنزف من موازنة الحکومة مبلغ ۱۵۰ ألف لیرة عثمانیة علی الأقل. و الهدایا التی ترسل إلی البدو تقوّم ب ۶۰ ألف لیرة عثمانیة. و کان السلطان عبد الحمید یأمل من جهة أخری وصول مبالغ عظیمة من الأمم الإسلامیة إعانة لهذا المشروع الإسلامی و لم تبدأ الحکومة بالعمل إلا بعد أن أعلنت عزمها علی ذلک فی جمیع الأقطار الإسلامیة مما هو داخل تحت سیطرتها أو خارج عنها. و أبانوا ما ینتج عن ذلک من التسهیل لرواد الحج و استمطرت أکف المسلمین تعضیدا لهذا المشروع الدینی المحض.

فتحقق أمل السلطان و بدأت الاکتتابات ترد من البلدان الإسلامیة و قد افتتح هو نفسه هذه الاکتتابات ب ۳۲۰ ألف لیرة عثمانیة، و تابعه فی ذلک الملوک و الأمراء المسلمون. فشاه العجم أرسل ۵۰ ألف لیرة عثمانیة و خدیوی مصر تعهد بإرسال کمیة عظیمة من مواد البناء و الإنشاء. و ألفت الجمعیات فی الممالک الإسلامیة الخارجة عن حدود الدولة العثمانیة لجمع الأموال، فألف الهنود ۱۶۶ جمعیة و أهالی لکنو وحدهم أرسلوا ۳۲ ألف لیرة عثمانیة و کذلک أهالی رانکون و مدراس أرسلوا ۷۳ ألف لیرة، و أرسل المیرزا علی أحد أغنیاء کلکوتا خمسة آلاف لیرة و أرسل مدیر جریدة الوطن فی لاهور ۵۰۰۰ لیرة و ذلک من الاکتتاب الذی فتحه فی جریدته و اشترک فیه الهنود و الترانسفالیون و الصینیون. و لم تنقطع الإعانات مدة إنشاء الخط مما دل علی سریان روح التضامن فی الشعوب الإسلامیة.

و الأغرب من هذا أن أحد النمسویین دفع ۲۱۰۰ لیرة عثمانیة لیحصل علی لقب (باشا). و قد جعلت شارات و أوسمة لمن یدفع الإعانات. فالدرجة

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۲

الثالثة لمن یدفع من ال ۵ لیرات إلی ۵۰ لیرة. و الدرجة الثانیة لمن یدفع من ال ۵۰ إلی ۱۰۰ لیرة. و الدرجة الأولی لمن یدفع أکثر من ۱۰۰ لیرة ذهبیة.

و هذه الطریقة کانت نافعة لو لا أن هذه الرتب و الأوسمة کانت تباع فی الأستانة بأقل مما تتقاضاه دوائر الخط الحجازی. ثم وضعت بعض الضرائب لإعانة الخط و نزل الموظفون عن راتب شهر کامل فی بادئ الأمر ثم أکره الموظفون علی دفع عشر و أتبهم الشهری فی السنة مرة واحدة. و أحدثت طوابع الخط الحجازی و بعض الضرائب الجمرکیة کما جمعت إدارة الخط جلود الأضاحی من الناس تبیعها و ترتفق بثمنها. مما دعا قنصل إنکلترا إلی أن یصرح سنة (۱۹۰۴) قائلا: یظهر لی أن احتمال إکمال الخط الحجازی هو أعظم مما کنت أتصور قبل سنة أو سنتین. و الحقیقة أن أکثر الناس کانوا إذ ذاک و خصوصا المطلعین علی هذا الأمر یظنون أن عملا کهذا هو أقرب إلی الخیال منه إلی الحقیقة. و إذا لم یتم هذا المشروع إلی مکة المکرمة و وقف عند المدینة المنورة فذلک لم یکن منبعثا من قلة المال لأن المال أصبح وافرا بعد ما کان یخشی من قلته و یظهر ذلک من الاطلاع علی موارد هذا المشروع.

فالإخصائیون لا یظنون الآن أن النفقات العامة تتجاوز ۱۲۵ ملیون فرنک أی خمسة ملایین و نصف لیرة عثمانیة. فی حین أنه کان یظهر فی بادئ الأمر أن هذا المبلغ هو الحد الأصغر لهذا العمل. فقد جمع من الإعانات فی الممالک الإسلامیة ۷۵۰ ألف لیرة عثمانیة أی ۱۷ ملیون فرنک. و الضرائب التی وضعت تضمن موردا قدره ۲۵۰ ألف لیرة سنویا. فهذا المبلغ یسد نفقات الإنشاء. و الإعانات تساعد علی شراء المواد اللازمة اه.

و فی الواقع أنه لم یکن أحد یتصور أن النتیجة ستکون قریبة التناول بهذه الصورة و أن العمل سیتم علی هذه السرعة و هذا النظام

لطول المسافة، و فقدان المياه، و وعورة المسالك، و فقر الدولة و ضعفها الإدارى، و لكن المشيئة الإلهية قد ذللت كل هذه الصعاب و وفقت فى إنجازه ليكون نقطة اتصال بين الأقطار و خير واسطة لتوفير راحة الحجاج و تسهيل مسالك الحج و الزيارة.

كان استعمال الإعانات منظما تنظيما حسنا، و قد وزعت الأجور على العمال و الرواتب على الموظفين بصورة منظمة، و دفع ثمن الأدوات و مواد

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۳

الإنشاء فى الحال، مما دعا الناس أن يؤمنوا بإنجاز هذا المشروع. و كان سير العمل سريعا يمدون مائة كيلو متر فى العام. و كان أحد المقربين من السلطان عبد الحميد أحمد عزت العابد يدير مع لجنة الحجاز الأموال على طريقة غير مرضية فتسربت الأموال إلى جيوب الخونة، و أدى سوء الاستعمال فى مواد الإنشاء لإضاعة كثير منها. و كان هؤلاء المقربون يحمون بعض رجالهم الذين يتقدمون فى صورة ملتزمين و ينقدونهم الأموال الزائدة و يعينون بعضهم فى وظائف الإدارة.

شرع بإنشاء الخط الحجازى فى شهر أيلول سنة (۱۹۰۰) مبتدئا به من المزيريب، و بين دمشق و هذه القرية سكة حديد إفرنسية يمكن نقل الحجاج من الشام إلى المزيريب عليها لا سيما و أن امتياز هذه السكة لا يجيز إنشاء سكة أخرى تحاذيها، و ما كادت الحكومة تمضى فى عملها حتى بدأت المنافسة تشتد بين الإدارتين فشعرت الحكومة العثمانية حينئذ بشدة الحاجة إلى اتصال الخط الحجازى بمدينة دمشق. و قررت إنشاء خط درعا- دمشق و بوشر بالعمل من دمشق و المزيريب دفعة واحدة. و فى سنة (۱۸۹۳) نالت الشركة الفرنسية امتيازها و لم يكن السلطان عبد الحميد يفكر فى خطه المقدس، و لذلك كان سمح لها بإنشاء سكة حديد بين دمشق و المزيريب و بوشر باستثمارها منذ سنة (۱۸۹۴) فإنشاء سكة حديدية موازية لخطها من دمشق إلى درعا يجعل المنافسة على أشدها و لذلك احتجت الشركة على هذا العمل فتمكنت من نيل امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلو مترية و ذلك فى شباط سنة (۱۹۰۵).

و قد افتتح القسم الأول من الخط الحجازى أى دمشق- درعا فى أيلول ۱۹۰۳ و بعد ذلك بشهر واحد افتتح قسم درعا- عمان و تيسر لإدارة السكة الحجازية فى أقل من ثلاث سنين مد ۲۲۳ كيلو مترا.

يتجه الخط الحديدى الحجازى بعد خروجه من واحة دمشق نحو الجنوب الشرقى فى استقامة سهل حوران فيمر بالمسمية أهم قرى اللجاة، ثم يقطع هذا الخط سهل حوران الخصيب برمته و هو يمتد إلى سفح جبل الدروز و يصل إلى محطة درعا الواقعة فى وسط السهل و هى على ۱۲۳ كيلو مترا عن دمشق، و من درعا يتفرع فرع حيفا متجها صوب الغرب فيصل البحر، و أما الخط

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۴

الأساسى فيبقى مستمرا فى طريقه نحو الجنوب.

من أهم الفوائد التى جنيت من امتداد هذا الخط أن كثيرا من البدو سكنوا تلك الربوع بالقرب من مخافر الجنود العثمانية و امتلك عدد عظيم من مهاجرى الشركس الذين كانوا تائهين فى شمالى الشام بعض الأراضى هناك و أسسوا القرى و المزارع فيها. و كل هذا العمل لم يكلف أموالا باهظة بالنسبة لغيره من المشاريع. و كانت القاطرات فى نهاية سنة (۱۹۰۳) تسير إلى مسافة ۳۰۰ كيلو متر من دمشق و بلغت أكلاف الكيلو متر الوسطى حينئذ ۲۰۰۰ ليرة عثمانية ذهبية. و لما بدأت المنافسة بين السكة الحجازية و السكة الفرنسية شعر السلطان عبد الحميد و مهندسوه بشدة الحاجة إلى اتصال الخط الحجازى بمرفإ بحرى يستمد منه لوازمه و أدواته و يكون منفذا للأقطار الواسعة التى سيمتد فيها فقرر إنشاء خط حديدى جديد بين حيفا و درعا.

و الناظر إلى مصور القطر يرى لأول نظرة مكانة خليج عكا فسلسلة الجبال الممتدة من مصب نهر العاصى إلى ترعة السويس و هى بمثابة سد عظيم بين الساحل و الداخل و ليس فيها سوى بعض منحدرات كسهل طرابلس و بيروت و مصب الليطانى أى القاسمية و خليج عكا. و أعظم هذه المنحدرات و أهمها الانخفاض الواقع قرب عكا. إن سلسلتى لبنان الغربى و الشرقى المتوازيتين تحولان لارتفاعهما دون المواصلات مع الداخل. و بالطريق الفنية اتصلت دمشق ببيروت و هكذا الشأن فى الانخفاض فى جوار بحيرة لوط فإنه

یعوق المواصلات مع الداخل أیضا. فلم یبق إذا سوی سهل عکا الذی یسهل المرور منه إلی الداخل. و لذلک کانت عکا و حیفا فی العصور القدیمة و القرون الوسطی حتی القرن التاسع عشر مرفأین طبیعیین لحوران و دمشق. و قد رأی کثیر ممن یعنیهم الأمر وصل دمشق و حیفا بخط حدیدی لسهولة هذا الطریق کما بیناه آنفا. و کان الإنکلیز أشد الناس رغبة بنیل امتیاز هذا الخط و خصوصا بعد احتلالهم جزیرة قبرس. و قد تمکن أبناء سرسق من استصدار منشور سلطانی یمنحهم حق إنشاء خط حدیدی بین عکا- دمشق. و لکنهم لم ینجحوا فی عملهم لتعذر معاونة أرباب الأموال فی إنکلترا. فخسروا العربون الذی دفعوه إلی خزینة الدولة و قدره خمسون ألف فرنک.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۵

و فی سنة (۱۸۸۹) طلب رأس المهندسین فی لبنان هذا الامتیاز مجددا مع تمدید الخطوط إلی حوران فلم یفلح أیضا. و قد انقضت المدة و لم یعمل عمل بهذا الشأن إلی أن نال الامتیاز المهندس اللبنانی و المستر بیللنغ الإنکلیزی و أسسا شرکة الخطوط الحدیدیة العثمانیة فی الشام برأس مال قدره ۶۰۰ ألف لیرة إنکلیزیة. و بوشر بالعمل سنة (۱۸۹۲) ثم وقفت الأعمال بعد الکیلو متر التاسع لأن أفکار أرباب الأموال من الإنکلیز کانت متجهة نحو معادن الذهب.

فجاءت حرب الترنسفال و انصرفت أفکار الإنکلیز إلیها و أدی ذلک إلی ترک العمل.

و لما قرر السلطان عبد الحمید وصل الخط الحجازی بمرفإ حیفا رأی من الضرورة استرجاع هذا الامتیاز و ذلک فی تشرین الثانی سنة (۱۹۰۲). و تمکن مهندسو عبد الحمید من عمل خط حیفا و الخط الحجازی بعد استلامهم الأعمال التی ترکها الإنکلیز. بید أنهم لم یتخذوا الخط الإنکلیزی أساسا لهم بل ترکوه و شأنه و جعلوا خطهم الجدید خطا ضیقا کالخط الحجازی و تمکنوا من الوصول إلی درعا نقطة اتصال هذین الخطین بأقل من ثلاث سنوات بالرغم مما اعترضهم من الصعوبات العظیمة أثناء عملهم. و قد کلف هذا الخط من سبعة إلی ثمانیة أضعاف المعدل المتوسط لنفقات الخط الحجازی. و حقا إن هذا القسم کان أهم قسم من الخط الحجازی و أحسنه من الوجهة الفنیة إذ کانت تتخلله صعوبات فنیة لا توجد فی سواه.

و یبتدئ هذا الخط من حیفا علی ساحل البحر فیرتفع ۸۰ مترا فی مرج ابن عامر بعد سیر ۴۰ کیلو مترا، ثم یهبط من أعلی هذا السهل إلی أسفل وادی الشریعة لیمر فوق جسر ینخفض ۲۴۶ مترا عن سطح البحر. و ذلک بعد قطع مسافة ۴۵ کیلو مترا ثم یعود فیصعد من جدید إلی ارتفاع ۳۷۶ مترا و ذلک بعد مسافة ۴۰ کیلو مترا، ثم یصل إلی سهل درعا المرتفع ۵۳۰ مترا عن سطح البحر. فکل هذه التموجات من الصعود و الهبوط قد اقتضی قطعها مسافة ۱۶۸ کیلو مترا. فالقضیة صعبة بنفسها و خصوصا ان وأدی الیرموک الواقع فی الجهة الشرقیة من نهر الشریعة کان شدید الخطر و لیس من ممر سواه فی تلک البقاع. و بذلک تمکن السلطان عبد الحمید و مهندسوه

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۶

من الخلاص من شرکة بیروت- دمشق- حوران و أصبح لهم مرفأ خاص و هو حیفا التی أصبحت تبعد عن درعا ۳۲۳ کیلو مترا بالقطار. و بین درعا و حیفا ستة جسور حدیدیة اثنان منها بطول ۵۰ مترا و الأربعة الأخری بطول ۱۱۰ أمتار. و یوجد سبعة أنفاق یختلف طولها بین ال ۴۰ و ال ۱۷۰ مترا.

و الخط یقطع نهر الشریعة علی جسر من الحجر جمیل المنظر و الصنع طوله ۶۰ مترا و هو ذو خمس قناطر.

و فی الوقت الذی نجز فیه خط حیفا- درعا تم القسم الثالث من الخط الحجازی الواقع بین عمان- معان. ففی أول أیلول سنة (۱۹۰۴) المصادف للعید الثامن و العشرین من الجلوس السلطانی ذهب وفد برئاسة طرخان باشا وزیر الخارجیة العثمانیة للاحتفال بافتتاح الخط الحجازی بین دمشق و معان و طول هذا القسم ۴۵۹ کیلو مترا. و کان هذا الوفد مؤلفا من عظماء رجال الدولة العثمانیة.

یسیر الخط الأساسی بعد محطة درعا نحو الجنوب الشرقی ثم نحو الجنوب مباشرة فیمر من سهل قاحل تنزل فیه عشیرة بنی صخر المؤلفة من ۲۰۰۰ بیت و ۲۰ ألف نسمة و بعد أن یقطع «الحماد» أی السهل المنبسط یمر بالقرب من أطلال الحصون الرومانیة القدیمة

التی یسمیها العرب الیوم قلعة المفرق و قلعة السمرة.

و تظل بقایا مدینة جرش القدیمة و آثارها و سورها فی غربی الخط الحجازی.

و هذه الآثار أعظم ما فی تلک البقاع. و فی القرب من قلعة الزرقاء الرومانیة یقطع الخط وادی نهر الزرقاء علی جسر مرتفع جمیل الصنع. ثم یصعد الخط فی وادی نهر الزرقاء و یصل إلی عمان بالقرب من نبع هذا النهر و ذلک بارتفاع ۷۳۷ مترا عن سطح البحر و علی ۲۲۳ کیلو مترا عن دمشق.

و بعد الخروج من عمان یتجه الخط نحو الجنوب صاعدا سهل الصحراء المائل فیمر من نفق طوله ۱۴۰ مترا و یترک بجانبه کثیرا من الآثار القدیمة منها المعبد الیونانی فی قصر السهل. و المدینة القدیمة فی لبّن و کذلک الخزان الرومانی و القصر العربی فی الجیزة أو قلعة الزیزاء. و قبل أن یصل الخط إلی قلعة ضبعة یمیل نحو الشرق و یلتف بأطراف وادی الموجب و بعد ذلک یتجه

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۷

أیضا نحو الجنوب فیمر من خان الزبیب و قلعة القطرانة و قلعة الحسا و جروف الدراویش و فیها قصر رومانی بدیع. و یجتاز بقلعة عنزه و تقطن فیها أحیانا قبیلة عنزة المؤلفة من ۷۰۰۰ نسمة. و بعد قلعة الحسا تبدأ الأرضون التی تنزل فیها قبیلة الحویطات. ثم یصل الخط إلی معان المرتفعة ۱۰۷۴ مترا عن سطح البحر.

و هذه المدینة هی النقطة الوسطی للخط الحجازی، لأنها تبعد عن طرفیه علی أبعاد متساویة و المحطة تبعد کیلو مترین عن مدینة معان، و فی هذه المحطة أبنیة عدیدة للسکة الحجازیة. و بفضل وصول الخط الحدیدی إلی تلک البقاع استتب الأمن فیها و بدأت الحیاة الزراعیة تظهر شیئا فشیئا. و قد تحضر قسم من البدو و أصبحت تلک الدیار فی قبضة الحکومة العثمانیة بعد أن کانت تابعة لها بالاسم فقط بحیث أن أحد شیوخ البدو المدعو محمد جهل کتب إلی بییر لوتی الکاتب الفرنسی المشهور سنة ۱۸۹۴ «بسم اللّه الذی هو الکل و لا باسم سلطان القسطنطینیة الذی لیس بشیء».

و کان قصد القائمین بهذا المشروع الجلیل إنشاء فرع للخط بین مدینة معان و العقبة لتقریب المواصلات بین البحر الأحمر و الدیار المصریة من جهة و بین الخط الحجازی من جهة أخری، و لکنهم لم یرغبوا یومئذ فی صرف جهودهم فی غیر الخط الأساسی لأن غایتهم کانت الوصول إلی الأرض المقدسة فی أقرب وقت.

یتجه الخط بعد معان نحو الجنوب الشرقی فتلتف حوله الصحراء من جدید و یبتعد عن البحر الأحمر ثم یصعد العقبة الحجازیة أو الشامیة المرتفعة ۱۱۵۰ مترا عن سطح البحر. و هذه النقطة هی المفرق الطبیعی للمیاه التی تسیل إلی البحر المتوسط و البحر الأحمر. ثم یهبط الخط نحو ملعب بطن الغول المحفور فی الصخور الرملیة ذات الألوان العدیدة المختلفة. و هذه البقعة من أجمل البقاع الطبیعیة. و قد یضع السکان هذه الرمال الملونة فی القوارین و یبیعونها من الحجاج تذکارا لهذه البقاع. و بعد ذلک یصل الخط إلی محطة المدورة فتنتهی حدود قبیلة الحویطات، و تبتدئ منازل قبیلة بنی عطیة. و کان وصول هذا الخط إلی هذه البلدة سنة ۱۹۰۶ و هی تبعد ۱۱۴ کیلو مترا عن معان. و کان (۵- ۱۲)

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۸

قسم من الخط أیضا علی وشک الإنجاز بین المدورة و تبوک و هو علی مسافة ۱۱۷ کیلو. مترا و فی ۱ أیلول سنة ۱۹۰۷ تم القسم الرابع من الخط الحجازی و هو القسم الواقع بین معان و تبوک الذی یبلغ طوله ۳۳۱ کیلو مترا فبوشر باستثماره.

و قد جری فی التاریخ نفسه الاحتفال بافتتاح قسم جدید بین تبوک و مدائن صالح التی تبعد ۹۵۵ کیلو مترا عن دمشق. و فی هذا القسم جسر حجری ذو عشرین قنطرة یبلغ طوله ۱۴۳ مترا. و کانت الأرضون فیه قاحلة و لکنها سهلة و أقل عوارض طبیعیة من غیرها و کان یکفی أن توضع القضب الحدیدیة علی الأرض حتی یصلح السیر علیها و ذلک علی مسافة کیلو مترات کثیرة.

و بعد مدائن صالح یصل الخط إلی العلا التی تبعد ۹۸۰ کیلو مترا عن دمشق.

و العلا مدینة صغیرة یقطنها قوم من الزراع یقدر عدده من ثلاثة آلاف إلی أربعة و تقع فی واحة جمیلة. و یسیر الخط بینها و بین المدینة المنورة علی طریق القوافل لأن المیاه کثیرة فی هذه الطریق و بمرور الخط فی سهل وادی العلا و هو یرتفع ۷۹۰ مترا عن سطح البحر و ذلک بین الزمرد و البئر الجدیدة ثم یهبط إلی بلدة الهدیة المرتفعة ۳۴۵ مترا عن سطح البحر و هی التی کان یؤمها سابقا حجاج إفریقیة من مرفإ الوجه علی شاطئ البحر الأحمر. و بعد الهدیة یصعد الخط إلی إصطبل عنتر و بئر عثمان و منهما إلی المدینة المنورة التی ترتفع ۷۰۰ متر عن سطح البحر و تبعد ۱۳۲۰ کیلو مترا عن دمشق. و قد وصل أول قطار إلی المدینة المنورة فی ۲۲ آب سنة ۱۹۰۸ و جری الاحتفال فی أول أیلول المصادف لیوم عید الجلوس السلطانی. و جری فیه أیضا افتتاح المحطة التی شیدت خارج أبواب المدینة و قد أنیرت المحطة بمصابیح الکهرباء. و کان سرور أهالیها عظیما جدا حتی حملوا علی أکتافهم المشیر کاظم باشا رئیس هذه الحفلة مع رئیس المهندسین مختار بک. و قد طلب أهالی المدینة إعادة هذه الأفراح و الأعیاد بمناسبة وضع أول حجر لبناء جامع الحمیدیة قرب هذه المحطة. و علی ذلک فقد أعید الاحتفال بحضور ثلاثین ألف شخص.

و دعی لهذه الحفلة ممثلو الصحف الأجنبیة و کثیر من الأجانب مما لم یسبق له نظیر فی الاحتفالات الماضیة و قد جری هذا بمناسبة الانقلاب السیاسی فی الاستانة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۷۹

و لما کان القصد من إنشاء الخط الحجازی خدمة الحجاج و تسهیل المواصلات بین الحجاز و بقیة العمالات العثمانیة اقتضی الوصول به إلی عاصمة الإسلام مکة المکرمة و مد فروع منه إلی جدة و بعض الولایات العثمانیة الأخری تتمیما للفائدة، و کانت الحکومة مصممة علی ذلک. و بإعلان الحکم الدستوری و خلع السلطان عبد الحمید الثانی موجد هذه الفکرة و مؤسس هذا العمل الکبیر، توقف ورود الإعانات من الأقطار الإسلامیة فحالت هذه الأسباب دون الوصول إلی هذه الأمنیة و أخرت إتمام هذا المشروع العظیم.

و حاولت بعد ذلک حکومة الاتحادیین أن تواصل العمل فلم توفق فأعادت الکرة قبل إعلان الحرب العامة بیسیر و أرسلت من القضب الحدیدیة و الآلات و الأدوات اللازمة الشیء الکثیر، و کادت إدارة الخط تبدأ بالعمل فأعلنت الحرب العامة و صرفت الوجوه عن جمیع أعمال الإصلاح و منها هذا العمل الجلیل. و کل هذا لا یحول دون البحث عن الطریق المناسب لمد الخط الحدیدی بین المدینة المنورة و مکة المکرمة، عسی أن تنهض البلاد العربیة من کبوتها فیقوم أبناؤها بإتمام هذا المشروع الحیوی.

الطرق الممتدة بین المدینة المنورة و مکة المکرمة التی یصلح السیر علیها ثلاث أو اثنتان إذا اعتبرنا الثالثة فرعا للثانیة. فالطریق الأول هو الطریق الشرقی الذی یصل المدینة المنورة بمکة المکرمة رأسا و هو یبعد ۱۵۰ کیلو مترا عن شاطئ البحر الأحمر و یمر من أعالی الجبال بین موانع عدیدة یصعب سیر الدواب المحملة علیها، و لذلک فإن قوافل الحجاج لا ترغب فی المسیر علیها و إن کانت أقصر الطرق. و أما الطریق الثانیة فهی السلطانی الذی ینخفض من المدینة المنورة نحو ساحل البحر الأحمر إلی مرفإ رابغ و منه یعود فیصعد إلی مکة المکرمة. و هناک طریق آخر بین المدینة و رابغ ینقص طوله ۶۰ کیلو مترا عن الطریق السلطانی و یسمی الطریق الفرعی لأنه لم یخرج عن کونه قسما من الطریق الثانیة.

تفضل قوافل الحجاج السیر علی الطریق السلطانی لمکانته الرسمیة و التاریخیة و لسهولة المواصلات علیه، و علی هذا فالخط الحدیدی المنوی إنشاؤه بین المدینتین المقدستین لا یصلح عمله إلا بالقرب من الطریق السلطانی و علی طوله مرفأ

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۰

رابغ الذی یقع علی شاطئ البحر الأحمر یسکنه ۳۰۰۰ نسمة و هو علی مسافة ۱۱۲ کیلو مترا من شمالی جدّة. و لیس ثمة من صعوبة فی إنشاء هذا الخط لعدم وجود موانع طبیعیة کما أن المیاه غزیرة علی طول الطریق علی العکس فی الطریق الشرقیة.

بقی مبدأ الخط الحجازی حتی سنة ۱۹۰۸ فی منتهی محلة المیدان بدمشق بالقرب من قریة القدم. و قد بنیت بعد هذا التاریخ محطة القنوات الواقعة فی غرب مدینة دمشق علی طراز عربی حدیث و بشکل جمیل یناسب عظمة هذا الخط المقدس. و بالقرب من محطة

القدم معمل كبير خصص لإصلاح القاطرات و الشاحنات و صب الآلات الحديدية و أعمال النجارة و التدهين و الأبنية الخاصة بالمعمل و المخازن تشغل سطحا من الأرض تبلغ مساحته ۶۰۰، ۱۰ متر مربع. و قد بلغت نفقات إنشاء هذه الأبنية مليون فرنك. و بنيت في محيط تبلغ مساحته ۵۳ ألف متر مربع. أنيرت جميع هذه الأبنية مع الساحة بالأنوار الكهربائية.

الخط الحجازي في عهد العثمانيين و بعدهم:

كان الخط في عهد الدولة العثمانية يدار في جميع أدواره بموازنة مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار أنه وقف إسلامي. و كان في البدء مرتبطا بلجنة عليا في الاستانة يرجع إليها في شؤونه العامة، ثم طرأت على إدارته طوارئ عديدة غيرت من أوضاعه على ما عرضنا لذلك سابقا، ثم استقر مرتبطا بإدارة الأوقاف. أما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام و دخول جيوش الحلفاء فإنه كان تام الأجزاء من حيث وضعه الأساسي و لم يطرأ عليه الخراب سوى في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران. و يمكن اعتبار مبدإ التخريب من بعد المحطات التي تلي محطة عمان جنوبا على أن هذا التخريب يكاد ينحصر في الجسور و المحطات و المصانع و المستودعات و غير ذلك من المباني و المحال التي كان يسهل نسفها. أما القضب الحديدية فظلت سليمة بالجملة ما خلا نقاطا قليلة يسهل إصلاحها و تشييدها.

هكذا كانت حالة هذا الخط عند دخول الحلفاء الشام، و أما حالته من حيث

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۱

الآلات و الأدوات و معامله و قاطراته و مركباته و شاحناته و غير ذلك من لوازم التعمير و وسائط سيره فقد بلغت من الجودة درجة يندر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في الأقطار التي خاضت الحرب العامة طول هذه المدة.

و إليك مقادير الآلات و الأدوات الخاصة بقسم السير و الجر و هي ۱۲۰ قاطرة بخارية و ۱۲۰۰ شاحنة و ۱۰۰ مركبة ركاب من صنوف مختلفة و ۲۰ شاحنة بريد. عدا ما هنالك من عدد كبير من شاحنات الماء (الصهاريج) و أشياء فنية كثيرة، و أما المعامل فمنها ما كان في القدم جنوبي دمشق و هو معمل مجهز بأحدث الآلات الفنية و كذلك مستودع صغير للمرمات. و في درعا مصنع صغير و مستودع و في سمخ مستودع و في عمان مستودع و في معان مستودع و مصنع مختصر و في تبوك مستودع و في مدائن صالح مستودع و مصنع صغير و في المدينة المنورة مستودع و في حيفا مستودع و مصنع صغير.

تقسيم الخط الحديدي الحجازي:

قسم الخط في بدء الاحتلال ثلاثة أقسام: استولت بريطانيا العظمى على قسم فلسطين و سلمته إلى إدارة الخطوط بفلسطين. و استلمت الحكومة العربية الفيصلية قسم سورية، و أما القسم الثالث فقسم الحجاز أطول مسافات الخط و هو قسم غير مثمر لوقوعه في البادية و لخراب جسوره و أكثر محطاته. و قد قسمت أيضا المعامل الصناعية و الآلات و الأدوات الفنية إلى ثلاثة أقسام و كان أهل كل قسم من هذه الأقسام إذا وقعوا في منطقتهم على شيء أو ظفروا بشيء وضعوا أيديهم عليه. فالمصانع التي كانت داخل المنطقة الشرقية الفيصلية بقيت لحكومتها و مثلها المعامل الصناعية في فلسطين و الحجاز. و رجع ما في فلسطين لحكومة فلسطين و سلمته هذه إلى شركة الخطوط بفلسطين. و ما في الحجاز إلى حكومة الحجاز. و كذلك القاطرات و الشاحنات و المركبات و شاحنات البريد و سائر اللوازم فقد قسمت على الطريقة عينها و لكن كان حظ الحجاز منها قليلا جدا، فإن جميع ما بقي على الخطوط و وضع اليد عليه لا يتجاوز عدد الأصابع و أكثره مخرب لأنه كان طوال هذه المدة عرضة لهجمات الثائرين. و كذلك الشاحنات و العربات و شاحنات البريد فإن عددها لا يكاد

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۲

یذکر بالنسبة إلی ما استولت علیه فلسطین و سوریة. فی حین أن أکثر الخط ممتد فی أرض الحجاز.

و قد جری إصلاح الخط علی عهد الحکومة العربیة بصورة سطحیة و علی أثر هذا الترمیم وصل القطار من المدینة المنورة إلی دمشق فی أواخر سنة ۱۹۱۹ و هی أول مرة دخلها بعد الحرب العامة و لم یتیسر تسییر القطارات بانتظام کما کانت تسیر قبلا لعدم إتمام العمائر بصورة فنیة تبعث علی الطمأنینة و لعدم وجود رأس مال کاف لهذه الغایة. و بقی الحال علی هذا المنوال حتی سقوط الحکومة الفیصلیة فی سوریة و دخول الجیش الفرنسی إلیها. و لما دخل الفرنسیون دمشق فی تموز ۱۹۲۰ ترکوا إدارة الخط تسیر علی ما کانت علیه فی عهد الحکومة العربیة حتی آذار سنة ۱۹۲۴ و أحیلت إدارته إلی شرکة دمشق- حماة و تمدیداتها الفرنسیة.

الخط الحجازی فی شرقی الأردن و الحکومة الهاشمیة:

یبتدئ هذا الخط فی هذه المنطقة من محطة نصیب و ینتهی بمعان و کانت من عمل الحجاز و هی علی ۳۲۳ کیلو مترا، و کان فی هذه المنطقة مستودعات عدیدة و فیها الشیء الکثیر من آلات الخط و أدواته و قد سلمتها جمیعها حکومة شرقی الأردن إلی إدارة خطوط فلسطین مقابل مقاولة معقودة بینهما.

و لقد أراد الملک حسین تعمیر الخط الحجازی لیتسنی له استثماره و یصل مملکته بمملکة ولده الأمیر عبد اللّه فأصدر أمره خلال سنة ۱۹۲۲ بتألیف لجنة یعهد إلیها النظر فی شؤون الخط و ترمیمه فألفت لجنة للقیام بهذه المهمة فی شرقی الأردن و أرسل إلیها الملک حسین أربعة آلاف جنیه مصری للترمیمات الضروریة فقط. فقررت المباشرة بإصلاح الجسور و المنافذ و فرضت إعانات تقطع من رواتب الموظفین و کذلک من واردات الطوابع الحجازیة التی تستوفی داخل المنطقة فبلغ مجموع ما دخل علیها من هذه الموارد خلال مدة التعمیر أربعة آلاف جنیه و المجموع ثمانیة آلاف جنیه مصری فی حین أن الترمیمات و الإصلاحات الضروریة لا تتم بأقل من ۱۰۰ ألف جنیه لیمکن إعادة الخط سیرته الأولی.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۳

و قد أتمت اللجنة إنشاء الخط حتی المدینة المنورة علی صورة موقتة لقلة الأموال التی تمکنت من جمعها و بدأ سیر الخط رسمیا. و نقل خلال استثماره فی تلک الحقبة القلیلة أکثر من أربعة آلاف زائر إلی المدینة المنورة ذهابا و إیابا و بلغت واردات الخط من الزوار و النقلیات التجاریة أربعین ألف جنیه.

الخط الحجازی فی المؤتمرات:

عقدت معاهدة لوزان بین ترکیا و الحلفاء فی سنة ۱۹۲۳ و لم یقرر المؤتمر شیئا فی مصیر الخط الحجازی لأن الفرنسیین و الإنکلیز کانوا متفقین علی تألیف لجنة إداریة علیا من المسلمین یکون مقرها المدینة المنورة تنظر فی شؤون الخط و تسعی لإصلاحه. و لقد نصت المعاهدة التی عقدت بین ترکیا و الحلفاء فی لوزان سنة ۱۹۲۳ علی عقد مؤتمر فی الاستانة مؤلف من ممثلی الدول التی انفصلت عن ترکیا و من ممثلی مجلس الدیون العامة لمعرفة واردات تلک الدول.

و فی عام ۱۹۲۴ عقد هذا المؤتمر فکان فیه مندوبون عن المناطق المنفصلة عن ترکیا. و عند تعیین مقادیر الواردات و التقاسیط السنویة تقرر تقسیم الخط الحجازی و تجزئته و اعتبار کل قسم ملکا للمناطق التی یجتازها هذا الخط.

و قد ثبت الحکم المعین وفقا لقرار جمعیة الأمم فی جلساته الحکمیة فی جنیف مبدأ اعتبار واردات الخط الحدیدی الحجازی علی النسبة الکیلو متریة لا علی نسبة ما تستفیده کل مقاطعة من الخط الذی یمر منها.

و تقضی المادة ۱۱۸ من معاهدة لوزان بعقد مؤتمر فی باریز بعد مرور شهر من صدور حکم الحکم الذی عهدت إلیه جمعیة الأمم النظر و الحکم فی اعتراضات الدول ذات العلاقة بالدیون العثمانیة العامة. و قد ضربت الحکومة الفرنسیة موعدا لعقد هذا المؤتمر فی

أول تموز سنة ۱۹۲۵ بباريز دعت إليه جميع الدول ذات العلاقة بالديون و دعيت الحكومة الحجازية لإرسال مندوب عنها فى شهود هذا المؤتمر فأجابت الدعوى و لكن لتحتج على ما لحق بالمملكة الحجازية من الحيف.

و بعد إلحاق معان و العقبة بشرقى الأردن (۱۹۲۵) تسلمت إدارة خطوط فلسطين الخط الحجازى الجنوبى حتى المدوّرة فى الكيلو متر ۵۷۷ و بما أن

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۴

طول الخط الأصلى من دمشق إلى المدينة المنورة عبارة عن ۱۳۰۷ كيلو مترات فيكون ما تناط إدارته من هذا الخط بالحكومة الحجازية الحاضرة ۷۳۰ كيلو مترا.

نفقات الخط الحجازى و إصلاحه:

بلغت نفقات الخط الأصلى و فروعه حتى سنة ۱۹۱۸ و هى السنة التى خرجت الدولة العثمانية فيها من الشام ۳۹۸، ۰۱۲، ۵ ليرة عثمانية ذهبا. فهذه القيمة قليلة جدا بالنسبة لطول الخط و للبوادى الشاسعة القاحلة التى قطعها.

و لو لا أن الحكومة العثمانية كانت تستخدم الجنود بأجور زهيدة للغاية لما تيسر لها إنشاء هذا الخط و لكانت اضطرت لإنفاق ضعفى هذا المبلغ على أقل تقدير. و الحق يقال إن هذا الخط مدين بإنشائه للجنود العثمانية التى بذلت فى سبيله الجهود العظيمة، بل النفوس الكريمة، و عدا ذلك فإن المبيعات المحلية و النقليات على اختلاف أنواعها جرت بصورة معتدلة للغاية. و كان معظم الناس يعتقدون، و هم على صواب فى اعتقادهم، أن تقديم الإعانات إلى الخط و بذل المعاونات فى سبيله من أعظم القربات. و بدافع هذه الثقة قدم كثيرون أشياء ثمينة ذات قيم كبيرة كالأخشاب و الأحجار و الأرضين. فلا بدع إذا قلنا إن هذا الخط ثمرة جهود الأمة الإسلامية، و مأثرة غراء من مآثرها الخالدة فى هذا العصر، عصر النور و العرفان.

و خلاصة القول أن إصلاح هذا الخط أمر ضرورى حيوى بالنسبة للأقطار العربية لما له من العلاقة بها كلها. فمن الواجب على الحكومات العربية أن تسعى كل السعى لإرجاع الخط إلى حالته الأولى، و تعمل فى سبيل تحسين شؤونه أكثر من قبل. و هذا الإصلاح لا يتم إلا بإيصال هذا الخط إلى مكة المكرمة عاصمة الإسلام، و بربطه بخطوط فرعية مع السواحل كمكة المكرمة بجدة و المدينة المنورة بينبع و معان بالعقبة فيصبح بهذه الفروع الممتدة إلى سواحل البحر الأحمر و البحر المتوسط من أكبر العوامل لإنعاش التجارة فى الأرض التى يمر بها، و يتسع نطاق العمران و التحضير فى الصحارى و السهول العربية.

و من جهة أخرى يضمن بهذه الطريقة أيضا نقل الفحم الضرورى لاستثمار

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۵

الخط على أيسر وجه و بأقل كلفة. و قضية الفحم قضية ذات شأن فى حياة الخط، و كان يبلغ ما يستهلكه من الفحم الحجرى نحو ۰۰۰، ۳۰ طن فى السنة و لا يبعد أن يأتى يوم تمكن فيه الاستفادة من شلالات زيزون و تل شهاب لتوليد الكهرباء فتسير القطارات حينئذ بهذه القوة فتقل نفقات الخط السنوية و تصبح الأجور أقل مما هى عليه الآن فتكثر المواد. و ما ذلك اليوم ببعيد إن شاء اللّه.

تفتقر الأقطار العربية إلى رجال فن و أرباب صنائع إخصائيين يعول عليهم فى تسيير شؤونها الفنية. و هى لا تنقص فيها المقدرة و الاستعداد للقيام بأصعب الأمور إذا قيض اللّه لها من أبنائها من يرشدها و يحسن إدارتها. و لقد برهنت على ذلك فى كثير من أدوار تاريخها المجيد، و خصوصا بما قامت به أخيرا من الأعمال أثناء إنشاء الخط الحجازى، و ما بذلته من الجهود فى سبيله حتى لقد صرح مدير هذا الخط المسيو ديكمان الألمانى بشهادته الطيبة لأبنائها فى تقريره الذى رفعه للحكومة الفيصلية العربية: إننى عاجز عن وصف سرورى من الموظفين و العملة العرب الذين كانوا فى إدارتى، لما هم عليه من حب العمل و النظام، و ما اتصفوا به من شدة الذكاء و المقدرة، كما شاهدت ذلك فى صفوف موظفى المحطات و القطارات و السواق و السير، و كنت أجد سرورا خاصا عند النظر فى

أمورهم لما هم عليه من النشاط فى كل أمر.

الخطوط الفلسطينية خط يافا- القدس:

كانت مدينة يافا فى كل أدوارها مرفأ لإنزال الزوار القاصدين لمدينة القدس. و لذلك كانت فكرة إنشاء خط حديدى بين المدينتين من الأمور المتفق على صحتها و جلالة شأنها. لكن بعض المشتغلين بهذه القضايا كان يعتقد صعوبة تنفيذها، و يرجح إنشاء خط تراموای لقلة المواصلات التجارية فى فلسطين. ذلك لأن كثرة الزوار لا تكون إلا فى مواسم معينة من السنة.

و كان أول مصوّر قدم للحكومة لعمل سكة حديدية فى سنة ۱۸۶۴ قدمه الدكتور زامبل الأميركى الألمانى. و منح امتياز هذا الخط إلى يوسف نافون

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۶

أفندى فى ۲۸ تشرين الأول سنة ۱۸۸۸ لمدة ۷۱ سنة مع احتمال تمديد هذا الخط إلى غزة و نابلس، ثم إلى دمشق إذا دعت الضرورة إلى ذلك فى المستقبل.

و قد باع صاحب هذا الامتياز امتيازه من شركة الخطوط الحديدية العثمانية ليافا- القدس و تمديداتها الفرنسية المؤسسة فى باريز فى شهر كانون الأول سنة ۱۸۸۹ بمبلغ مليون فرنك. و شرع بإنشاء هذا الخط فى نيسان سنة ۱۸۸۹ فصادف المهندسون صعوبات جمة فى طريقهم، خصوصا فى القسم الواقع بين عرتوف و القدس و الأرض صخرية جبلية و قد استغرق هذا العمل ست سنوات بالنظر لهذه الصعوبات و انتهى فى أيلول سنة ۱۸۹۲ و افتتح الخط فى ۲۶ أيلول سنة ۱۸۹۲. و طول هذا الخط ۸۷ كيلو مترا، و هو خط ضيق منفرد و عرضه متر واحد يجتاز مائة و ستة و سبعين جسرا سبعة منها حديدية.

و أطول هذه الجسور لا يتجاوز الثلاثين مترا و أقصرها ستة أمتار. و قد تجنب القائمون بالأعمال فتح الأنفاق مما زاد فى اعوجاج الخط و كثرة الحفريات الناشئة عن ذلك. فالخط يحاذى وادى صرار و يقطعه فى محلات متعددة.

و اقتلعت إدارة الخطوط الحديدية العثمانية فى الحرب العامة قسما من هذه السكة بين يافا ولد أى على مسافة ۱۹ كيلو مترا و استعملت قضبه فى إنشاء الخطوط العسكرية التى كانت تنشأ إذ ذاك فى فلسطين و لم تقتلع بقيته لأنها استفادت منه و وصلته بخط العفولة- القدس من لدّ إلى وادى صرار أى مسافة ۱۸ كيلو مترا.

خط حيفا- دمشق:

ألمعت قبلا- إلى أن جبال لبنان الشاهقة و ما وراءها من الهضاب الشرقية تمنع سهولة المواصلات بين دمشق و بيروت و تؤلف سدا منيعا بين هاتين المدينتين، و لذلك رأى من يعنيهم الأمر منذ زمن بعيد وصل دمشق بنقطة من الساحل تكون غير مدينة بيروت. فكانت الأنظار تتجه أبدا إلى مدينتى عكا و حيفا. لأن الخط الذى يصل دمشق بهاتين المدينتين يسهل إنشاؤه لوجود سهل يزرعيل على ما ذكرنا آنفا. و كانت بريطانيا تحلم كثيرا بالحصول على خط حديدى يسير بين احدى الموانى الشامية و الخليج الفارسى. و خصوصا

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۷

بعد احتلالها جزيرة قبرس فى البحر المتوسط. ففى سنة (۱۸۸۲) نال السادة أبناء سرسق منشورا سلطانيا يخولهم حق إنشاء خط حديدى بين عكا و دمشق آملين إدخال التحسين على أملاكهم الواسعة فى مرج ابن عامر راجين معاونة البريطانيين. و كانت فكرة إنشاء خط حديدى سائدة بينهم فى ذلك الحين.

بيد أنهم لم ينجحوا بعملهم و خسروا عربونهم البالغ ۵۰ ألف فرنك المودع فى خزينة الدولة العثمانية.

و فی سنهٔ (۱۸۸۹) طلب یوسف الیاس أفندی رأس مهندسی لبنان إلی الحکومهٔ العثمانیهٔ منحه امتیاز هذا الخط مع فرع إلی حوران. و انقضت المدهٔ المضروبهٔ للمباشرهٔ بالعمل و لم یتمکن هو أیضا من القیام بهذا المشروع. و فی ۳۰ أیلول سنهٔ (۱۸۹۱) أعاد الکرهٔ یوسف الیاس أفندی و نال هذا الامتیاز مجددا بالاشتراک مع المستر نیللنغ الإنکلیزی. و اشترطت الحکومهٔ علیهما فی فی هذا الامتیاز إنشاء فرعین لهذا الخط الأول من قریهٔ نوی إلی بصری فی حوران. و الثانی من نهر الشریعهٔ إلی حاصبیا. و شرع بالعمل فی ۱۲ کانون الأول سنهٔ ۱۸۹۲ فی الوقت الذی باشرت فیه أعمالها شرکهٔ بیروت دمشق (۸ کانون الأول سنهٔ ۱۸۹۲). و لم تمض مدهٔ حتی توقفت الأعمال علی خط حیفا- دمشق و لم یتم منه سوی ثمانیهٔ کیلو مترات. لأن الشرکهٔ التی أسست للقیام بهذا المشروع لم تحصل علی المعاونهٔ المالیهٔ اللازمهٔ لها فی أسواق لندن. و کانت المدهٔ المضروبهٔ لإنهاء العمل تنتهی فی شهر تشرین الأول سنهٔ ۱۸۹۵ و علی هذا أنذرت الحکومهٔ العثمانیهٔ الشرکهٔ فی أوائل سنهٔ ۱۸۹۵ بوجوب الإسراع بالعمل و بعد إلحاح المساهمین وافقت الحکومهٔ علی تمدید المدهٔ ثلاث سنوات أخری. و بالرغم من هذه التسهیلات لم تقم الشرکهٔ بإتمام عملها. و فی سنهٔ (۱۸۹۶) أصبح القسم الممدد من الخط فی حالهٔ یرثی لها بعد ترکه طوال هذه السنین الأخیرهٔ. ثم ظهرت فکرهٔ إنشاء الخط الحدیدی لحجازی و ربطهٔ بأحد فرض البحر المتوسط فقام السلطان باسترجاع امتیاز خط حیفا مستفیدا من ذلک التأخیر الذی وقع فی أعمال الشرکهٔ کما ذکرنا ذلک فی عرض الکلام عن الخط الحجازی.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۸

الخطوط العسکریهٔ الفلسطینیهٔ:

لم تحل الحرب العامهٔ دون الإدارهٔ العسکریهٔ العثمانیهٔ التی تولت السیطرهٔ علی الخط الحجازی إذ ذاک و تمدید مئات الکیلو مترات من الخطوط الحدیدیهٔ بین فلسطین و الحدود المصریهٔ داخل فلسطین أیضا. و هذه الخطوط و إن لم یکن لها شأن یذکر بجانب الخط الأصلی فقد أحببنا أن نذکر شیئا عنها تتمیما للفائدهٔ.

أنشأت إدارهٔ الخط الأصلی فروعا لها فی سوریهٔ و فلسطین. منها فرع حیفا- عکا و هو ۱۷ کیلو مترا و فرع درعا- بصری و هو ۲۷ کیلو مترا و فرع العفولهٔ- القدس الذی شرع فیه سنهٔ (۱۹۱۲) و وصل إلی قریهٔ السیله عند إعلان الحرب العامهٔ و هو ۴۰ کیلو مترا. و من المسائل التی تستحق الذکر ما أجرته إدارهٔ الخط من الأعمال فی أثناء الحرب العامهٔ ذلک أن حملهٔ السویس لما أخفقت أدرکت قیادهٔ الجیش العثمانی ضرورهٔ تمدید الخط الحدیدی حتی السویس بأسرع ما یمکن. و کان القائل بهذه الفکرهٔ جمال باشا الذی تمکن علی الدوم من إعطاء المال و الرجال لإجراء الأعمال المطلوبهٔ و قد جیء فی ذلک الحین بمیسنر باشا المهندس الألمانی من بغداد لاستلام أعمال الإنشاء و کان هو مهندس الخط الحجازی عند تأسیسه من سنهٔ ۱۹۰۰ إلی ۱۹۰۸.

کان قسم العفولهٔ- القدس الذی شرعت فیه إدارهٔ الاستثمار وصل نابلس فی شتاء ۱۹۱۴ و ۱۹۱۵. و کانت الفروع المصریهٔ التی بدأت الإدارهٔ بإنشائها من المسعودیهٔ فی خط العفولهٔ- نابلس تمتد فی بطاح سارون حتی القدس و لیس فیها کثیر من الموانع و الحوائل الطبیعیهٔ. ودعت الضرورهٔ إلی جعل الخط بعیدا عن الساحل لیکون بمأمن من قذائف السفن الحربیهٔ.

و فی شهر تشرین سنهٔ ۱۹۱۵ تمکنت الإدارهٔ من إنشاء ۱۶۵ کیلو مترا و سلمتها للاستثمار حتی بئر السبع. و هذا العمل بالنظر لما صودف فی تنفیذه من المصاعب یعد من الأعمال العظیمهٔ.

و قد استفادت إدارهٔ الأعمال من خط یافا- القدس الفرنسی المشاد سابقا بین محطهٔ لدّ و وادی الصرار أی مسافهٔ ۱۸ کیلو مترا کما ذکرنا ذلک

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۸۹

آنفا و أدخلت هذا القسم بخط العفولهٔ- القدس الذی نحن فی صدد الکلام علیه، و لکنها اضطرت لتعریضه لأن عرضه کان مترا

واحدا فجعلته مترا و خمسة سانتيمترات كبقية الخطوط الحديدية الحجازية. و كانت الإدارة لا تملك عند إعلان الحرب سوى ۳۰۰ كيلو متر من قضبه الحديدية و ۵۰ كيلو مترا من العوارض الحديدية فقلعت من خط يافا- القدس قسم يافا- لدّ ۱۹ كيلو مترا و خط حيفا- عكا ۱۷ كيلو مترا و خط دمشق- المزيريب ۱۰۳ كيلو مترات و قد أحضر قسم كبير من العوارض من أخشاب الاوكالبتوس فى بطاح شارون و من شجر الصنوبر فى جبل لبنان.

و بدئ بإتمام الخط إلى السويس فى قلب صحراء سينا قبل أن تم إنشاء قسم بئر السبع. و لكن عمليات الإنشاء لم تتقدم بسرعة كما جرى فى قسم مسعودية- بئر السبع لأن نقل الامداد للجيش كان من الأسباب الداعية لعدم سرعة العمل. و مع ذلك فقد أنشئ ۶۲ كيلو مترا نحو السويس وراء بئر السبع فى صيف ۱۹۱۶ و كانت المحطة النهائية فى القسيمة و عند ما جلا الجيش إلى جهة غزة فى ربيع سنة ۱۹۱۷ اضطرت الإدارة إلى رفع الأقسام الجنوبية من بئر السبع. ثم بدئ بإنشاء فرع من التينة إلى ديرسند- بيت حاتون و من ديرسند إلى الهوج و مسافتها ۵، ۵۳ كيلو مترا و بنيت أيضا فروع عسكرية ليضمن معها نقل محروقات الخط و هى طور كرم- كفر قرع ۲۴ كيلو مترا. و فرع جلينا- خضرا ستة كيلو مترات. و غزة- الهيشة ۲۸ كيلو مترا. القصر- الهرمل ۱۹ كيلو مترا. و من هذا كله يتضح أنه قد أنشئ فى أثناء الحرب من الخطوط ۴۳۷ كيلو مترا و كانت كلها فروعا للخط الحجازى، و ذلك رغم الصعوبات الكثيرة فى تدارك اللوازم الضرورية.

و لما سقطت جبهة غزة و اضطر الجيش للجلاء حتى أواسط فلسطين تركت أقسام الخط فى جنوب طور كرم فى تشرين الثانى سنة ۱۹۱۷ فى حين أن الإنكليز كانت تسرع أثناء الحرب بإنشاء خط ساحلى من بور سعيد الذى خصص لمدد الجيش الإنكليزى. و لما استولت على فلسطين شرعت بتمديد هذا الخط من فلسطين أيضا فى أيلول سنة ۱۹۱۸ و أوصلته إلى حيفا عند جلاء الجيش العثمانى عنها. و بهذه الواسطة تم أول اتصال بين الخطوط المصرية

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۰

و الحجازية. و لا شك أن هذا الاتصال يفيد البلدين فائدة اقتصادية عظيمة لأنهما ما زالا منذ الأزمان القديمة مرتبطين أحدهما بالآخر ارتباطا ماديا و أدبيا.

بدأ الإنكليز عقبى استيلائهم على فلسطين يتحرون الوسائط و الطرق اللازمة لإنشاء خط كبير يخترق الديار العربية من الغرب إلى الشرق و يربط حيفا بالخليج العربى و طول هذا الخط تقريبا ۱۵۰۰ كيلو متر و لكن بعد أن تمكنت السيارات من اختراق الصحراء و الوصول إلى القطر العراقى بسهولة تأخرت فكرة إنشاء هذا الخط فى الوقت الحاضر.

إن مجموع الخطوط الحديدية فى فلسطين و شرقى الأردن ۷۰۸، ۴۰۵، ۱ كيلو مترات منها ۸۳۴، ۷۱۵ كيلو مترا من الخط العريض و ۸۷۴، ۶۸۹ كيلو مترا من الذى عرضه ۱۰۵ سانتيمترات و هذه التفاصيل:

كيلو مترات

۲۲۳ ۳۷۴ خطوط فلسطين الأصلية.

۴۹۱ ۹۸ خطوط فلسطين الجانبية (المحطات) و الجوانب مقصات و تفريغ.

۷۱۴ ۴۷۲ المجموع.

۸۸۵ ۲۰۱ خطوط سينا العسكرية الأصلية.

۲۳۵ ۴۱ خطوط سينا العسكرية الجانبية ...

۱۲۰ ۲۴۳ المجموع.

۰۴۰ ۲۱۲ خط الحجاز فى فلسطين الأصلى

۵۴۶ ۳۰ خط الحجاز الجانبى ...

۵۸۶ ۲۴۲ المجموع

۳۴۳ ۴۳۶ خط الحجاز الشرقدنّی الأصلی

۹۴۵ ۱۰ خط الحجاز الشرقدنّی الجانبی ...

۲۸۸ ۴۴۷ المجموع.

ثم أنشئ فرع جدید من حیفا خاصا بمعمل نیشر طوله سبعة کیلو مترات.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۱

عدد

۱۳۰ القاطرات

۱۰۷ مرکبات الرکاب

۲۲۵۹ قاطرات و شاحنات

«الواردات عن سنة ۱۹۲۵ و النفقات»

جنیه مصری

۶۰۴۵۷۹ الواردات

۴۳۸۵۰۴ النفقات

۱۶۶۰۶۵ الباقی و هو الربح السنوی

و قد اشترت حکومة فلسطین جمیع الخطوط العسکریة و الفرنسیة و أصبحت ملکا لها.

خط بغداد:

جری البحث کثیرا فی الأندیة الانکلیزیة منذ سنة ۱۸۳۴ إلی سنة ۱۸۴۵ بشأن الملاحة فی نهر الفرات، فتألفت شرکة فی سنة ۱۸۵۱ لإنشاء خط حدیدی من السویدیة فی خلیج الإسکندرونة إلی الکویت فی الخلیج الفارسی.

و کان یرأس هذه الشرکة الجنرال سیر فرنسیس شیزنی. نالت امتیاز هذا الخط مع وعد الحکومة العثمانیة بأن تعطی الشرکة ضمانة تضمن لها فائدة ستة بالمئة لرأس المال، و لکن هذه الضمانة لم یتأکد إعطاؤها. و لما رأی الشعب الإنکلیزی عدم اهتمام حکومته بهذا المشروع بصورة رسمیة خاف من إخفاقه فلم یکتتب بأسهم الشرکة. فلم تتمکن هذه من نیل المعاونة المالیة اللازمة فسقط امتیازها. و بعد سنة ۱۸۶۹ تجددت فکرة إنشاء خط السویدیة- الکویت. و فی سنة ۱۸۷۲ حبذ هذا المشروع کثیر من النواب البریطانیین.

و کانت تقدر نفقات هذا الخط بعشرة ملایین جنیه إنکلیزی. و مضی زمن و فکرة هذا المشروع تتخبط إلی أن حدثت أمور مهمة حولت الرأی العام الإنکلیزی عنها بتاتا. و بعد افتتاح ترعة السویس اقترح بعضهم وصل الإسماعیلیة بالکویت بخط حدیدی. و لکن هذا المشروع الجدید لم یجد أنصارا و لم یرج

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۲

الرواج المطلوب فی الرأی العام الإنکلیزی. و بعد ذلک تألفت جماعة من الروسیین و اقترحت طریقة جدیدة و هی وصل طرابلس الشام بالخلیج الفارسی بخط حدیدی، یتفرع منه فرع إلی کربلاء، و لکن هذه الفکرة کانت عقیمة لا- تستحق الاهتمام لأن خطا جدیدیا کهذا لا یجوز تمدیده فی تلک الصحاری القاحلة.

و بالتزاحم الذی حدث بین الدول الغربیة لنیل امتیازات فی الولایات العثمانیة کان الألمانیون آخر من تقدم و ذلک فی سنة ۱۸۸۸

فجاءوا بأفكار جديدة و كان الإنكليز و الفرنسيون ممن يهتمون بالخطوط الحديدية العثمانية. و لا يفكرون بغير وصل السواحل بالأصقاع الداخلية و ذلك لترويج صناعتهم و تجاراتهم. و لهذا لم ينشئوا سوى خطوط صغيرة كيافا- القدس- حيفا و دمشق- بيروت و طرابلس- حمص السويدية أو الإسكندرونة- حلب و مرسين- أذنة و أضاليا الخ. فكل هذه الخطوط كانت تبتدئ من السواحل و تنتهي بمدن الساحل. خلافا لهذه الخطة الغريبة تقدم الألمان بطريقة جديدة تتفق مع المصالح العثمانية أكثر من الأولى. ففي سنة ۱۸۷۱ ارتأى فون برسيل المهندس الألماني أن يجعل الاستانة مركز الخطوط الحديدية الأوربية و الآسيوية، فبدلا من أن يكون للمملكة العثمانية عشرون خطا صغيرا لا رابطة بينها اقترح أن تنشأ خطوط أساسية تقطعها عرضا و طولا تكون خير واسطة بيد الحكومة من الوجهة الإدارية و العسكرية. و تصل جميع الأقطار العثمانية بعضها ببعض. و أول خط من هذه الخطوط التي اقترح عملها المهندس برسيل كان خط الاستانة- بغداد.

و بناء على اقتراحه هذا و وفقا للمخططات التي رسمها، شرعت الحكومة العثمانية بإنشاء خطها العظيم الملقب بقاطع آسيا الصغير. و كان القصد من هذا الخط أن يبتدئ من مرفإ حيدر باشا على ساحل البوسفور و ينتهي بالكويت على ساحل الخليج الفارسي مارا بازميد مجتازا مضايق نهر سقاريا المعوج فيصل أسكيشهر و منها يتجه شرقا نحو أنقرة- يوزغاد- سيواس- عربكير خربوط- ديار بكر- ماردين- الموصل- بغداد و من هذه يسير موازيا لدجلة و شط العرب حتى خليج فارس. و دعوا هذا التخطيط بالمخطط الشمالي و كان هذا التخطيط أقصر الطرق و أقلها نفقة و يبلغ طوله ۳۵۰۰ كيلو متر.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۳

قامت الحكومة العثمانية في سنة ۱۸۷۱ بمد ۹۲ كيلو مترا من حيدر باشا إلى ازميد بمعرفة المهندس برسيل، و لكن الثورات و الحروب المتتابعة في أوربا العثمانية و كذلك التدخلات الأجنبية قد أوقفت استمرار العمل بهذا المشروع مدة ست عشرة سنة. و في سنة ۱۸۸۸ تمكن المصرف الألماني «دويتش بنك» من الحصول على امتياز هذا الخط حتى مدينة أنقرة مع الوعد بتمديد بقية أقسامه إلى مدينة بغداد بضمانة كيلو مترية ۱۵ ألف فرنك. و قد وقعت الإرادة السلطانية التي منحت امتياز الخط باسم المصرف الألماني في تشرين الأول سنة ۱۸۸۸. و باشر الألمان عملهم في شباط سنة ۱۸۸۹. و في سنة ۱۸۹۱ تمكنوا من إتمام ۳۰۰ كيلو متر. و في سنة ۱۸۹۳ وصل خطهم إلى أنقرة أي انه مد منه ۵۷۸ كيلو مترا.

كانت مدينة أنقرة بلدة صغيرة قبل جعلها عاصمة الدولة التركية و هي واقعة بأعالي الجبال ترتفع ۹۲۰ مترا عن سطح البحر. و على أثر وصولهم إليها طلبوا من الحكومة العثمانية امتياز الأقسام الأخرى، على أن يجري تعديل في استقامة الخط، فبدلا من أن يسير من أنقرة إلى يوزغاد و سيواس، طلبوا تحويله من أنقرة إلى قيصرية. و حصلوا في أول سنة ۱۸۹۳ على امتياز قسم قيصرية أي مسافة ۳۲۰ كيلو مترا مع ضمانة كيلو مترية قدرها ۱۷۶۵۰ فرنكا و قد سمي هذا التخطيط الجديد بالمخطط الوسطى. و لم يرق في عيني روسيا و كانت تخشى تقدم الألمان في الولايات الشرقية. فلعبت السياسة ألا عيبها بين لينغراد و برلين، و قبل الألمان بتغيير و جهتهم فتركوا أنقرة و شأنها، و طلبوا من الحكومة إعطاءهم امتياز قسم جديد بين أسكيشهر و قونية. و قد حصلوا على ذلك في سنة ۱۸۹۳ و سمي هذا التخطيط بالمخطط الجنوبي مع ضمانة كيلو مترية قدرها ۱۵ ألف فرنك. غير أن هذا التخطيط الأخير لم يرق أيضا في أعين الإنكليز و الفرنسيين و كانوا يرجون نيل امتيازات في تلك البقاع التي لهم فيها مصالح و خطوط. فاحتجوا لدى الباب العالي و قدموا شروطا أحسن من شروط الألمان، و قد دعمت الحكومة الفرنسية طلب الماليين الفرنسيين، و تمكنت من أخذ امتيازات الخطوط الحديدية السورية بين دمشق و حلب.

(۵- ۱۳)

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۴

وصل الخط الحديدي إلى قونية في أواخر سنة ۱۸۹۵ و بعد ذلك شعر الألمان بضرورة الاتفاق مع بعض الماليين من الأمم الأخرى،

فأشركوا معهم الفرنسيين و نالوا امتياز خط قونيهٔ- بغداد فی كانون الثانی سنهٔ ۱۹۰۲ مع ضمانهٔ كيلو متريهٔ قدرها ۵۰۰، ۱۶ فرنک و ممن اشترک مع الألمان من الفرنسيين بهذا المشروع شركهٔ خط ازمير- قصبهٔ و شركهٔ المصرف العثمانی. و قد اشترط الفرنسيون مقابل دخولهم فی هذه الشركهٔ أن يكون لهم أربعون بالمئهٔ من الأسهم و أربعون بالمئهٔ للألمان و عشرون بالمئهٔ لروسيا، و أن تكون جميع الحقوق متساويهٔ بين الألمان و الفرنسيين كإدارهٔ المشروع و تقديم الأدوات و لم يتم هذا الاتفاق لأسباب سياسيهٔ، و لذلک لم تقبل فرنسا إدخال أسهم هذا المشروع فی بورصهٔ باريز. و فی شباط سنهٔ ۱۹۰۳ كلف الألمان حكومهٔ لندن تأليف شركهٔ جديدهٔ تكون الأسهم فيها متساويهٔ بين الألمان و الإنكليز و الفرنسيين أی ثلاثون بالمئهٔ لكل منهن و عشرهٔ بالمئهٔ تبقی للروس أو للحكومات الصغيرهٔ كالبلجيک و هولاندهٔ و سويسرا، فلم تنجح هذه الطريقهٔ لحل المشكلهٔ القائمهٔ بينهم. و بقی الألمان مدهٔ يساومون الدول الغربيهٔ بذلک يهددون الروس تارهٔ بتكميل مخططهم الشمالی المنتهی بأنقرهٔ، و طورا يهددون الإنكليز و الفرنسيين بإتمام مخططهم الجنوبی المنتهی فی قونيهٔ. و فی ۵ آذار سنهٔ ۱۹۰۳ قررت الحكومهٔ العثمانيهٔ إعطاء امتياز خط قونيهٔ- بغداد و البصرهٔ لشركهٔ خطوط الأناضول. و فی ۳۰ تموز من هذه السنهٔ صدر المنشور السلطانی بذلک. و اشترط فيه إتمام هذا الخط فی ثمانيهٔ أعوام أی فی سنهٔ ۱۹۱۱.

فباشر الألمان عملهم و أتموا قسم قونيهٔ- بلغورلو و قد أمنتهم الحكومهٔ على الضمانهٔ الكيلو متريهٔ لهذا القسم. و بعد هذا القسم تأتی جبال طوروس الشاهقهٔ.

و فی هذه الجبال واد عظيم كان الطريق الوحيد لجيوش الفاتحين من الأقدمين و هو خط الاتصال بين قليقيهٔ و صحراء الأناضول. و هذا الوادی لا يزيد عرضه على العشرهٔ أمتار فی كثير من النقاط، و الجبال ترتفع حفافيه أكثر من مئتی متر. و كان الإسكندر الكبير و الرومان و الصليبيون و العرب و السلجوقيون و المصريون يقطعون هذه الجبال و يجتازون هذا الوادی. و قد فكر الألمان

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۵

أن يمدوا خطوطهم على هذه الطريق بعد تعريضها بحيث تصلح للسير و بعد أن يبنوا عليها الجسور اللازمهٔ و الأنفاق الصغيرهٔ. و لكنهم عدلوا عن هذه الفكرهٔ لشدهٔ الصعوبات فی تنفيذها و لكثرهٔ النفقات و خصوصا نفقات الترميم الدائمهٔ التی تكون باهظهٔ. و فوق هذا لا يكون الخط فی مأمن من الأنواء الجويهٔ فضلا عن أن بلدهٔ بلغورلو ترتفع عن سطح البحر ۱۱۵۰ مترا و الوادی المذكور يرتفع ۱۴۵۰ مترا و تقوم مدينهٔ أذنهٔ على سفح الجبل من الجهة الثانيهٔ و لا ترتفع شيئا يذكر عن سطح البحر. فهذه التموجات بالارتفاعات تجعل الطريق المذكورهٔ صعبهٔ جدا و يتعذر مد الخطوط فيها. و لذلک عوّل الألمان على درس طريق ثانيهٔ. فبعد أن بحثوا فی الجبال عن أقل الطرق كلفهٔ و أسهلها عملا- لم يروا سوی طريقهٔ واحدهٔ و هی عمل نفق حلزونی لا يقل طوله عن اثنی عشر كيلو مترا، و إنشاء نفق كهذا هو أيضا من أصعب الأعمال حتی فی ديار الغرب القريبهٔ من معامل الحديد و مناجم الفحم و وجود أحدث الآلات فكيف إذا يمكن القيام به فی هذه الأرض القاحلهٔ المتأخرهٔ فی ميدان المدنيهٔ.

و بذلک تكون نفقات هذا القسم باهظهٔ، و لا تكفی الضمانهٔ الكيلو متريهٔ المقررهٔ له و هی ۵۰۰، ۱۵ فرنک عن كل كيلو متر لسد فوائد رأس المال، و مع كل ما ذكرناه من الصعوبات لم يضعف هذا من عزيمهٔ الشركهٔ فثابرت على عملها و افتتحت كثيرا من الأنفاق فی جبال طوروس و جبال أمانوس و قد كلفها ذلک مبالغ عظيمهٔ. و لما كان عمل الأنفاق أمرا شاقا يحتاج لزمن طويل، لم تر هذه الشركهٔ بدا من أن تباشر بعملها أيضا من حلب و من نقاط أخری. فكان الراكب الآتی من الاستانهٔ مثلا مضطرا للنزول من القطار فی محطهٔ بوزنتی و الركوب على الدواب أو بالسيارات حتی بلدهٔ إصلاحيهٔ و كانت اتصلت بمدينهٔ حلب بخط بغداد الحديدی. و فی سنهٔ ۱۹۰۶ اشترت شركهٔ بغداد خط مرسين- طرسوس- أذنه.

جاءت الحرب العامهٔ فزادت الشركهٔ همهٔ و نشاطا فی إتمام ما بقی من الخط بين بوزنتی و إصلاحيهٔ، و ذلک بضغط الحكومهٔ على الشركهٔ، لأنها كانت مضطرهٔ لنقل جنودها و ذخائرها و عتادها فی القطارات طلبا للسرعهٔ و اتصال المواصلات. و قد سبب تأخير حفر الأنفاق تعذّر نقل الفحم إلی

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۶

الخطوط الشامیة التی کانت تستعیض عن الفحم بحطب الأشجار المثمرة فنتج عن ذلک أضرار عظیمة للشام. و تمکنت الشرکة بما أبدته من النشاط و الهمة فی فتح الأنفاق من تسییر القطارات رأسا بین الاستانة و حلب و ذلک فی سنة ۹۱۷- ۹۱۸. أما هذا الخط فهو من الخطوط العریضة و عرضه متر و ۴۴ سانتیمترا، و نصف القطر الأصغر لمنعطفات الخط خمسمائة متر فی حین لا یتجاوز هذا النصف القطر الثلاثمائة متر فی بقیة الخطوط العثمانیة. و وزن القضب الحدیدیة أکثر من وزن قضب الخطوط الأخری. لأن القصد من ذلک تزیید السرعة علی هذا الخط و جعلها ۷۵ کیلو مترا فی الساعة. و تبین من الإحصاءات التی أجراها المسیو ری مدیر خط سلانیک- الاستانة أن المعدل المتوسط لسعر الکیلو متر فی الخطوط الحدیدیة العثمانیة ۱۱۰، ۱۸۹ فرنکات یدخل فی هذا المبلغ ثمن القاطرات و العجلات و الشاحنات و الإنشاء و نفقات التأسیس و فوائد رأس المال و کل ما یتعلق بالخطوط من النفقات.

و هذا قلیل إذا قیس بخط بغداد لأن نفقاته کانت أکثر من غیره فیقتضی و الحالة هذه أن یقدر المعدل المتوسط لسعر الکیلو متر بمائتی ألف فرنک أی تسعة آلاف لیرة عثمانیة ذهبا.

الخطوط الحدیدیة بین الشام و مصر:

کان وصل الدیار الشامیة بمصر موضوع اهتمام المفکرین فی کل الأدوار، لما بین القطرین من العلاقات المادیة و المعنویة. و قد فکر فی هذه القضیة وزیر الأشغال العامة فی الدولة العثمانیة و أشار إلیها فی تقریره لسنة ۱۸۸۰ و إلی ضرورة تمدید خط حدیدی من القدس إلی العریش طوله ۱۵۰ کیلو مترا، و قدر نفقات هذا المشروع بعشرین ملیون فرنک. و فی سنة ۱۸۹۱ طلب انطون یوسف لطفی بک إلی الحکومة العثمانیة منحه امتیاز خط حدیدی یبتدئ من العریش علی حدود مصر و یمر بغزة- یافا- حیفا- عکا- صور- صیدا- بیروت، و ینتهی بطرابلس حیث یتصل بخطوط الشرکة الفرنسیة. و کان الإنکلیز یحبذون هذا المشروع و یوافقون علیه. غیر أنه لم یتم تنفیذه و لم تتصل بنا الأسباب التی حالت دون إخراجه إلی حیز العمل.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۷

و فی غضون الحرب العامة و بعدها، و عقب انسحاب الأتراک من الشام و احتلال السلطات الإنکلیزیة و الفرنسیة لها، ظهرت فائدة هذا المشروع و بوشر بتنفیذه إذ ذاک حتی تم الاتصال بین حیفا و الدیار المصریة کما أنه سیتم عما قریب تمدید هذا الخط حتی مدینة طرابلس فیتصل بالخطوط الفرنسیة.

الکهرباء و خطوط الترام فی دمشق:

تم الاتفاق فی ۱۹ جمادی الآخرة سنة ۱۳۰۷ (۷ شباط سنة ۱۳۰۵ ش) بین وزیر الأشغال العامة فی الدولة العثمانیة و بین یوسف أفندی مطران علی إنشاء خطوط تراموای فی مدینة دمشق یتفرع من مرکز المدینة و یتجه نحو باب مصر (بوابة اللّه) فی منتهی محلة المیدان، و إلی جامع محیی الدین بن عربی فی محلة الصالحیة، و إلی الباب الشرقی و مسجد الأقصاب، و من الباب الشرقی إلی دومة و من باب مصر إلی المزیریب، علی أن تکون الخطوط الخمسة الأولی تجر مرکباتها بالخیل، و الخط الأخیر أی خط المزیریب تجر مرکباته بالبخار. و قد منح یوسف أفندی مطران بموجب هذا الاتفاق امتیازا مدته ستون سنة و تعهد بالمباشرة بالعمل خلال سنة اعتبارا من تصدیق مقاولة امتیازه و أن یتم العمل خلال سنتین و نصف. و قد قبلت الحکومة بإعفاء جمیع الآلات و الأدوات و الدواب و لوازم الإنشاء من رسوم الجمرک أثناء العمل. و أعفت الأرضین و الأعمال مدة الاستثمار من الضرائب. و قد أذن لصاحب الامتیاز بتأسیس شرکة مساهمة عثمانیة خلال سنة اعتبارا من تاریخ صدور الأمر العالی علی أن تبقی جمیع الخطوط و المعامل و الأدوات الثابتة ملکا للدولة عند انقضاء مدة الامتیاز. أما الآلات و الأدوات المتحرکة کالعجلات و ما سواها فالحکومة تبتاعها بتخمین قیمها.

و قد اشترطت الحکومة علی صاحب الامتیاز تعمیر الطرق التی تمر منها خطوط الترامواى بعرض تسعة أمتار، و کذلک أرصفتها و مجارى المیاه فیها.

و حددت أجور الرکوب بثلاثة أرباع القرش الفضی للدرجة الأولی و نصف القرش للثانیة و علی ما نعلم إن یوسف أفندی مطران لم یقم بتنفیذ مقاولته هذه مدة طویلة من الزمن.

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۸

و بعد ذلک تقدم الأمیر محمد أرسلان إلی الحکومة العثمانیة طالبا إعطاءه امتیازا بتولید القوة الکهربائیة و استثمارها و تم الاتفاق بینه و بین وزیر الأشغال العامة بتاریخ ۱۸ المحرم سنة ۳۲۱ علی تنویر مدینة دمشق و ضواحیها بالکهرباء أی مسافة عشرة کیلو مترات عن المدینة لمدة تسع و تسعین سنة، و تعهد صاحب الامتیاز بتنظیم الخرائط للمشروع و تقدیمها فی ثمانیة عشر شهرا اعتبارا من تاریخ صدور المنشور العالی، و بالمباشرة بالأعمال فی ستة و ثلاثین شهرا بعد المصادقة علی المقاولة، و بإنهاء الأعمال فی أربع سنوات اعتبارا من تاریخ تصدیق الخرائط، علی أن تعفی مواد الإنشاء و اللوازم و الآلات و الأدوات من رسوم المکس إلی انتهاء أعمال الإنشاء و ابتداء الاستثمار، و أن تعفی أیضا جمیع البنایات و الأدوات مدة الامتیاز من الرسوم. و یتقاضی صاحب الامتیاز أثمان التنویر بحسب التعرفة المقررة مدة الامتیاز. و أما ما یتعلق بالتنویر العمومی للمدینة فیجب علیه أن یجری تنزیلا یتناقص کلما زادت کمیة الکهرباء المصروفة، و یحسم أیضا عشرة بالمائة لتنویر دوائر الحکومة و الجوامع و الکنائس و الثکنات العسکریة و المستشفیات، و یسمح لصاحب الامتیاز بتأسیس شرکة عثمانیة خلال سنتین اعتبارا من تصدیق المقاولة، و ذلک للقیام بتعهداته و تحتفظ الحکومة بحق شراء الامتیاز فی کل حین بعد انقضاء ثلاثین سنة، و تقوم بتخمین قیمة جمیع الآلات و الأدوات و الأبنیة و الأرضین و المؤسسات التی دخلت فی ملک صاحب الامتیاز و تشتریها منه. و عند انقضاء مدة الامتیاز یجب علی صاحبه تسلیم عامة البنایات و المؤسسات و الآلات و الأدوات بلا عوض إلی الحکومة، و إذا لم یباشر أعمال الإنشاء خلال المدة المعینة بدون أن تکون هناک أسباب قاهرة تمنعه عن مباشرة العمل، أو إذا لم ینجز العمل بتمامه أو یعطل أعمال التنویر، أو لم یقم بتعهداته فی المقاولة یسقط حقه من الامتیاز، و تضع الدولة یدها، و تقوم بما یلزم من التدابیر الموقتة لتأمین الاستثمار. و کذلک تعین البلدیة بالاتفاق مع صاحب الامتیاز عدد المصابیح و مواقعها، و ینحصر بیع التنویر و بیع القوة الکهربائیة بصاحب الامتیاز مدة امتیازه، سواء کان ذلک للأفراد أو لوسائط النقل العامة، و یکون حق الترجیح لصاحب الامتیاز بتأسیس التلفون إذا قبل بالشروط التی یقدمها طالبو

خطط الشام، ج۵، ص: ۱۹۹

هذا المشروع، و تحدد التعرفة العظمی بثمانیة قروش عن کل (کیلواتور) أی ما یعادل بارة واحدة عن کل شمعة بالساعة، و لا یمکن زیادة التعرفة المقررة بدون موافقة الحکومة.

و بعد ذلک توفق الأمیر محمد أرسلان بأخذ امتیاز آخر یقضی علیه بتقدیم القوة الکهربائیة اللازمة لتسییر حوافل (الترام) علی الخطوط الممنوح امتیازها قدیما إلی یوسف أفندی مطران، و علی الخطوط التی یمکن الدولة أن تمنح امتیازها لشخص آخر و ذلک داخل منطقة تبعد حدودها عشرین کیلو مترا فی کل جهة من وسط مدینة دمشق. و یقضی أیضا من جهة ثانیة علی صاحب امتیاز الترامواى الخیلی، و علی جمیع الشرکات التی تؤسس لتسییر الحوافل الکهربائیة داخل المنطقة المبینة آنفا، بمراجعة الأمیر محمد أرسلان لاستحصال القوة الکهربائیة اللازمة لهم، إذا أرادوا تسییر حوافلهم بالقوة الکهربائیة. خطط الشام ؛ ج۵ ؛ ص۱۹۹

قد حددت مدة هذا الاتفاق بتسع و تسعین سنة، تبتدئ من تاریخ صدور المنشور العالی، و أعطیت مدة سنتین لصاحب الامتیاز لتأسیس شرکة مساهمة عثمانیة تقوم بتنفیذ الشروط. کما احتفظت الحکومة لنفسها بحق شراء الامتیاز فی کل آن، و ذلک بعد مضی ثلاثین سنة من مدته. و قضوا أنه إذا وقع اختلاف بین الحکومة و صاحب الامتیاز یفصل فیه مجلس شوری الدولة.

و قد صدر المنشور العالی بهذا الامتیاز فی ۲۵ المحرم سنة ۱۳۲۱ و علی ذلک فقد تأسست بتاریخ ۲۳ شوال سنة ۱۳۲۲ و فی ۱۷

کانون الأول سنة ۱۳۲۰ (ش) و ۵ کانون الأول سنة ۱۹۰۴ شرکة بلجیکیة مساهمة باسم الشرکة العثمانیة السلطانیة للتنویر و الجر الکهربائی بدمشق، و حصلت علی جمیع الامتیازات المتعلقة بهذا الشأن. و من الشروط التی تعهدت بها هذه الشرکة إنشاء خطوط إجباریة من دار الحکومة إلی باب مصر (بوابة اللّه) بمنتهی محلة المیدان و من دار الحکومة إلی جامع محیی الدین بن عربی فی محلة الصالحیة، و تنویر المدینة وفقا لشروط المقاولات المنعقدة و المصدقة فی المناشیر العالیة بتاریخ ۱۰ رجب سنة ۱۳۰۷ و ۲۷ المحرم سنة ۱۳۲۱، و کان رأس مال هذه الشرکة ستة ملایین فرنک قسمت علی اثنی عشر ألف سهم و جعلت قیمة کل سهم ۵۰۰ فرنک. و کانت تدیر أعمال الشرکة لجنة منتخبة من الهیأة

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۰

العامة. و من جملة أعضاء اللجنة فی السنوات الأولی عزت باشا العابد.

و باشرت الشرکة العمل بإقامة الأبنیة و المعامل و مد خطوط الترام و أسلاک الکهرباء خلال سنة ۱۹۰۴. و الخطوط التی مدتها الشرکة ثلاثة یبتدئ الأول من ساحة الشهداء و ینتهی فی باب مصر فی منتهی محلة المیدان و طوله ثلاثة کیلو مترات و نصف کیلو متر و هو خط مزدوج. أما الخط الثانی فیبتدئ أیضا من ساحة الشهداء و ینتهی فی حی المهاجرین بالصالحیة و طوله ثلاثة کیلو مترات و مائتا متر و هو مزدوج حتی الجسر الأبیض و الباقی منه حتی المهاجرین خط منفرد. و أما الثالث فیبتدئ من الجسر الأبیض فالصالحیة و ینتهی عند جامع محیی الدین بن عربی و طوله کیلو متر واحد و هو مزدوج. و عرض هذه الخطوط متر واحد و خمسة سانتیمترات، کعرض الخطوط الحدیدیة الفرنسیة الضیقة و الخط الحجازی. و قد انتهت الشرکة من مد الخطوط فی ۱۲ شباط سنة ۱۹۰۷ و بدأت تسیر حوافل الترام علی الخطوط الممدودة و بدئ أیضا بتنویر المدینة منذ شهر نیسان سنة ۱۹۰۷.

جاءت الحرب العامة و قطعت المواصلات بین الغرب و الشرق، و بقیت الشرکة تحت سلطة الحکومة العثمانیة، فانقطع ورود البترول من الخارج، و أصبح أکثر المدن فی الدولة العثمانیة مظلما إلا مدینة دمشق فقد ظلت تنار بمصابیح الکهرباء، و ذلک بفضل نهر بردی الذی لا یزال یفیض الخیرات علی دمشق. و من هذا تظهر فائدة استعمال القوی الطبیعیة. و قد کانت السلطة العسکریة تستفید من الکهرباء فی محطة اللاسلکی و فی کثیر من معاملها التی کانت تشتغل فی إحضار العتاد و الذخائر الحربیة.

و فی ۲۹ أیار سنة ۱۹۲۳ عقد اتفاق بین الشرکة و المفوضیة العلیا حددت فیه أثمان القوة الکهربائیة و أجور الرکوب فی حافلات الترام و أدخلت شروط جدیدة لإصلاح الأسلاک الکهربائیة و لتمدید خطوط جدیدة، و استمر العمل بهذا الاتفاق مدة سنتین. و فی ۱۳ آب سنة ۱۹۲۵ جری تعدیل مقاولة الامتیاز القدیمة تعدیلا مهما و ذلک بموجب البروتوکول الثانی عشر الملحق بمعاهدة لوزان و إلیک خلاصة ما جاء فی هذه المقاولة الجدیدة.

یحق للبلدیة أن تطلب من الشرکة إنشاء خطوط جدیدة و إذا لم یتم الاتفاق

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۱

بینهما خلال سنة یحق للأولی أن تمنح الخط الجدید لشخص آخر علی أن تبقی الأرجحیة للشرکة إذا تساوت الشروط و قد حددت الأجور العظمی بموجب هذا التعدیل علی الوجه الآتی:

«الدرجة الأولی» «الدرجة الثانیة» الکیلو متر الأول ۲۰، ۳ قرش سوری ذهب الکیلو متر الأول ۱۳، ۲ قرش سوری ذهب الکیلو متر الثانی ۹۷، ۲ قرش سوری ذهب الکیلو متر الثانی ۹۲، ۱ قرش سوری ذهب الکیلو متر الثالث ۷۴، ۲ قرش سوری ذهب الکیلو متر الثالث ۷۱، ۱ قرش سوری ذهب الکیلو متر الرابع فما فوق ۵۰، ۲ قرش سوری ذهب الکیلو متر الرابع ۵۰، ۱ قرش سوری ذهب علی أن تضاعف أجور الحافلات التی تسیر لیلا. و تعفی الأرضون و الأبنیة و المصانع و الآلات و الأدوات الثابتة و المتحرکة مدة الامتیاز من الضرائب و الرسوم. و تعفی أیضا من الرسوم الجمرکیة و الدخولیة جمیع المواد اللازمة للمعامل و المصانع، و ترفع الاختلافات التی تحدث بین صاحب الامتیاز و الحکومة علی تفسیر مواد المقاولة و إنفاذها إلی مجلس الشوری السوری.

و تنتهی مدة هذا الامتیاز بتاریخ ۳۱ کانون الأول سنة ۱۹۶۰.

فللشرکة الحق بإنشاء المعامل المولدة للقوة الکهربائیة و استثمار ما أنشئ منها و ما سینشأ علی نهر بردی بین التکیة و عین الفیجة و بتوزیع القوة المستحصلة توزیعا عاما علی مسافة خمسة عشر کیلو مترا لکل جهة من قلب مدینة دمشق (ساحة الشهداء) و بتقدیم القوة الکهربائیة قوة محرکة لوسائط النقل العامة علی مسافة عشرین کیلو مترا فی کل وجه من وسط مدینة دمشق، کما لها الحق أیضا باستعمال الطرق العامة من ملک الدولة أو البلدیات لتتمکن من القیام بالتنویر الخاص، و بتقدیم القوة الکهربائیة لجمیع الأعمال. و قد حددت الأجور العظمی:

البیع بالعداد للتنویر بسعر الکیلواتور ۵۰، ۴ قروش سوری ذهبیة لباقی الاستعمالات بسعر الکیلواتور ۳ قروش سوری ذهبیة

البیع المقطوع ۱۵ سانتیما من القرش السوری الذهبی عن کل شمعة فی الساعة للنقلیات العامة سعر الکیلواتور ۳ قروش سوریة ذهبیة

و تقرر أن یحسب التنویر العام بالعداد مع تخفیض ۲۵ بالمئة و أن یحسب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۲

کذلک تنویر الدوائر العامة و البلدیة و المعابد و المستشفیات مع تخفیض عشرة بالمئة من التعرفة، و کذلک قبلت الشرکة بأن تنیر قصر الحکومة مع دائرة البلدیة مجانا أربع مرات فی السنة فی أیام الأعیاد التی تعینها الحکومة. و أن تنیر الجامع الأموی و بعض الجوامع الأخری مجانا أیضا. و تنتهی مدة الامتیاز بتاریخ ۳۱ کانون الأول سنة ۲۰۰۲ و عند انتهاء مدته تستلم الحکومة جمیع ما أنشأته الشرکة بدون بدل، و یحق للدولة فی کل حین شراء الامتیاز و ذلک اعتبارا من تاریخ ۳۱ کانون الأول سنة ۱۹۶۵.

و بعد المصادقة علی هذا الاتفاق قامت الشرکة بتحسین النور فبدلت المجری الکهربائی بمجری دائم إلی مجری متناوب و غیرت درجة التوتر فی بعض الأحیاء فجعلتها ۱۱۰ بعد أن کانت ۲۲۰ و أسست مراکز لتحویل درجة التوتر فی کثیر من الأحیاء لتوزع منها النور علی المشترکین بصورة منظمة بعد أن یکون وصل الکهرباء إلی هذه المراکز بخطوط ذات توتر عال تمدد تحت الأرض و هی لا تزال تعمل بهذه الإصلاحات بجد و نشاط.

ترامواى حلب الکهربائی:

منحت الحکومة العثمانیة امتیازا قبل الحرب العامة لرجل یدعی عثمان بک من أتراک الاستانة لتنویر مدینة حلب بالکهرباء مع إنشاء خطوط ترامواى فیها. و کانت مدة هذا الامتیاز أربعین سنة. و لم یتمکن عثمان بک من القیام بتنفیذ امتیازه بسبب الحرب. و بعد الهدنة طرحت الحکومة العربیة هذا المشروع فی المناقصة فتقدمت فی سنة ۱۹۱۹ شرکة بلجیکیة و أرسلت مندوبها إلی حلب مع تقدیم شروطها. فجاء هذا المندوب و فاوض مجلس بلدیة حلب، و نظم مشروع مقاولة و شروط امتیاز علی أساس الشروط و المقاولة التی منحتها الحکومة العثمانیة عثمان بک، و لم یبق لتحقیق المشروع إلا تصدیق هیئة إدارة الشرکة علیه فی بلجیکا. فرأت هذه الهیئة أن الشروط التی نظمت بمدینة حلب مجحفة بحقوقها، فأرسلت تعلم بلدیة حلب بعدم قبولها إلا إذا زیدت التعرفة المحددة فی المشروع مع زیادة مدة الامتیاز. فحبط هذا المشروع و لم یتحقق. و فی سنتی ۱۹۲۲ و ۱۹۲۳ أی بعد دخول فرنسا الشام تقدمت لطلب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۳

هذا الامتیاز ثلاث شرکات الأولی شرکة وطنیة و علی رأسها کریم أفندی بالی و الثانیة شرکة بلجیکیة و الثالثة شرکة المشاریع الفرنسیة. و قدمت کل من هذه الشرکات شروطا تختلف عن الأخری. و بما أن شرکة کریم أفندی بالی الوطنیة لم تقدم الضمان اللازم لم تنجح بطلبها. و بعد ذلک تألفت لجنة لدرس الشروط المقدمة و وضع تقریر فیها. و عقبی مذاکرة طویلة رأت هذه اللجنة أن الشروط المقدمة من الشرکتین المذکورتین لا توافق مصلحة البلدیة، و علی ذلک نظمت شروطا خاصة مقتبسة من شروط الامتیازات القدیمة الممنوحة من الدولة العثمانیة لشرکات کهربائیة أخری، و من الشروط التی قدمتها الشرکتان المار ذکرهما، و قد طلبت اللجنة

فی تقریرها إعلان ذلک و دعوة الشرکات للمناقصة فلم یتقدم أحد.

و فی سنة ۱۹۲۴ عرض علی بلدیة حلب مشروع امتیاز جدید من شرکة المشاریع الفرنسیة لا یختلف کثیرا عن مشروعها الذی قدمته للمرة الأولی و طلبت المصادقة علیه و أخیرا تمکنت البلدیة من تحدید الضمانة غیر المحدودة و المطلوبة من الشرکة عن الخسارة مسانهة بمبلغ ۲۰ ألف لیرة سوریة ورقا.

أی تکون الخسارة التی تقع بأکثر من هذا المبلغ المحدد علی الشرکة. و أهم الشروط فی هذا الامتیاز أن مدته سبعون سنة. و أن التعرفة تعین سنویا بعد إجراء حساب الدخل و الخرج و الفائدة و الاستهلاک. و أن جمیع الأرض و المقالع اللازمة للإنشاء و التأسیس تشتریها البلدیة علی حسابها الخاص و تسلمها للشرکة، و أن الخسارة إذا تجاوزت العشرین ألف لیرة سوریة ورقا تکون علی البلدیة. و کذلک تقسم الأرباح ۳۵ فی المئة للبلدیة و ما بقی للشرکة.

و للمفوضیة العلیا حق التفتیش و الفسخ، و یکون جمیع مأموری الشرکة من السوریین ما عدا الإخصائیین الفنیین. و تحل الاختلافات التی تحدث بواسطة التحکیم. کما أن الشرکة مضطرة أن تدرس علی حساب البلدیة مشروع جلب الماء إلی حلب خلال خمس سنین علی الأکثر ثم تقدمه للبلدیة، حتی إذا وافقها تمنح الشرکة المذکورة امتیازه و تکره الشرکة علی أخذ هذا الامتیاز.

و قد بدأت الشرکة بالعمل أوائل سنة ۱۹۲۶ و أنجزت حتی الآن من الأشغال بناء الإدارة و المستودع و ترکیب الآلات. و قد قلعت بلاط الطریق القدیم

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۴

و بدأت تمد القضب الحدیدیة و تفرش الزفت و بدلت البلدیة البلاط الأسود به.

و مدت الشرکة خطین للترام، الأول یقطع مدینة حلب من الغرب إلی الشرق و یبتدئ من محطة دمشق و ینتهی بمحلة القصیلة و طوله خمسة کیلو مترات تقریبا. و أما الخط الثانی فیقطع المدینة من الشمال إلی الجنوب و یبتدیء من محلة الحمیدیة و ینتهی عند شارع خان الحریر و طوله ثلاثة کیلو مترات و نصف تقریبا و عرض هذین الخطین متر واحد و خمسة سانتیمترات کعرض خطوط ترام دمشق.

خط الترام فی طرابلس:

تجر بالخیل حافلات خط الترام الممتد بین مدینة طرابلس و مینائها. و المیناء هی مرفأ المدینة تبعد عنها ثلاثة کیلو مترات. و قد منح امتیاز هذا الخط فی سنة ۱۸۷۸ لشرکة وطنیة برأس مال قدره مائتا ألف فرنک أی تسعة آلاف لیرة عثمانیة و هو ینقسم إلی ألفی سهم بقیمة مائة فرنک لکل سهم منها، و قد أحسنت هذه الشرکة إدارته و استثماره مما جعل الربح یختلف بین الأربعة عشر و الستة عشر فرنکا لکل سهم.

أما ما یتعلق بخطوط الترام فی سائر المدن الأخری فمن دواعی الأسف أننا لم نقف علی الوثائق المتعلقة بها و لذا لم نتمکن من ذکر شیء عنها.

الطرق العامة فی الشام:

تتألف الشام من ثلاثة دروب موازیة لساحل البحر تفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة تمتد الواحدة منها من صور إلی الإسکندرونة بلا انقطاع فیها إلا فی نقطتین. و الثانیة تبتدئ من الجنوب و تنتهی بالقرب من حمص فیتلاقی الدربان درب البقاع مع درب دمشق و تحصل منهما سهول حماة و حلب العظیمة الممتدة حتی الفرات. فالسلسلة الأولی تتألف من جبل لبنان و تلعاته العدیدة الشاهقة المرتفعة عن سطح البحر ما ینیف علی الألفی متر و الحد الأعظم ۳۰۶۳. و یمتد هذا الجبل ثلاثین کیلو مترا فی

الشمال الغربی إلی طرابلس. و هناک ینخفض عند فوهة حمص ثم یرتفع باسم جبل

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۵

النصیریة الذی یعلو ۱۵۰۰ متر عن سطح البحر و جبل الأقرع و جبل کاسیوس المرتفع ۱۸۰۰ متر عن سطح البحر. و بعد ذلک تمتد السلسلة حتی نهر العاصی الذی یقطعها بانخفاض عظیم و بعرض قلیل. ثم تمتد هذه السلسلة حتی جبل اللکام و تدخل فی أرض الترک حتی ترتبط بجبال طوروس. فهذه السلسلة تحد غربا الدرب الأول الذی هو عبارة عن الساحل. و کثیرا ما یقرب الجبل من البحر و یسقط فیه کما هو الحال بین صور و حیفا. و لا یوجد فی هذا الدرب أرضون سهلیة إلا بالقرب من حیفا و بیروت و طرابلس و اللاذقیة و لکنها قلیلة المساحة. و قد أنشئت المدن المذکورة فی هذه السهول. أما السلسلة الثانیة الموازیة للأولی فتبتدئ بجبل الشیخ (حرمون) بارتفاع ۲۸۰۷ أمتار و تتصل بالجبل الشرقی بارتفاع ۲۰۰۰ متر. و بین هاتین السلسلتین سهل البقاع الذی یبلغ عرضه ۱۵ کیلو مترا و یمتد طوله بین الجبلین علی مسافة عظیمة. و ینحدر هذا السهل علی طرفیه من نقطته العلیا بالقرب من شمال بعلبک و یقطع هذا السهل النهران العظیمان نهر اللیطانی الذی ینبجس من بعلبک فینحدر جنوبا ثم غربا حتی البحر. و نهر العاصی القریب من نهر اللیطانی ینساب شمالا مارا بحمص و حماة و أنطاکیة بین جبلی امانوس و الأقرع ثم یصب فی البحر المتوسط فی السویدیة، و بشرق السلسلة الثانیة یقع الدرب الثالث و هو سهل دمشق الذی تجری إلیه میاه الجبل الشرقی التی تروی الصحراء.

و هناک جبل حوران (جبل الدروز) الممتد شرقا إلی الصحراء و کأنه بتخطیطه جزیرة منفصلة عن بقیة الأرجاء. فهذه الدروب هی التی تقع فیها جمیع البلدان الشامیة و لیس لهذا الجبل ارتباط بالسلسلتین المذکورتین و لذلک فمسألة الطرق تنحصر فی ثلاث نقاط: (أولا) طرق الاتصال بین المدن الواقعة فی درب واحد. (ثانیا) الطرق الواصلة بین المدن الواقعة بین دربین متوازیین بواسطة طرق عرضیة أی (شرقیة- غربیة). (ثالثا) الطرق المتشعبة کالشرایین فی سهول دمشق و حلب. هذا هو الوضع الجغرافی للشام ذکرناه توطئة للبحث و منها یتمکن القارئ من معرفة أکثر الطرق.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۶

طرق الشام:

کانت الطرق و وسائط النقل و المواصلات مفقودة فی الزمن الغابر حتی القرون الأخیرة فی جمیع أرض الترک عامة و فی الشام خاصة، مما دعا إلی تأخر دخول المدنیة الغربیة إلی هذه الدیار مدة طویلة من الزمن. و کانت الدولة العثمانیة فی أخریات أیام حکمها الشام أی فی سنة ۱۸۶۲ أقرت برنامجا للطرق، و وضعت قانونا لإنشائها و إعمارها و حفظها، فأخذت الأحوال تتبدل، و بدأت المشاریع تظهر فی الشام بصورة حسنة. و کان القانون العثمانی یقضی علی کل شخص أن یقوم أربعة أیام فی السنة بعمارة الطرق خلال عشرین سنة من حیاته أو أن یقدم ضریبة قدرها ریال مجیدی واحد. و کانت هذه الضریبة تجبی بمعرفة لجنة قوامها بعض الموظفین الإداریین و موظفی المصارف الزراعیة. و لم یراع هذا القانون فی کثیر من الأحوال، و کانت الأموال التی خصصت لعمل الطرق تصرف فی نفقات الدولة العامة. و قد وقف العمل بهذا القانون مدة قلیلة لأن الأحوال السیاسیة حالت دون إتمام البرنامج المذکور، فحرمت سوریة الطرق. و کثیرا ما کان یرجح المار علی الطریق أن یتبع الأرض المجاورة له لصعوبة السیر علیه.

أما الحالة فی لبنان فقد کانت علی غیر ذلک. فإنه منذ نال استقلاله الإداری سنة ۱۸۶۰ ازدادت نفوسه و نتج عن ذلک أن ظهرت حرکة المهاجرة التی ما فتئت تزداد من ذلک الحین. فاللبنانیون المهاجرون کانوا لا ینسون الذین ترکوهم فی الوطن، بل کانوا یرسلون لهم الأموال من مهجرهم أمیرکا.

کما أن الکثیر من هؤلاء کان یرجع إلی موطنه بعد حصوله علی ثروة لإتمام بقیة حیاته فیه. و إن قسما عظیما من هذه الثروة التی کان یجمعها اللبنانی المهاجر کان ینفقه بإعمار بیوته، أو بإنشاء بیوت جدیدة علی الطراز الحدیث.

و بهذه الصورة تمكن الجبل فى مدة قليلة أن يعمر بقيام قرى جميلة وافرة السكان تحتاج للاتصال بالسواحل، و لا سيما بيروت و طرابلس و صيدا. و قد اتفق الأهلون أن ينشئوا كثيرا من الطرق بأموالهم الخاصة، فكان عدد الطرق لا يتناسب مع الفائدة المطلوبة منها بل و لا مع ثروة القرية التى تنتهى فيها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۷

هذه الطرق. فكثيرا ما نرى طريقين أو أكثر تمتدان إلى قرى قريبة بعضها من بعض على هضبة واحدة صرف سكانهما الأغنياء على إنشائهما المبالغ اللازمة. و من جهة أخرى نرى بعض القرى الفقيرة محرومة لا يصل إليها طريق.

الطرق العامة:

أولا: الطرق الطولية- من الجنوب إلى الشمال.

(۱) طريق الساحل- يبدأ من بئر السبع جنوبا و ينتهى بالإسكندرونة شمالا و يمر من بئر السبع- غزّة- يبنى- يافا- طور كرم- حيفا- عكا- صور- صيدا- بيروت- طرابلس- طرطوس- اللاذقية- جسر الشغور- جسر الحديد- ينى شهر- ينى كوى- الإسكندرونة.

(۲) الطريق الثانى- يبدأ من بئر السبع جنوبا و ينتهى فى كليس شمالا و يمر من بئر السبع- الخليل- القدس- البيرة- رام اللّه- نابلس- جينين- الناصرة- طبرية- الجاعونة- مرجعيون- قرعون- سغبين- عمّيق- قب الياس- شتورة- المعلقة- بعلبك- القصير- حمص- الرستن- حماة- معرة النعمان- سراقب- تفتناز- اوروم الصغرى- حلب- كليس ..

(۳) الطريق الثالث- يبدأ من بئر السبع جنوبا و ينتهى بحمص شمالا فيلتقى بطريق حماة و حلب. و يمر من المدن المذكورة أعلاه فى الطريق الثانى حتى الجاعونة حيث يفصل منها فيمر من جسر بنات يعقوب- القنيطرة- وادى العجم- دمشق- دوما- القطيفة- النبك- قارة- حسية- حمص.

و يمتد بعد ذلك إلى حلب كما هو مذكور فى الطريق الثانى.

(۴) الطريق الرابع- يبدأ من القدس جنوبا و ينتهى فى دمشق شمالا فيمر فى القدس- أريحا- الصلت- عمان- الرمتا- درعا- شيخ مسكين- غباغب- خان دنون- الكسوة- دمشق.

(۵) الطريق الخامس طريق البادية- يبتدئ من دمشق جنوبا و ينتهى بدير الزور بعد أن يتصل بطريق الموصل شمالا و يمر فى دمشق- القطيفة- جيرود- القريتين- تدمر- السخنة- دير الزور- الصوار- البيضاء

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۸

على الحدود التركية. و فرع يبدأ من دير الزور أيضا إلى الصوار و منها إلى نصيبين حيث الأراضى الداخلة فى حدود تركيا.

ثانيا: الطرق العرضية من الغرب إلى الشرق.

(۱) غزّة- بئر السبع.

(۲) يافا- الرملة- القدس- عمان.

(۳) يافا- قلقيلية- نابلس- الناصرة- طبرية- سمخ.

(۴) حيفا- الناصرة- طبرية- الجاعونة- جسر بنات يعقوب.

(۵) حيفا- الناصرة- جينين- نابلس- أريحا.

(۶) صيدا- مرجعيون- بانياس- القنيطرة- ازرع- السويداء- صرخد.

(۷) درعا- بصرى- صرخد.

(۸) بيروت- دمشق- بغداد.

(۹) طرابلس- حمص- تدمر- بغداد.

(۱۰) اللاذقیة- جسر الشغور- إدلب- حلب- دیر الزور.

(۱۱) السویدیة- أنطاکیة- جسر الحدید- حارم- حلب.

(۱۲) الإسکندرونة- قرق خان- ینی شهر- اوروم الصغری- حلب.

وصف الطرق:

أولا- طریق الساحل: یبلغ طول هذا الطریق ۲۷۰ کیلو مترا اعتبارا من بئر السبع إلی عکا و رأس الناقورة. و من رأس الناقورة حتی اللاذقیة ۴۰۰ کیلو متر و هو طریق معبّد من أحسن الطرق الشامیة. و طریق اللاذقیة حتی ینی کوی و طوله ۱۷۰ کیلو مترا قید الإنشاء و لا یزال فی حالة تمهیدیة.

و من ینی کوی إلی الإسکندرونة طریق معبد و طوله ۵۰ کیلو مترا و یبلغ مجموع طول هذا الطریق ۸۹۰ کیلو مترا و إن المبالغ المنفقة علیه من عام ۱۹۲۰ إلی عام ۱۹۲۷ لا تقل عن ثلاثمائة ألف لیرة ذهبیة تقریبا.

ثانیا- الطریق الطولی الثانیة: إن هذا الطریق یبدأ من بئر السبع حتی طبریة و الجاعونة و طوله ۲۹۰ کیلو مترا و هو معبد. و من الجاعونة إلی سغبین و طوله ۸۰ کیلو مترا کان بوشر به فی زمن الحرب و لما یتم تعبیده. و من

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۰۹

سغبین إلی شتورة و المعلقة و بعلبک و طوله ۶۰ کیلو مترا و هو معبّد. و من بعلبک إلی حمص فإن الطریق لم یجر إنشاؤه حتی الآن. و قد کانت الحکومة العثمانیة شرعت بانشاء بعض الجسور فیه و لم یتم.

أما القسم الواقع بین حمص و حماة و طوله ۴۷ کیلو مترا فإنه کان معبّدا و کانت شرکة الحافلات (الدلیجانس) الوطنیة قد أنشأته و بعد إنشاء الخطوط الحدیدیة أهملته الحکومة فتخرب خلال الحرب العامة بسبب النقلیات العسکریة بالسیارات الضخمة و حتی الآن لم یجر تعبیده. و لم یکن طریق حماة- حلب و طوله ۱۵۰ کیلو مترا معبدا من قبل و لیس ثمة سوی طریق القوافل القدیمة، علی أن إدارة النافعة فی حلب باشرت بإنشائه و اتخذت طریقا جدیدا یبدأ من حلب إلی تفتناز باستقامة طریق إدلب- جسر الشغور- اللاذقیة و من تفتناز یتجه نحو بلدة خان شیخون الواقعة علی حدود أراضی حلب و دمشق مارّا بسراقب و معرة النعمان. و قد تمت تسویة الطریق الداخل فی منطقة حلب و بوشر بتعبیده و سینتهی فی عام ۱۹۲۸ و کذلک باشرت إدارة النافعة بدمشق بتسویة القسم الداخل فی منطقتها و ستنتهی تسویته فی أوائل عام ۱۹۲۸. و قد بلغ ما صرف علی هذا القسم من سنة ۱۹۲۵ حتی سنة ۱۹۲۷ ما یربو علی أربعین ألف لیرة ذهبیة. و الطریق من حلب إلی تفتناز علی طول خمسین کیلو مترا معبدة. و جرت تسویة الطریق من تفتناز إلی خان شیخون علی طول سبعین کیلو مترا. و تم بناء الأعمال الصناعیة من جسور و قناطر و هو یجری تعبیده الآن. و بوشر بتسویة طریق خان شیخون حماة علی طول ثلاثین کیلو مترا و الطریق معبد منذ القدیم من حلب حتی کلیس و طوله ستون کیلو مترا و قد جری إصلاحه مجددا.

ثالثا- الطریق الطولی الثالث: یبتدئ هذا الطریق من بئر السبع إلی الجاعونة و جسر بنات یعقوب و طوله ۳۰۰ کیلو متر و هو معبد. و الطریق معبد من جسر بنات یعقوب فالقنیطرة فوادی العجم فدمشق و طوله تسعون کیلو مترا. و کانت الحکومة العثمانیة باشرت بإنشائه منذ عشرین سنة و لما (۵- ۱۴)

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۰

یتم. قد أنفق علی إنشائه من سنة ۱۹۲۰ إلی ۱۹۲۷ ما یربی علی ثلاثین ألف لیرة ذهبیة.

أما طریق دمشق- النبک- حمص و طوله ۱۶۰ کیلو مترا فقد کانت الحکومة العثمانیة باشرت بإنشائه قبل ثلاثین سنة و تم قسم کبیر من تسویته و لم یتم. و هناک قسم منه و طوله ثلاثون کیلو مترا یقع بین النبک و قارة و البریج لم ینشأ فیه شیء أیضا و لا یزال بحالته

الطبیعیة و تعمل حکومة قضاء النبک علی إصلاحه أحیانا و تزیل الحجارة منه و تردم الحفر التی تنشأ بمرور العجلات و السیارات. و تفکر الحکومة الآن بتحویل هذا الطریق إلی قریة دیر عطیة بدلا من قریة قارة التی کانت دائما المرکز الطبیعی للمواصلات بین دمشق و حمص. و لقد هجرت الحکومة العثمانیة هذا الطریق أثناء الحرب العامة لفقد الأمن فیه و کثرة اعتداءات العشائر و الجنود الفارین من الزحف و کانوا یلجأون إلی هذه المنطقة لیعتاشوا. و صرفت حکومة دمشق مبالغ کبیرة لإنشاء هذا الطریق و لم ینته إلی الآن. و قد بلغ ما أنفق علیه من عام ۱۹۲۰ إلی ۱۹۲۷ ما یربو علی الخمسین ألف لیرة ذهبیة.

رابعا- الطریق الطولی الرابع: تبدأ هذه الطریق من القدس و تتجه صوب أریحا و الصلت و عمان و الرمتا و إربد و درعا. و کان شرع بتعبیدها منذ ثلاثین سنة و لم تزل علی ما کانت علیه. و جرت فیها بعض الإصلاحات فی جهة القدس و الصلت و عمان. و ما برح من درعا حتی دمشق علی حالته القدیمة و لم یدخل علیه سوی بعض الإصلاحات بین دمشق و خان دنون و تعمل حکومة سوریة علی إصلاحه و قد حال فقدان المال دون إنجازه.

خامسا- الطریق الطولی الخامس: تبدأ هذه الطریق التی تجتاز البادیة من دمشق إلی القطیفة و هی معبدة و طولها ۴۰ کیلو مترا. و من القطیفة إلی جیرود افتتح طریق جدید و جرت تسویته بتسخیر الأهالی بالعمل فیه. و لم یجر شیء من الإصلاحات من جیرود إلی القریتین و تدمر و دیر الزور حتی البیضاء. و یبلغ طول هذه الطریق من دمشق إلی تدمر ۲۵۰ کیلو مترا، و من تدمر إلی دیر الزور ۲۲۰ کیلو مترا، و من دیر الزور إلی البیضاء فی حدود الموصل ۱۵۰ کیلو مترا، فیکون مجموع طول هذه الطریق ۶۲۰ کیلو مترا

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۱

و لم یعمل فیها سوی جسر الصوار المعلق و فوهته خمسون مترا. و قد بنت نافعة حلب هذا الجسر مؤخرا و أنفق علیه ۱۵ ألف لیرة ذهبیة. و یبنی الآن فی دیر الزور جسر کبیر معلق یبلغ طوله ۲۵۰ مترا و سیتم بناؤه قریبا و تقدر نفقاته بستین ألف لیرة ذهبیة.

و أما الفرع الثانی الذی ینفصل من الصوار إلی الحسجة و نصیبین و طوله ۱۹۰ کیلو مترا فإنه طریق طبیعی لم یعمل فیه شیء من القدیم. و یبدأ طریق بغداد من دیر الزور مارا بالبصیرة و المیادین و البوکمال و یبلغ طوله حتی حدود العراق ۱۴۰ کیلو مترا. و تفکر إدارة النافعة فی حلب بإجراء بعض إصلاحات فیه و هی تقوم بإنشاء جسر علی نهر الخابور فی البصیرة. و کذلک تعمل علی تعبید القسم المار فی أرض صخریة و طوله ۱۵ کیلو مترا. و هذا القسم جزء من الطریق الذی یبدأ من حلب إلی دیر الزور و ینتهی ببغداد.

ثانیا- الطرق العرضیة من الغرب إلی الشرق:

(۱) أنشئ طریق غزة- بئر السبع و طوله ۴۲ کیلو مترا فی زمن الحکومة العثمانیة و هو معبد.

(۲) أنجزت الحکومة العثمانیة بعض أقسام طریق یافا- الرملة- القدس- الصلت- عمان و طوله ۱۶۰ کیلو مترا و القسم الآخر منه لم یتم. و قسم یافا- القدس و طوله ۶۰ کیلو مترا معبد و الباقی قید الإنجاز.

(۳) تم فی العهد الأخیر تعبید طریق یافا- قلقیلیة- نابلس- الناصرة- طبریة- سمخ و طوله ۱۵۰ کیلو مترا.

(۴) تم إنشاء طریق حیفا- الناصرة- طبریة- الجاعونة- جسر بنات یعقوب و طوله ۱۱۰ کیلو مترات. و کانت الحکومة العثمانیة أنشأت بعض أقسامه.

(۵) و نصف طریق حیفا- الناصرة- جینین- نابلس- أریحا و طوله ۱۵۰ کیلو مترا معبد و النصف الآخر لم یتم تعبیده.

(۶) طریق صیدا- مرجعیون- بانیاس- القنیطرة- الشیخ مسکین- إزرع- السویداء- صرخد و طوله ۱۸۰ کیلو مترا. و کانت الحکومة العثمانیة باشرت إنشاء قسم الشیخ مسکین إلی إزرع و السویداء حتی صرخد

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۲

و ذلک بعد حروب جبل الدروز لتموین الجیش و قد تم مؤخرا تعبید القسم الواقع بین إزرع و السویداء و طوله ۳۷ کیلو مترا. و باشرت حکومة لبنان تعبید طریق صیدا- مرجعیون- بانیاس و طوله ۴۰ کیلو مترا و لم ینته حتی الآن. و تقوم إدارة النافعة بدمشق بتعبید

القسم الواقع بين بانياس و القنيطرة و يبلغ طوله ۳۴ كيلو مترا. و سينتهى فى أول صيف عام ۱۹۲۸. و تدرس هذه الإدارة أيضا مشروع إنشاء طريق من القنيطرة إلى الشيخ مسكين فإزرع و سينشأ هذا القسم خلال ثلاث سنوات. و تقدر نفقات إنشائه بنحو مائة ألف ليرة ذهبا.

(۷) لم يتم تعبيد طريق درعا- بصرى- صرخد و طوله ۶۰ كيلو مترا و كانت الحكومة العثمانية باشرت إنشاءه.

(۸) طريق بيروت- دمشق- بغداد و طوله من بيروت إلى دمشق ۱۱۲ كيلو مترا نالت امتيازه شركة إفرنسية فى سنة (۱۸۵۷) و بدأت بإنشائه فى سنة (۱۸۵۹) و قد ترأس أعماله الكونت دى توبرى و كان رأس مال هذه الشركة إفرنسيا بحتا. و كان السير عليه صباحا و مساء من الجهتين على الحوافل (الدلليجانس) و تقطع هذه الحوافل المسافة بين بيروت و دمشق فى ثلاث عشرة ساعة و وضعت الحكومة العثمانية إذا ذاك لهذه الشركة نظاما و أسعارا لنقل الركاب و البضائع و الحيوانات. و امتنع بعض الأهالى من السير عليه بسبب غلاء الأسعار فكانوا يسيرون بالقرب منه على طريقين متوازيين له. و قد كان هذا العمل من أربح الأعمال التى قامت برؤوس أموال إفرنسية و جرى الإجماع على أن هذا المشروع أفاد الأهالى و أصحاب الأسهم فائدة عظمى و قد ربحت الشركة أرباحا طائلة منه. إذ كان الربح الصافى سنويا يقدر بخمسمائة ألف فرنك.

و استمرت هذه الشركة على أعمالها مدة ثلاثين سنة حتى انحلت سنة ۱۸۹۲ أيام اشتركت مع شركة خط بيروت- دمشق- حوران الحديدى. و إذ ذاك استلمت الحكومة العثمانية الطريق و أهملت محافظته حتى قبل الحرب العامة، فأصبح السير عليه صعبا لعدم إصلاحه و تعميره، و اهتم الأتراك بإصلاحه فى الحرب العامة. و بعد الحرب قامت الحكومات السورية و اللبنانية بإصلاحه فصلح للسير و تيسر أن تستعمل السرعة عليه بأجناس السيارات و الدراجات.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۳

و بعد دمشق يتجه الطريق شمالا على طريق النبك و بعد عشرين كيلو مترا يتجه شرقا على طريق البادية مارا بجوار قريتى عذراء و ضمير إلى الرحيبة نقطة الحدود السورية العراقية. و طول الطريق من دمشق إلى بغداد ۷۷۰ كيلو مترا منه عشرون كيلو مترا على طريق النبك يسير فى طريق معبدة و الباقى ۷۵۰ كيلو مترا طريق طبيعى مهدته السيارات فى الصحراء. و لهذا الطريق مكانة كبرى فى التجارة و السفر بين دمشق و العراق و فارس.

و من دمشق إلى بغداد طريق ثان و هو الطريق الذى يمر بالقطيفة و جيرود و القريتين و تدمر و طوله ۸۵۰ كيلو مترا، فإنه يزيد طوله على الطريق الأول ۸۰ كيلو مترا و يبلغ طوله من دمشق إلى القطيفة ۴۰ كيلو مترا و هو جزء من طريق النبك المعبد و هو بحالة حسنة. و قد جرى فتح طريق القطيفة- جيرود مجددا على طول ۱۵ كيلو مترا و لم يعبد بعد غير أنه سهل المرور.

و الطريق من جيرود حتى القريتين و تدمر و بغداد طبيعى لم تعمل يد الإنسان فيه شيئا. و يرجع شأن هذا الطريق لاجتيازه البلدان العامرة و القرى الآهلة على طول ۲۵۰ كيلو مترا بين دمشق و جيرود و تدمر و على الاخص لمروره بمدينة تدمر التاريخية.

(۹) طريق طرابلس- حمص- تدمر- بغداد. كانت تستثمر طريق طرابلس- حمص شركة وطنية كما كانت تستثمر طريق بيروت- دمشق شركة إفرنسية و كان ذلك قبل أن تؤسس شركة الخطوط الحديدية الفرنسية.

و المسافة بين طرابلس و حمص ۹۴ كيلو مترا و بين حمص و حماة ۴۷ كيلو مترا فيكون المجموع ۱۴۱ كيلو مترا كانت كلها موضوعة تحت تصرف الشركة الوطنية المذكورة و رأس مالها ۲۸ ألف ليرة عثمانية ذهبية. و يقسم رأس المال إلى سبعة آلاف سهم و قيمة كل سهم أربع ليرات عثمانية ذهبية.

و كان ربح كل سهم من هذه الأسهم ليرة واحدة فى السنة. و مدة الامتياز خمسون سنة. و أجرة الراكب فى الحوافل (الدلليجانس) نصف ليرة من طرابلس إلى حمص. و بعد انحلال هذه الشركة هجرت الحكومة العثمانية هذه الطريق حتى خربت و تداعت جميع جسورها أثناء الحرب العامة و زادت السيول فى تخريبها حتى أصبحت فى عام ۱۹۲۵ بحالة لم تبق معها صالحة

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۴

للسير. و قد بوشر بتعبيدها فى آخر عام ۱۹۲۶ و انتهى فى النصف الأول من عام ۱۹۲۷ و أما طريق حمص- حماة فلم يزل على ما هو عليه أيام الحرب العامة، و شرعت الحكومة السورية بإصلاح بعض الأقسام فيه و سيتم إنشاؤه فى نهاية عام ۱۹۲۸. و يجتاز الطريق من حمص إلى تدمر فبغداد من الصحراء على طريق طبيعى مهدته السيارات و يبلغ طوله ۷۵۰ كيلو مترا. و كانت السيارات تجتاز هذا الطريق أثناء انقطاع السبل بين بيروت و دمشق و بغداد.

(۱۰) طريق اللاذقية- جسر الشغور- ادلب- حلب- دير الزور.

و قد افتتح القسم الواقع بين اللاذقية و حلب فى آخر عام ۱۹۲۶ و لم يزل العمل فيه مستمرا و سينتهى تعبيده فى عام ۱۹۲۸ و يبلغ طوله ۱۹۰ كيلو مترا و طول المعبد منه الآن مائة كيلو متر. و فى اللاذقية يتصل هذا الطريق بالطريق العام الواصل بين اللاذقية و طرابلس و بيروت و رأس الناقورة فيتمكن المسافر من حلب أن يقطع هذا الطريق على متن السيارة من حلب حتى اللاذقية و بيروت.

و أما من حلب إلى دير الزور فالطريق صعبة جدا و تقوم إدارة النافعة بحلب بإصلاح الأقسام الأكثر صعوبة منها و يبلغ طولها ۳۲۰ كيلو مترا و هى مارة بجوار مسكنة و الرقة و تنتهى فى بلدة دير الزور حيث يتفرع منها ثلاث طرق طريق الموصل و طريق بغداد و طريق تدمر- دمشق.

(۱۱) طريق السويدية- أنطاكية- جسر الحديد- حارم- حلب.

افتتح هذا الطريق حديثا فى آخر عام ۱۹۲۶ و لم يزل العمل فيه مستمرا.

و سيتم إنشاؤه فى نهاية عام ۱۹۲۸ و يبلغ طوله ۱۴۰ كيلو مترا. و افتتح القسم الواقع بين السويدية و أنطاكية فى الجبال و الأودية و يبنى عليه عدة جسور ذات شأن عظيم و ستكلف نفقات باهظة و طول هذا القسم ۳۵ كيلو مترا. و من أنطاكية إلى جسر الحديد حتى حارم يجتاز الطريق فى أرض طينية لا يمكن المرور فيها فى فصل الشتاء. و أما بين حارم و حلب فالطريق معبدة و طولها ۷۰ كيلو مترا و تسير عليها السيارات بسرعة.

(۱۲) طريق الإسكندرونة- قرق خان- ينى شهر- أوروم الصغرى- حلب. تقضى كثرة المعاملات بين حلب و الإسكندرونة بأن تكون المواصلات بين هذين البلدين سهلة و لكن لم يعمل فى زمن الحكومة العثمانية ما يضمن

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۵

النجاح فى هذا الشأن، و كان التجار الإنكليز فى القرن السابع عشر يشكون من الصعوبات الجمة التى كانوا يلاقونها حين ذهابهم من حلب إلى الإسكندرونة أنشأت الحكومة العثمانية طريقا فى سنة ۱۸۷۰ فى الحدود الشمالية من ولاية حلب تضمن به المراصلات فى البحر إلى أنحاء كليس و عينتاب و البيرة و الأرض التركية الأخرى. و كان القصد من إنشائه وصل الإسكندرونة بالولايات التركية و قد وصلت الحكومة العثمانية هذه الطريق بفرع بين قطمة و حلب تفاديا من إنشاء طريق ثان خاص بحلب فأصبح هذا الطريق يعد طريقا لها.

ثم تخرب فى سنة ۱۸۸۰ و كان كلف الحكومة مبلغا لو أنفق على إنشاء خط ترامواى لما كلف أكثر من ذلك. و كانت القوافل تتبع طريقا أقصر طولا منه بأربعين كيلو مترا و هو الطريق الذى أنشأته الحكومة السورية حديثا.

و تتجنب القوافل المرور فى مستنقعات نهر عفرين التى يمر منها الطريق القديم.

و على هذا فقد بقى هذا الطريق مخربا إلى سنة ۱۸۹۰ حتى اتفق أن اجتازه أحد الولاة فى حلب فتحطمت عجلته و على أثر ذلك قررت الحكومة تعميره و خصصت لهذا العمل سنويا ثلاثة آلاف و ثلاثمائة ليرة للاستمرار على ترميمه و إصلاحه. و بعد جلاء الأتراك بقيت الطريق مهجورة من غير إصلاح أو ترميم إلى أن تخربت. و رأت حكومة سورية أخيرا تركها لطولها و كثرة نفقات إصلاحها و لبعدها عن مراكز الأراضى الواقعة بين الإسكندرونة و حلب. ففكرت بعد إنشاء طريق حلب- حارم أن تنشئ فرعا بين ينى

شهر و ینی کوی للاتصال بین الإسکندرونة و حلب. و قد تم فتح هذا الفرع بتمهیده و لم یعبد بعد. و قد أصبح طول هذا الطریق الجدید بین حلب و الإسکندرونة ۱۲۳ کیلو مترا بعد أن کان طول الطریق القدیم ۱۶۳ کیلو مترا و صارت المسافة بالطریق الجدید أقصر منها فی الطریق القدیم أربعین کیلو مترا.

هذا مجموع الطرق الأساسیة العامة بالشام و هناک طرق فرعیة کثیرة ممتدة کالشرایین تصل القری بعضها ببعض ثم تربطها بمراکز الأقضیة کما أنها تتصل بالطرق العامة. و کان أنشئ قسم من هذه الطرق الفرعیة قدیما و افتتح القسم الآخر حدیثا بطریق السخرة غیر أن أکثر هذه الطرق إن لم نقل کلها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۶

تحتاج إلی الإصلاح و التعبید لتسهیل المواصلات بین القری و البلدان و لتتمکن السیارات من السیر علیها علی أیسر صورة و تصبح حرکة النقل سریعة لا کما هی علیه الآن فی أکثر هذه الطرق من البطء الظاهر و حینئذ تزداد الموارد و یسهل نقل البضائع إلی المدن و السواحل و لا یخفی ما فی ذلک من الفوائد العظیمة لإنعاش الحیاة الاقتصادیة. و من جهة أخری فإن وجود طرق صالحة فی قطر یزید عدد السیاح و المصطافین الذین یرتادونه، و هذا أیضا له شأنه فی تقدمها و عمرانها.

السیارات:

و راجت فی الشام عقب انتهاء الحرب العامة سوق السیارات علی اختلاف أنواعها حتی أصبح منها عدد غیر قلیل یستخدم لنقل الرکاب و البضائع فی عامة الأرجاء. و قد تبین من الإحصاء الرسمی حتی آخر أیلول سنة ۱۹۲۷ أن مجموع عدد السیارات التی سجلت رسمیا فی الدیار الشامیة ۶۶۲۲. منها ۶۵۳ فی دمشق و ۶۲۹ فی حلب و ۱۰۱ فی حمص و ۹۳ فی حماة و ۴۱ فی دیر الزور و ۲۱۵ فی بلاد العلویین و ۴۸۹۰ فی لبنان. و إذا فرضنا أن عدد السیارات فی فلسطین نحو ثلاثة آلاف فیکون مجموعها فی الشام ما یقرب من عشرة آلاف سیارة مختلفة الشکل و الصورة. و قد أضرت هذه السیارات بمصلحة بعض السکک الحدیدیة ففترت أعمالها بعض الشیء لرغبة الناس فی السرعة الزائدة- انتهی.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۷

البرق و البرید و الهاتف

منشأ البرق «التلغراف»:

لم یکن إلی الربع الأخیر من الحکم الترکی بالشام برق و لا برید و لا هاتف منظم. وضع نظام البرق فی ۲۷ ربیع الأول سنة ۱۲۷۶ ه و نظام البرید فی ۲۶ المحرم سنة ۱۲۸۶ ه و کان یتبادل برید الحکومة علی عهد الحکومات السابقة بواسطة السعاة و النجابین أو بواسطة حمام الزاجل. و تستعمل إشارات الضیاء (الفوانیس) إبان الحروب عوضا عن الإشارات البرقیة السلکیة و اللاسلکیة و الهولیسته المستعملة الآن، و اصطلح علی استعمال کلمة برق عوضا عن کلمة تلغراف الیونانیة المرکبة من کلمتین تل- غراف و الأولی بمعنی بعید و الثانیة الکتابة أی الکتابة عن بعد، منذ نحو ستین سنة و استعملت کلمة الهاتف علی عهد الحکومة العربیة عوضا عن کلمة تلفون الیونانیة المرکبة من تل وفون أی الصدی البعید.

و للبرق ثلاثة فصول: الشبکة و الآلات و الأدوات المستعملة و شکل الإدارة و المخابرة و اقتصرت شبکة البرق بدمشق علی العهد الترکی، حتی سنة ۱۸۹۹ علی الأسلاک الممتدة منها شمالا إلی حلب و جنوبا إلی القنیطرة، الصلت، حوران، و شرقا دومة، و غربا بیروت، حاصبیا، ثم توسعت هذه الشبکة فی سنة ۱۹۰۰ بتمدید الخط البرقی الحجازی من الصلت حتی المدینة المنورة و امتد فرع منه

بين معان و العقبة. و للسلك البرقى الحجازى عمود تذكارى ركز فى ساحة الشهداء بدمشق.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۸

و تفرع من السلك الشمالى فرع امتد بين حمص، طرابلس و حمص، بعلبك و حماة، سلمية و حماة، العمرانية و من السلك الجنوبى إلى جبل الدروز و بصرى، و على أثر جلاء الجيش التركى و دخول جيش الحلفاء أواخر سنة ۱۹۱۸ خربت هذه الشبكة ثم أعيد إنشاؤها على عهد الحكومة العربية إلى ما كانت عليه قبلا حتى انسلاخ فلسطين و شرقى الأردن و جبل الدروز عن جسم الشام. و ظلت هذه الشبكة البرقية بطول ۱۵۷۱ كيلو مترا.

و قد أنشأت الحكومة التركية أثناء الحرب العامة المخابرات اللاسلكية بدمشق و حلب و استعملت الإشارات الضيائية و البصرية بالأعلام و السواعد ضمن قطعات الجيش فقط.

الآلات و الأدوات و المخابرة:

كانت الآلات و الأدوات البرقية المستعملة على العهد التركى حتى سنة ۱۳۰۵ ه ۱۸۸۹ م منحصرة فى نوع سميس و مورس الأوربى ثم عدلت هذه الأدوات فى مصنع البرق الذى أحدث فى نظارة البريد و البرق فى الاستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين بجعل إبرة الكاتبة بآلة الأخذ للمفاوضات البرقية أن تنقش الإشارات الرمزية ..- (-- ...- ...--.) على شريط الورق بصورة ناشفة بدلا من نقشها بالحبر كالآلات السابقة ثم ألغت النظارة استعمال الأبرة و السلك على أثر ترقى الموظفين بتلقى نقرات المخابرة سماعا و أصبحت الآلات المذكورة من نوع البارلور الذى هو عبارة عن الآلة الآخذة، و قد اقتصدت الإدارة بوجود أقسام الكتابة ثلاثة أضعاف ما كانت تكلفها قبلا. و استمر الحال على استعمال هاته الآلة حتى نشوب الحرب العامة فأحدثت الماكنات المضاعفة (دوبلكس) الألمانية و الانكليزية التى سهلت المخابرة أخذا و ردّا فى آن واحد على خط واحد كإحداثها ماكنات الهوك المفردة و المضاعفة التى تنقل المخابرات البرقية على السلك الورقى حروفا هجائية أخذا و ردّا.

و كانت المفاوضات البرقية على العهد التركى حتى سنة ۱۹۰۰ فى أكثر المراكز تنحصر باللغتين الشرقيتين التركية و العربية و لا تتعدى الأرض العثمانية

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۱۹

عدا بضعة مراكز كدمشق و بيروت و ما يماثلها من مراكز الولايات و بعد ذلك أحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية و أوربا.

إحداث الهاتف:

أحدث الهاتف فى الشام بعد إعلان القانون الأساسى فى تركيا خلال ۹۰۸/ ۳۲۴ و كان منحصرا بالدوائر الرسمية الرئيسية الملكية و العسكرية و رخص بتمديد الأسلاك الخصوصية فى مسكن كل مشترك و حانوته أو مشترك آخر فى بلدة واحدة تحت إشراف ديوان البرق الملكية. و استمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكلها حتى نشوب الحرب العامة فألغيت منها الأسلاك الخاصة و انحصرت بالأسلاك الرسمية التى تجاوزت نفس دمشق و توسعت إلى مناطق الجيوش و مواقع الحرب حتى إذا انجلت الحكومة العثمانية عن القطر و دخل الجيش المحتل استلمها و أسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية و مدها إلى مناطق الانتداب الرئيسية كدمشق و حمص و حماة و حلب و الإسكندرونة الخ. و سمح للسكان و التجار بالاشتراك و الارتباط و التخاطب بها مقابل أجور مقطوعة على كل ثلاث دقائق تمر أثناء المخابرة. و ارتبطت الحكومات الوطنية فى كل من هاته البلدان بدوائرها المركزية هاتفيا و استقلت الدرك بشبكة خاصة مع مخافرها.

أما الهاتف اللاسلكى الرسمى فانحصر بإدارة الراديو العسكرى أخذا و ردّا و الهاتف اللاسلكى التجارى سمح به فى قسم الأخذ منه تحت إشراف إدارة البريد و البرق دون استعمال آلة الرد أى الإصدار.

منشأ البريد:

البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتى بريد ذنب أى مقطوع الذنب.

و السبب بهذا الاصطلاح غير المأنوس هو أن الفرس كانوا يقطعون أذناب الحيوانات التى تنقل بريد الحكومة تمييزا لها عن بقية الحيوانات التى تستخدمها لركوب الدرك و الجباة. فحذفت العرب كلمة الذنب و اقتصرت على كلمة البريد و الجمع منها برد. و لم يكن قبل القرن السابع عشر أثر للبريد على ما ورد فى مجموعة البرق و البريد التركية.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۰

كان شكل البريد و سيره و إدارته و نقله حتى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ۱۳۰۷ ه ۱۸۹۱ م بين بيروت و دمشق- المزيريب تنحصر حتى بيروت بمركبات شركة الحوافل الملغاة. أما باقى الجهات فكانت شمالا حتى حلب فالاستانة تسافر برا مع التاتار أى مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل، و شرقا بين دمشق و العراق- بغداد على ظهر الهجن (الذلول)، و جنوبا بواسطة السعاة المأجورين، و بحرا بواسطة بيروت و هو عبارة عن تبادل الكتب و الصحف و الملفات و النماذج و الصرر ذات القيمة مع الأرض العثمانية و على الكتب و الصحف و الملفات مع الممالك الأجنبية.

و قد بدأ شكل سير البريد يتطور نقلا و إدارة و معاملة من سنة ۱۳۱۶- ۱۹۰۰ فألغيت سعاة التاتار سنة ۱۹۰۲ بين دمشق و حماة و سنة ۱۹۰۵ بين حماة و حلب و سنة ۱۳۳۱- ۱۹۱۵ من حلب و أذنة فقونية. و أصبح نقل البريد حتى الاستانة برا بالسكة الحديدية التى أنشئت شمالا كما أنها أحدثت نقليات البريد حتى الحجاز أى المدينة المنورة بالسكة الحجازية التى كان بدئ بإنشائها سنة ۱۹۰۱- ۱۳۱۷ و انتهت بسنة ۱۹۰۸- ۱۳۲۴. و تبدلت نقليات البريد تدريجيا فى الأصقاع الشامية من الحيوانات إلى متن السيارات. و أما فيما له شأن بالمعاملات فقد أحدثت على التدريج و اعتبارا من سنة ۱۹۰۰ أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية و الطرود العادية فالمشروطة التأدية و الرسائل ذات القيمة المقدرة بين الممالك العثمانية و الشام. و فى سنة ۱۹۰۲ بدأت هذه المعاملات الجديدة مع الممالك الأجنبية فى أوربا و آسيا و إفريقية. و دامت على هذا التوسع التدريجى حتى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا و اقتصرت على الممالك المتفقة معها إلى أن جلت الدولة عن الشام و انقطعت المواصلات البريدية أثناء احتلال دول الانتداب أرض الشام ثم عادت المواصلات إلى سيرها السابق. هذا عدا انقطاع السكة الحجازية الذى لم تصل بين الشام و الحجاز أى المدينة المنورة بعد الاحتلال البريطانى لفلسطين و شرقى الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۱

مراكز البريد و البرق فى الشام:

دمشق مركز البريد، دمشق باب توما، دمشق الميدان، عفرين، حلب، اعزاز، الباب، بصرى، دير الزور، درعا، جرابلس، جسر الشغور، دومة، أريحا، أزرع، حماة، حارم، حمص، خربة الغزالة، أدلب، قطنا، القنيطرة، القطيفة، معرة النعمان، منبج، النبك، عمر آغا، الرقة، سلمية، السويداء، يبرود، الزبدانى، الإسكندرونة، أنطاكية، آرسوز، بيلان، قريق خان، الريحانية، السويدية، كسب، بلودان.

هذا فى دولة سورية، و هذه مراكز البريد فى لبنان:

بيروت، جديدة المتن، جونية، جبيل، البترون، أنفة، طرابلس، زغرتا، عكار، غزير، أميون، بشرّى، الدامور، صيدا، صور، تبنين، بنت جبيل، جزين، النبطية، مرجعيون، حاصبيا، بعبدا، عاليه، دير القمر، بعقلين، بيت مرى، برمانا، بكفيا، بيت شباب، الشوير، بسكنتا،

بحمدون، صوفر، حمانا، زحلة، رياق، بعلبک، الهرمل، جب جنين، مشغرة، حصرون، أهدن، دومة لبنان، حدث الجبّة، عين زحلتا، سوق الغرب، سير، قرطبا، الشويفات.

و هذه أسماء مراكز البريد فی بلاد العلويين:

بانياس، جبلة، القدموس، القرداحة، اللاذقية، المشتی، العمرانية (مصياف)، أرواد، صافيتا، صهيون، طرطوس، تل كلخ.

و إليک أسماء مراكز البريد و البرق فی فلسطين:

عكا، العفولة، بئر السبع، بيسان، غزة، حيفا، يافا، جينين القدس، لدّ، المجدل، نابلس، ملبس، الرملة، ديران، سمخ، صرفند تل أبيب، طور كرم، زمارين.

و قد أصبحت فلسطين فی عهد الانتداب الإنكليزی مربوطة كلها حتی قراها بشبكة من سلک الهاتف فنازع الهاتف البرق فی هذا القسم الجنوبی من أرض الشام و أصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۲

و هذه جريدة أسماء مراكز البرق و البريد فی شرقی الأردن:

اربد، أم قيس، دير أبو سعيد، الحصن، الرمتا، الزرقا، الصلت، الطفيلة، عجلون، عمان، القطرانة، الكرک، مادبا، معان، جرش.

أما مراكز البرق خاصة فی ولايات الانتداب الإفرنسی فی الشام فهی كما يلی:

(سورية): حلب، الإسكندرونة، أنطاكية، آرسور، اعزاز، الباب، بيلان، بلودان، بصری، دمشق، دير الزور، درعا، جرابلس، جيرود، جسر الشغور، دومة، ريحا، ازرع، حماة، حارم، حسيه، خربة الغزالة، حمص، إدلب، قطنا، قرق خان، القنيطرة، القطيفة، معرة النعمان، معبطلی، منبج، النبک، عمر آغا، الرقة، الريحانية، سلمية، السويداء، السويدية، الزبدانی، يبرود.

(لبنان): عكار، عاليه، أميون، بعبدا، بعقلين، بعلبک، البترون، بشرّی، بيت شباب، بيت مری، بيروت، بحمدون، بحنس، بنت جبيل، بسكنتا، بكفيا، برمانا، الدامور، دير القمر، ظهور الشوير، جزين، جب جنين، جبيل، جونية، اهدن، أنفة، غزير، حمانا، حاصبيا، حصرون، الهرمل، قب الياس، مشغرة، مرجعيون، النبطية، راشيا، رياق، صيدا، صوفر، تبنين، طرابلس، ميناء طرابلس، صور، زحلة، زغرتا.

(العلويون): بانياس، جبلة، حفه، القدموس، القرداحة، اللاذقية، مصياف، المشتی، أرواد، صافيتا، طرطوس، تل كلخ.

فمجموع المراكز ۴۵ فی لبنان و ۴۰ فی سورية و ۱۲ فی العلويين.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۳

المصانع و القصور

تقاسيم المصانع و عظمتها:

إن قطرا كهذا القطر البديع، تعاقب الحكم عليه الحثيون و المصريون و البابليون و الأشوريون و الفرس و الفينيقيون و الإسرائيليون و الرومان و اليونان و العرب و الترک و التتر و الشركس، و أعجب الفاتحون بخيراته، و اغتبطوا بالاستيلاء عليه، لموقعه الممتاز بين الأقطار و القارات، فجعلوه محط رحالهم، و مجازا إلی فتوحهم، لا يستغرب منه إذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق، وجودة الإبداع، و عظمة البانی.

إن الشعوب التی أنشأت مصانع وادی موسی و جرش و عمان و مأدبا و بعلبک و تدمر و أفامية و دمشق و حلب و القدس كانت و لا شک ذات معرفة بالهندسة، لا تقل عن أهل هذا العصر بها، لأن ما شادوه صارع الأيام و صرعها، و بقيت منه هذه البقايا علی كثرة ما تناولها من الهدم و التحريق، بأيدی المخربين، من الظالمين و المظلومين، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية.

تنقسم مصانع الشام إلى قسمين: مدنى و دينى، فالمدنى كالقلاع و الحصون و الأبراج و المناور و المراصد و القصور و الجسور و السكور و القنوات و الموانى و الطرق و الدور و القبور و المستشفيات. و الدينى كالمعابد و البيع و الأديار و الكنائس و الجوامع و المساجد و المدارس و الرّبط و الخانقاهات و الملاجئ و ما شاكلها.

مصانع الأمم القديمة:

و من أقدم مصانع الشام ما وجد فى قرية الحصن فى عجلون من أنصاب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۴ (Dolmens)

يبلغ عددها المئتين على ما قال مالون، و هى عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة أحدها طويل منبسط، يبلغ طوله ثلاثة أمتار فى عرض مترين، يركز أفقيا فوق حجرين آخرين مربعين مستطيلين، و منها ما يبلغ علوه ۸۰ س و منها ضعف ذلك. و قد زعموا أنها كانت مذابح دينية و أنها هى المشارف التى تكرر ذكرها فى الأسفار المقدسة. و الرأى المرجح أنها كانت قبورا، و لا يعرف لها تاريخ أكيد. و العلماء يجعلون عهدها فى الطور المعروف بطور الظران. و ربما كانت أقدم عاديات الشام.

و من أقدم مصانع الحثيين قلعتهم التى أنشأوها على الفرات فى كركميش (جرابلس) فبقيت حسكة فى حلق نينوى إلى نحو سنة ۷۱۰ قبل الميلاد حتى استولى الأشوريون عليها. و بنو إسرائيل كالحثيين لم يتركوا فى فلسطين منبتهم و مطلعهم سوى آثار ضئيلة. و أهم ما بقى من آثارهم، معبدهم فى القدس أو معبد سليمان الذى جمع إليه الصناع و المهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ۱۰۱۳ قبل الميلاد، و قد حرق هذا المعبد فرمم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ۵۸۸ قبل الميلاد، و لما عاد اليهود بعد ثنتين و خمسين سنة من أسرهم فى بابل جددوا المعبد على مثال الأول فى الجملة، و كانت دثرت محاسنه الأولى، ثم وقع ترميمه فى أدوار مختلفة و لم يصب هذا المعبد بأذى على عهد السلوقيين خلفاء الإسكندر المقدونى فى الشام، و لا فى زمن بومبيوس الرومانى، لأنه كان من عادة اليونان و الرومان و لا- سيما الرومان، أن لا- يقاتلوا الأمم التى يدوخونها على أربابها. و ربما اقتبسوا ممن غلبوهم على أمرهم عباداتهم من غير نكير.

وسّع هيرودوس ملك اليهود معبد سليمان، و انتهى على عهد نيرون، و كان عمل فيه ألف كاهن و ألوف من العملة دهرا طويلا. و قد قيل: إن سليمان خزن من غنائمة لبناء معبده مئة ألف وزنة من الذهب و مليون وزنة من الفضة، قدرت بسكة زماننا بثمانمائة و تسعة و ثمانين مليونا و نصف مليون جنيه، و ذلك ما عدا الحديد و النحاس و الخشب. فكمل بناؤه سنة ۱۰۰۵ قبل الميلاد و كان فخر أورشليم، و أجمل بناء فى العالم. و قد شيد بجانب الهيكل الشرقى رواق من السوارى أى العمد، فأدار الملوك المتأخرون

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۵

هذا الرواق حول جميع البناء، و بقى هيكل سليمان ۴۲۴ سنة إلى أن خربه ملك بابل. و تحيط بالهيكل الذى رمه هيرودوس فى محل الحرم الشريف عدة دور، منها دار الأمم، و هى الدار الخارجية، ثم دار النساء، ثم دار إسرائيل، ثم دار الكهنة، ثم الهيكل، و قد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ۷۰ م.

و لا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد، و كان خاصا بالخشب الثمين الذى جىء به من أرز لبنان و غيره، مموها بالذهب و الفضة و محلى بالعاج و الأحجار الكريمة، و فيه من الأوانى الثمينة و المدى و الأحواض و أدوات البيوت، ما صحّ أن يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة. و الفينيقيون هم فى الحقيقة البانون للهيكل.

هندسة الفينيقيين و آثارهم:

لم يشتهر الفينيقيون بالعناية بالبناء و الهندسة عنايتهم بالربح و الكسب و ارتياد القاصية، و مع هذا أعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب

التجاریـة التی أقامهـا الفینیقیون فی شواطئ یونان و إیطالیا و صـقلیة و غالیا و ابیریا و إفریقیـة. بیـد أن هـذا الشـعب لم یخلف من آثار مدنیته أدنی ما خلفته الشعوب القدیمة.

و ربمـا کـان البـاقی منهـا بـل ما ثبت قیامه علی عهـد حضارتهم، أقل مما خلفته تـدمر و البتراء. و لم یثبت أن بقی للفینیقیین معبـد من معابدهم إلی عهدنا علی کثرة ما بنوا منها کما یقول التاریخ.

أمـا آثـار الفینیقیین المدنیـة کـالحصون و القبور و غیرهـا، فـإن البـاقی من أسـاس حصن صور الـذی أعجز اقتحـامه القـدماء الفاتحین کسراغون بخت نصر و الإسکندر، لا یدل علی کبیر أمر، و قد بنی الإسکندر بین البر و الجزیرة فیها سدّه الغریب، و کان بناء صور إلی عصـر ابن بطوطـة «لیس فی الدنیا أعجب و أغرب شأنا منه» و قال ابن جبیر: إنه یضـرب المثل بحصانتها و ذلک أنها راجعة إلی بابین، أحدهما فی البر و الآخر فی البحر، و هو یحیط بها من جهة واحدة، فالذی فی البر یفضی إلیه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، کلها فی ستائر مشـیدة محیطـة بالباب، أما الذی فی البحر فهو مدخل بین برجین مشـیدین إلی میناء لیس فی المدن البحریة أعجب وضـعا منها، یحیط

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۶

بهـا سور المدینـة من ثلاثـة جوانب، و یحـدق بهـا من الجانب الآخر جـدار معقود بالجص. و کانت بیوت صور کبیوت طرابلس ذات طبقات ست و سبع و ثمان علی عهد الفینیقیین.

و لا یزال سور بانیاس بین طرطوس و اللاذقیة قائما، و لا یعرف إذا کان من صـنع الفینیقیین أو البلاسجیین، لأنه أشبه بعمل البلاسجیین سکان إیطالیا و یونان القـدماء. و هکـذا یقال فی أسوار بیروت و صـیدا و جزیرة أرواد و عمریت و معبـد هـذه علی رأی (رنان) أقـدم معبـد بل یکاد یکون المعبـد الوحید الذی بقی من آثار العنصـر السامی. أما قبور الفینیقیین فهی أهم ما اکتشـفت فی أرضـهم، و کلها تقریبـا نقرت فی الصـخر کمثیلاتها فی أرجاء یهوذا و العرب، أی عبارة عن عقود کبری جعلت فیها النواویس لأسـرة برأسـها. و القبور التی ظهرت فی عمریت هی أهم ما عرف من نوعها و کـذلک ما ظهر فی جبیل و صـیدا و لا سـیما النواویس الأربعـة التی وجدت فی هذه المدینة، و لا تزال محفوظة فی متحف فروق.

بحث الأثریون فی فلسـطین عن المعاهـد الدینیة فی الأکثر، و امتدوا فی حفریاتهم إلی أرض العرب للعثور علی مدنیة یعتدّ بها سـبقت الرومان و الیونان.

و کـل ما عثروا علیه تافه فی الحقیقـة. و قـد تبین لهم أن البیوت کانت کقصور الملوک تحتوی علی دائرتین: دائرة الرجال أو الثوّی و هو المکان المعدّ للضیف «السلاملک»، و دائرة الحریم، شأن قصور الشرق الإسلامی لهذا العهد.

و مـا قصـر هرکـان فی عراق الأـمیر، و حصون القـدس، و برج أنطونینا، إلا من بقایا الهندسـة الیونانیـة الرومانیـة. و تقلّ فی فلسـطین و شمالی غربی دیار العرب القبور التی یرد عهدها إلی الزمن الذی یسبق العصر الیونانی.

و قبور مـدائن صالـح التی نحتت فی الصـخر یسـتدل منهـا أنهـا مثال من أمثلـة البناء الأشوری. و قـد اختلفت الظنون فی هـذا الشأن، و الأثریون یوالون النبش لیکشفوا شیئا یستدلون منه علی مدنیة أقدم أمة نزلت الأرض المقدسة.

عادیات الرومان:

أقیمت عدة أنصاب فی الشام لملوک الرومان منها ما عثر علیه الأثریون.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۷

ذکر وادنکتون کتابـة وجـدها فی السویـداء کأنهـا کتبت تحت نصب أقیم لأحـد ملوک الرومـان فیه «للملک الیوس قیصـر أدریانوس انطونینـوس بیوس العاهـل»، و وجـدت کتابـة فی قریـة أم الجمـال فی حوران کتب فیهـا «للعاهـل القیصـر مرقس اورلیوس انطونینوس

اغسطس قاهر الأرمن و البرتيين».

و لهذا القيصر كتابة أخرى فى سهوة الخضر من جبل حوران، و أخرى فى الشهبة المسماة فيليبولى نسبة الى الملك فيلبس العربى، و وجدت فى السويداء أيضا كتابة يونانية مؤذنة بإقامة أثر تكرمة للملك كومود، أقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية، ذكرى جلب الماء إلى المدينة و ضواحيها سنة ۱۸۷، و عثر فى جنوبى اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير على كتابة تدل على محطة عسكرية. و فى دير القلعة فى لبنان على الصخر الذى فى جانب البئر كتابة فيها «بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتميوس ساويروس برتينكس اغسطس، أقام هذا النصب بوبميابوس اينجيوس نذرا للمشترى».

يصعب الحكم على كل أثر بعينه، و نسبة كل بناء إلى الأمة التى أقامته، و كل واحدة منها تركت على الأغلب فى هذا القطر أثرا مخلدا متلدا تفاخر به. فالطرق الرومانية التى أنشئت من القدس إلى أرض النبط جنوبى بحيرة لوط و من شمالها، و طريق مادبا إلى البتراء و العقبة حتى البحر الأحمر و طريق جرش وادى موسى، و الطريق المبلط شرقى صرخد الممتد إلى العراق، و كان يسمى بالرصيف، هى من الآثار المهمة كالمعسكر الرومانى فى أذرح و آثار قنوات و شهبة و سالة و دامة العليا و لبّن.

عاديات البتراء و جرش و عمان:

عدت البتراء فى الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها، و منها الهياكل الجليلة، و الدور الفخمة، و الأندية و المجالس و القصور، و الحمامات و المسارح و المدافن و المسلات، و قد رأى فيها «دومازفسكى» آثار الهندسة المصرية و اليونانية و الرومانية و الشامية. و معلوم أن أهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالى القرن السادس قبل الميلاد، و ارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى أن زاحمتها تدمر فى القرن الثالث. و من أجمل ما فى

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۸

وادى موسى اليوم خزنة فرعون و هى دار الحكم نقرت فى الصخر و جعلت ثلاث قاعات و بهوا. و هذا القصر الفخم الذى يدعى خزنة فرعون كان فى الغالب معبدا لايزيس، أنشئ على عهد الامبراطور ادريانوس سنة ۱۳۱ و فى واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى و فوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها و نقوش و تيجان، و ربما كان يصعد إلى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد فى الحائط من أثر الأدراج. و إذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع أحجارها و تتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها. و فى الجهة اليسرى قاعة مثلها، و فى الصدر القاعة الكبرى أو الردهة المدهشة. و كل هذه السوارى و التيجان و القاعات و الرواق محفور فى الصخر أو فى هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعى هذا الهيكل و غيره من الهياكل و النواويس و القصور كالطين يجعلون منه ما يشاءون. و الذى يزيد فى الدهشة أن الحجر أحمر فى هذه الجبال أو من نوع الحجر الرملى و لكنه بمتانته كالصخر الأصم. ثم ترى فيه ذاك اللمعان، فمن موجة حمراء إلى أخرى زرقاء، إلى مثلها بيضاء إلى جانبها دكناء، فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير، و رزق بانيه يدا صناعا تتفنن فى تقطيعه و نقره، بما فاق به البناة فى سائر عاديات الشام. فإن كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم و علم واسع بالنقش و جر الأثقال، فإن هذه العاديات الأزلية تنادى بلسان حالها: هذه عظمة الديان إلى جانب تفنن الإنسان.

و فى هذا الجوار أقدم النواويس و أهمها و بعد ذلك يجىء قصر البنات و هو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الأبنية الضخمة من قلاع و أبراج و أسوار و نحوها. و الغالب أنه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة و هو مما عمر قبل الإسلام. و هناك و لا سيما فى خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها و رسمها أنها من عمل النصارى عند ما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان و اليونان. و على مقربة من تلك الجبال الشوامخ و المنفرجات و الأودية بعض نواويس و آثار و لكنها دون آثار البتراء فى المكانة. و فى جبل الصبر ملعب أو صورة تمثل قتالا بين سفن حربية.

و يقول بعض علماء الآثار: إن معظم القبور التى حفرت كانت على مثال

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۲۹

قبور الحجر، يرد عهدها إلى الحارث الرابع أحد ملوك البتراء أى ۹ و ۳۰ قبل المسيح و بعده. و ليس فى وادى موسى أعمدة من قبل الحكم الرومانى عليها. و إن ما يشاهد من صور أبى الهول وايزيس و رؤوس الحملان يدل على أن هذا الأقليم تأثر بالمدنية المصرية. و المسلتان القائمتان فى النجر تمثل ربى النبطيين اللات و العزى، و كانت النجر مركز عبادة النبط قبل العهد اليونانى بستة قرون على الأقل، و قد دخلت المدنية اليونانية البتراء على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصرى و الشامى، و ظل القول الفصل فيها للمدنية اليونانية إلى عهد الحارث الرابع. و فى البتراء ۸۵۱ مصنعا من القبور و المعابد و المذابح.

و عدوا من مفاخر وادى موسى الملعب العظيم المنحوت فى الصخر، قطره ۱۱۷ قدما و فيه ۳۳ صفا من المجالس يسع من ۳۰۰۰ إلى ۴۰۰۰ من المتفرجين و الملعب الرومانى فى عمان (ربة عمون) أكبر الملاعب فى الشام. و هو مركب من ثلاث مراتب جعلت المرتبة الأولى خمسة صفوف من المقاعد، و المرتبة الوسطى أربعة عشر صفا، و للمرتبة الثالثة ستة و عشرون صفا من المجالس. و هو يسع أربعة آلاف ناظر أيضا. و فى أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود و النمورة و التماسيح.

و يرد تاريخ ارتقاء جرش إلى القرون الأولى للمسيح، و تاريخ أبنيتها إلى أباطرة القرنين الأول و الثانى، و هى شاهدة بتأثيرات الطراز الرومانى حتى فى الأصقاع البعيدة، و كانت جرش من جملة المدن المهمة من بين مدن العرب، و عمدها الماثلة للعيان و منها ما بلغ طوله ۱۴ مترا و قطره خمسة أقدام، و ملاعبها و هياكلها و ساحاتها و حماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها فى بعض الأرجاء المهمة التى تولوا الحكم عليها.

وصف شيخ الربوة خرائب جرش و عمان فى القرن الثامن بقوله:

«ذكروا أن بدمنة مدينتى عمان و جرش بالشام ملعبين، فأما جرش فمنها تلال و جبال و حجارة منقولة، و بعض بناء أبوابها قائم فى الهواء نحو خمسين ذراعا، و بهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط و ذلك الحائط به مجلس للملك، و أما النصف المستدير فإنه مدرّج، درج بعضها فوق بعض، و هى دوائر و كل دائرة فوقانية أوسع من السفلى، و بين هذه الأدراج

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۰

الدائرة أبواب و مسالك، و كل درجة و عليها مرتبة من الناس، و كلهم ينظرون إلى الملك و هو ينظر إليهم كلهم لا يحجبون عنه و لا يحجب عنهم فى ذلك المجلس و كأنما هو ليوم الحكم العام فقط، و بالقرب من هذا الملعب أيضا ملعب و فيه عمد طوال قائمات و فى كل منهن بكرة، و هن مستديرات المراكز كصورة دائرة، و كأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود إلى عمود و فوق ذلك أبنية لأهلها و آثار شاهدة، و لا يعلم فى الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين إلا مدينة بعلبك و باب البريد بدمشق اه».

وصف المحدثين خرائب جرش:

تبدأ خرائب جرش من الجنوب بباب النصر المسمى باب عمان و هو بناء عرضه ۳۰، ۲۵ م و الشق الأوسط منه ۴۷، ۶ على ۱۲ مترا من العلو، و له من كل جهة باب و هذا البناء أشبه بقوس النصر المنسوب لتراجان فى مدينة رومية. و لذلك يظن أن البناء يرد عهده إلى القرن الثانى للميلاد. و فى غربى هذا الباب سطح واسع فيه محلان، و فى الأسفل مسرح لتمثيل الحروب البحرية، و له بحيرة طولها ۵۰، ۱۵۵ م و عرضها ۵۵ مترا، و له أربعة سدود من جنوبها و عمقها ۷۰، ۴ م و مقاعد للمتفرجين على طول المحل. و هذا الحوض متصل بقناة مع العين. و يفصل الحائط الشمالى المسرح بملعب كبير قطره ۵۵، ۹۰ م لا تزال ترى فيه أربعة صفوف من الدرجات و على مقربة من الملعب بقايا مدفن كبير. و على بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طوله ۳۰ مترا و عرضه ۲۰، ۳۰، و كان للبناء المحيط به عمد منفردة أحد عشر عمودا من الشمال و مثلها من الجنوب، و ثمانية أعمدة من الشرق و من الغرب.

و کان للدهلیز صفان من الأعمدة و له تیجان قورنتیة و عرض الرتاج ۷۰، ۴ م و کاد طول غرف المتفرجین التی ما زالت جدرانها الجنوبیة سلیمة إلی عشرة أمتار ۲۵ مترا و عرضها ۱۵. و قد فقدت تیجان القواعد المرکبة (الرکائز) المبنیة من الصخر المحکم الوضع و قام فی العالی طنف بسیط قلیل البروز.

و مجموع البناء حسن للغایة. و قام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربیة من هذا المعبد علی سور المدینة. و لا یزال ۳۲ صفا من المقاعد سلیما. و معظم

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۱

قطر المسرح ۷۶، ۸۷ م. و هناک ممشی علی شکل نصف دائرة یتصل مع الأسفل بخمسة سلالم و مع الأعلی بتسعة، و تقسم هذه الدرجات إلی قسمین و له أربعة دهالیز من جهة الجنوب.

و یمتد فی الشمال الشرقی من المعبد و المسرح میدان ممهد تحیط به عمد لطیفة، تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربی. و لا تزال معظم السواری و عددها ۵۶ محفوظة بحالها، و هی من الطراز الیونانی یتصل بعضها بالآخر من سطوح الأعمدة. و فی الشمال الشرقی من المیدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقیمة الأضلاع تجتاز المدینة کلها و طولها ۳، ۸۰ مترات و عرضها ۶۰، ۱۲ مترا و المسافة بین الأعمدة الموضوعة ثلاثة أمتار. و لم یبق من ال ۵۲۰ عمودا سوی ۷۱ عمودا قائمة إلی الیوم. أما الأخری فقد تداعت بالزلازل أو هدمتها ید الإنسان فی العهد الحدیث، و قد أصبح أکثر هذه الخرائب مقالع لأهل القریة یأخذون من أبنیتها الجمیلة حجارة لبنائهم. و علو هذه الأعمدة من ۵۰، ۶ م إلی ۹ م یدخل فی ذلک الأساس و التاج. أما العمد القائمة وسط الشارع فهی من الطرز القورنتی، و تیجانها من أرقی ما صنع الصانعون. و ما کان منها بالقرب من المیدان و علی نحو الباب من الشمال فهو من الطراز الیونانی.

و یری الناظر من جانبی الشارع بقایا صف آخر من الأعمدة ربما کانت مجازات بین الأعمدة علی طول الدور. و هناک جسر یجتاز القناة علی خمس حنایا و عرض الأوسط منها ۴۰، ۱۱ س. و ثم بقایا بناء عظیم منقوش کان یتخذ محکمة جعل علی شکل نصف دائرة، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار و لها فوارة. و علی مقربة من هذا خرائب أروقة المعبد الکبیر الضخمة العظیمة. و قد تهدم جزء من سطح أعلی الباب الأعظم و هو مجنح بفرج لنوافذ مثلثة الشکل منقوشة أجمل نقش. و النقوش السالمة التی تزین الواجهة الغربیة هی من طراز رائق بدیع. و هذه الأروقة تؤدی إلی معبد عظیم یدعی عادة معبد الشمس و هو فی مستو طوله ۶۵، ۱۶۰ م و عرضه ۸۵، ۱۰۴ م یحیط به ۲۶۰ عمودا. و طول المعبد ۷۰، ۲۶ م و عرضه ۲۰. و یتألف رواق المعبد من صفین من الأعمدة أحدهما من ست و الآخر من أربع. و زیادة علی ذلک عمود من کل جهة من الحواجز البارزة من المعبد. و فیه تسع سوار علوها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۲

۸۰، ۱۳ و عرض الرتاج خمسة أمتار و عرض المجالس ۲۰، ۱۱ م و طولها ۸، ۱۷. و فی جنوبی المعبد کنیسة، کاتدرائیة ذات ثلاثة صحون. و فی الجنوب الغربی کنیسة أصغر منها. و یظهر أن کنیسة ثالثة فی شرقی الأروقة کانت من جملة الأجزاء المتممة لمعبد الشمس. و من هناک تنشعب شوارع أخری و تتقاطع الطرق، و کانت مزینة بتماثیل و نصب و عمد و سوار لا یزال بعضها أثرا شاهدا علی العظمة الماضیة.

أما ملعب الشمال الذی کان خاصا علی ما یظهر بقتال الحیوانات و الصراع فکان له ۱۷ صفا من الأدراج و مجموع علوه ۱۲ م و فی محیط الدائرة منها بین الصف الثامن و التاسع خمسة معابر أو مماش تری بین کل واحد منها کوة عظمی و ثنتین أصغر حجما علی شکل الصدف. و الحمامات العامة عبارة من مجموع غرف و عقود یطلق علیها اسم الخان. و مدخلها بناء سلم برمته من عوادی الأیام تعلوه قبة و مساحتة ۷۰، ۱۶ مترا مربعا. و هناک سلم یوصل إلی محل الحمامات الحقیقی مؤلف من أرض مساحتها ۷۰، ۶۷ م طولا و ۳۰ عرضا و لها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ۴۲ م و عرضه ۷۰، ۱۱ م.

و بالقرب من جامع القریة بناء آخر قدیم کان حماما أیضا و علی الشاطئ الشرقی من النهر تشاهد حیطان سور کنیسة رابعة طولها ۶۰

مترا و عرضها ۳۶، ۶۰ م و حنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سواريها سوى تسع قواعد يونانية و بعض أسطوانات. و كان هذا المعبد فى الأصل مدفنا للربة نيميزيس و يرد عهدها إلى الامبراطور تراجان.

عاديات تدمر:

ذكر بعض الأثريين أن مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة، و قد أصبحت فى أوائل النصرانية إحدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة أوربا و آسيا و أعنى البتراء و تدمر. قال ياقوت: و أهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام بأكثر مما بيننا و بين سليمان.

و لكن الناس إذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان و إلى الجن.

قلنا: و كان القدماء يعتقدون أن بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعرى:

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۳ و قد كان أرباب الفصاحة كلمارأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

و قال النابغة الذبيانى:

إلا سليمان إذ قال الإله لهقم فى البرية فاحددها عن الفند

و خيّس الجن إنى قد أمرتهم‌يبنون تدمر بالصّفاح و العمد

خربت آثار تدمر سنة ۲۷۳ م على يد اورليانوس الرومانى لما قهر زينب ملكتها. و لما انتقض أهلها عليه عاد فافتتحها عنوة. و أعمل فى أهلها السيف أياما متوالية. ثم أمر فبعثرت الأبنية، و قوضت الهياكل، و دكت الأسوار، و هدمت القلاع. فأصبحت تلك المدينة الزاهرة قاعا صفصفا و ظلت على هذه الحال قرية حقيرة إلى عهد ديوكليتيانوس أيام استخدمها الرومان لرد غزوات البادية و غيرها.

وصف عاديات تدمر :

و بعد فإن كل ما دونه مؤرخو العرب فى تدمر و ما وصفها به رحالتهم مختصر جدا لا يستفاد منه الفائدة العلمية اللازمة و يتعذر علينا من النصوص التى اتصلت بنا أن ندرك حقيقة حالة تدمر و عمرانها حين فتحها المسلمون.

و المعروف أن تدمر لم تستعد مكانتها و لا بعضها منذ استيلاء اورليانوس عليها فى سنة ۲۷۳ م. يوم دك معاقلها و هدم دورها و درس قصورها فأخذت تدمر حينئذ بالانحطاط إلى أن وصلت إلى ما هى عليه اليوم.

إن اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فإنا نجهل ما انتاب البقية الباقية من عمرانها بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر. أيام نزلها فى سنة ۱۷۵۱ المهندسان الإنكليزيان و انكس و وود فرسما مخططا لتلك الخرائب و نقلا إلى بلادهم جملة رقم تدمرية و يونانية تمكن بفضلهما سوينثن و برتليمى من قراءة حروفها و تفسير معانيها.

و منذ ذاك العهد اشتهرت تدمر فى الغرب و لا- سيما عند علماء الآثار و غواتها فكثر شد الرحال إليها و زاد زوارها فى السنوات الأخيرة خاصة و ذلك بالنظر لسهولة المواصلات و توفر أسباب الراحة فيها. و بالرغم مما انتاب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۴

تدمر من عوامل الهدم و التخريب فإن القسم القليل الذى سلم من كوارث الأيام و أحداث الدهر ينبئ بجمال عظمتها و جلال قدرها. فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الأطلال و يتأمل هذا الإتقان لا تأخذه حيرة فى دهشة أو رعشة فى وحشة لهذا الإبداع المعجب و دقة الصنعة و تناسب الجمال و العظمة.

فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططها و مهارة عمالها و صناعها. فقد جمعت بين الإبداع و الإعجاز حتى ليتساءل المرء و هو فى القرن العشرين إن كان هذا ثمرة جهود الإنسان أو عمل من صنع الجان.

تعد خرائب تدمر اليوم من أكبر خرائب الشام و أهمها و تنقسم بناياتها إلى ثلاثة أقسام: الهياكل و البلدة و المدافن. و لم يبق من الهياكل سوى الهيكل الكبير و هو هيكل بعل و الهيكل الصغير و هو هيكل بعلشاميم. و الأول هو أكبر بنايات تدمر و أهمها يقع إلى الجهة الشرقية من البلدة، و هو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ۲۳۵ مترا يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه نحو من ۱۵ مترا، و مدخله من الغرب. و هذا المدخل يؤدى إلى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ۱۴ مترا و منه تجتاز الواجهة الداخلية و تعتبر هذه من أبدع مصانع تدمر و أتقنها صنعا. و يحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائما على ۳۹۰ عمودا تهدم اليوم معظمه، و قد شيد فى وسط هذا الفناء الهيكل الأصلى و طوله ۶۰ مترا و عرضه ۳۱ مترا و نصف المتر. و أقدم كتابة وجدت داخل هذا الهيكل مؤرخة بسنة ۱۷ م. و يرجح أن هذا الهيكل بنى فى أوائل العهد المسيحى.

و الهيكل الثانى إلى شمالى البلدة و مدخله من الشرق و هو أصغر حجما من الأول و أقل كلفة. و يكاد يكون مجموعه الخارجى سالما و مع بساطته تجد إتقانا فى بنائه و دقة فى نقوشه و قد تم بناؤه فى النصف الأول من القرن الثانى للميلاد.

إن ما بقى من آثار البلدة هو أروع شىء فى خرائب تدمر و أعظم منظرا.

و منها تلك الأروقة التى كانت تمتد من جانبى أهم شوارع البلدة فهى أبهج منظرا لعظمة تلك المدينة و أطول هذه الشوارع هو الذى يخترق البلدة من الشرق إلى الشمال و يقسمها إلى منطقتين و طوله ۱۲۰۰ متر و عدد أعمدة كل

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۵

صف يبلغ ۳۷۵ عمودا ارتفاع كل منها ۱۷ مترا و قد تهدم معظمها فلم يسلم منها سوى ۱۵۰ عمودا. و يخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلته و عند ملتقاهما يؤلفان مصلبا و كان على مقربة منه تمثالا أذينة و زنوبيا. و فى منتصف كل عمود ركيزة قامت عليها تماثيل مشاهير حكامها و الصالحين من رعيتها. و لم يزل مدخلها المدينة الشرقى قائما و له منظر رائع و مرأى جميل. و ما خلا ذلك من الأنقاض المتراكمة الباقية و الأعمدة و الأحجار المنحوتة مبعثر مشتت عرف بفضلها أصحاب الهندسة تخطيط أبنية المدينة و هندسة شوارعها و أزقتها.

إن قبور تدمر مبعثرة حول البلدة و معظمها فى الجهة الغربية فى واد يعرف بوادى القبور لكثرتها فيه. و هى على نوعين: منها ما هو قائم على شكل أبراج مربعة فى ثلاث أو أربع طبقات منقسمة حجرا و فى جدرانها القبور. و النوع الثانى كهوف نقرت فى الصخر على سفح الجبل و هى ذات إيوانين أو ثلاثة، و من القبور ما هو فى الجدر و منها ما هو على شكل النواويس و يختلف عدد القبور فى كل مدفن بين العشرين و السبعين و هو ملك أسرة واحدة أو أكثر. و كان لأبناء الأسر فى تدمر عناية خاصة بمدافنهم يتنافسون بإتقانها و زخرفتها و منها ما هو أشبه بقصور منها بقبور. و كل هذه العناية لحرصهم على راحتهم فى دار البقاء كما تنص على ذلك رقمهم القبرية اه.

أقام الرومان بين دمشق و تدمر إلى الفرات اثنين و خمسين حصنا أو قلعة.

يبعد كل منها عن الآخر ثلاث ساعات. و لا شك فى أن الحرس الرومانى كان فى بعضها. و بنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى و دمشق ليأمنوا عيث البادية و طريقا من صرخد إلى البصرة و طرقا من حوران إلى البلقاء إلى عقبة أيلة و ما إليها، و كان ذلك فى أيام عظمتهم. قال أحد علماء الهندسة من الفرنج: إن الرومان لما أصبحوا سادة الأرض و أمسى معهم جميع الشعوب بمثابة العبيد عدلوا و هم فى أوج عزهم عن أعمال فى العمران كان فيها عزهم و نجاحهم و استسلموا إلى الكسل و إضاعة الأوقات.

و بعد أن فتحت زينب أو زنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصرى عمرت الأبنية التى جلبت إليها الأمم من أقطار الأرض و لا سيما اليونان.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۶

و لما جاء يوستنيانوس سنة (۵۲۷) جدد بناء الأخربة فى تدمر و شيد أبنية أخرى فيها و جعل لها سورا. ثم سطت عليها الزلازل كثيرا. و

ما یری الیوم من الأثر الضئیل الباقی من عادیاتها شاهد علی ما کان هناک من عمران ممتد الرواق.

و ما استخرج و لا یزال یستخرج من أرضها من التماثیل و الأنصاب و الشواهد یدل علی فضل ذوق و حسن هندسة.

و من کل أنواع الأنام مصورشباب و شمط یمرحون و شیب

و مجلس أنس یفسح الطرف ملؤهقیان تغنی وسطه و شروب

و صرعی و قتلی فی قتال عساکرتحول حصون دونهم و دروب

فمن جانب أضحت تصب مدامةو من جانب أضحت تشب حروب

خلیطان هذا للقراع معبس‌یصول و هذا للسماع طروب

و قد حققوا التصویر حتی وجوههم‌یبین لنا بشر بها و قطوب

و کل یعانی شغله غیر أنه‌علی فمه دون الکلام رقیب

ملاعب فیها الملک رام بطرفهو کل ابن دنیا إن نظرت لعوب

و عاشوا طویلا ثم فرق شملهم‌زمان أکول للأنام شروب

فلو لا مکان الدین قلّ لفقدهم‌بکاء لنا فی إثرهم و نحیب

ملوک أقاموا ما أقاموا أعزةو قد شعبتهم بعد ذاک شعوب

و خیل للرائی لیذکر عهدهم‌خیال لعمری إن رأیت عجیب

خیال لهم یهدی إلی کل أمةلقصد اعتبار إن رآه لبیب

عادیات بعلبک امس و الیوم

إن بقایا هیکل الشمس أو المشتری و هیکل الزهرة و هیکل باخوس و دار المذبح أو البهو الکبیر الماثلة إلی الیوم فی قلعة بعلبک لأ-کبر دلیل علی ارتقاء فن الهندسة حتی فی العصور التی سبقت الرومان و الیونان. و قد عدت أحجار بعلبک و منارة الإسکندریة (الإسکندرونة) من جلة عجائب الشام. فقد قال الهمدانی فی أحجار بعلبک: إن فیها حجرا علی خمسة عشر ذراعا أقل أو أکثر ارتفاعه فی السماء عشرة أذرع فی عرض خمسة عشر ذراعا فی طول خمسة و أربعین ذراعا. هذا حجر واحد فی حائط. و أما منارة الإسکندریة خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۷

فإنه یصعد إلیها رجل علی برذون حتی یبلغ أعلاها و هی مبنیة علی سرکان من زجاج.

و فی بعلبک هیکلان کبیران طول أصغرهما ۲۲۵ قدما و عرضه ۱۲۰ قدما و کان محاطا بأعمدة کبیرة الحجم طول الواحد منها ۴۵ قدما و طول هیکل الشمس ۳۲۴ قدما و کان محاطا بأربعة و خمسین عمودا یبلغ قطر الواحد منها ۷ أقدام و علوه من قاعدته إلی قمته ۸۹ قدما و قد بلغ طول بعض الحجارة المبنی منها الهیکل ۶۴ قدما و سمکه ۱۲. قالوا: و کانت هیاکل بعلبک تضاهی هیاکل الیونان بعظمة بنائها و لکنها دونها بالترتیب و الزخرفة. ذکر ابن حوقل أن قلعة بعلبک الحصینة الجمیلة من أجلّ مبانی الأرض، و إنما بنیت قلعة دمشق علی مثالها، و هیهات لا تعد من أمثالها، أین قلعة دمشق من قلعة بعلبک و حجارتها تلک الجبال الثوابت، و عمدها تلک الصخور النوابت.

قد یبعد الشیء من شیء یشابههإن السماء نظیر الماء فی الزرق

قال شیخ الربوة: و بقلعة بعلبک بیت محکم من الحجر طوله خمسون ذراعا و هو من کل جهة ثلاثون ذراعا و سقفه حجر و فی وسط السقف نسر حجر فارش أجنحته. و فی أربع قرن السقف أربعة أصنام و أسماؤها ودّ و سواع و یغوث و یعوق. و بمقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التی بالقلعة متروک إلی وقتنا هذا و إلی ما یشاء اللّه مثالا للناس. یعنی أن من ههنا حملنا الأحجار الثلاثة المبنیة بالقلعة- و

هو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلى- و بالحصن أيضا عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعا و فى الأرض منها نحو أربعة أذرع و دوره نحو ذراعين و أكثر عددها نحو ستين عمودا و كان على رؤوسها عتبات و فوق العتبات البناء المحكم اه.

و إن آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة و منها من النوع المعروف بالمحبب (غرانيت) الذى جلب من السودان على ما يظهر تدل دلالة صريحة على أن كل هذا من صنع الرومان و بأيدى مئات الألوف من العملة المسخرين المستعبدين. و هكذا قامت جميع آثار الرومان بإرهاق الإنسان للإنسان.

بيد أنهم خلفوا عاديات عظيمة أعلت بين الأمم القديمة ذكرهم، و جعلتهم موضع الإعجاب على توالى الأحقاب.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۸

و يصدق على قلعة بعلبك فى الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادى فى أهرام مصر: إنها صبرت على ممر الأزمان بل على ممرها صبر الزمان. فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، و العقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، و الأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، و الملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هى غاية إحكامها حتى إنها تكاد تحدث عن قومها و تخبر بجمالهم و تنطق عن علومهم و أذهانهم و تترجم عن سيرهم و أخبارهم. أو ما قاله فى يرابى مصر: فالحكاية عن عظمها و إتقان صنعتها و إحكام صورها و عجائب ما فيها من الأشكال و النقوش و التصاوير و الخطوط مع إحكام البناء و جفاء الآلات و الأحجار مما يفوت الحصر. و من أجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة:

خرب حارت البرية فيهافتنة السامعين و النظار

معجزات من البناء كبارلأناس ملء الزمان كبار

ألبستها الشموس تفويف درو عقيق على رداء نضار

و تحلت من الليالى بشامات كتنقيط عنبر فى بهار

و سقاها الندى رشاش دموع‌شربتها ظوامئ الأنوار

زادها الشيب حرمة و جلالاتوجتها به يد الأعصار

رب شيب أتم حسنا و أولى‌واهن العزم صولة الجبار

معبد للأسرار قام و لكن‌صنعه كان أعظم الأسرار

مثل القوم كل شىء عجيب‌فيه تمثيل حكمة و اقتدار

صنعوا من جماده ثمرا يجنى و لكن بالعقل و الأبصار

و ضروبا من كل زهر أنيق‌لم تفتها نضارة الأزهار

و شموسا مضيئة و شعاعاباهرات لكنها من حجار

و طيورا ذواهبا آيبات‌خالدات الغدو و الإبكار

فى جنان معلقات زواه‌بصنوف النجوم و الأنوار

و أسودا يخشى التحفز منهاو يروع السكوت كالتزآر

عابسات الوجوه غير غضاب‌باديات الأنياب غير ضوارى

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۳۹ فى عرانينها دخان مثارو بألحاظها سيول شرار

تلك آياتهم و ما برحت فى‌كل آن روائع الزوار

ضمها كلها بديع نظام‌دقّ حتى كأنها فى انتثار

فى مقام للحسن يعبد بعد العقل فيه و العقل بعد البارى

منتهى ما يجاد رسما و أبهى‌ما تحج القلوب فى الأنظار

أنطاكية و حمص و أفامية و البارة و دمشق:

هذا إجمال فى المصانع الكبرى فى هذه الديار و هندستها، و من أهم آثارها أنطاكية التى بناها انطيغنوس و أكمل زخرفها سلوقس سنة (۳۰۰) قبل الميلاد. و كان فيها من عجائب الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان أن تعمل مثله فى أرضها، و لو لا أن الزلازل تحيفتها فى أدوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة. و كانت أنطاكية عاصمة الشرق أيام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب. و من يدخل أنطاكية و يذكر ما كان فيها من القصور و الدور و المعابد و الهياكل و الحمامات و القنوات و دور التمثيل يبكى لبلد اتفقت الآفات السماوية و الأرضية على تخريبه، و لم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة.

و من جملة آثار الهندسة الرومانية أو اليونانية بحيرة قدس أو خزان حمص و قناة سلمية و جسر قنوات و آثار سبسطية و منها مصانع حلب، و هى صورة تامة من نشوء الهندسة، و قد غنيت هذه المدينة الأخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية و الدينية و المدنية و ما برح معظمها بحاله. و من أهم ما فى شمالى الشام ملعب أفامية (قلعة المضيق) و ملعب دفنة و كان فيها معبد أبولون رب الشمس و النور و الصنائع و الآداب و الطب عند قدماء اليونان، و نصب فيها برياكسيس المهندس الآثينى تمثالا للرب اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة، و هو قابض بيده على قيثارة، و قد صورت صورته على نقود أنطاكية و فيها معبد ديان و الزهرة و غيرهما من الأرباب.

و كانت مدينة أفامية على عهد السلاقسة خلفاء الإسكندر من المدن الكبرى بدليل ما ذكره الهمدانى من أنه كان فيها ملعب يعد من البناء المذكور فى

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۰

العالم. و كانت مستقرا للجيش الرومى. و فيها زرائب و إصطبلات تؤوى ۳۰۰ فيل و ۳۰۰ جاموس و ۳۰،۰۰۰ حصان ترعى فى سهلها الخصيب و ترد ماءها العذب النمير. و قد دك حصنها بومبيس و كان من أمنع الحصون.

و فيها إلى اليوم آثار شارع يمتد من الباب الشمالى و على جانبيه سوار و عمد مختلفة الأشكال و الحجوم تبلغ نحو ۱۸۰۰ سارية يردّ عهدها إلى أواخر حكم الرومان. و لا يزال كثير من الأرتجة و الأبواب قائما و هناك خرائب أخرى لم تعلم ماهيتها.

و منها خرائب البارة فى الشمال غربى العاصى. و خرائبها واسعة و مهمة و شوارعها العديدة و بيوتها «على رواية فان برشم» لا تزال محفوظة. منها بقايا خمس أو ست كنائس و بيع. و فى ضواحيها بيوت مهملة عملت من الحجر الصلد يكفى أن تسقف بالخشب حتى تسكن و هى خالية. و إن ما هنالك من مصانع و معابد و بيع و قصور و كلها تقريبا من العهد المسيحى قد لا يخلو من نقوش، و يرد عهدها على الأغلب إلى القرن الخامس و السادس، و فى قلعتها من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين و الثلاثة و عرضه ۷۵ س زبرت عليها حروف يونانية. و أغرب ما فى عاديات هذه القرية أن خرائبها الواقعة على أربعمائة متر تقريبا ما زالت بحالها تذكر المرء بآثار بومبيه و مساحتها السطحية أربعة كيلو مترات مما دل على عظم المدينة فى القديم. و قد قام بين المحلتين قصر ذو طبقتين محفوظ فى الجملة اسمه دير سوباط و فيه آثار و نواويس و أبواب أزلية. و قد وجد على أحد أبوابها كتابة يونانية معناها «ليحفظ المولى من ملكك و مخرجك الآن و فى العصور المقبلة آمين» و كانت هذه المدينة فى سعة حلب كما يفهم من خططها.

و من أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذى كان يخرقها من الشرق إلى الغرب أى من الباب الشرقى إلى باب الجابية و طوله ۱۶۰۰ متر و على جانبيه رواقان من العمد و هو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور و الحوانيت. و كان مقسوما إلى ثلاثة أقسام الوسط للدواب و العجلات و الرصيفان بجانبه للذاهبين و الجائين. و الباب الشرقى اليوم على ما يرى هو أحد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك أن الشارع لم يكن عرضه أقل من خمسة و ثلاثين

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۱

مترا. و من العاديات القديمة فى دمشق مدخل الكنيسة و لا سيما من الغرب و هى التى أصبحت فى الإسلام الجامع الأموى.

حوران و لبنان و غيرهما:

و لا تزال خرائب بصرى قصبة حوران، و أحصن مدن باشان و معقل الرومان، شاهدة بما كان فى تلك المدينة من الفخامة و العظمة. و كان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلا و ربع ميل و عرضها ميلا، و يحيط بالسور ربض كثير البانى، و محيطها خمسة أميال لها سور عالى الجدران، وثيق البنيان، و قلعة لا أحصن منها فى عامة أرض الشام. و يقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر فى وسطها له بابان جميلان على طرفه و شوارع رحبة و فيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة، و بدائع البناء، و أساليب النقش فى الهياكل و الكنائس و القبور و المذابح، و ركام الأنقاض و بيوت الأقدمين.

و قوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذى صار امبراطورا و هو من أهالى بصرى.

و المشهد نصف دائرة قطره ۲۷۱ قدما و هو مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية. و فيها مشهدان و ستة هياكل و عشر كنائس أو عشرة مساجد، عدا القصور و الحمامات و السبل و القنوات و أقواس النصر و غير ذلك من المبانى الكثيرة و بعضها ما يصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوربا الآن.

و لقد شوهد فى معظم المدن التى بناها الرومان فى هذه الديار و فى غيرها أنها متشابهة فى مرافقها إلا قليلا. ففى كل مدينة ساحة عامة (فوروم) و ما يتبعها من المرافق و معبد الكابتول أو معبد المشترى و جونون و مينرفا (ربة الحكمة و الفنون و الحرب). و كانت فى المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية فى مدن أوربا الحديثة. و فيها أسواق ذات نضائد من الحجر و فوارات و مقاسم ماء ذات قنوات لا تزال ترى إلى اليوم آثارها. و مراحيض عامة و خاصة.

و أماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة و حارة و بيوت للتعريق. و قاعات للرياضة و المحادثة و مماش للتنزه. و أفران و أقواس نصر و أبواب تغلق ليلا و دور تمثيل لا يزال فى أكثرها مصاطبها المدرّجة و مساكن خاصة.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۲

و من أهم مصانع الشام عاديات قنوات فى جبل حوران وصفها بورثر بقوله: بلغنا أكمة تطل على قنوات فرأينا على اليسار واديا عميقا، و على جانبه الغربى خرائب المدينة القديمة و سورها يتبع الشواهق مسافة ميل ثم ينعطف متعرجا. فيكتنف أرضا عرضها نصف ميل فيها القصور و الهياكل و الكنائس و المشاهد و ما ماثلها من المبانى الفخمة قائمة بعضها بإزاء بعض على نسق بديع يدهش الأبصار. و وراء السور فى أسفل الوادى و على الجبال المحيطة به فى القنن الشاهقة و بين حراج البلوط أعمدة رفيعة، و أبراج مشيدة، و مدافن عالية. و اسمها عند اليونان قناتا و سماها العرب قنوات بلغت أوج مجدها على عهد الرومان، و كانت من أعظم المدن شرقى الأردنّ. و فى عهد النصرانية تنصر أهلها و حولوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الإسلامى و قتل سكانها أو هجروها فلم يعن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا فى غيرها من مدن الشام.

ثم ذكر أنه لم ير فى مدينة أخرى من مدن فلسطين ما رآه فى هذه المدينة و بينها تماثيل أسود و فهود و كلاب، و فيها رأس عظيم للربة عشتاروت أمام هيكل صغير، و أمام القصر ساحة فسيحة تحتها صهريج كبير سقفه معقود، كانت المياه تجرى إليه بقناة منحوتة فى جانب الوادى، فيجتمع فيه ما يكفى المدينة فصل الصيف. و غربى المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمد الكورنثية، و هو قائم على أكمة صناعية و قد سقط أكثره و تصدعت الجدران، و فيها برج مستدير و آثار سور. و فى بطن الوادى مماش مدرجة و فساقى منسقة و كراسى التماثيل و هيكل صغير و ملعب نحتت مقاعده فى الصخر. و فوق دكته كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها إن مرقص لوسياس بناه على نفقته و وهبه لأبناء وطنه. و يصعد من هذا الملعب بسلم منحوت فى الصخر إلى البرج المستدير و هو ضخم الحجارة قديم البناء لم يبق منه إلا ما ارتفاعه عشرون قدما و على مقربة منه بقايا قصر مبنى بحجارة كبيرة

منحوتة و أغلاق أبوابه و كواه من الحجر كلها و هى كثيرة النقش عليها أكاليل بارزة من الأزهار و الأثمار.

و من أهم الآثار فى الشام جسر المعاملتين و جسر جبيل بين البلدة و مدافنها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۳

القديمة و منها قناتان تمتدان بين نهر الكلب و جونية. و الثانية القناة الكبرى التى كانت تنقل مياه الجبل إلى بيروت و هى من عجائب الآثار القديمة. و منها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مرى فى لبنان و هيكل أنقا عند منبع نهر إبراهيم و هيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان فى سفح جبل صنين. و فى لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل زيزا و ناوس فى جهات أميون قرب طرابلس و تماثيل كثيرة مبعثرة. و فى البترون حصن منيع و ملعب و فى بيروت مسرح، و من قلاعهم قلعة صربا و يحمور. و من أجمل حماماتهم حمام شهبة الذى يذكر بخرائبه الفخمة كما قال رى بحمامات كاراكالا فى رومية. و كنيسة السويداء التى تشبه كنيسة القديس بولس فى رومية. قال و لا شك أنها أجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية فى جميع إقليم حوران.

الهندسة الشامية و الكنائس و الهياكل:

قال أحد علماء الآثار: إن فى الشام الوسطى مجالا واسعا للأبحاث العلمية و درس العاديات، فإن فيها ما لا يحصى من الأبنية العادية كالهياكل الوثنية و الكنائس المسيحية و دور الخاصة و الأندية العمومية من أواخر القرن الأول قبل المسيح و القرن السابع للميلاد، و لأكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب فى زمانها. و هذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية من أثر أو آثار.

و قد عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية و تدمر و بعلبك ولدّ و باب جيرون قال و الروم تقول: ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرّها (أورفة)، و لا من بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج، لأنها بطاقات من خشب العناب، و لا بناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية، و لا بناء بطاقات الحجارة أبهى من كنيسة حمص. و بيعة القسيان فى أنطاكية هيكل طوله مائة خطوة و عرضه ثمانون و عليه كنيسة على أساطين و كان بدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة و الطلبة للدرس، و على أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلا و نهارا اثنتى عشرة ساعة، و فى أعلاه خمس طبقات فى الخامسة منها حمامات و بساتين و مناظر حسنة تخرّ منها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۴

المياه، و هناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب و الفضة و الزجاج الملون و البلاط المجزع. و كنيسة حمص كما قال المسعودى من بناء هيلانة و هى إحدى عجائب العالم. و كان فى مادبا من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ۱۴۰ مترا له عمد على الجانبين. و من العجائب آثار عسقلان و اشتهرت الشام بطرابيلها أى صوامعها. و فى كتاب لبنان أن من الآثار اليونانية البيزنطية فى لبنان كنيسة مشنقة، و معبد ناوس فوق شبطين، و معبد كفر شليمان، و كنيسة حدثون و كانت مبلطة بالفسيفساء تمثل رسوما و تصاوير جميلة، و من الفسيفساء أمثلة جميلة فى بعض الكنائس القديمة فى لبنان كفسيفساء كنيسة القديس جاورجيوس فى سرح، و كنيسة كور القديمة، و ما وجد فى النبى يونس من دائرة فيها كأس حولها طيور كالطاووس و الحجل و بعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة ۵۵۴ م. و كان فى بيروت عدة كنائس بيزنطية. و من الكنائس المهمة كنيسة مريم فى دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير فى القرن السادس: إن لها عند الروم فى دمشق شأنا عظيما و ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. و سنعرض للكلام على بقية الكنائس و الأديار فى الفصل الخاص بها من هذا السفر.

آثار العرب قبل الإسلام:

كان العرب قبل الإسلام يختلفون إلى الشام و كان النبط و هم عرب هم الذين أنشأوا آثار جرش و البتراء. و الغسانيون و اليهم تنسب

آثار كثيرة فى الشام الوسطى و منها قصر النعمان بن المنذر فى السويداء و فى حارب.

و بنى جفنة أول ملوكها جلق و القريّة و عدة مصانع. و بنى ابنه عمرو دير حالى و دير أيوب و دير الدهناء. و بنى ثعلبة بن عمرو عقة و صرح الغدير فى أطراف حوران مما يلى البلقاء. و بنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر و أذرح و القسطل. و بنى الحارث بن جبلة و كان مسكنه البلقاء الحفير فى البلقاء، و مصنعه بين دعجان و قصر أبير. و بنى المنذر بن الحارث صربا و رزقا قريبا من الغدير. و بنى جبلة بن الحارث قصر حارب. و بنى الأيهم ابن الحارث من الأديار دير ضخم و دير النبوة و سعف. و بنى عمرو بن

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۵

الحارث قصر الغضا و صفاة العجلات و قصر منار. و كان منزل جبلة بن النعمان بصفين و هو صاحب عين أباغ. و أصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة و كان بعض ملوك لخم خربها.

و حكم التنوخيون شمالى الشام قبل أن يجيئها جيوش العرب بقرون و لم نعرف للضجاعم و التنوخيين آثارا تذكر. و آثار الصفا و لغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ و آثار بنى سميدع العرب فى السويداء من جملة الشواهد على ذلك. و أقدم أثر عثر عليه العلماء و كتب بالعربية كتابة عثر عليها فى زبد للجنوب الشرقى من حلب، و أخرى فى حران جنوبى دمشق من أعمال اللجاة فى حوران. الأولى مثلثة اللغات عربية و سريانية و يونانية يرتقى عهدها إلى سنة ۵۱۲ ب. م و الثانية بالعربية و اليونانية تاريخها سنة ۵۶۸ ب. م بيد أن دوسو اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطى فى حرّة وادى السوط على مسافة كيلو متر من النمرة فى حوران إلى جنوبها الشرقى و تاريخ هذه الكتابة سنة ۲۲۳ لبصرى الموافقة لسنة ۳۲۸ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية. و فى الكتابة المذكورة تاريخ وفاة أحد ملوك عرب الشام و اسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بنى أسد. وزار أحد عمال القياصرة فى بادية الشام هذه الكتابة و أولها: «تى نفس (هذا قبر) امرء القيس بر (بن) عمرو ملك العرب كله ذو (الذى) أسر التاج و ملك الأسدين و نزار و ملوكهم الخ». و نسب دوسو عدة أبنية فى سيف البادية إلى الغسانيين.

و لقد أخطأ كلرمون غانو فى قوله: ليست المدنية العربية إلا كلمة خداعة لا وجود لها أكثر من فظائع الفتح العربى، و إن المدنية العربية آخر أنوار المدنية اليونانية و الرومانية طفئت بأيد خرقاء و لكنها محترمة و هى الإسلام.

ليست الحضارة ثمرة جيل بذاته و لا- هى مما يرتجل ارتجالا- كالإرث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع إرثى من القوى الحية. هو كنز من التوفير أتت عليه مئات من السنين قد يستطيع أحد اللصوص أن يضع يده عليه و يبذّر فيه يوما، و لكن حياته بأسرها لا تكفى للإيجاد، فقد احترمت هاته الأمة الحديثة النعمة ما وجدته من الإدارات و المعارف و الفنون، على حين لم يكن وراءها ماض تعتز به، و اقتصرت أن تحول كل شىء إلى منفعتها، و بلغ

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۶

بها الحال أيضا أن جعلت لدى مسيس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية، و هى امتيازات جادت بها، و نار التعصب يحرقها، فتساهلت معها تساهلا- دينيا عجيبا اه. نعم أخطأ فى حكمه على العرب و هم ما خربوا العاديات و لكنهم لم يتوفروا على ترميمها بعد أن كان للعرب من البنيان قصر غمدان و كعبة نجران و قصر مأرب و قصر مارد و قصر شعوب و الأبلق الفرد و قصر المشتى و الفدين و غيرها من المصانع و القصور التى سنعرض لها فى هذا البحث كيف يسلبهم كلرمون غانو إبداعهم المجمع عليه.

قصور العرب فى الإسلام:

تخلى جمهور من الروم فى دمشق عن دورهم فى الفتح و لحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون، ثم أخذوا فى كل بلد ينزلونه يرمّون ما عور من بنائه، و ربما بنوا بالمدراى باللبن و الطين أولا، ثم عادوا إلى استعمال الحجر. فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما بلغه أن سعدا و أصحابه بنوا بالمدر كتب: أكره لكم البنيان بالمدر فأما إذا فعلتم فعرضوا الحيطان، و أطيلوا السمك، و قاربوا بين الخشب.

و قد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور و قصور منتشرة فى أنحاء المدينة مثل دار أبى عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد و فضالة بن عبيد و العباس بن مرداس و أبى العزيز الأزدى و وابصة بن معبد و طلحة بن عمرو و خالد بن أسيد و النعمان بن بشير الأنصارى و واثلة بن أسقع و هبار بن الأسود و عمرو بن العاص و أوس بن أوس و يزيد ابن نبيشة و عبد اللّه بن عامر إلى أمثالهم. و لا نعرف إلا مكان دار أبى عبيدة و كان فى محلة حجر الذهب أى المحلة التى تعرف اليوم بالبيمارستان و كانت أجمل حىّ فى دمشق.

و كان معاوية يقيم أحيانا فى غوطة دمشق و ينصب الأبنية و الأروقة و الفساطيط و زعم اليعقوبى أن معاوية كان أول من بنى وشيد البناء و سخر الناس فى بنائه و لم يسخر أحد قبله. و لما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء، لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها، و ذلك قبلى الجامع الأموى، دخلها وفد الروم فقالوا: ما أحسن ما بناها للعصافير. و فى رواية أما أعلاها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۷

فللعصافير و أما أسفلها فللنار، فهدمها و بناها بالحجر. و الغالب أنها ظلت عامرة إلى القرن الخامس و فيها دار الإمارة. و احترقت سنة (۴۶۱) و بادت على ما نقل البرزالى. و قرأ المقدسى فى بعض الكتب أن ما أنفق على الخضراء ثمانية عشر حمل بغل ذهب. و لما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء و هى دار الإمارة بدمشق فاشتراها بأربعين ألف دينار، و اشترى منه أربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين عمواس، و من الأردن قصر خالد، و من دمشق الأندر، و من حمص دير زكا.

و بنى الأمويون بعده بيوتا لهم كانت بجوار الجامع و منها دار عمر بن عبد العزيز مكان المدرسة السميساطية الآن، و دار هشام مكان تربة نور الدين، و قصر سليمان بن عبد الملك، مكان سقاية جيرون، و دار مسلمة ابن هشام بباب البريد. قال الذهبى: بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة و عمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز. و كان لعاتكة ابنة يزيد ابن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق. و قال ابن عساكر: كانت دار هند بنت معاوية فى درب القبلى. و قصر حجاج منسوب إلى الحجاج ابن عبد الملك بن مروان. و قال ابن شاكر: و كان قبله أيضا معروفا بالحجاجية ملكا للحجاج بن يوسف الثقفى فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور و كانت أمه بنت محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف الثقفى سمته باسم عمها الحجاج فنحله الأرض المذكورة و بنى له القصر فعرف به و نسب إليه. و قال آخر: إن الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك دارا بدمشق تعرف بدار الحجاج. و اسم قصر الحجاج ما زال يدور على الألسن إلى اليوم دون القصر الذى دثر.

و قد بنى الأمويون قصورا لهم فى الغوطة و كانوا يملكون جانبا عظيما منها و لكن لم يظهر لها أثر و لا خبر. قال ابن حزم: و كانت دولة بنى مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم إنما كان سكناهم كل أمير منهم فى داره و ضيعته التى كانت له قبل الخلافة. و من قصور الأمويين فى حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية جدده فى زمن العباسيين عامل تلك

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۸

المدينة الفضل بن قارن الطبرى و تحصن به لما وثب به أهلها.

عناية الأمويين و تفننهم:

و فى أيام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم فى البنايات و العمائر لزيادة رغبته فى البناء فبنت الناس المجالس الحسان، و ذلك لأن الخليفة كان يرغب فى البنايات و إتقان المصانع، و فى عهده دخلت دمشق فى طور العواصم و الناس على دين ملوكهم. قال أحد المؤرخين: و كان الوليد عند أهل الشام محبوبا لأنه صاحب عمارة و بناء، عمر الضياع و وضع المنار فى الطرقات، و أعطى المجذّمين و أفردهم، و قال: لا تسألوا و أخدم كل مقعد خادما، و أعطى كل ضرير قائدا، و كتب إلى جميع البلاد بهدم المساجد و الزيادة فيها،

و تسهيل الطرق و حفر الأنهار، و أن تعمل البيمارستانات التى تعالج فيها المرضى، و هو أول من فعل ذلك و هو أول من أجرى على القراء و قوام المساجد الأرزاق.

قال ابن أبى عيلة رحم اللّه الوليد، و أين مثل الوليد، افتتح الهند و الأندلس و بنى مسجد دمشق، و كان يعطينى قصاع الفضة أقسمها على قراء (فقراء) مسجد بيت المقدس. وعدّ المقدسى من أمصار المسلمين فى الشام أو من المدن التى عمرها المسلمون و بعبارة أخرى الأمويون ثم العباسيون على قلة:

أنطاكية، بالس، المعرتين، منبج، قنسرين، سلمية، تدمر، اللاذقية، جبلة، جبيل، انطرسوس، بانياس، اللجون، جوسية، حماة، شيزر، وادى بطنان، داريا، بانياس، صيدا، بيروت، عرقة، طرابلس، الزبدانى، كامد، عرجموش، بيسان، أذرعات، قدس، كابل، عكا، صور، الفراذية، بيت جبريل، غزة، عسقلان، يافا، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان، ديلة، عينون، مدين، أذرح، مآب، معان.

الجامع الأموى و المسجد الأقصى:

و من أهم الآثار التى تنم عن ذوق عربى فى هذه الديار الجامع الأموى، و قد جرى ترميمه فى أوقات مختلفة و القليل الذى بقى من آثار نقش العرب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۴۹

و تصويرهم يدل على ما كان هناك من ذوق سليم، و يد صناع. و هندسة الجامع الأموى و المسجد الأقصى مقتبسة من الهندسة اليونانية و ممزوجة بأشياء إسلامية.

بعث ملك الروم إلى الوليد كثيرا من البنائين و المقدّرين أى المهندسين مع ما بعث إليه من المفصص أى الفسيفساء و الذهب قال المقدسى: إن الوليد جمع لبناء الجامع الأموى حذّاق فارس و الهند و المغرب و الروم. و روى ابن شداد: أن الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمدا عجيبة من المرمر و الرخام لمسجد دمشق حملت فى البحر إلى ساحلها. و لما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ أن نقول: إنه جمع أجمل ما فى الهند و فارس و آثينة و رومية.

أما طرز البناء فالغالب أن بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعة أو معبدا للصائبة. و مساجد الشام و مصر مبنية على شكل الكنائس التى قال المؤرخ أو سابيوس: إنها ذات أفنية و أواوين و فساقى و مساكن للقسس.

و لقد بلغ من تفنن الوليد بزخزفة الجامع الأموى و نقشه و تصويره ما يعجب منه و لا يكاد يكون له نظير فى هذه الديار فقد قال ابن كثير: إن أرض الجامع الأموى كانت مفصصة كلها و إن الرخام كان فى جدرانه إلى قامات و فوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب و فوقها الفصوص المذهبة و الخضر و الحمر و الزرق و البيض و سقفه مقرنص بالذهب و السلاسل المعلقة فيه من ذهب و فضة. و قد أنفق فيه خراج الشام سنتين و فى رواية أربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية و عشرون ألف دينار. و كان خراج الشام على عهد بنى أمية ألف ألف دينار و مائتى ألف دينار. و ذكر بعضهم أن الوليد أخذ ربع أعطيات أهل دمشق تسع سنين و كانوا خمسة و أربعين ألفا يستعين بها على عمارة جامع دمشق. قال المقدسى: و الجامع جامع دمشق أحسن شىء للمسلمين اليوم و لا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه و من أعجب شىء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة إلى أختها، و لو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صنعة.

دخل المأمون مرة جامع دمشق و معه أخوه المعتصم و يحيى بن أكثم فازدادوا عجبا قال المأمون لهما: أى شىء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم:

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۰

ذهبه فإنا نضعه فى قصورنا فلا تمضى عليه عشرون سنة حتى يحول، و هذا بحاله مع طول الزمن، كأن الصانع فرغ منه الآن. فقال

المأمون: ما أعجبنی هذا. فقال یحیی بن أکثم: الذی أعجب أمیر المؤمنین تألیف زخارفه فإن فیه عقودا ما یری مثلها. فقال المأمون: کلا بل أعجبنی أنه بنی علی غیر مثال شوهد.

کاد المؤرخون و الجغرافیون من العرب یجمعون علی أن المسجد الأقصی أحسن من جامع دمشق. عمّر عبد الملک بن مروان سنهٔ ۶۵ الحرم و القبهٔ الکبری التی فوق الصخرهٔ علی أسلوب جمیل لم یسبق إلیه. قال بعضهم:

إن شکل قبه الصخرهٔ مستعار من الهندسهٔ البیزنطیهٔ ثم هدم الکنیسهٔ التی کان شیدها یستنیانس و بنی موضعها المسجد الأقصی، و تنوق فی تنمیقه و أکمل البناء سنهٔ ۷۲ و قالوا: إن أساس المسجد الأقصی من عمل داود و هو علی غایهٔ الحسن و الإحکام کما قال یاقوت مبنی علی الأعمدهٔ الرخام الملونهٔ و الفسیفساء التی لیس فی الدنیا أحسن منه لا جامع دمشق و لا غیره. و روی ابن العدیم أن جامع حلب کان یضاهی جامع دمشق فی الزخرفهٔ و الرخام و الفسیفساء و أن سلیمان بن عبد الملک هو الذی بناه و تأنق فی بنائه لیضاهی به ما عمله أخوه الولید فی جامع دمشق. و کان سلیمان بن عبد الملک یسکن الرملهٔ قبل الخلافهٔ عمّرها و بنی مسجدها الجامع و خرّب له جارتها.

تاریخ الحرم القدسی:

شید المسجد الأقصی و قبهٔ الصخرهٔ فی مکان تل موریا، و هی منزلهٔ دینیهٔ سامیهٔ قدسها الوثنیون و الیهود و المسیحیون و المسلمون، و ربما کانت بیدرا لأحد الیبوسیین سکان فلسطین القدماء، و قد بنی فوقها داود بعد فتحه المدینهٔ مذبحا تقدم فیه القرابین. و أمر سلیمان سنهٔ (۱۰۱۳ ق. م) بإنشاء قصر له مکان المسجد الأقصی و هیکل فخم حیث قبهٔ الصخرهٔ. و قد دمره الکلدانیون سنهٔ (۵۸۸ ق. م) و فی السنهٔ العشرین قبل المیلاد شرع هیرودس الکبیر بإقامهٔ هیکل و برج عال فی المکان نفسه و لم یتمه، و دمره جنود الرومان سنهٔ ۷۰ لما استولی طیطوس علی بیت المقدس. و بنی الامبراطور ادریانوس سنهٔ ۱۳۰ م

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۱

مدینهٔ ایلیاء و أمر بتشیید زون کبیر للمشتری إله الحرب اثنا عشری الشکل(Dodecastyle) فنصب فیه صنما للمشتری و آخر لدیوسقورس أو صنم التوأمین (کاستور و بلوکس) و أقام تمثالا لنفسه بالقرب من الصخرهٔ المبارکهٔ. و قضی الفرس علی بیت المقدس لما اکتسحوها سنهٔ (۶۱۴).

و لما وافی عمر بن الخطاب القدس ذهب توا إلی مکان الحرم الشریف و أزال ما کان فیه من الأقذار، و لما أفضت الخلافهٔ إلی عبد الملک بن مروان و حیل بینه و بین الحرمین الشریفین لقیام عبد اللّه بن الزبیر خلیفهٔ فی الحجاز أمر بإنشاء المسجد الأقصی و قبهٔ الصخرهٔ فی بیت المقدس و رصد لذلک خراج مصر سبع سنین ففرغ فی سنهٔ (۷۲ ه) و کتب اسمه منقوشا بالفسیفساء عند مدخل الصخرهٔ من الباب الجنوبی «بنی هذه القبهٔ عبد الملک ... أمیر المؤمنین فی سنهٔ اثنتین و سبعین تقبل اللّه منه و رضی اللّه عنه آمین» أما الکتابهٔ الأثریهٔ فهی علی المثمنات ۱: بسم اللّه الرحمن الرحیم. لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له. محمد رسول اللّه صلی اللّه علیه. بنی هذه القبهٔ المبارکهٔ. ۲: عبد اللّه عبد [اللّه الإمام المأمو] ن أمیر المؤمنین فی سنهٔ اثنتین و سبعین تقبل اللّه منه و رضی اللّه عنه آمین. و الکلمات الثلاث الموضوعهٔ ضمن قوسین هی بخط أصفر و نقش أغبر و هی کانت و لا شک [الملک بن مروا] و قد أبدلتها ید صناع. أما الذی تولی عمارهٔ القبهٔ سنهٔ ۲۱۶ ه من قبل المأمون فهو صالح ابن یحیی و لکنهم نسوا أن یرفعوا التاریخ الأصلی لبناء القبهٔ و هو سنهٔ ۷۲.

و سقط شرقی المسجد و غربیه سنهٔ ۱۳۰ بالزلازل و کذلک فی سنهٔ ۱۵۸ فجدد فی سنهٔ ۱۶۹ فی خلافهٔ المهدی، و قد أنقص من طوله و زید فی عرضه، وجدد عمارهٔ قبهٔ الصخرهٔ فی أیام المأمون (۲۱۶) و زلزلت الأرض ثالثهٔ (۴۰۷) فتهدمت قبهٔ الصخرهٔ و بعض الجدران، فجددها الظاهر الفاطمی (۴۱۳ ه) و زید فیه فی زمن الفاطمیین البناء المسمی بجامع النساء، و کان فی مسجد بیت المقدس

ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعا.

و لما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة، و المسجد الأقصى إلى منزل لسكنى ملكهم. و لما استعاده صلاح الدين أعاد الحرم إلى ما كان عليه و أمر بترميم محراب الأقصى و كتب عليه بالفصوص المذهبة ما

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۲

نصه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، و عمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس، عبد اللّه و وليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا و الدين عندما فتحه اللّه على يديه فى شهور سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة، و هو يسأل اللّه إذاعة شكر هذه النعمة، و إجزال حظه من المغفرة و الرحمة».

و فى سنة (۶۳۴) عمر فى المسجد الملك المعظم عيسى. و فى سنة (۶۶۸) رمّ المسجد و الصخرة الظاهر بيبرس. و فى سنة (۶۸۶) عمر فيه المنصور قلاوون و رم فيه كتبغا المنصور لاجين و الناصر قلاوون فى سلطنته الثالثة و فى أيامه عمر فيه أيضا الأمير تنكز الناصرى. ثم جدد الأشرف شعبان (۷۶۹) و الظاهر برقوق (۷۸۹) و الظاهر جقمق العلائى و فى سنة (۸۷۷) جدد فيه الأشرف أبو النصر. و فى أيام العثمانيين تمت فى الحرم عدة عمارات منها ما جدده سليمان القانونى سنة (۹۶۹) و منها ما جدد فى سنى ۱۲۳۲ و ۱۲۵۶ و ۱۲۹۱ و بعدها.

المسجد الأقصى اليوم:

هو أولى القبلتين و ثالث الحرمين الشريفين، و وقع الحرم على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها ۴۹۰ مترا و الشرقية ۴۷۴ مترا و الشمالية ۳۲۱ مترا و الجنوبية ۲۸۳ مترا يحيط بها سور يختلف ارتفاعه بين ۳۰ مترا و ۴۰.

و يبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة أمتار طولا فى أربعة أمتار عرضا.

و حول السور من جهة الغرب و الشمال أروقة فسيحة معقودة يتخللها بعض أبواب الحرم و هى ۱۴ بابا. و قد قام جامع الصخرة الشريفة فى فناء مربع مفروش بالبلاط النحيت طوله من القبلة إلى الشمال أكثر من عرضه من المشرق إلى المغرب و ارتفاعه ثلاثة أمتار يصعد إليه بأدراج من الجهات الأربع، و عقد على كل درج من أعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام. و القبة على بناء فخم مثمن الشكل، ذرع كل تثمينة منه ۲۹ ذراعا و ثلث ذراع (۴۰/ م ۲۰). و قد كسى القسم السفلى من ظاهر بالرخام الأبيض المشجر، و القاشانى البديع الذى يترقرق فيه ماء الألوان المتزاوجة، من لازوردى صاف و أخضر قاتم و أبيض ناصع، يعلو ذلك شبه افريز رسمت عليه آى

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۳

القرآن. وضع هذا القاشانى فى أيام سليمان القانونى سنة (۹۶۹) ه و تحتوى كل تثمينة من البناء على سبع طاقات للتى لا باب فيها و على ست للتى لها باب.

و الطاقات المحاذية لأطراف التثمينات مسدودة كلها، و الأخرى مركب عليها الزجاج و الشبابيك الحديد. و لجامع الصخرة أربعة أبواب مزدوجة داخلا و خارجا مربعة الشكل بعقود مقوسة، و أمام الباب الأخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشانى فى وسطه قنطرة معقودة و السقف محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفات فى النوع و اللون، و للباب المذكور مصراعان ملبسان بالنحاس الأصفر المنقوش، عليها أقفال نفيسة متقنة الوضع.

و يبلغ دور البناء من الداخل ۵۳ مترا و هو مقسم إلى ثلاث دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الأعمدة و الأركان يتألف الأول منها من ثمانى سوار مسدسة الأضلاع و ۱۶ عمودا منها «أبيض و أزرق» عشرة و «أخضر مرسينى» ثلاثة و «شحم لحم» ثلاثة، و الصف الثانى مؤلف من أربع سوار مربعة الأضلاع و اثنى عشر عمودا منها سبعة «أخضر مرسينى» و خمسة «شحم لحم». و

السوارى ملبسة بالرخام المشجر و الملون البديع، و الأعمدة قديمة جدا و أكثر تيجانها تدل على أنها من الطراز الرومانى أو البيزنطى القديم و يربط أعمدة الصف الأول بعضها ببعض و بالسوارى بساتل ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش المذهب. و تحمل هذه الأعمدة مع جدار الجامع سقفا مائلا بعض الميل مدهونا بأنواع الدهان قائما على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصلا طرفه الأعلى بكرسى القبة. و يزين باطن القبة مجموعة لا- نظير لها من الفصوص الملونة تمثل ۶۴ شكلا من الزخارف على نحو ما كان يصنعه فنانو البيزنطيين، و هى مركبة على سطح موشى بالذهب و فى كرسى القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلا منها طبقة من الجبس، مقسمة عيونا مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان و الأشكال، تنفذ منها أشعة الشمس صافية، ملطفة بفضل ألواح الزجاج الخارجية و المشبكات المصنوعة من القاشانى، و على هذه الطاقات نقوش تدل على أنها صنعت فى زمن السلطان سليمان سنة (۹۴۵) ه كما أن المرمر الذى يكسوها ركّب فى زمن السلطان صلاح الدين وجدد فى أيام سليمان القانونى.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۴

و الصخرة الشريفة قائمة على درابزين من خشب منقوش مدهون بأنواع الأصباغ طولها ۷۰، ۱۷ مترا و عرضها ۵۰، ۱۳ مترا و يبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو ۲۵، ۱ متر إلى مترين، و ينزل إلى المغارة التى تحتها بإحدى عشرة درجة من جهة القبلة، و عند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين و بباطنها محرابان كل محراب على عمودى رخام لطيفين، و أمام المحراب الأيمن صفّة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف و آخر راقد، و فى الركن الشمالى منها صفّة تسمى باب الخليل، و جميع باطن أرض الصخرة و المغارة مفروش بالرخام، و فى وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها إذا نقر عليها رنين تتجاوب أصداؤه مما يدل على خلو ما تحتها. و حول الدرابزين الخشب مصلى للنساء و هو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته، و له أبواب أربعة لا يفتح منها عادة إلا الباب الغربى الموازى لباب النساء و هو من عمل الصليبيين إبان احتلالهم بيت المقدس.

صفة المسجد الأقصى:

يقع المسجد الأقصى جنوبى جامع الصخرة و طوله ۸۰ مترا و عرضه ۵۵ مترا عدا ما أضيف إليه من الأبنية، و أول ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة (۶۳۴) ه وجدد من بعده و هو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهى إلى سبعة أبواب، كل باب يؤدى إلى كور من أكوار المسجد السبعة. و للمسجد عشرة أبواب و البناء قائم على خمسة و أربعين عمودا.

و الغالب أن هذه الأعمدة قديمة نقلت من أنقاض أبنية متنوعة أقدم عهدا من الحرم. و فوق الأعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة، و فوق القناطر صفان من الطاقات و يتألف باطن السقف من عوارض كلها من الخشب. و عدة ما فى المسجد من السوارى أربعون، و هى ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة. و بأقصى الباب من جهة الجنوب قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة. و هى مما رممه صلاح الدين (۵۸۴ ه) كما رمّ أكبر جناحى المسجد، و القبة و الجناح على الغالب إنما صنعا فى خلافة المهدى

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۵

بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل، و هى كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها و بالفص المذهب من باطنها، و مجدد هذه التزيينات هو الناصر محمد بن قلاوون سنة (۷۲۸) ه و هناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفى على جانبى المحراب. و المحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر و بجانبه المنبر و هو من الخشب المرصع بالعاج و الآبنوس عمل فى عصر نور الدين زنكى و يقابل المنبر دكة المؤذنين و هى على عمد من رخام.

و من داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الأبيض، و هو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار فى غاية الإحكام بناه

الفاطميون، و من جهة الشرق جامع عمر و هو معقود بالحجر و الجير، سمى بذلك لأنه بقية من الجامع الذى بناه عمر رضى اللّه عنه حين الفتح. و إلى جانب هذا البناء إيوان كبير معقود يسمى مقام عزير و به باب يتوصل منه إلى جامع عمر، و بجوار هذا الإيوان من الشمال إيوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا و هو بجوار الباب الشرقى. و فى صحن المسجد الأقصى شمالا بركة مستديرة من رخام سورت بالقصب الحديدية يقال لها الكأس، يأتيها الماء بأنابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسماة ببرك سليمان أهمها عين عطاب و وادى الآبار.

و من الآثار المهمة فى الحرم البناء السفلى المعقود بالحجر معروف عند الإفرنج بإصطبل سليمان و هو عبارة عن مهد عيسى و محراب مريم و العقود الواسعة التى يقوم عليها المسجد الأقصى. و كذا البراق الشريف و هو فى السور الغربى و جامع المغاربة و المدرسة النحوية المعظمية و فيها اليوم دار كتب المسجد الأقصى و هى من أبنية الملك المعظم (۶۰۴ ه) و منبر القاضى برهان الدين بن جماعة و محرابه. و قبة السلسلة و هى شرقى قبة الصخرة و على شكلها صنعت فى أيام عبد الملك بن مروان. و قبة المعراج سنة (۵۹۷) ه. و سبيل قايتباى (۸۸۷ ه) و ما يحيط بالحرم من المدارس القديمة ..

هذا حاضر المسجد الأقصى و ما إليه و قد أثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر و الشمس و الثلج و الأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفائح الرصاص، و نخرت ما قامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد، فبادر المجلس الإسلامى

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۶

الأعلى إلى الكشف عن البناء فتبين أنه يحتاج إلى مئة و خمسين ألف جنيه على أقل تعديل. و ألفت لجنة لعمارته برئاسة المعمارى كمال الدين و استصرخ الأمم الإسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين ألف جنيه، و شرع حالا بما كان احكم بناؤه من حجر منقوش أو مرمر مسنون أو خزف مصقول أو خشب منجور أو صفر مطلى بالفضة أو مكسو بالتبر، أو فص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موشى منمق، و يوشك بفضل اللّه أن يعود إلى ما كان له من بهجة فى الأعصار السالفة.

وصف المقدسى للمسجد الأقصى فى القرن الرابع:

وصف المقدسى المسجد الأقصى فقال: هو على قرنة البلد الشرقى نحو القبلة أساسه من عمل داود، طول الحجر عشرة أذرع و أقل، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة، و قد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان و كان أحسن من جامع دمشق، لكن جاءت زلزلة فى زمن بنى العباس فطرحت المغطى إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له: لا يفى برده إلى ما كان بيت مال المسلمين، فكتب إلى أمراء الأطراف و سائر القواد أن يبنى كل واحد منهم رواقا فبنوه أوثق و أغلظ صناعة مما كان، و بقيت تلك القطعة شامة فيه و هى إلى حد أعمدة الرخام، و ما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث، و للمغطى ستة و عشرون بابا، باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصفر المذهب، لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوى الذراع، عن يمينه سبعة أبواب كبار فى وسطها باب مصفح مذهب و على اليسار مثلهن، و من نحو الشرق أحد عشر بابا سواذج، و على الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام أحدثه عبد اللّه بن طاهر و على الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام و أساطين و على المؤخر أروقة آزاج من الحجارة و على وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة و السقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص و المؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار و الصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من الأربعة جوانب فى مراق واسعة، و فى الدكة أربع قباب: قبة السلسلة، قبة المعراج، قبة النبى صلى اللّه عليه

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۷

و سلم. و هذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان و فى الوسط قبة الصخرة على بيت مثمن بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة باب القبلى، باب إسرافيل، باب الصور، باب النساء، يفتتح إلى الغرب جميعها مذهبة فى وجه كل واحد باب ظريف

من خشب التنوب مداخل حسن، أمرت بهن أمّ المقتدر باللّه. و على كل باب صفة مرخمة بالتنوبية تطبق على الصفرية من خارج. و على أبواب الصفاف أبواب أيضا سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجلّ من الرخام و أحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لاطية، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة، لا مثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية فى الهواء فيها طيقان كبار، و القبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود فى الهواء مائة ذراع، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة و بسطة.

و القبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب، و أرض البيت و حيطانه مع المنطقة من داخل و خارج على ما ذكرنا من جامع دمشق. و القبة ثلاث سافات: الأولى من ألواح مزوقة، و الثانية على أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح و فى وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصناع لتفقدها و رمها، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة و تلألأت المنطقة و رأيت شيئا عجيبا. و على الجملة لم أر فى الإسلام و لا سمعت أن فى الشرك مثل هذه القبة، و يدخل إلى المسجد من ثلاثة عشر موضعا بعشرين بابا اه.

أصل الجامع الأموى:

كان الجامع الأموى على ما ذكر المؤرخون معبدا قبل الإسلام، قال البيرونى: إن من آثار الصابئة القبة التى فوق المحراب عند المقصورة، و كان مصلاهم أيام كان اليونانيون و الروم على دينهم، ثم صار فى أيدى اليهود فعملوه كنيستهم ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة إلى أن جاء الإسلام و أهله فاتخذوها مسجدا. و قال البرزالى: و بنى اليونان و الكلدان هذا المعبد،

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۸

و كانوا يصلون إلى جهة القطب الشمالى و كانت محاريبه تجاه الشمال و بابه يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب، و هو باب حسن عن يمينه و يساره بابان صغيران بالنسبة إليه، و كان غربى المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الأعمدة التى بباب البريد و غربيه قصر جيرون، داران يكونان لمن يتملك دمشق قديما فهو أقدم معبد.

و قال شيخ الربوة: إن له نحو أربعة آلاف سنة و هو معبد. و لما فتح المسلمون دمشق أخذوا من النصارى النصف الشرقى من هذه الكنيسة التى كانوا يسمونها كنيسة ماريوحنا، و كان المسلمون و النصارى يدخلون من باب واحد و هو باب المعبد الأصلى فى القبلة فينصرف النصارى إلى جهة الغرب و المسلمون إلى الشرق. و كان لا يستطيع أهل الإنجيل أن يجهروا فى قراءته بكنائسهم و لا يضربوا بناقوسهم إجلالا للصحابة. فلما أخذت أصواتهم ترفع فى صلواتهم أحب الوليد أن يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه أربع كنائس أخرى. و قيل: إنه بذل للنصارى فيه أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوها فأخذها كما قال ابن العميد. و احتاج الوليد إلى صناع كثيرة فوجه إليه ملك الروم بمائتى صانع.

و حكى الجاحظ فى كتاب البلدان أنه كان مبنيا على الأعمدة الرخام طبقتين: الطبقة التحتانية أعمدة كبار، و التى فوقها صغار، فى خلال ذلك صورة كل مدينة و شجرة فى الدنيا بالفسيفساء الذهب و الأخضر و الأصفر، و فى قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ليس فى دمشق شىء أعلى و لا أبهى منظرا منها، و لها ثلاث منائر إحداها و هى الكبرى كانت ديدبانا للروم و أقرت على ما كانت عليه و صيرت منارة. و روى البرزالى أنه كان ابتداء عمارة جامع دمشق فى أواخر سنة ست و ثمانين و تكامل فى عشر سنين. و كان الفراغ منه سنة ست و تسعين و فيها توفى بانيه الوليد بن عبد الملك و قد بقيت فيه بقايا من الزخرفة فكملها أخوه سليمان بن عبد الملك وجددت فيه أشياء أخر، فمن ذلك القبة الغربية التى فى صحنه و يسميها الناس قبة عائشة، و غالب ظنى أنها بنيت فى سنة ستين و مائة فى أيام المهدى، و أما القبة الشرقية التى فى صحنه تجاه مشهد على بن الحسين فعمرت فى أيام المستنصر العبيدى فى سنة خمس

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۵۹

و أربعمائة و كتب عليها اسمه و اسم الأئمة الاثنى عشر.

و ذكر ابن جبير أن طول الجامع من الغرب إلى الشرق مائتا خطوة و هى ثلاثمائة ذراع و ذرعه فى السعة من القبلة إلى الجوف مائة خطوة و خمس و ثلاثون خطوة و هى مائتا ذراع و بلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق إلى المغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة، و قامت البلاطات على ثمانية و ستين عمودا منها أربع و خمسون سارية ثمانية أرجل جصية تتخللها و اثنتان مرخمة ملصقة معها بجدار الذى يلى الصخرة، و أربعة أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، و قد نظمت خواتيم، و صورت محاريب، و أشكالا غريبة، قائمة فى البلاط و يستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعته عشر خطا، و عدد قوائمه سبع و أربعون منها أربعة عشر رجلا- و الباقى سوار. و سقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص و أعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب و هى سامية فى الهواء عظيمة الاستدارة، و قد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب إلى الصحن و القبة، و قد أغصت الهواء فإذا استقبلتها رأيت مرأى هائلا.

و ذكر الباحثون من الفرنج أن طول الحرم الأصلى من الشرق إلى الغرب ۱۳۰۰ قدم و عرضه من الشمال إلى الجنوب ۱۰۰۰ فهو ربع مساحة دمشق كلها. و كان أمام جدرانه الأربعة من الداخل صف من الأعمدة على دائرة كشف علماء الآثار بعضها، و الجامع فى وسط هذا الحرم قائم على أسس الكنيسة التى كانت قبله، و هى قائمة على أسس الهيكل الذى كان قبلها أو على بعضها، و الجدار الغربى من الجامع قديم كله، ما عدا باب البريد فى وسطه فإنه من زمن العرب، و فى الجدار الجنوبى أنواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامى اليونانى، و جانب من البناء المسيحى فى عهد ثيودوسيوس و اركاديوس من القرن الرابع و الخامس للميلاد، و جانب من البناء العربى من زمن الوليد فى القرن الثامن، و تجديدات أخرى بعد ما احترق فى قرون متعددة.

و قال ابن حوقل: إن الوليد جعل أرض الجامع رخاما مفروشا و جعل وجه جدرانه رخاما مجزعا و أساطينه رخاما موشى و معاقد رؤوس أساطينه ذهبا

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۰

و محرابه مذهب. الجملة مرصعا بالجواهر و دور السقف كله ذهبا مكتوبا عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد، و إذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء إليه فدار على رقعة المسجد بأجمعه حتى إذا فجر منه انبسط عنه و عن جميع الأركان بالسوية. و أبوابه الأربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها و فيه ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية أحدثها سنة ۴۴ لما وثب عليه بعضهم ليقتله. كان فى جدار الصحن القبلى من الجامع حجر مدور على ما روى القزوينى شبه درقة منقطة بأبيض و أحمر بذل الفرنج أموالا فلم يجابوا إليه. و قد كان عزم عمر بن عبد العزيز أن يعمد إلى ما فى الجامع من الفسيفساء و هو النقش المفصص و الرخام فيقلعه و ينتزع السلاسل الذهبية، و كانت ستمائة سلسلة و يجعل مكانها حبالا و ينزع غيرها من ضروب الزينة و يبيعها و يجعلها فى بيت المال فأرجعه أهل دمشق عن فكره. و ذكروا له ما قام به أهل الشام من بنائه على هذه الصورة.

و وصف ابن جبير قبة الرصاص فى الجامع الأموى فقال: إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة و هياكلها الهائلة البنيان قال: إنها مستديرة كالكرة و ظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة، و تجتمع الأضلاع كلها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها، و داخل هذه القبة و هو مما يلى الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالا عجيبا، و هى كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، و فى الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها، فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو، و كيف تمكنت القدرة البشرية لذلك، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة اه.

و لنابغة بنى شيبان من قصيدة يصف فيها بدائع هذا الجامع فى القرن الأول و هى فى مدح الوليد بانيه:

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنافصخرها عن جديد الأرض منسوف

كانت إذا قام أهل الدين فابتهلواباتت تجاوبنا فيها الأساقيف

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۱ أصوات عجم إذا قاموا بقربتهم كما تصوّت فى الصبح الخطاطيف

فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرةو صادق من كتاب اللّه معروف

فيه الزبرجد و الياقوت مؤتلقو الكلس و الذهب العقيان مرصوف

ترى تهاويلهم من نحو قبلتنايلوح فيه من الألوان تفويف

يكاد يعشى بصير القوم زبرجهحتى كأن سواد العين مطروف

و فضة تعجب الرائين بهجتهاكريمها فوق أعلاهن معطوف

و قبة لا تكاد الطير تبلغهاأعلى محاريبها بالساج مسقوف

لها مصابيح فيها الزيت من ذهبيضىء من نورها (لبنان) و (السيف)

فكل إقباله- و اللّه زينه-مبطن برخام (الشام) محفوف

فى سرة الأرض مشدود جوانبهو قد أحاط بها الأنهار و الريف

فيه المثانى و آيات مفصلةفيهن من ربنا وعد و تخويف

و من أجمل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكنانى من قصيدة:

و كأن جامعها البديع بناؤهملك يمير من المساجد جحفلا

ذو قبة رفعت فضاهت قلةو منابر بنيت فحاكت معقلا

تبدو الأهلة فى أعاليها كمايبدو الهلال تعاليا و تهللا

و يريك سقفا بالرصاص مدثرايعلو جدارا بالرخام مزملا

قد ألّف الأقوام بين شكولهفغدا الرخام بذاته متشكلا

لم يرض تجليلا بجص فانبرىبالفص يعلو و النضار مجللا

يغشى سوام اللحظ فى أرجائهمن عسجد أرضا و من فص خلا

فإذا تذر الشمس منه تخاليلقا تألق أو حريقا مشعلا

فكأنما محرابه من سندسأو لؤلؤ و زمرد قد فصلا

و تخال طاقات الزجاج إذا بدتمنه للحظك عبقريا مسدلا

تبدو القباب بصحنه لكك مثلماتبدو العرائس بالحلىّ لتجتلى

و علت به فوّارة من فضةسالت فظنوها معينا سلسلا

و ببابه حركات ساعات إذافتحت لها باب تراجع مقفلا

و يريك باريها و كل قد رمىمن فيه يقذفه يصيب سجنجلا

و ظل الجامع بحاله بهجة النظار و السفار، و مفخر دمشق على غابر الأعصار،

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۲

و الملوك حتى من العباسيين يرمّون فيه إلى أن التهمه الحريق الأول سنة (۴۶۱ ه) فذهبت محاسنه، و ذلك فى حرب المصريين المغاربة أى الفاطميين مع العراقيين فأحرقوا دارا مجاورة للجامع فتعلقت النيران به فدثرت محاسنه، و تشوه مظره و احترقت سقوفه المبطنة بالذهب و فصوصه، و سقطت القبة كما قال الذهبى فأعيدت إلى ما كانت، و احترق ثانية سنة ۷۴۰ و كان الأصل فيه كما قال ابن مفلح من النصارى بدمشق، و اشتهر ذلك عنهم، و كتب عليهم محضر به، و نقضت مأذنة عيسى وجددت من أموالهم لكونهم

اتهموا بحريقها بإقرار بعضهم. و هذا الحريق عم جميع الجامع و ما حوله من الأسواق. و فى سنة (۷۵۳) كان ثالث حريق و ذلك أنه وقع حريق عند باب جيرون فاتصل بالباب بالنحاس الأصفر فنزعوه و كسروا خشبه و كان من نحاس دمشق و معاملها.

و كان فى سنة (۷۹۵) حريق سوق الدهستان و سوق الورافين و الساعات و نصف المعزية من شرقى الجامع، ثم أعيد إلى ما كان عليه.

و رابع حريق كان فى سنة (۸۰۳) عند حضور تيمور و حرقت خزانة المصاحف و الكتب فأعيد سنة (۸۰۵) إلى قريب ما كان عليه و خامس حريق كان سنة (۸۸۴).

و أصيب بالزلازل مرات و تعطلت جوانبه و تداعت بعض سقوفه و منها زلزلة سنة (۵۹۷) فرمى بعض المنارة الشرقية و سقط ۱۶ شرفة و تشققت قبة النسر و آخرها زلزال سنة (۱۱۷۳) فخربت قبة النسر و الرواق الشمالى و أعيد بناؤهما من قابل. حتى إذا كانت سنة (۱۳۱۰) سرت النار إلى جزوع سقوفه فالتهمتها فى أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقى من آثاره و رياشه، و حرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفى كان جيء به من مسجد عتيق فى بصرى، و كان الناس يقولون إنه المصحف العثمانى، و جمعت أموال من إعانات و غيرها فنجز القسم الشرقى فى سنة (۱۳۱۷) و فى سنة (۱۳۲۰) نجز القسم الغربى و ظل العملة فى بنائه الذى أرجع إلى ما كان عليه بالجملة عشر سنين و صرف عليه ستون ألف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعوا للعمل فيه بلا أجر. و لم يبق من محاسن الجامع القديمة إلا جدرانه و بعض كتابات من عهد السلجوقيين و الأيوبيين و المماليك على بعض سواريه. و فى دار الآثار بدمشق أيضا حجران كتابا لخط الكوفى بعمارة قسم من الجامع، فى القرن الخامس و صورتهما:

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۳

الأول- (بسم اللّه الرحمن الرحيم): شهد اللّه أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند اللّه الإسلام.

أمر بعمارة هذه القبة و المقصورة و السقف و الطاقات و الأركان فى خلافة الدولة العباسية أيام الإمام المقتدى بأمر اللّه أمير المؤمنين، و فى دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم أبى الفتح ملك شاه بن محمد و أيام أخيه الملك الأجل المؤيد المنصور تاج الدولة و سراج الملة شرف الأمة أبى سعيد تتش ابن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين و فى أيام وزارة الشيخ الأجل نظام الملك أتابك أبى على الحسن بن على الوزير الأجل السيد فخر المعالى ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو نصر أحمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب اللّه عز و جل فى شهور خمس و سبعين و أربعمائة.

الثانى- (بسم اللّه الرحمن الرحيم): لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا.

أمر بعمل هذه المقصورة و ترخيم الأركان فى خلافة الدولة العباسية أيام المقتدى بأمر اللّه أبى القاسم عبد اللّه أمير المؤمنين و فى دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم مولى العرب و العجم أبى الفتح ملكشاه بن محمد بن داود أمين أمير المؤمنين و أيام أخيه الملك الأجل تاج الدولة و سراج الملة و شرف الأمة أبى سعيد تتش بن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين الوزير الأجل السيد فخر المعالى ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو النصر أحمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب اللّه عز و جل فى شهور سنة خمس و سبعين و أربعمائة» اه.

قصور الأمويين و مصايفهم و مشاتيهم:

وصف يزيد بن المهلب دار ولى عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال:

دخلتها فإذا هى دار مجصصة حيطانها و سقوفها، و فيها و صفاء و وصائف عليهم ثياب صفر و حلى الذهب، ثم أدخلت دارا أخرى فإذا حيطانها و سقوفها خضر، و إذا و صفاؤها و وصيفاتها عليهم ثياب خضر و حلى الزمرد، و إن ولى العهد قاعد على سرير معه

امرأته. و وصف حماد الراوية دار هشام بن

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۴

عبد الملك فى دمشق فقال: إنها دار قوراء مفروشة بالرخام، و هو فى مجلس مفروش بالرخام، و بين كل رخامتين قضيب من ذهب، و حيطانه كذلك، و هشام جالس على طنفسة حمراء، و عليه ثياب حمر من الخز، و قد تضمخ بالمسك و العنبر، و بين يديه مسك مفتوت فى أوانى ذهب، يقلبه بين يديه فتفوح رائحته، و فى المجلس جاريتان لم ير مثلهما قط اه. و اللّه أعلم أكان ذلك حقيقة أم خيالا.

و قد ادعت ميس بل أنه لو لا حوادث القرن السابع أى لو لا دخول العرب الفاتحين لبلغ الشاميون طريقة فى هندسة الأبنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم، و إن امتزج بها شىء من هندسة الأمم الأخرى، فردّ عليها لامنس بأن هذه المدينة مدينة دمشق لم تمس عاصمة كبرى إلا فى عهد بنى أمية و بهمتهم.

قلنا: و لو لم يعفّ بنو العباس آثار بنى أمية فى الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم. و كان منه ما هو فى المدن و منه ما هو فى البادية أو ما يقرب منها. لأن الأمويين كانوا على الأغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها و حمياتها، فمنهم من نزل قصر الموقر أو المقور و قصر المشتّى و الزيزاء و الفدين و الأزرق و الأغدف و البخراء و الأبيض و القسطل و الرصافة و الزيتونة و الجابية و حوّارين و الصّنّبرة و دابق و بطنان حبيب و أيابر فى البلقاء و شمالى الشام و شرقها. و حصن الموقر بالبلقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشتى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك و كان رممه فجعله من القصور الجميلة. و استقر الوليد بن يزيد و العباس بن الوليد فى القسطل فى البلقاء. و الوليد فى الزيزاء و قصر الأزرق. و ابتنى عبد الملك الأبنية حول قصر الموقر و كان له فى البرية عدة قصور. و قصر عمرا على قصر المشتى على سبعين كيلو مترا من جهة الشرق و هو فى وسط البادية. اكتشف قصر عمرا الأثرى موسيل سنة ۱۸۹۸ و هو قصر أموى يجمع بين مزايا الصروح الملكية و الحصون، و هو على الشاطئ الشمالى من البحر الميت و كان على ما يظهر حماما حفظت فيه كما قال هرزفلد نقوش عجيبة بحالها لم يحفظ مثلها فى صقع آخر من أصقاع الشام، تمثل مشاهد الحمامات و ألعابا رياضية كالجريد و صيودا لأنواع الطيور و قنصا فى البحر و لوحات تمثل الصناعات و صورا

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۵

رمزية تمثل أدوار الحياة فى البادية و التاريخ و الفلسفة و الشعر، و خليفة جالسا على العرش و أعداء الإسلام و رسوم منطقة البروج و رجالا- و نساء و أشجارا و حيوانات فى كؤوس و فرش، و شجيرات و عساليج الكرمة و الدفلى و النخيل و ثمارا و طيورا من أطيار البادية و امرأة عريانة محلاة باللؤلؤ. و كلها تدل على أنها من هندسة الروم و الشاميين و الفرس. و وجد فيه اسم: «قيصر، رذريق، كسرى، النجاشى» مكتوبا بالعربية و الرومية. و إجماع الأثريين على القول إن هذا القصر من عمل الوليد الأول بين سنتى ۷۱۲ و ۷۱۵ ميلادية. و كذلك قصر المشتى و هو على اثنى عشر ميلا شرقى عمان و على ساعة من شرقى القسطل فى خربة الموقر و هو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعة يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ۱۵۰ مترا و فى زواياه أربعة بروج مستديرة و لكل من جوانبه الثلاثة الشرقى و الغربى و الشمالى بروج يشرف منها اثنان على جهتى باب البناء و هما كثير الأضلاع. و يقسم البناء إلى ثلاث مربعات مستطيلة أوسعها الأوسط فيه أبنية القصر القديمة و طول القصر خمسون مترا فى عرض سبعين و يشتمل على حجرة واسعة يليها أربعة منازل. و الأبنية كلها مشيدة بالآجر ما عدا طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهى مبنية بالأحجار البيضاء.

و فى ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الأخضر لم تنحت بعد. و كان وجه البناء الخارجى مزينا بأبدع النقوش، و هى تمثل جفنة محكمة الصنع ذات أغصان و فروع تمتد على طول البناء تتخللها طيور و حيوانات ليست معروفة كالأسود المجنحة و العنقاء تمرح و تنقر العنب أو تشرب من الكؤوس. اقتطع هذه الصور علماء من الألمان بأمر عبد الحميد الثانى و هى اليوم فى متحف برلين. و الرأى الشائع أنها من صنع الغسانيين. و فى تلك الأرجاء نحو أربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن.

و بنی هشام حصن المثقب علی ید حسان بن ماهون الأنطاکی و حوله خندقا و حصن بوقا من أعمال أنطاکیة. و کان هشام ینزل فی الزیتونة فی بادیة الشام فلما عمر الرصافة انتقل إلیها فکانت منزله إلی أن مات. و کان یزید یقیم فی حوّارین و تدمر، و ابنه خالد یسکن فی قصر الفدین فی البلقاء. و من الدور الکبیرة بدمشق دار خالد بن عبد اللّه بن یزید أبو الهیثم البجلی القسری من

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۶

أهل دمشق کان أمیرا علی مکة و ولی إمرة العراقین و کانت داره بقنطرة سنان بباب توماء.

و بعض هذه القصور لا تزال أسسه ماثلة للعیان مثل قصر الموقر و المشتی لم ینسفها العباسیون کما نسفوا آثار المدن و نقضوا سور دمشق یوم فتحوها حجرا حجرا، و أخربوا أیضا قصور الأمویین فی حلب مثل قصر سلیمان ابن عبد الملک بالحاضر، و قصر مسلمة بن عبد الملک بالناعورة بحلب، و منازل هشام بن عبد الملک فی القطیفة من جبل سنیر، و قصری هشام فی الرصافة، و أبقوا فی الغالب علی قصر خناصرة من أرض الأخصّ لعمر بن عبد العزیز احترموه و لم یبقوا علی غیر قبره من قبور بنی أمیة. و فی الأغانی أن المأمون طاف علی قصور بنی أمیة و تتبع آثارهم فدخل صحنا من صحونهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر کله. و الظاهر من کلام المقدسی ان آثار بنی أمیة کانت موجودة فی القرن الرابع خلافا لما هو المعروف من أن العباسیین أتوا علیها کلها. و الغالب أن بعض الأبنیة لم تعور کثیرا و رمّت فاطلق علیها أسمها الأصلی و نسبت إلی بانیها الأول.

قصور خلت من ساکنیها فما بهاسوی الأدم تمشی حول واقفة الدّمی

تجیب بها الهام الصدی و لطالماأجاب القیان الطائر المترنما

کأن لم یکن فیها أنیس و لا التقیبها الوفد جمعا و الخمیس عرمرما

عمل العباسیین:

قال الجاحظ: من شأن الملوک أن یطمسوا علی آثار من قبلهم و أن یمیتوا ذکر أعدائهم، فقد هدموا بذلک السبب المدن و أکثر الحصون، کذلک کانوا أیام العجم و أیام الجاهلیة، و علی ذلک هم فی الإسلام، کما هدم عثمان صومعة غمدان و کما هدم الآطام (الحصون) التی کانت بالمدینة، و کما هدم زیاد کل قصر و مصنع کان لابن عامر، و کما هدم أصحابنا (یعنی العباسیین) بناء مدن الشامات (الشام) اه.

أما بنو العباس فلم تبق الأیام من آثارهم مصنعا یعتدّ به فی الشام لنحکم علی عظمتهم، و کان من أهمها قناة قریة منین التی جرّها المأمون إلی معسکره

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۷

بدیر مران فی جبل قاسیون. و هذا عمل مهمّ مما بلغنا خبره لأن الطریق من منین إلی قاسیون یحتوی علی أودیة و شعاب و نجاد کثیرة ذکر ذلک ابن عساکر.

و قد بنی للمتوکل العباسی قصر بین داریا و دمشق فلم یعثر له علی أثر. قال ابن کثیر: إن المتوکل لما جاء دمشق عازما علی الإقامة بها سنة أربع و أربعین و مائتین أمر ببناء القصور بها و هی التی بطریق داریا. و من ذلک یفهم أنها کانت موجودة إلی زمن ابن کثیر. و فی سنة (۲۶۲ ه) بنی الأمیر النعمان دارا عظیمة فی بیروت و حصن سور المدینة و قلعتها. أما المتغلبة علی الملک فی زمن العباسیین مثل الفاطمیین و الطولونیین و الحمدانیین و السلجوقیین فإننا لا نعرف عن آثارهم کبیر أمر أیضا و لا سیما بنو طولون و بنو عبید فإنهم آثروا أن یجعلوا مصانعهم فی مصر مقر ملکهم. کما آثر العباسیون أن یجعلوها فی العراق و خراسان. و مما بناه ختکین والی دمشق للحاکم بأمر اللّه جسر الحدید تحت القلعة قلعة دمشق علی نهر بردی، و سخر الناس لأجل عمله و أخذ أموالهم.

ذکر ابن عساکر أن حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضی دمشق من قبل الفاطمیین جدد فی دمشق مساجد و منابر و قنوات و

أجرى الفوّارة التى فى جيرون. و ذكر أنه وجد فى تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة فى كل سنة و هو الذى أنشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفى سنة ۴۳۴. و كان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية و الصلاحية (۵۸۴) دار كبيرة بدمشق إلى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقرا سنقر المنصورى ثم للسلطان الملك الناصر و له تربة و مسجد و خان. و كان الملك الأمجد صاحب بعلبك يقيم بداره التى داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة و هى التى ينزلها النواب و لعلها دار المشيرية التى حرقت فى العهد الأخير و دار السعادة هذه أكملت عمارتها سنة (۴۰۸ ه) بعد إلزام النائب أهل البلد بعمارتها، و مرمة ما يحتاج السكنى فيها و تحول إليها فسكنها.

آثار عربية محلية ميناء عكا:

و قد نشأت فى القرن الرابع و ما بعده فى الشام حركة مباركة فى العمران قام بها مهندسون من العرب انتهى إلينا قليل من أعمالهم مثل أبى بكر البناء

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۸

المهندس الذى ابتنى ميناء عكا لابن طولون. قال المقدسى: و لم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون، و قد كان رأى صور و منعتها و استدارة الحائط على ميناها، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء، فجمع صناع الكورة و عرض عليهم ذلك، فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء فى الماء فى هذا الزمان، ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء، و قيل: إن كان عند أحد علم هذا فعنده، فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه، فلما صار إليه و ذكر له ذلك قال: هذا أمر هين علىّ بفلق الجميز الغليظة، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البرى، و خيط بعضها ببعض، و جعل لها بابا على الغرب عظيما، ثم بنى عليها بالحجارة و الشيد، و جعل كلما بنى خمسة دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، و جعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملا حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك، و كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه و خيطه به، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب فى كل ليلة تدخل الميناء و تجر السلسلة مثل صور. قال المقدسى: و ميناء صور و عكا من العجائب.

و قال ابن إياس من أهل القرن العاشر: إن فى صور قنطرة ليس فى الدنيا أعظم منها و هى على قوس واحدة مثل قنطرة طليطلة بالأندلس إلا أنها دون قنطرة صور. و بنى أحمد بن طولون قلعة يافا و لم يكن لها قلعة من قبل.

و ذكر المؤرخون أن جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة (۳۵۸) نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد و أقام أصحابه هناك الأسواق و المساكن و صارت شبه المدينة، و اتخذ لنفسه قصرا عجيبا من الحجارة، و جعله عظيما شاهقا فى الهواء غريب البناء. و هذه صورة ما وجد على جسر ثورا مكتوبا على حجر بالخط الكوفى على ما حققه استاذنا الشيخ طاهر الجزائرى: أمر بعمارة الجسر المبارك مولانا الإمام المستنصر باللّه أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه تاج الأمراء ... جيوش ... شرف الملك عمدة الإمام سيف الإسلام معز الدولة و عضدها و أطال اللّه بقاءه فى ربيع الأول سنة (۴۵۶).

وهب صاحب حلب محمود بن نصر لابن أبى حصينة المعرى الأديب (۴۵۷) مكانا بحلب تجاه حمام الواسانى فجعله دارا و زخرفها فلما تم بناؤها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۶۹

نقش على دائرة الدرابزين فيها:

دار بنيناها و عشنا بهافى دعة من آل مرداس

قوم محوا بؤسى و لم يتركواعلىّ فى الأيام من باس

قل لبنى الدنيا ألا هكذافليحسن الناس إلى الناس

و لما تكامل البناء عمل دعوة حضرها الأمير محمود بن نصر فلما رأى حسن الدار و قرأ الأبيات المتقدمة قال: يا أبا الفتح كم صرفت على بناء الدار قال: يا مولانا هذا الرجل تولى عمارتها و لا أدرى كم صرف عليها.

فسأل المعمار فقال: غرّم عليها ألفا دينار مصرية فأمر بإحضار ألفى دينار و ثوب أطلس و عمامة مذهبة و حصان بطوق ذهب و سرفسار ذهب فسلمها إلى ابن أبى حصينة و قال له:

قل لبنى الدنيا ألا هكذافليحسن الناس إلى الناس

و فى الروضتين أن صلاح الدين يوسف كان يزور القاضى الفاضل ليستضىء برأيه فيما يريد فعله فى جوسق (قصر) ابن الفراش بالشرف الأعلى فى بستانه، حتى إن الصفى بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له دارا مطلة على الشرف بالقلعة و أنفق عليها أموالا كثيرة و بالغ فى تحبيرها و تحسينها و ظن أنها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفا و لا استحسنها، و كانت من جملة ذنوبه عند السلطان التى أوجبت عزله عن الديوان و قال:

ما يصنع بالدار من يتوقع الموت، و ما خلقنا إلا للعبادة و السعى للسعادة، و ما جئنا لنقيم، و ما نروم أن لا نريم.

القصر الأبلق:

و من المصانع التى كانت بدمشق القصر الأبلق فى الميدان القبلى، و هو قصر عظيم مبنى من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود و الأصفر، بتأليف غريب و إحكام عجيب، بناه الظاهر بيبرس البندقدارى و على مثاله بنى الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر. قال ابن فضل اللّه: و أمام هذا القصر أى أبلق دمشق دركاه يدخل منها إلى دهليز القصر و هو دهليز

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۰

فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن، المؤزر بالرخام، المفصل بالصدف و الفص المذهب إلى سجف السقف، و بالدار الكبرى به إيوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر و غربيهما على شاطئ واد أخضر يجرى فيه نهر، و له رفارف عالية تناغى السحب، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة و الغوطة. قال شيخ الربوة:

سمى بالقصر الأبلق لكونه مبنيا بالحجارة البيض و الحجارة السود. و قد بقى هذا القصر عامرا إلى عهد العثمانيين رآه ابن طولون الصالحى المتوفى سنة ۹۵۳ و قرأ تاريخه ۶۶۸ و قال: إن على أسكفته ضربا من رخام أبيض وسطه مكتوب عمل إبراهيم بن غنائم المهندس. و قد قال العارفون: إن التكية السليمانية قامت على أنقاض ذاك القصر. و ذكر ابن تغرى بردى أن الأبلق ما زال عامرا تنزله الملوك إلى أن هدمه تيمور لنك فى سنة ثلاث و ثمانمائة عند حريق دمشق و خرابها.

و بنى علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف للملك المظفر فى حماة أبراجا و طاحونا على العاصى و عمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة و عاونه فى عملها المهندس القاضى جمال الدين بن واصل.

المعاهد الدينية و المدنية فى العهدين النورى و الصلاحى:

و لما قويت حركة العمران فى عهد الدولتين النورية و الصلاحية بدمشق و حلب و القدس و حماة و طرابلس و بعلبك و غيرها و أخذوا ينشئون فيها المدارس و الجوامع و الرّبط و المستشفيات و القلاع و الجسور، كان منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التى شرع ببنائها نور الدين و لم يتمها، و لما ولى العادل أزال ما بناه نور الدين و بناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذى لا نظير له فى بنيان المدارس. و من البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمرى فى صالحية دمشق، و هندسة مدرسة الصهيبية فى حلب، و كذلك المدرسة التى كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال: و من أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتا و غرفا و له طيقان يتصل بعضها ببعض، و قد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبا،

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۱

فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها، فيمدّ الساكن فيها يده و يجتنيه متكئا دون كلفة و لا مشقة. و قد قيل: إن منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية.

و لقد بنى الملك الأشرف بن العادل بدمشق قصورا و متنزهات حسنة.

و كانت عمارة اللاذقية فى الحروب الصليبية من أحسن الأبنية و أكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه كما قال ابن الأثير، فخرب المسلمون كثيرا منها و نقلوا رخامها إلى دمشق و غيرها، و خربوا البيع التى قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار، و لما تسلمها تقى الدين عمر حصن قلعتها، و كان عظيم الهمة فى تحصين القلاع و الغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة.

و بنى الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين يوسف قصرا فى قرية القابون بدمشق «لم ير الراؤون مثله» و عمر الشرف الأعلى فى دمشق بقصور العظماء.

عمران دمشق فى القرون الوسطى:

و بعد أن كانت دمشق فى القرن السادس أكثر مدن الأرض سكانا كما قال ابن جبير و كانت فى القرن الثامن كما قال ابن تغرى بردى أجمل مدينة فى العالم بل أغنى مدينة، أحرق تيمورلنك بعض أحيائها و مدارسها و غرّمها ملايين من الدنانير، و حمل معه المهندسين و البنائين و النقاشين، فى جملة من حمل من أرباب الصنائع إلى سمرقند، كما فعل السلطان سليم فى مصر لما فتحها فى الربع الأول من القرن العاشر، فحمل إلى القسطنطينية كل صاحب صنعة و عمل نافع و جردها من بدائعها و صناعاتها النفيسة.

و كان فى دمشق فى القرن التاسع مائة حمام أفردها ابن عبد الهادى فى رسالة كما كان فى عصره ألف جامع و مسجد فى دمشق و ضاحيتها و ناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران. و لا غرو بعد هذا إن قال فينا أبو الفضل ابن منقذ الكنانى يوم كان لنا القدح المعلى فى العمائر:

و إذا مررت على المنازل معرضا عنها قضى لك حسنها أن تقبلا

إن كنت لا تسطيع أن تتمثل الفردوس فانظرها تكن متمثلا

و إذا عنان اللحظ أطلقه الفتىلم يلق الا جنة أو جدولا

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۲ أو روضة أو غيضة أو قبةأو بركة أو ربوة أو هيكلا

أو واديا أو ناديا أو ملعباأو مذنبا أو مجدلا أو موئلا

أو شارعا يزهو بربع قد غدافيه الرخام مجزّعا و مفصلا

دور الخاصة:

و من قصور حلب فى القرن الثالث دار واليها زكا الأعور و دار حاجبه فيروز و دار سيما الطويل و دار كورة الخراسانى و منها قصر السلطنة بدمشق.

و ذكر ابن عساكر أن محمد بن عمرو بن حوى السكسكى كان فى إقليم من أقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لهيا بينها و بين دمشق نحو ميل و كان له فى هذا الأقليم عدة قصور مبنية بالحجارة و خشب الصنوبر و العرعر فى كل قصر منها بستان و نهر يسقيه، و كان كل جليل يقدم من الحضرة (بغداد) أو من مصر يريدها ينزل عنده و فى قصوره، و كان ذلك فى القرن الثالث. و من قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح فى مدينة منبج و كان بناه لنفسه و أنشأ بستانا إلى جانبه. قال ابن الجوزى: هدم أهل دمشق قصر السلطنة فى القرن الخامس و درسوه و كان عظيما يسع ألوفا من الناس. و قصر بطياس فى حلب المذكور فى شعر البحترى كان عامرا إلى عهد

ابن العدیم فی القرن السادس و کان عامرا إلی عهده برج من الحصن الذی کان بناه مسلمة بالناعورة و کان بنی فیها قصرا بالحجر الأسود الصلد.

و قد خربت محلة الفرادیس المعروفة الیوم بمحلة العمارة فی فتنة القرامطة سنة (۳۶۳) و کان فیها علی روایة ابن القلانسی من البنیان الرفیع فی الحسن و البهاء ما لم یر مثله و هو أحسن مکان کان بظاهر دمشق. و قال ابن شاکر:

إن اللؤلؤتین کانتا منظرتین ظاهر دمشق مما یلی باب الحدید غربا و کانتا من أعجب البناء. أحرقهما المصریون لما حاصروا دمشق. و اللؤلؤتان الصغیرة و الکبیرة هما الیوم حدائق فی أرض باب السریجة بینها و بین قریة کفرسوسة.

و قنطرة سنجة التی قال فیها ابن حوقل: لیس فی الإسلام قنطرة أحسن منها و یقال: إنها من العجائب و سنجة بالقرب من منبج. و قال ابن القلانسی:

من اقتراحات شمس الملوک صاحب دمشق الدالة علی قوة عزیمته، و مضاء

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۳

همته، و مستحسن ابتدائه، ما أحدثه من البابین المستجدین خارج باب الحدید من القلعة بدمشق الأوسط منها، و باب جسر الخندق الشرقی منها و هو الثالث لها، أنشئ ذلک فی سنة (۵۲۷) مع دار المسرة بالقلعة و الحمام المحدثة علی صیغة اخترعها، و بنیة اقترحها، و صفة آثرها، فجاءت فی نهایة الحسن و الطیبة، و التقویم و الاعتدال.

و اشتهرت فی القرن الخامس دار ابن عقیل صاحب صور (۴۶۵) دخلها أسامة بن منقذ فرآها و قد تهدمت و تغیر زخرفها فکتب علی لوح من رخام هذه الأبیات:

احذر من الدنیا و لاتغتر بالعمر القصیر

و انظر إلی آثار من‌صرعته منا بالغرور

عمروا و شادوا ما تراه من المنازل و القصور

و تحولوا من بعد سکناها إلی سکنی القبور

و ذکر سبط ابن الجوزی أن أسامة الحلبی بنی دارا بدمشق بأنقاض بیوت الناس فخربت علی ید أیوب بن الکامل محمد فی سنة (۶۴۷)، و کان أسامة قد غرّم علیها أموالا عظیمة و أخذ أراضی الناس و الآلات بدون الطفیف، و صح فیه القول القائل: الحجر المغصوب فی البناء أساس الخراب.

و کانت هذه الدار سبب هلاک أسامة.

تجدید المدن الصغیرة:

من المدن ما نبه ذکره بعد خموله فی عهد الدولة الأتابکیة و الأیوبیة مثل حماة فلم یکن لها فی القدیم نباهة ذکر، و کان الصیت لحمص دونها، فلما آلت إلی ملک بنی أیوب مصروها بالأبنیة العظیمة و القصور الفائقة، و المساکن الفاخرة، و فی جوامعها أثر من آثار الصنائع فی القرون الوسطی و ما قبلها.

و منها ما قام علی أنقاض الکاتدرائیة القدیمة، و منها ما حرق و خرب و استعیض عنه مکان آخر، مثل طرابلس ففی سنة (۶۸۸) فتحت طرابلس و أخرب سورها و کان من الأسوار العظیمة. و أمر السلطان بتجدید مدینة علی مثل طرابلس فبنیت ثم سکنها الناس. و مثل ذلک یقال فی غزة فقد قال الظاهری:

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۴

إن فیها من الجوامع و المدارس و العمارات الحسنة ما یورث العجب و تسمی دهلیز الملک. و کان سور عسقلان عظیم البناء بحیث

كان عرضه فی مواضع تسع أذرع. و فی مواضع عشر أذرع. و قال ابن فضل اللّه فی بعلبک: إنها مختصرة من دمشق فی کمال محاسنها، و حسن بنائها و ترتیبها، بها المساجد و المدارس و الربط و الخوانق و الزوایا و البیمارستان و الأسواق الحسنة. و قال آخر: و بقلعة بعلبک من عمارة من نزل بها من الملوک الأیوبیة آثار ملوکیة جلیلة. و کان علی منبج سور بالحجارة المهندسة حصینة جدا. و من هذه المدن ما أصبح الآن کالقری مثل المعرة معرة النعمان التی تری إلی الیوم مسافة ما بین أبوابها ساعة علی السائر، و مثل قیساریة التی قال فیها المقدسی:

لیس علی بحر الروم بلد أجل و لا أکثر خیرات منها. مر أحدهم سنة أربعین و ستمائة بقیساریة فوجد علی حائط منها مکتوبا هذه الأبیات:

هذه بلدة قضی اللّه یا صاح علیها کما تری بالخراب

فقف العیس وقفة و ابک من کان بها من شیوخها و الشباب

و اعتبر إن دخلت یوما إلیهافهی کانت منازل الأحباب

و أزهرت طرابلس علی عهد اسندمر الذی بنی القلعة و حماما و سوقا و أنشأ فیها مجاری المیاه الغریبة فی تقسیمها إلی جمیع طبقات الدور لیأمن ساکنوها من الحمی فی الطبقات الأرضیة، و قد عمر فیها سنة (۷۰۹) حماما عظیما أجمع من رأوه أنه ما عمر مثله فی البلدان، و عمر قیساریة و طاحونا و أنشأ لممالیکه بها مساکن حسنة البناء تجری المیاه إلیها بالقنوات، و منها ما یطلع إلی أعلاها و تجری فی طباقها، و عمر بعض القلعة و أقام أبراجا و هذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس- قاله النویری

قال الأسدی فی سنة أربع و عشرین و ثمانمائة عمر ابن بشارة مدینة صور و جعل لها أسواقا و نقل إلیها خلقا و حصنها، قال بعضهم: إنها مدینة السواحل بالشام و قال ابن السمعانی: و کان بها جماعة من العلماء.

القلاع و الحصون و قلعة حلب و دمشق:

فی الشام کثیر من القلاع من بناء القرن الخامس و السادس و الذی بعده

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۵

مثل قلعة صرخد قال ابن تغری بردی فی حوادث سنة (۴۶۶) و فیها بنی حسان ابن مسمار الکلبی قلعة صرخد. و کتب علی بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارک الأمیر الأجل مقدم العرب عز الدین فخر الدولة عدة أمیر المؤمنین یعنی المستنصر صاحب مصر. و ذکر علیها اسمه و نسبه. و مثل قلعة حلب و إن کان تاریخها یردّ إلی أبعد من هذا القرن و المهم من أبنیتها بدأ فی عهد الإسلام.

و قلعة حلب أفخم ما فی الدیار الحلبیة من القلاع بنیت وسط المدینة علی أکمة ربما کانت صناعیة، و یحیط بها خندق عظیم کان القدماء یملأونه ماء لیتعذر الوصول إلیها إلا من مدخلها، و هذا من أحسن ما یتصور العقل، و یقال: إن حلب القدیمة کانت کلها مبنیة فی هذه القلعة، تعاورتها الأیدی بالبناء فی قرون مختلفة و ظلت مسکونة إلی سنة (۱۸۲۲ م) أیام خربت بالزلازل.

یسیر الداخل إلی القلعة علی جسر بدیع أقیم فوق الخندق، فیبلغ برجا خارجا جعل فی واجهته أنواع من نوافذ الحدید البدیع، قیل: إنه من عهد الظاهر غازی، لما وجد فی مدخله من کتابة تاریخها سنة (۶۰۵) مع بعض الآیات الکریمة. و فی دهلیز القلعة المتعرج عدة کتابات و نقوش بارزة علی الحجر منها صورة نمرین علی یمین الباب و یساره من أجمل ما زبرت أیدی النقاشین علی الصخور. فإذا دخل المرء من الباب وجد ساحة و آثار عدة شوارع و رکاما من الأنقاض، بعضها أنقاض جامع و مأذنة، و أخری أنقاض أروقة، و أخری محال لرصد العدو، و فی الوسط صهریج کبیر ینزل إلیه بمئة و خمس و عشرین درجة، و کان بها دیر للنصاری و یقال: إن فی أساسها ثمانیة آلاف عمود. تعاورها الملوک فی الإسلام بالبناء و الترمیم. و منهم الظاهر غازی الذی بنی علی بابها برجین لم یبن مثلهما قط و جعل لها ثلاثة أبواب حدید.

و كان كثير من ملوك حلب يسكنونها. و ذكر الغزى أن فى قلعة حلب آثار عدة مساجد و أنه كان فيها عشرة مساجد. قال الخالدى شاعر سيف الدولة فى وصف هذه القلعة:

و خرقاء قد قامت على من يرومهابمرقبها العالى و جانبها الصعب

يجر عليها الجو صيب غمامهو يلبسها عقدا بأنجمه الشهب

إذا ما سرى برق بدت من خلاله كما لاحت العذراء من خلل الحجب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۶ فكم من جنود قد أماتت بغصةو ذى سطوات قد أبانت على عقب

و مثل هذا يقال فى قلعة دمشق التى سميت (الأسد الرابض) و هى من بناء تاج الدولة تتش سنة (۴۷۱ ه) جعل بهادار إمارة و سكنها، ثم زاد الملوك بعده فيها و سكنها كثير منهم. و كانت دار الإمارة قبله تسمى «القصر» بناها العباسيون بعد أن دكوا الخضراء و قصور الأمويين، فخرب القصر فى بعض فتن الفاطميين. و فى سنة (۶۹۱) كمل بناء الطارمة و ما عندها من الدور و القبة الزرقاء فى قلعة دمشق، فجاءت فى غاية الحسن و الكمال و الارتفاع، و أنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب و فرغ من جميع ذلك فى سبعة أشهر.

طولها من الشرق إلى الغرب ۳۳۰ و عرضها من الشمال إلى الجنوب ۱۷۰ خطوة. و قد خربت فى أدوار كثيرة ثم أعيد بناؤها.

و من القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق. و هى أقدم من الإسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد فى أدوار مختلفة، دع القلاع و الحصون الكثيرة فى الشمال و الجنوب مثل شقيف ارنون و شقيف تيرون و هونين و تبنين و كوكب و عجلون و قاقون و الصبيبة و الصلت و الهارونية و بيت لاها و حصن أبى قبيس و صافيتا و عريمة و لوقا و تل باشر و عكار و حارم و صهيون و بغراس و دربساك و دركوش و اسفونا و بسرفوت و بلاطنس و حصن الأكراد و شيزر و المنيطرة و الشغر و بكاس و ارسوف و بيت جبرين و حبرون و أرتاح و الأثارب و بارين و بارة و إعزاز و صرفند و عدلون و برج الرصاص و حصن الإسكندرونة و التينات و حلبا و عرقا و برزية و خناصرة و قسطون و تل اعدى و حصن الحبيس و القدموس و مصيات و الكهف و العليقة و الخوابى و غيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة أى الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية. هذا إلى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس و قلعة حماة و حمص و عكا و الكرك و الشوبك و صرخد و أذرح و صفد و شميميس. و معظمها تناطح السحاب بعلوها، و تشبه الجبال بمتانتها.

بدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع و الحصون لأن المدينة أو الموقع الحربى إذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين أن يجتاحهما. و من كتاب فاضلى فى وصف حصن بيت الأحزان: «و قد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع و قطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۷

إلى ما فوقها و ما دونها، و عدتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقر الحجر فى مكانه، و لا يستقل فى بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، و فيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم، المرغم بها أنوف الجبال الشم، و قد جعلت سقيته بالكلس، و أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه، و صاحبه بأوثق و أصلب من جرمه، و أوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه».

مثال التخريب فى الحصون و البيع:

و كثيرا ما كان ساسة هذه الديار يخربون الأسوار و الحصون لغرض من الأغراض، كما خرب عبد اللّه بن طاهر سنة (۲۰۹) سور معرة النعمان و معظم الحصون الصغار. مثل حصن الكفر و حصن حناك و حصن كيسوم و غير ذلك.

و كما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الأتابك زنكى إلى أواخر عهد المماليك الحصون التى استولوا عليها أو التى كانوا بنوها لئلا يعود أعداؤهم فيستولوا عليها. و قد ألف جمهور الناس أن ينقضوا البنيان القديم و يعمروا به بناءهم الحديث. و لهذا أمثلة كثيرة فى تاريخ العمران فى هذه الديار.

فقد ذكر العماد الكاتب أن اللاذقية لما استخلصت من أيدى الصليبيين وقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام، و نقلوا منه أحمالا إلى منازلهم بالشام «فشوهوا وجوه الأماكن و محوا سنا المحاسن» و بظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة بأجزاء الأجزاع مرصعة، و بألوان الرخام مجزعة، و أجناس تصاويرها متنوعة، و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، و شوهوا أعلامها.

و لما أرادوا فى أواخر القرن الماضى بناء رصيف على طول نهر دمشق من صدر الباز إلى داخل مدينة دمشق حملوا إليه من ضخام الأحجار التى كانت فى قلعتها. و ربما هدم بمثل هذا العامل ما كان فى أكثر مدن الشام من دور الضيافة التى ابتدعها عمر بن عبد العزيز. و قصر الفقراء الذى بناه نور الدين فى ربوة دمشق. و دار العدل التى بناها نور الدين فى دمشق و هى أول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلامات. و بنى نور الدين جسر كامد اللوز فى سهل البقاع، كما جدد كثيرا من الجسور و الخانات و قنوات السبل

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۸

فى أعمال دمشق و غيرها. و لأهل الخير فى كل عصر أياد بيضاء فى إقامة الخانات و الفنادق بين البلدان و منها خان بناه على بن ذى النون الإسعردى الدمشقى بقرب الكسوة أول مرحلة للحج الشامى. و ما كان فى قمم الجبال من المناور التى كانت توقد فيها النيران للإعلام بحركات العدو فى الليل و ما كان شيد من أبراج حمام الزاجل لنقل الأخبار فى النهار. و من ذلك دمنة القبتين الماثلتين فى قنة جبل قاسيون و كان فيه مرصد فلكى بناه المأمون فدثر فى جملة ما دثر. و اسم القبتين قبة السيار و قبة النصر. و قبة النصر بناها برقوق على سوار قيل: إنه وجد موضعها ذهبا كثيرا مدفونا. و مما اشتهر جسر منبج اتخذ فى زمن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه للصوائف و يقال: بل كان له رسم قديم.

قلاع الصليبيين و كنائسهم:

دخلت الشام فى القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية، و هى هندسة الصليبيين للقلاع و الحصون و الدور و الكنائس، و لا سيما فى طرابلس و بيروت و عكا. و اهتم الصليبيون ببناء القلاع و الكنائس فى الأقاليم التى احتلوها و لا سيما فى طرابلس و صور و أنطاكية و عكا و القدس حتى قال بعض الباحثين:

إذا استثنينا الدور الرومانى فإنه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين. فإن كل مستعمرة تجارية فى الموانى البحرية كانت تحاول أن يكون لها على الأقل كنيسة و خانات و حمامات. ثم القلاع التى غصّ بها القطر و هى أحسن نموذج للهندسة الحربية فى القرون الوسطى. قال فان برشم: إن على طرابلس صبغة المدن الإيطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية، كما أثرت هندسة المدن الإيطالية الكبرى فى جميع الموانى البحرية فى الشام. و كان للطراز الإيطالى التقدم على غيره لأن الطليان أهل البندقية و بيزة و جنوة و طسقانا كانوا أسبق أمم الغرب إلى الاختلاط بسكان الشام للقرب و للعلاقة الدينية بين رومية و نصارى الشرق العربى قبل الحروب الصليبية.

و كان عدد الصليبيين من جمهوريات إيطاليا أكثر من غيرهم من الأمم. قال فان برشم: لما كانت سواحل الشام محط رحال الصليبيين، و نقطة حركاتهم

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۷۹

الحربية، تشبعت أبنيتها بالروح الإيطالى، خصوصا لأن الطليان كانوا إذ ذاك أكثر عددا فى هذه الحملات من العنصر الفرنسى. و من هذه المدن ما دثر مثل طرطوس و صيدا و صور و قيسارية و عسقلان، و منها ما هو باق مثل أنطاكية و بيروت و اللاذقية و عكا. و فى مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتحلى الروح الإيطالى الباقى من القرون الوسطى فى أبنيتها و هندستها.

و لا تزال قلعة الحصن أو حصن الأكراد و الكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هى عليه، و هى آية فى باب الهندسة العسكرية ناطقة بلسان حالها بأن الصليبيين نزلوا الأرض المقدسة. و من هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن و

جامع بيروت و طرطوس الكبير و أرواد و صور و صيدا و دير البلمند قرب طرابلس و كنيسة مار يوحنا فى جبيل و كنيسة مار شربل فى معاد و كنيسة أنفة هذا إلى غير ذلك من البيع فى شمالى لبنان و جوار البترون و قد بنوا نحو خمسين قلعة و حصنا فى الكور التى احتلوها.

قال رنان: الظاهر أن البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هى من عمل الطليان و فرسان الهيكليين، و أن البنايات ذات البرج المدور هى من صنع الفرنسيين و فرسان الاسبتاليين، و كثيرا ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم. و كان القطر غاصبا بها- يعدل ذوق الإفرنج الخاص فى هذا المعنى. قال:

و فى طرطوس قامت أهم هذه الآثار و استدل بما فيها أن منزل الصليبيين فى الشام لم يكن منزل قلعة، بل وطدوا أنفسهم على احتلالها احتلالا دائما، و إن فى طرطوس بيعة هى أجمل مصنع من المصانع التى بنيت على الطراز الغوتى فى هذه الديار.

هندسة البيوت و بيوت دمشق و حلب:

لم يبلغنا أن فى القطر دورا يرد تاريخها إلى ألف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن كما بقيت مثلا بعض دور قنوات فى جبل حوران محفوظة على الصورة التى كانت عليها بنوافذها و أبوابها الحجرية.

و كما ادعى القرمانى أن فى اللجاة من البنيان ما يعجز عن وصفه اللسان، و كل دورها من الصخر المستحدث ليس فى الدار خشبة واحدة بل كلها حجارة

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۰

سوداء منحوتة تنوف على مائتى ألف دار (كذا) كل دار منفردة عن الأخرى لا يلاصقها جدر أخرى، و كل دار فيها حوش و بئر و له باب من حجر إذا أغلق و وضع خلفه حصاة لا- يمكن فتحه أبدا من الخارج. و لكننا على مثل اليقين من أن طرز البناء فى دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين و قبلهم بعصور، و أن هذا الطراز فى بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ فى القرون الأخيرة و منه مثال حى من المدارس و الرّبط و غيرها فى دمشق.

قال أحد المهندسين المعاصرين: إن التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة و دار عربية، فقد كانت الدور تشاد و لا تجعل لها نافذة على الشارع، و يكتفى بطيقان للتهوية، و لها فناء داخلى تحف به غرف و مخادع و فى وسط الفناء أو الصحن فوارة أو حوض ماء. لا جرم أن المسلمين قد أخذوا عن الرومان هذا الطراز فى البناء الذى ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط، و لا نزال نجد فيه مثالا فى الأندلس حيث يسمى الفناء الداخلى باسم «باتنو» أو الفناء المبلط.

و كانت دمشق تعتمد فى أبنيتها على الحجر غالبا. و زاد الاعتماد على الخشب و الطين فى الأدوار الأخيرة. قال المقدسى: إن منازل دمشق ضيقة و أزقتها غامة، و أكثر أسواقها مغطاة، و لهم سوق على طول البلد مكشوف، لا ترى أحسن من حماماتها، و لا أعجب من فواراتها. هذا فى القرن الرابع للهجرة. و قال ابن جبير فى القرن السادس: إن أكثر أبنيتها بالقصب و الطين.

و قال ابن فضل اللّه فى الثامن: إن غالب بناء دمشق بالحجر و دورها أصغر مقادير من دور مصر، لكنها أكثر زخرفة منها، و إن كان الرخام بها أقلّ، و إنما هو أحسن أنواعا. قال: و عناية أهل دمشق بالمبانى كثيرة و لهم فى بساتينهم منها ما تفوق به و تحسن بأوضاعه، و إن كانت حلب أجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدمشق أزين و أكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها، و تسليطه على جميع نواحيها، و يستعمل فى عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل، إلا أنه لا يغشى بالبياض و يكتفى بحسن ظاهره، و أشرف دورها ما قرب، و أجل حاضرتها ما هو فى جانبها اه.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۱

قلنا: و هذا ينافى ما كان يراه العرب فى تخير أماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلحوا على أن الأطراف منازل الأشراف قال البحترى:

عجب الناس لاعتزالى و فى الأطراف تلفى منازل الأشراف

نماذج من آثار الشراكسة و العثمانيين:

و لذلك كنت ترى فى سفح جبل الصالحية و الربوة و الشرف الأعلى الشمالى و الشرف الأدنى الجنوبى من ظاهر دمشق قصورا أنيقة ينزلها القضاة و الحكام و كبار أرباب الأملاك و الأشراف، و لكنها دثرت بالفتن المتواترة و لم تقو على عوادى الأيام حتى نحكم على ما عمله الدمشقيون و أسلوبهم فى هندسة مصانعهم على العهد الإسلامى الأوسط. و قد خربت هذه كلها فى عهد العثمانيين و يقول كاتب جلبى: إنه كان فى المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة فى الآفاق لا يتأتى إيفاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة و آثارهم فإنها لم تزل باقية إلى هذا العهد (القرن الحادى عشر) و روى الظاهرى أن دمشق تشتمل على سور محكم و قلعة محكمة و بها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه و قال أيضا:

إن ما فى الميدان الأخضر فى دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب و هذا فى القرن العاشر.

و قد أنشأ العثمانيون بعض خانات فى طريق الشام إلى الروم و فى طريق الشام إلى الحجاز و بعض قلاع أو أبراج و منها برج قلعة طرابلس فقد كتب على أحد جدرها بعد البسملة «رسم الشريف العالى السلطانى الملكى المظفرى سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت أوامره الشريفة مطاعة فى الأمراء بأن يجدد هذا البرج المبارك ليكون حصنا منيعا على الدوام و كان الفراغ من عمارته فى شهر شعبان المبارك سنة (۹۲۷)» و فى سنة (۹۶۷) أمر السلطان سليمان بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامى و تعيين صنجق لكل قلعة واحدة بالقطرانة و ثانية بمعان إلى ما وراء ذلك من أرض الشام، فعمرت و دام الانتفاع بها زمنا طويلا.

و من آثار العثمانيين فى دمشق التكيتان السليمانية و السليمية و الجامعان

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۲

السنانية و الدرويشية. بنوها على الأسلوب التركى البيزنطى و لهم مثل ذلك فى حلب و منها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية و المدرسة العثمانية.

قال سوبرنهيم الأثرى: إن عددا عظيما من مصانع حلب يرد إلى زمن المماليك و العثمانيين و ما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الأطروش و ألطون بغا و الطواشى و مناراتها المختلفة الهندسة- و بفضلها تذكّر حلب بصورة القاهرة فى هذا المعنى- فإن حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذى بناه ارغون سنة (۷۵۵) و بكثير من المخازن و الخانات و الحمامات و الدور و السلسبيلات. و فى هذا المستشفى أفاريز و نقوش من أجمل ما نقش النقاشون، تزينه فتجعله بهجة للناظرين. و مدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة و منها العسكرى و الدينى و المدنى و كلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد أن يتصور أصول الهندسة لا فى حلب فقط بل فى شمالى الشام اه. و من أجمل آثار الهندسة فى حلب محراب مدرسة الفردوس التى بنتها ضيفة خاتون التى ملكت حلب ست سنين. و لو كتب البقاء للقصر الذى بناه بقرية بطياس من عمالة حلب صالح بن على العباسى و قصر الدارين الذى بناه عبد الملك بن صالح خارج باب أنطاكية و قصر مرتضى الدولة أحد موالى بنى حمدان و قصر سيف الدولة ابن حمدان الذى بناه بالحلمة من ضواحى حلب و تناهى فى حسنه و عمل له أسوارا، و قد أحرقه الروم فى إحدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك، أو قصر آخر من قصور الحمدانيين- لو كتبت الأقدار ذلك لساغ لنا أن نحكم حكما صحيحا على هندسة دور الشهباء فى القديم. و الغالب أن هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال فى دمشق عن الطراز القديم.

هندسة الجسور:

و فى سنة (۶۹۲) كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذى شرع ببنائه سيف الدين أرقطاى، و كان بناؤه بعد خراب الجسر الذى أقامه

انطونيوس الحليم الـذى تملك على رومية بعد المسيح بمائة و أربعين سـنة. و هو الذى قطع الصـخور و بنى البرج و مشـى فى الطريق الذى على شاطئ البحر الموصل إلى مدينة بيروت، كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلى قبليه

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۳

على هـذه الصورة: الأمير ادوار قيصـر مارقوس اورليوس أنطونيوس الحليم السـعيد اغسـطس كبير الجرمانيين الحبر الأعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا و نهج الطريق مهلا و لقبه بالطريق الأنطونيانى. و لقب هذا النهر بالكلب لكونه بعد ما أصلحه أنطونيوس الملك نصب به قائمة (نصبا) من حجر كبير على صورة الكلب و قيده بسلسلة حديد فى الصخر و جعلوا قدامه نقيرا لأجل الطعام.

لما أراد نائب الشام فى أواخر النصف الأول من القرن الثامن عمارة جسـر الـدامور الجارى بين صـيدا و بيروت، نـدبوا لذلك مهندسـا خبيرا بالأعمال الساحلية يقال له أبو بكر بن البصيص البعلبكى و هو الذى عمر جسر نهر الكلب و له غير ذلك من الأعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة. و عمر الأمير بشـير الشهابى بإيعاز من والى صيدا جسرا على نهر الدامور أيضا فجمع أهل الصناعة إليه فكانوا أكثر من مائة و خمسـين رجلا فأتمه فى شـهرين و غرّم عليه نحو مائة ألف درهم. و كذلك جسـر الظاهر برقوق الذى بناه على نهر الأردن (الشريعة) و طوله مئة و عشرون ذراعا و عرضه عشرون. و قالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية:

بنى سلطاننا برقوق جسراًبأمر و الأنام له مطيعه

مجاز فى الحقيقة للبرايا و أمر بالمرور على الشريعه

و عمر قاضى دمشق سنة (۹۳۲) سوقا تجاه باب جيرون بدمشق فبنى أقواسا بجملون فيها قباب مبنية بالآجر، إذ رآه أحكم فى البناء لأنه لا يحتاج إلى طين و يؤمن من حرقه. وجدد سور قلعة حلب السـلطان سـليمان فى شـهر المحرم سـنة ثمان و عشرين و تسعمائة و كتب ذلك بالعربية.

القاعات و القصور المعتبرة:

من القاعـات فى دمشق و حلب مـا يرجع تـاريخه إلى القرن التـاسع و العاشـر و الحـادى عشـر و الثانى عشـر و منها نعرف كيف كانت هندسة القوم فى تلك العصور. فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون و باب السلسلة أنشأها الأمير محمد بن منجك الذى عمر العمارات الفائقة بدمشق فإنه تأنق فى عمارتها

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۴

بالقاشانى و الرخام و عمر القصـر المعروف به فى الوادى الأخضر (۱۰۱۱) و ذكر الخيارى أنه كان فى القرن الحادى عشـر فى المرجة بـدمشق قصـر مقابل القصـر المنجكى قصـر الباشا محمـد بن الناشف و غير ذلك من العمارات و القصور الفائقـة. و كان فى الصالحية محل يقال له القصـر عمّره أبو البقاء الصفورى المتوفى سنة (۱۰۳۵) و كـان يقال له صاحب القصـر و كان من أحسن المتنزهات و فيه يقول الأمير المنجكى من قصيدة:

أقسمت بالبيت العتيق و ما حوت‌بطحاؤه من حجره و حجوبه

ما ضمت الدنيا كقصرك منزلاكلا و لا سمحت بمثل قطينه

و منها عمارات ابن الفريخ أمير البقاع (۱۰۰۲) و كانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلى دار السـعادة قال المحبى: لم يرسم مثلها، جعل بابها بالرخام الأبيض و الحجر الأحمر المعدنى، و نقل لها الرخام من الساحل و الحجارة من البقاع و استعمل فيها العملة بالسخرة. و فى سنة ۱۰۳۴ بنى الأمير منذر التنوخى سرايا عظيمة فى قرية عبيه فى لبنان و بقى أربعين سنة لم يكملها لزيادة اتساعها و كان البناؤون من اسلامبول و لعلها هى المعروفة بدار الأمير سيف الدين و لا تزال موجودة و قد كتب على باب دارها:

قسما بمن ضمت أباطح مكةو منى و زمزم و الكتاب المنزل

ما شدتها طمع الخلود و إنماهى جنة الدنيا لأهل المنزل

و أمر الوزير أحمد باشا الكوبرلى الذى ولى دمشق سنة (۱۰۷۱) بعمارة قاعة معظمة داخل دار الإمارة بدمشق فبنيت كما قال المحبى على أسلوب عجيب و وضع غريب. و قال المؤرخون: إن الأمير بشير الشهابى كان كالأمير فخر الدين المعنى يحب البذخ و الرفاهية و تنظيم إصطبلاته و بيطرته حتى أصبح مضرب الأمثال فى ذلك، و عمر فى بيت الدين قصرا ملوكيا و جلب إليه الماء فى ساقية طولها ثلاثة فراسخ. قال بعض المؤرخين: جر الأمير بشير بواسطة رجل دمشقى قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا إلى منزله فى بيت الدين من بعد ثلاث ساعات و غرّم على ذلك زهاء مائتى ألف درهم و كانت جميع أهل الأقاليم تحضر فى كل سنة يومين تعمل فى هذه القناة بغير أجرة اكراما له. و مدة العمل اثنان و عشرون شهرا.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۵

و المهندسون فى سراى بيت الدين إيطاليون و البناؤون دمشقيون و حلبيون و أتراك من الاستانة، و هى على الطرز التركى الممتزج بالطراز الإيطالى، أنشأها الأمير بشير عمر الكبير (۱۸۱۰) و انتهت سنة (۱۸۱۵) و على جوانب هذا القصر أربعة جواسق بديعة و له مدخل فخم يبلغ علوه نحو ۱۵ مترا كله بنى بضروب الرخام الوطنى الغالى الثمن و الأجنبى الفاخر، مزين بنقوش ملونة، و تمثل أشكالا هندسية و نباتات و تصاوير شتى، و لهذا المدخل أفاريز لطيفة الصنع تطيف به على شكل الأقواس، و فوقه شرف بتقاطيع جميلة، و للمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين، و فى داخل القصر ديوان كبير واسع يعرف بقاعة العمود، لعمود من الرخام المجزع فى وسطه، كان مفروشا بالفسيفساء و الرخام و هو ملك الحكومة منذ سنة (۱۸۶۰) م و لم يبرح عامرا تتعهده بالإصلاح. و من الأبنية التى اشتهرت قاعة حسين بن قرنق فى صالحية دمشق عمرت سنة (۱۰۷۷) و كان يضرب بها المثل و هى على الأرجح فى رأس العقبة مكان دار بنى الشريف دثرت فى القرن الماضى. و كان ابن قرنق صدر دمشق و عمر الأماكن البهية من جملتها قصره و قاعته.

و من الدور القديمة فى حلب و هو مما بنى فى القرن العاشر دار جان بلاط ابن عربو و هى ملك آل إبراهيم باشا ذكر فى أعلام النبلاء أن صدر إيوانها مبلط بالقاشانى على اختلاف أنواعه و ألوانه على أشكال هندسية و أوضاع بديعة أحكمت فيه الصنعة أيما إحكام قال: إن رؤيتها تذكرك إيوان كسرى و عظمته. و ذكر المحبى أن الوزير حسين باشا صارى أحد ولاة دمشق المتوفى (۱۰۹۴) عمر القصر المعروف به فى طرف الشرف بالميدان الأخضر من دمشق و كان مكانه يعرف بالخاتونية و تأنق فى وضعه و غرس فيه أنواع الأشجار من كل صنف و عزّ عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة فجلبه من أماكن بعيدة.

و من محاسن دمشق الداران اللتان عمرهما فى القنوات الأمير منصور الشهابى أمير وادى التيم و ابن عمه الأمير على و ذلك على أسلوب متقن محكم و زخرفاهما بأنواع الزخارف و النقوش و جلبا إليهما الرخام من إقليمهما. قال المحبى:

و لعمرى إنهما أبدعا و نوعا و أجادا فى صنعهما.

و ذكر المؤرخون أن الأمير فخر الدين المعنى جلب مهندسين من الغرب

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۶

و لعلهم من إيطاليا ليضعوا له خطط قصوره فى بيروت و صيدا و ذكروا أيضا أنه بنى عدة بنايات و قلاعا و حصونا كثيرة، و لما حدث اختلاف بينه و بين بيت سيفا و أتى بنو سيفا أصحاب طرابلس فأحرقوا و نهبوا الشوف قيل إنه اقسم هكذا: و حق زمزم و النبى المختار لأعمرك يا دير بحجر عكار. و هكذا لما فاز على بنى سيفا و حاصر قلعة الحصن و أخذها و هدمها، جعل الجمال بالألوف تحمل الحجارة من قلعة عكار إلى دير القمر، و بنى جميع الدور القديمة فى دير القمر، و وزع فى جدرانها من حجارة عكار، و هى الحجارة الصفراء الموجودة فى الخراج، و فى جميع بنايات بيت معن القديمة و هى باقية إلى الآن.

قصور القرن الثانى عشر و الثالث عشر:

و من أمثلة البناء الجميل دار أسعد باشا العظم فى جوار جامع بنى أمية بدمشق شرع بإنشائها (۱۱۶۳) و انتهت (۱۱۷۴) قيل: إن ما أنفق عليها أربعمائة كيس، كل كيس بخمسمائة قرش. و هذا أجور العملة، و أما الخشب و البلاط و التراب و غيره فكله من أملاكه و بساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس. و كان عدد العملة ثمانمائة. قال ابن بدير: إن بانيها جد فى العمارة ليلا و نهارا و أحضر لها ۱۲ ألف عمود خشب، عدا ما أهداه إياه أعيان البلد. و أو عز إلى الأطراف أن لا يباع القصر مل إلا إليه، و شغل غالب بنائى البلدة و نجاريها و نقاشيها، و جلب البلاط من أكثر دور المدينة، و حيثما وجد بلاطا و رخاما و أعمدة و فساقى يبعث بمن يقتلعها و يعطى القليل فى ثمنها.

و كان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال له قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء انهدم فأخذ أنقاضه، و أخذ انقاض طاحون كانت على نهر بانياس فى وادى كيوان و نقل من بصرى أحجارا و عمدا من الرخام، و أخذ من مدرسة الملك الناصر فى الصالحية عمدا غلاظا و هدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة، و كان كله عقدا بالأحجار ففكه و أخذ أحجاره، كما نقل أحجارا من جامع يلبغا. و أينما سمع ببلاط لطيف أو عمد حسنة يأتى بها شراء و بلا شراء و يشغل العملة بكراء و بلا كراء. قيل: إن داخل هذه

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۷

الدار أماكن عديدة لا تشبه الواحدة الأخرى، و جميعها عمل بماء الفضة و الذهب و اللازورد و البلاط و الرخام العظيم. و نقل بعض السائحين أن ليس مثلها فى ملك بنى عثمان حتى و لا سراى الملك المعظم. و هذه الدار بما حوت من الفناء و القاعات و الردهات و الأبهاء و الفساقى و الفوّارات و الحمام من ألطف ما هندس المهندسون فى ذاك القرن و كذلك يقال فى قصره فى حماة و هو على مثال داره فى دمشق على صورة مصغرة. و النقوش و أنواع الزينة فيها فارسية.

فاستدل من ذلك أن النقاشين كانوا فرسا أو تأثروا بالأسلوب الفارسى. و من أجمل ما فيه صورة حماة فى القرن الثانى عشر تبين منها أنها كانت عامرة أكثر من اليوم على ما يظهر. و دار أسعد باشا العظم فى دمشق اشترتها فرنسا و رمتها و جعلتها معهدا للدراسات الإسلامية (حزيران ۱۹۲۲) و قد حرقت قاعتها فى ثورة سنة (۱۳۴۴ ه). و دار أسعد باشا فى حماة اشترتها جمعية و جعلتها مدرسة و هى عامرة أيضا. و من أجمل الآثار فى دمشق أيضا خان أسعد باشا العظم و واجهته و رتاجه «بوابته» و قد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس إلى الرأس و عرّضه. و من أعظم بيوت حلب القديمة سراى الجلبى كانت كل غرفة منها تضاهى دارا عظيمة استخرج منها مؤخرا خان وعدة دور. و من أعظم خانات حلب خان الكمرك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع فى مثلها.

و من أجمل آثار ذاك القرن جامع الجزار فى عكا و داره فى البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية فى ذاك القرن. و من البيوت الجميلة قصور بنى جنبلاط فى المختارة فى لبنان و فى الهلالية قرب صيدا و قصر بنى شهاب فى حاصبيا و سرايهم فى راشيا. فإن هذه القصور مثال من تفنن أعيان ذاك الزمان فى تنجيد بيوتهم و حسن هندستها. و كانوا يبنون كما قيل بناء الجبابرة و ينقشون نقش الصياغ.

و إنا إذا تأملنا الأبنية التى قامت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر للهجرة فى مدن الشام نراها طرزا طليانيا فى الأكثر قد لا ينطبق مع روح القطر و مصطلحه فى إشادة البيوت منذ القرون الأولى. و قد انتشر هذا الطراز فى مدينة بيروت و لبنان أولا ثم امتد إلى طرابلس و يافا و حيفا و القدس و دمشق

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۸

و حلب و حمص و غيرها من المدن. و ما دور بنى سرسق فى بيروت و صوفر و دور بنى بسترس و التوينى و غيرها فى بيروت و الدور المعلقة فى مدينة طرابلس و دور الجميلية و العزيزية فى حلب و مصايف لبنان فى عالية و صوفر و بحمدون و بكفيا و شوير و غيرها و بعض الدور المحدثة فى دمشق إلا مثال منها. و من أهم أبنية الشام المحدثة دير الكازانوفا فى الناصرة، و دير الألمان و دير الروس فى

القدس، و مدرسة اليسوعيين و الجامعة الأميركية و قصر الصنوبر فى بيروت.

و محطة السكة الحجازية فى دمشق، و محطة سكة بغداد فى حلب، و غير ذلك من القصور الخاصة و الفنادق و المدارس و الملاجئ و المياتم و المستشفيات فى القدس و طبرية و بيروت و لبنان و غيرها. و من أهم دور القرن الماضى فى دمشق دار القوتلى و شامية و عنبر و شمعايا و استانبولى و الحلبونى. و من الدور الحديثة قصر الإمارة الجديد فى عمان سموه قصر رغدان. و يسرع البلى إلى ما كان بناؤه منها من الخشب و الطين أو بعضها منهما على الأغلب.

و أكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين و الزخرف فى داخلها قال البحترى:

و تأملت أن تظل ركابى‌بين لبنان طلّعا و السنير

مشرفات على دمشق و قد أعرض منها بياض تلك القصور

و مع أن المقالع قريبة من دمشق و فيها ضروب الحجر الجميل من أبيض و مائل إلى الصفرة أو الحمرة، فإن القوم يستسهلون أو يسترخصون البناء بالخشب و اللبن أو الحجر الأسود البركانى فيبنون به كما يبنى أهل حمص بل أهل كل بلد كانت الحرار السوداء قريبة منهم. و أجمل الحجر الحجر الرملى فى بيروت و حجر حلب. و لم يزل بناء بيت المقدس- كما قال القاضى الفاضل- من الرخام الذى يطرد ماؤه، و لا ينطرد لألاؤه، قد لطف الحديد فى تجزيعه، و تفنن فى توسيعه، إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد، كالذهب الذى فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، كالأشجار لها من النبت أوراق. و إن بعض القاعات إذا كتب لها البقاء فلأنها بنيت بالحجر الصلب و تعاورتها أيدى العقلاء فرمتها يوم احتاجت إلى الترميم بطارئ طرأ عليها.

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۸۹

أسباب الخراب و العلة فى قلة قصور الأفراد:

قلّت فى الشام قصور الأفراد من التجار و الصناع و الزراع كما تشاهد فى الغرب مثلا، لأن السكان كانوا يفنون فى كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة و الغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد من جملتهم و كان سائر الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة فى الثروة، و الثروة تتجلى فى الدار و الفرش و الدابة و اللباس، فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال و فسدت الأذواق فى البناء و حسن الذوق تبع للحضارة فى الأمة، فاذا تأخرت حضارتها كان الذوق من أول ما يفسد فيها. و لذا كان الناس يخربون العامر و يبنون بأنقاضه. و كم أدركنا و أدرك آباؤنا و أجدادنا من أثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته. و كم من كتابة تاريخية عفى أثرها جهلا و غباوة.

اجتاز القاضى أبو يعلى المعرى ببلدة شياث ظاهر معرة النعمان و الناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعا آخر فقال:

مررت برسم فى شياث فراعنى‌به زجل الأحجار تحت المعاول

تناولها عبل الذراع كأنمارمى الدهر فيما بينهم حرب وائل

أتتلفها شلّت يمينك خلّهالمعتبر أو زائر أو مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهمو لم أر أحلى من حديث المنازل

و العلة العظمى فى نزول الدمار ببيوت الأفراد أنها أسرع عرضة للتبدل أكثر من المصانع العامة بالخراب و الانتقال من يد إلى يد بالإرث و التقسيم و يتحيفها ما يتحيف المصانع من زلزال و تخريب بأيدى الفاتحين و الغزاة.

قال بنيامين فى رحلته: و قد أصاب حماة هزة أرضية منذ عهد قريب (۵۵۲ ه) اهلكت خمسة عشر ألفا من سكانها فى يوم واحد فلم يبق منها إلا سبعون نفسا. و قال أبو الفداء فى هول هذا الزلزال: و يكفى أن معلم كتاب كان بمدينة حماة فارق المكتب و جاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يحضر أحد يسأل عن صبى كان له هناك.

و زلزلت الأرض سنة (۵۹۷) فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم و مات تحت الردم ثلاثون ألفا و هدمت عكا و صور و جميع قلاع الساحل

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۰

و امتدت إلى دمشق فهدمت أكثر الكلاسة و البيمارستان النورى و تهدمت بانياس و هونين و تبنين. و خرج قوم من بعلبك يجنون الريباس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم و تهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها و وثيق عمارتها و امتدت إلى حمص و حماة و حلب و النواحى و أحصى من هلك فى هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف إنسان و مئة ألف إنسان قاله فى ذيل الروضتين، و لم يكن زلزال سنة (۵۶۵) أقل من هذا فقد أخربت دمشق و بعلبك و حمص و حماة و شيزر و بعرين و حلب و تهدمت أسوارها و قلاعها و سقطت الدور على أهلها و هلك منهم ما يخرج عن الحد و أتى الخراب على حلب فأتى على سورها و جوامعها.

الاحتفاظ بالعاديات و المصانع:

و بعد فقد علمنا بما مرّ بنا أن الشام وافر المصانع أبقت فيه كل أمة و كل جيل أثرا من غناها و عظمتها، و أن الخراب يتحيف أكثر هذه العاديات لأن حب الاحتفاظ بالقديم قد ضعف فينا. و نرى الشام لا يحتفظ بآثاره و ينميها إلا يوم تنشأ فيه إدارة للعاديات يكون سلطانها نافذا على الكبير و الصغير كما فعلت مصر منذ أمد، فاحتفظت بالبقية الباقية من أعمال الغابرين، و خدمت أحباب الآثار و غلاة الهندسة من المحدثين. و لا يبحث عن العاديات إلا إذا توفر للباحثين العلم بالآثار على أحدث الطرق العلمية، حتى إذا استخرج شيء منها يضنّ به فلا يصدره إلى القاصية بل يحفظ فى دور الآثار تراث الأجداد. و أهم من هذا و ذاك أن يتربى فى الأمة الذوق فى الجمال، و ينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الأطفال، و يعرف كل وطنى معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الأجداد، المنبعثة من أرجائها ريح فضائلهم، المشبعة بأنوار نبوغهم، الصادرة من فيض قرائحهم و عبقريتهم، و عندئذ يصبح الشام كله متحفا نفيسا دونه أجمل المتاحف، و أفخم بيت يجمع المفاخر و المآثر.

انتهى الجزء الخامس من خطط الشام و يليه الجزء السادس و أوله التاريخ المدنى- البيع و الكنائس و الديرة

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۱

فهرست الجزء الخامس من خطط الشام

التاريخ المدنى ۳- ۳۱

الجيش ۳

جيوش الأشوريين و الفراعنة و العبرانيين ۳

جيوش اليونان و الرومان ۴

الجيش العربى مع الرومى ۵

بعض قوانين الجيش العربى ۷

تعبئة الجيش العربى ۱۱

شدة الأمويين و مثال من أوامرهم ۱۲

أدوات التدمير و السلاح و المواصلات ۱۷

الجيش على عهد ملوك الطوائف ۲۰

الجيوش الصليبية و التترية ۲۲ خطط الشام ؛ ج۵ ؛ ص۲۹۱

جيوش فى القرون الوسطى و جمعيات الفتوة ۲۲

الجيوش العثمانية ۲۵

الجيوش الحديثة ۲۹

الأسطول ۳۲- ۴۶

بحرية الفينيقيين و العبرانيين و الفراعنة ۳۲

بحرية الرومان و اليونان ۳۳

العرب و البحار ۳۴

أول خليفة غزا البحر الشامى و البحرية الأموية ۳۵

وصف أسطول شامى ۳۸

سواحل الشام و نفقات الأسطول و المناور و الرباطات و الفداء ۴۰

الأساطيل فى القرون الوسطى ۴۲

قصورنا فى البر و البحر ۴۶

الجباية و الخراج ۴۷- ۸۸

جبايات القدماء ۴۷

الجباية فى الإسلام ۴۸

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۲

ضروب الجباية ۴۹

أول ما فرض من الجباية ۵۱

عهد الأمويين ۵۴

عهد العباسيين و مساحة الشام ۵۸

تحرى العدل فى الدولتين النورية و الصلاحية ۶۳

الضرائب زمن الأتراك و الشراكسة ۶۴

غنى الشام و المكوس (سقط هذا العنوان سهوا و موضعه بعد السطر ۱۷) ۶۷

تفنن الشراكسة فى اقتضاء الأموال ۷۰

الأموال أوائل العهد العثمانى ۷۱

الخراج و العثمانيون (طبعت خطأ و العثمانيين) ۷۱

تفنن الجزار فى أخذ المال و طريقة العثمانيين ۷۴

الجباية على عهد المصريين و المقابلة بين طريقتهم و طريقة العثمانيين ۷۵

رأى إنكليزى فى إعنات البلاد بالضرائب ۷۶

رأى مدحت باشا فى مظالمهم ۷۷

الاشتطاط فى الأعشار و القسط فى الجباية ۷۸

خراج الأرض و العقارات ۷۹

رسم المواشی ۸۱

الأعشار ۸۱

رسوم الجمرک ۸۲

الجمارک الشامیة و وجوه نفقاتها و توزیعها ۸۴

ضریبة التمتع ۸۵

الضریبة النسبیة ۸۷

الضریبة المقطوعة ۸۷

الضریبة المتحولة ۸۸

الرأی فی الجبایة و النفقات ۸۸

الأوقاف ۸۹- ۱۲۲

منشأ الوقف ۸۹

تعریف الأوقاف و طرقها ۹۰

أول أوقاف الشام و سوء استعمالها ۹۱

شرط الواقف و خراب أوقاف الشام ۹۲

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۳

التفنن فی الأحباس و التلاعب بالموقوف ۹۴

أوقاف نور الدین و صلاح الدین و من تقدمهما و خلفهما ۹۸

تکاثر الأوقاف و مضار الجمود ۱۰۰

تأثیر الوقف فی العمران ۱۰۱

الأوقاف عند قدماء العثمانیین ۱۰۱

الوقف من مال غیر محلل ۱۰۲

مضار الأوقاف ۱۰۴

منافع الأوقاف ۱۰۴

تقسیم الأوقاف و إصلاحها ۱۰۵

ضروب الحیل و انتهاک حرمة الأوقاف ۱۰۸

مصائب الأوقاف ۱۱۱

أوقاف الذریة ۱۱۲

الأوقاف فی العهد العثمانی الأخیر ۱۱۳

الأوقاف بعد العهد الترکی ۱۱۷

وسائل إصلاح الأوقاف ۱۱۸

الحسبة و البلدیات ۱۲۳- ۱۳۹

العرب دعاة مدنیة ۱۲۳

تعریف الحسبة ۱۲۴

الحسبة تجمع الشرطة و الصحة و البلدية و عملها ۱۲۵

الحسبة قانون مدنى ۱۲۶

عمل المحتسب بحسب البلد ۱۲۸

ثلاثة آراء فى الحسبة ۱۲۹

الحاجة و الحسبة أمس و اليوم ۱۳۱

تأسيس البلديات ۱۳۱

النظام الجديد ۱۳۴

تأثير البلديات فى العمران ۱۳۷

رأى فى إصلاح البلدة ۱۳۸

الترع و المرافئ و الطرق ۱۴۰- ۲۱۶

ترعة السويس ۱۴۰

الترعة العظيمة عن طريق فلسطين ۱۴۷

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۴

الترعة بين البحر الأبيض و الخليج الفارسى ۱۴۸

مرفأ غزة ۱۴۸

مرفأ يافا ۱۴۹

مرفأ حيفا ۱۵۰

مرفأ عكا ۱۵۲

مرفأ صور ۱۵۲

مرفأ صيدا ۱۵۳

مرفأ بيروت ۱۵۴

فرضتا جونيه و جبيل ۱۵۷

مرفأ طرابلس ۱۵۷

مرفأ اللاذقية ۱۵۸

مرفأ الإسكندرونة ۱۵۸

الخطوط الحديدية ۱۶۰

خط بيروت- دمشق ۱۶۰

خط بيروت- المعاملتين ۱۶۴

خط دمشق- حوران ۱۶۴

خط دمشق- حلب ۱۶۵

خط حمص- طرابلس ۱۶۷

طريق الحج و إنشاء الخط الحجازى ۱۶۸

إنشاء الخط الحجازى ۱۷۰

الخط الحجازی فی عهد العثمانیین و بعدهم ۱۸۰

تقسیم الخط الحدیدی الحجازی ۱۸۱

الخط الحجازی فی شرقی الأردن و الحکومة الهاشمیة ۱۸۲

الخط الحجازی فی المؤتمرات ۱۸۳

نفقات الخط الحجازی و إصلاحه ۱۸۴

الخطوط الفلسطینیة: خط یافا- القدس ۱۸۵

خط حیفا- دمشق ۱۸۶

الخطوط العسکریة الفلسطینیة ۱۸۸

خط بغداد ۱۹۱

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۵

الخطوط الحدیدیة بین الشام و مصر ۱۹۶

الکهرباء و خطوط الترام فی دمشق ۱۹۷

تراموای حلب الکهربائی ۲۰۲

خط الترام فی طرابلس ۲۰۴

الطرق العامة فی الشام ۲۰۴

طرق الشام ۲۰۶

الطرق العامة ۲۰۷

وصف الطرق ۲۰۸

السیارات ۲۱۶

البرید و البرق و الهاتف ۲۱۷- ۲۲۲

منشأ البرق «التلغراف» ۲۱۷

الآلات و الأدوات و المخابرة ۲۱۸

إحداث الهاتف ۲۱۹

منشأ البرید ۲۱۹

مراکز البرید و البرق فی الشام ۲۲۱

المصانع و القصور ۲۲۳- ۲۹۰

تقاسیم المصانع و عظمتها ۲۲۳

مصانع الأمم القدیمة ۲۲۳

هندسة الفینیقیین و آثارهم ۲۲۵

عادیات الرومان ۲۲۶

عادیات البتراء و جرش و عمان ۲۲۷

وصف المحدثین خرائب جرش ۲۳۰

عادیات تدمر ۲۳۲

وصف عاديات تدمر ۲۳۳

عاديات بعلبک أمس و اليوم ۲۳۶

أنطاكية و حمص و أفامية و البارة و دمشق ۲۳۹

حوران و لبنان و غيرهما ۲۴۱

الهندسة الشامية و الكنائس و الهياكل ۲۴۳

آثار العرب قبل الإسلام ۲۴۴

خطط الشام، ج۵، ص: ۲۹۶

قصور العرب فی الإسلام ۲۴۶

عناية الأمويين و تفننهم ۲۴۸

الجامع الأموی و المسجد الأقصی ۲۴۸

تاريخ الحرم القدسی ۲۵۰

المسجد الأقصی اليوم ۲۵۲

صفة المسجد الأقصی ۲۵۴

وصف المقدسی للمسجد الأقصی فی القرن الرابع ۲۵۶

أصل الجامع الأموی ۲۵۷

قصور الأمويين و مصايفهم و مشاتيهم ۲۶۳

عمل العباسيين ۲۶۶

آثار عربية محلية ميناء عكا ۲۶۷

القصر الأبلق ۲۶۹

المعاهد الدينية و المدنية فی العهدين النوری و الصلاحی ۲۷۰

عمران دمشق فی القرون الوسطی ۲۷۱

دور الخاصة ۲۷۲

تجديد المدن الصغيرة ۲۷۳

القلاع و الحصون و قلعة حلب و دمشق ۲۷۴

مثال التخريب فی الحصون و البيع ۲۷۷

قلاع الصليبيين و كنائسهم ۲۷۸

هندسة البيوت و بيوت دمشق و حلب ۲۷۹

نماذج من آثار الشراكسة و العثمانيين ۲۸۱

هندسة الجسور ۲۸۲

القاعات و القصور المعتبرة ۲۸۳

قصور القرن الثانی عشر و الثالث عشر ۲۸۶

أسباب الخراب و العلة فی قلة قصور الأفراد ۲۸۹

الاحتفاظ بالعاديات و المصانع ۲۹۰

فهرست الجزء الخامس من خطط الشام ۲۹۱- ۲۹۶

تم طبع هذا الجزء على مطابع دار القلم بيروت ص. ب ۶۶۶۴

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹